منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٥١

لبنان في الحرب العالمية الأولى

«الجزء الثاني»

جمعه ونسّقه

د. أنطوان القسيس



التوزيع:

دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، الادارة المركزية، المتحف

الفروع الجامعية في المناطق

بيروت ٢٠١١

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الحركة العربية ودول الاستعمار ومصير المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى: شكيب أرسلان نموذجاً

الدكتور عبد الرؤوف سنو

برزت في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تيارات فكرية عديدة اندرجت في طروحاتها ما بين الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية والوطنية الإقليمية والعلمانية والقومية العربية. وبُعيد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وجد الإسلاميون وأنصار الجامعة الإسلامية وعدد من الوطنيين أنفسهم في معسكر ألمانيا حليفة الدولة العثمانية. وهذا يعود في الأساس إلى سياسة ألمانيا الإسلامية وتوددها إلى الدولة العثمانية وعدم توسل سياسة استعمارية مباشرة تجاه ممتلكات الدولة العثمانية، وفوق كل ذلك الاعتقاد أن ألمانيا يمكنها أن تنقذ السلطنة العثمانية من مخططات دول «الوفاق الودي»، بريطانيا وفرنسا وروسيا. وقد أملت «الحركة العربية» في أن تلعب هذه الدولة دوراً بعد الحرب من أجل إبراز الشخصية العربية الوطنية أو القومية، مع الحفاظ في الوقت نفسه على الروابط بالدولة العثمانية كمظلة استراتيجية تحمي البلاد العربية. وقد جمع كل هذه القوى عداؤها لبريطانيا وفرنسا وروسيا وسياساتها ضد المسلمين. وفي المقابل، انحاز قوميون عرب وقوميون لبنانيون إلى الشريف حسين وحليفته بريطانيا، على أمل أن تحقق هذه الدولة للعرب أمانيهم في قيام دولة عربية مستقلة.

ومن أبرز الشخصيات العربية التي تعاونت مع ألمانيا خلال الحرب، شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت. كما سعى الخديوي عباس الثاني بدوره إلى الحصول على دعم ألمانيا والدولة العثمانية لاستعادة منصبه في مصر، بعدما كانت بريطانيا قد عزلته عام ١٩١٤، ونصبت مكانه حسين كامل سلطاناً على مصر. وفي العراق، برز عزيز علي المصري، مؤسّس «جمعية العهد». فمال إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين. وقد أثبتنا في دراسة سابقة لنا عن «الإسلام في الداعية الألمانية في المشرق العربي أثناء الحرب العالمية الأولى» أن تعامل هذه الزعامات مع ألمانيا، وإن اختلفت أساليبه وطُرقه، كان بدافع الاستفادة من الصراع الكوني من أجل القضية العربية، وعملاً بالشعار القائل: «عدو عدوي صديقي». فأين وقف شكيب أرسلان من هذه الطروحات؟ وما هو موقفه من الدولة العثمانية ومن دول «الوفاق الودي»، ولماذا مقت دول الاستعمار مفضلاً عليها ألمانيا؟

لقد تنوعت نشاطات أرسلان خلال الحرب الكونية، من الجهاد العسكري خلال الحملة العثمانية على السويس عام ١٩١٥، إلى توجيه النصح إلى القيادتين الألمانية والعثمانية، وحث المسلمين والعرب على دعم التحالف الألماني ـ العثماني، وكتابة التقارير عن الأوضاع في بلاد الشام، وفوق كل شيء شن حملات إعلامية ضد دول «الوفاق الودي».

يستند هذا البحث في الأساس إلى ٣٣ مقالاً مترجماً إلى الألمانية نشرها شكيب أرسلان في الصحف والدوريات الألمانية بين عامي ١٩١٧ و١٩١٨. وقد استطعنا العثور على ٢٥ منها. وبمقارنتها بالسيرة الذاتية له، تبيّن أنها تضمنت معلومات جديدة لم يأتِ أرسلان على ذكرها. فهي تلقي الضوء على ذروة مواقف أرسلان من الدولة العثمانية وألمانيا ودول «الوفاق الودي» بين العامين المذكورين.

١ ـ أرسلان والدولة العثمانية

يعتبر شكيب أرسلان من أبرز الشخصيات العربية التي لعبت دوراً مميزاً خلال الحرب العالمية الأولى، سواء عبر تأييده بقاء البلاد العربية تحت الحكم العثماني أو العمل مجاهرة مع ألمانيا كداعمة للإسلام. تأثر بالشيخ محمد عبده والداعية الإسلامي جمال الدين الأفغاني، وانصب اهتمامه على رؤية الإسلام قادراً على التصدي لأوروبا[١]. فشارك في الفرقة العثمانية التي حاربت الإيطاليين في طرابلس الغرب عام ١٩١٢، ورفض المشاركة في مؤتمر باريس عام ١٩١٣[٢]. وعلى الرغم من دفاعه عن العروبة، إلاّ أنه اعتبر وجود العثمانيين في المشرق العربي، رغم ضعفهم، يشكّل حماية استراتيجية للأماكن المقدسة للإسلام، مكّة والمدينة، ولاستقلال بلاد الشام وسيادتها التي تتربص بها قوى الاستعمار[٣]. فطالب بأن يلتف العرب حول الدولة العثمانية[٤]، مشترطاً في المقابل على العثمانيين إحياء اللغة العربية والعروبة[٥].

خلال الحرب العالمية، حافظ أرسلان على مواقفه تجاه الدولة العثمانية وتعاون معها ومع ألمانيا، معتبراً نفسه ليس زعيماً درزياً، وإنما ممثلاً لمشاعر معظم العرب في سورية، وكل القيادات العربية الموجودة في أوروبا

---

(١) Hisham Sharabi, Arab Intellectuels and the West: The Formative Tears, 1875-1914, Baltimore and London 1970, P. 110.

(٢) ظاهر محمد صكر الحسناوي، شكيب أرسلان. الدور السياسي الخفي، بيروت ٢٠٠٢، ص ٥٨.

(٣) Axel Havemenn, Between Ottoman Loyality and Arab «Independence». Muhammad Kurd'Ali, Girigi Zaydan, and Sakib Arslan, in: QSA, 5-6 (1987-1988, P. 354; Müller, P. 258.

(٤) PAAA Türkei Nr. 177, R 14037, Bd. 16, Akten Betreffend: den Libanon und Mesopotamien, Oppenheim an?, A 41781, Berlin 12/12. 1917.

(٥) فرنز أنده/بيتر هاينه، «الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى». **المجلة التاريخية المصرية**، ٢٧ (١٩٨١)، ص ٢٠٥.

تقريباً[١]. وما لبث أن وقف ضد التحالف الذي قام بين الشريف حسين وبريطانيا، معتبراً إياه موجهاً ضد الدولة العثمانية والإسلام، وضد مصلحة العرب. لكنه رفض اتهامات العثمانيين للعرب بالخيانة بعد اندلاع الثورة العربية، معتبراً أن الشريف حسين لا يمثل كل العرب، وأن هؤلاء قاتلوا إلى جانب العثمانيين. وعزا سبب التباعد بين العرب والعثمانيين وظهور ما يسمى بـ «المسألة العربية» وانقسام السوريين بين مستعين بفرنسا وآخر ببريطانيا، إلى سياسة التتريك ونظرة بعض دوائر الاتحاديين إلى العرب على أنهم ليسوا أكثر من سكان مستعمرة تركية. وتوقع أن يكون أكبر تهديد للعثمانيين في إنشاء العرب دولة مستقلة لهم[٢]. فطالبهم بإعطاء العرب الحرية لتطوير أنفسهم اقتصادياً وثقافياً، لكي تبقى السلطنة قوة عالمية تحتضنهم مع غيرهم من الشعوب الإسلامية[٣]، وأن يعوا أن أهم عوامل قوتهم هي في معاملتهم الجيدة والصالحة للعرب[٤].

وخلال زيارته الأولى إلى ألمانيا عام ١٩١٧، تحدث أرسلان مع المسؤولين هناك حول ضرورة تغيير نظام السلطنة بعد الحرب بحيث تتحول الدولة العثمانية إلى فيدراليات تضم إمارات عربية مستقلة مرتبطة بالدولة العثمانية[٥]. لكن خروج الدولة العثمانية مهزومة من الحرب، جعل أرسلان

(١) Schekib Arslan, «Arabischer Protest gegen englische Verleumdung».: *Rheinisch-westfälische Zeitung*, III, Ausgabe, Nr. 664, August 19th, 1918.

(٢) سيرة ذاتية، بيروت ١٩٦٩، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

Schekib Arslan, «Was Syrien vom Kriege erwarte». *Der Neue Orient II.*, Okt. 1917-März 1918. P. 8.

(٣) Schekib Arslan, «Das Osmanmische Reich». *Süddeutsche Monatshefte*, Juli 1918, PP. 239-240.

(٤) Schekib Arslan, «Die neuen intrigen der Entente in Syrien». *Der Neue Orient II*, Okt. 1917- März 1918, P. 401.

(٥) نجيب البعيني، ذكريات الأمير شكيب أرسلان عن الحرب الكونية الأولى وعن المجاعة في سوريا ولبنان، بيروت ٢٠٠١، ٢٦ ـ ٢٧، ٦٩.

يضيف خيارين آخرين أمام العرب، إما البقاء تحت السيادة العثمانية، أو تطبيق مبادئ ويلسون عليهم في تقرير مصيرهم. وبرز ذلك، بأن العرب يرفضون الشريف حسين زعيماً أو خليفة عليهم، أو غيره من الزعامات العربية. ورأى أن العرب لا خيار لهم سوى في الاستفتاء حول مصيرهم، وأن بريطانيا لا تريد ذلك لهدف خبيث وهو تنفيذ اتفاق سايكس ـ بيكو لعام ١٩١٦ على المنطقة[١].

٢ ـ موقف أرسلان من دول الوفاق الودي

كشف أرسلان في أكثر من مناسبة بأن ميله إلى العثمانيين وتمسكه بهم لا يعود إلى الرابطة العثمانية بقدر كراهيته لدول «الوفاق الودي»، بريطانيا وفرنسا وروسيا، التي تعمل على تقسيم البلاد الإسلامية والعربية. وقال، إن ما فعلته دول الاستعمار بالعالم الإسلامي، يجعل الإسلام يخشى من مخططاتها وإمكانية سقوطه مع الدولة العثمانية، ورأى أن هناك حالة عداء تاريخية مزمنة من جانب دول الاستعمار تجاه الدولة العثمانية كممثلة للإسلام، منذ أن وطأت أقدام المسلمين أراضي أوروبا. «**فكما أن روسيا هي عدو للإسلام كله، وبشكل خاص عدو للأتراك، كذلك هي إنكلترا عدو للإسلام وبخاصة العرب من خلال مركزها في الشرق**»[٢]. فروسيا تعمل منذ قرون عديدة ضد الدولة العثمانية بهدف السيطرة على الممرات العثمانية للوصول إلى المياه الدافئة[٣]، في حين تحكم فرنسا عشرات الملايين من

(١) **PAAA** Türkei Nr. 177, R 1409 Bd. 18, Akten betreffend: den Libanon der, Emir Schekib Arslan an ???, A 51384, Berlin 26/11/191 Mesopotamien.

(٢) Schekib Arslan. «Was Syrien vom Kriege erwartet». *Der Neue Orient*, II., Okt. 1917- März 1918. PP. 6-9.

(٣) Schekib Arslan, «Die Türkei zur gegenwärtigen Kriegslage. Jubel in Konstantinople». *Rheinisch-westfälische Zeitung*, II. Ausgable, Nr 280. April 10th, 1918.

المسلمين العرب في شمال إفريقيا، وتعمل على فرنستهم[١]، مما ينفي عن بريطانيا ادعاءاتها بأنها صديقة للإسلام والدولة العثمانية. وفي إشارة إلى استغلال دول «الوفاق الودي» المسلمين إلى جيوشها لمحاربة «دول المحور»، قال أرسلان: «**يموت المغربي حتى تنتصر فرنسا على ألمانيا، ويموت الهندي حتى تتغلب إنجلترا على عدو لها، ويموت التتري في سبيل ظفر الروسيا**»[٢].

لقد انصبت كراهية أرسلان للاستعمار في الدرجة الأولى على بريطانيا، التي اعتبر أنها أسوأ أنواع الاستعمار، في حين وصف الاستعمار الفرنسي بأنه أشد بربرية، وقد برهن عن ذلك في مناطق استعماره في شمال إفريقيا، ويأتي بعده الاستعمار الإيطالي الذي عمل على الاستحواذ على «ليبيا» عام ١٩١٣. لطالما رأى أرسلان أن ما يجمع هذه الدول الثلاث هو رغبتها في القضاء على الإسلام الممثل بالدولة العثمانية واستعباد العرب والتنكر لعهودها ومواثيقها معهم. فيتساءل: «**أين هي المعاهدات التي لم تنتهك من قبل بريطانيا وفرنسا؟ وأين الوعود التي حافظت عليها الدولتان؟**»[٣].

رأى أرسلان أن بريطانيا تعمل منذ احتلالها لمصر على تدمير الدولة العثمانية وضرب قيادتها للعالم الإسلامي (الخلافة)، وتحويل السلطان العثماني إلى ما يشبه خديوي مصر يحكم في القسطنطينية فقط[٤]، فضلاً عن أضعاف روابط السلطنة بالمسلمين عبر تحريض شعوبها عليها، وفي مقدمهم العرب[٥]. وبسبب المخططات البريطانية، لم تتمكن السلطنة، في رأي

(١) Schekib Arslan, «Die Notwendigkeit Kolonialer Ausdehnung für das Deutsche Reich».: **Rheinisch- westfälische Zetung** II. Ausgabe, Nr. 895, Dec. 10th, 1917.

(٢) محمد شفيق شيا، شكيب أرسلان. مقدمات الفكر السياسي، بيروت ١٩٨٣، ص ١٧٤.

(٣) Schekib Arslan, «Die neuen Intrigen der Entente in Syrien»,: *Der Neue Orient,* II., Okt. 1917-März 1918, P. 400.

(٤) Schekib Arslan, «Die Türkei und die Lage im Orient», **Rheinisch-westfälische Zeitung,** I. Ausgabe, Nr. 795, Okt. 1st, 1918.

(٥) Arslan, Das Osmanische Reich, op. cit., P. 238.

أرسلان، من القيام بأي شيء من دون تدخل بريطانيا في شؤونها والسيطرة على إرادتها، إضافة إلى عدم تنفيذ بريطانيا تعهداتها بإخلاء مصر. واتهم بريطانيا بأنها احتلت بلاداً عربية وإسلامية في آسيا وإفريقيا، فضلاً عن الهند، وتعمل على نهبها تحت ستار صداقتها للمسلمين وللعرب[١]. وفي هذا المعنى، قال: صحيح إن بريطانيا تتودد إلى العرب وتدعم الشريف حسين في ثورته ضد الدولة العثمانية وتمده بالأموال والأسلحة، وإنما من أجل استخدامه ضدها فقط طالما أن الحرب قائمة، لكنها في الواقع ضد مشروعه لضم سورية إلى الحجاز في مملكة موحدة تحت عرشه، وهي لا تخشى قيام دولة عربية موحّدة فحسب، وإنما دولة عربية مستقلة في الحجاز تشرف على البحر الأحمر، أي طريق السويس ـ الهند، مما يشكل تهديداً خطيراً لمصالحها الاستراتيجية ومركزها في الشرق الأدنى[٢].

ورداً على تصريحات رئيس الوزراء البريطاني حول حق العرب في تقرير مصيرهم، تساءل أرسلان عما إذا كانت بريطانيا تريد بالفعل أن يقرر العرب مصيرهم بأنفسهم أم فصلهم عن الدولة العثمانية للسيطرة عليهم وعلى مواردهم[٣]. ورأى أن بريطانيا تعامل العرب كالزنوج والرقيق، وتتنكر لحقوقهم في تقرير مصيرهم، من جهة كي لا تضطر إلى إخلاء البلاد العربية التي تحتلها[٤]، ومن جهة أخرى لمنع تحول العرب إلى قوة كبيرة تقف عائقاً في وجه مخططاتها الاستعمارية، وفي مقدمها مشروع تهويد فلسطين[٥].

(١) Schekib Arslan, «Die englischen Machenschaften am Persischen Golf». *Die islamische Welt,* 10 (1917), PP. 568-569.

(٢) Schekib Arslan, «Die Araber und die Engländer». *Der neue Orient* I, April-Sept. 1917, PP. 264-266.

(٣) Arslan, Das Osmanische Reich, op. cit., PP. 238, 240.

(٤) Schekib Arslan, «England, die Araber und das Selbstbestimmungsrecht». *Rheinisch-westfälische Zeitung*. II. Ausgabe, Nr. 26, Jan. 10th, 1918.

(٥) Schekib Arslan, «Ein englischer Köder Für die Juden».: *Rheinisch-Westfälische Zeitung,* I. Ausgabe, Ne. 993, Dec. 15th, 1917.

وإنطلاقاً من مقولته بأن «بريطانيا تعيش في الشرق وتموت فيه»، وإنه من دون الشرق (الهند)، لن تكون بريطانيا أقوى دولة في العالم، قام أرسلان عام ١٩١٥ بتشكيل وحدات من الدورز قوامها عشرة آلاف شخص للمشاركة في الحملة العثمانية على مصر(١). فطالب «دول المحور» بحسم المعركة ضد بريطانيا ليس في الغرب، وإنما في الشرق حيث مواصلاتها ومستعمراتها ومصالحها الحيوية. وقال: «**يجب أن يكون هدفنا هو ضرب بريطانيا في الشرق من دون انتظار حسم الحرب في الجبهة الغربية**»(٢). فلا يمكن إلحاق الهزيمة ببريطانيا، برأي أرسلان، من دون القضاء على قوتها البحرية ونزع الهند عنها(٣).

٣ ـ شكيب أرسلان وألمانيا

بسبب تنامي مصالحها في الدولة العثمانية، وضعت ألمانيا منذ التسعينيات من القرن التاسع عشر سياسة تقوم على الحفاظ على السلطنة في وجه القوى الأوروبية الأخرى الساعية إلى تقسيم ممتلكاتها. وفي الوقت نفسه، ابتعدت عن الاستعمار المباشر تجاه ممتلكات السلطنة متوسلة في ذلك التغلغل السلمي الذي رأت أنه يحقق لها مصالحها وسياساتها، ما يجعلها قوة صديقة في نظر المسلمين.

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، عملت ألمانيا على استخدام الجهاد الإسلامي وصفة السلطان العثمانية كخليفة من أجل استمالة الشعوب الإسلامية

(١) Arslan, «Was Syrien vom Kriege erwartet». *Der Neue Orient,* II., Okt. 1917-march 1918, P. 9.

(٢) *«Die englische Macht Mub an ihrer empfindlichen Stelle im Orient getroffe worden, und dazu benötigen wir eines angriffsweise Vorgehens und Keiner Beharrung in der Verteidigung».* Arslan, Englands Drohung im Orient, op. cit.

(٣) Schekib Arslan, «England lebt und stirb im Orient». *Rhenisch-westfälische Zeitung,* Sonntagsausgabe Nr. 1016, Nov. 23rd, 1917.

الخاضعة لدول «الوفاق الودي»، وحثها على القيام بانتفاضات تنهك هذه الدول وتشغل قواتها بعيداً عن جبهات القتال. ولهذا السبب، أقنعت ألمانيا القيادة العثمانية بدخول الحرب إلى جانبها وإعلان الجهاد المقدس ضد دول «الوفاق الودي». وكانت مصر إحدى الأهداف الإستراتيجية الرئيسية للحرب في المشرق العربي، بسبب المركز الممتاز الذي كانت تتمتع به بريطانيا وسيطرتها على قناة السويس والمواصلات مع الهند والشرق الأقصى. لذا، كثفت ألمانيا دعايتها في تلك المناطق بأنها حليفة المسلمين وسلطانهم الخليفة العثماني، وأنّها تعمل على تغيير أوضاعهم بعد الحرب. فأنشأت المؤسسات للاضطلاع بهذه المهمة، كـ: «دائرة أخبار الشرق» التي رأسها المستشرق الألماني ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim). واستخدمت ألمانيا في الوقت نفسه مفكرين وسياسيين وصحافيين عرب، من ضمنهم الأمير شكيب أرسلان للترويج لصداقتها للإسلام(١).

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الأولى هي التي بلورت مواقف أرسلان من ألمانيا، إلا أنه من الثابت أن أرسلان أقام علاقات مبكرة مع الدبلوماسيين الألمان سبقت اندلاع الحرب بعشرين عاماً. وقد رافق أرسلان الامبراطور وليم الثاني في زيارته إلى بلاد الشام عام ١٨٩٨ بناء على أمر من السلطان عبد الحميد الثاني.

وأسوة بغيره من الوطنيين العرب، مال أرسلان إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين والفرنسيين. ورأى أنها لم تمارس سياسة استعمارية تجاه البلاد

(١) حول نشاط أوبنهايم والدعاية الألمانية في المشرق العربي أثناء الحرب العالمية الأولى، راجع: Abdel-Raouf Sinno, «The Role of Islam in German Propaganda in the Arab East during the First World War: Aims, Means, Results and Local Reaction». Olaf Farschid/Mantred Kropp/Stephan Dähne (Eds.), *The First World as Remembered in the Countries of the Eastern Mediterranean,* Beiruter Texte und Studien, Herausgegeben vom Orient-Institut Beiut, Band 99, Beirut 2006, PP. 391-414.

العربية، وتتعاطى مع السلطنة كحليف رفضت تقاسم ممتلكاتها مع الدول الغربية، ولا تستغل مشاعر المسلمين والعرب في سبيل الاستقلال[1]. ويعترف أرسلان بعدم وجود صداقة بين شعبين من دون مصالح مشتركة، وهو ما ينطبق على العلاقات المتينة بين ألمانيا والإسلام، حيث يتبادل الفريقان الدعم والمساندة بكل إخلاص[2]. وتوقع أرسلان أن تصبح ألمانيا دولة استعمارية كبيرة، بعدما تؤول إليها مستعمرات دول «الوفاق الودي» بعد انتهاء الحرب. لكنه، سارع إلى الافتراض بأن ألمانيا، كدولة تتوفر لها كل مقومات الدولة الاستعمارية، تختلف عن غيرها من دول الاستعمار التقليدية، فهي لا تنتهك حرية الشعوب ولا تضطهدهم[3]. من هنا، طالب ألمانيا بالعمل على تحديث سورية والدخول بقوة للنهوض بها اقتصادياً وترويج تجارتها والحصول على الاستثمارات وجني الكثير من جراء صداقتها للمسلمين كقوة دولية للمستقبل[4] بعيداً عن أية مطامع استعمارية. عكس ذلك، فإن استعماراً ألمانياً مباشراً للمشرق العربي، سيجعل السوريين كلهم ينهضون ضدها كرجل واحد، ذلك لأنهم يريدون أن يبقوا أحراراً[5].

وبدافع الخوف على الإسلام من مخططات «دول الوفاق الودي» وإمكانية

---

(١) زيد عبد اللطيف الحجار، الأمير شكيب أرسلان والجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير في التاريخ/الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الفرع الأول، ١٩٨٨، ص ٢٤١ ـ ٢٤٤.

(٢) Arslan, Der Islam und das Deutsche Reich, op. cit., P. 416.

(٣) Schekib Arslan, «Die Notwendigkeit kolonialer Ausdehnung für das Deutsche Reich». *Rheinisch-westfälische Zeitung*, II. Ausgabe, Nr. 895, Dec. 10th, 1917.
ورداً على القول أن ألمانيا لو أحتلت البلاد العربية لكانت تفعل ما تفعله الدول الأوروبية الأخرى فيها، رفض أرسلان هذه الفرضية، معتبراً أنه لا يمكن محاسبة ألمانيا على ما يمكن أن تفعله في المستقبل. البعيني، ذكريات، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٤) PAAA Türkei Nr. 177, R 14039 Bd. 18, Akten betreffend: den Libanon der, Mesopotamien, Emir Chekib Arslan an ???, A 51384, Berlin 26/11/1918.

(٥) Schekib Arslan, «Arabischer Protest gegen englische Verleumdung». *Rheinisch-westfälische Zeitung*, III. Ausgabe, Nr. 664, August 19th, 1918.

سقوطه مع الدولة العثمانية، دعا أرسلان الإسلام لأن يكون صديقاً لألمانيا التي تتصدى للساعين إلى الإضرار به وبدولة الخلافة. فقال: «**إنه من الواضح أن صديق الإسلام هو الذي يكون عدواً للذي يضمر شراً بالإسلام. وأي عدو أقوى من بريطانيا وفرنسا في الوقت الراهن في البر والبحر غير الدولة العثمانية**». فدعا المسلمين أن يبقوا على تحالفهم مع ألمانيا، وأن يقدموا المساعدة لها كما يحصلون هم بدورهم على دعمها. وختم بالقول: «**طالما أن البريطانيين والفرنسيين يمارسون سياسة الاضطهاد ضد البلدان الإسلامية... طالما أن الأتراك والألمان كتفاً على كتف ضد كل عدو يسعى إلى محاربتهما... لن ينجح هؤلاء في إطفاء نار الحب المتوقدة في صدور المسلمين والألمان**»[1].

لقد اتخذ تعاون أرسلان مع ألمانيا أشكالاً مختلفة. فهو الذي حثّ القيادة العثمانية على دخول الحرب إلى جانب ألمانيا. وهو الذي اقترح على ألمانيا تجميع الأسرى المسلمين لديها في معسكرات وتأهيلهم وإعادة إرسالهم إلى الجبهات للمحاربة ضد الحلفاء[2]. وطالب ألمانيا بأن تقوم بتسليح الانتفاضات الإسلامية ضد دول الاستعمار[3]. كما تولى أرسلان، بناءً على رغبة ألمانية، تحرير جريدة «الشرق» الدمشقية لشهور عدة، وكتب الافتتاحيات فيها، قبل أن يتولى إدارتها محمد كرد علي والشيخ عبد القادر المغربي[4]. وعلى عكس ما هو متداول في أن أرسلان كان وراء حملة

---

(١) Schekib Arslan, Der Islam und das Deutsche Reich». *Die Islamische Welt*, 7 (1917), PP. 416-417.

(٢) أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٢٣ ـ ١٢٤. وقارن بملحق كتابي: «ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين، بيروت ٢٠٠٧، حيث تُظهر الصور الملحقة كيف أن ألمانيا كانت تتودد إلى الأسرى المسلمين من جيوش «دول الوفاق الودي» عبر السماح لهم بتأدية شعائرهم الدينية.

(٣) Müller, PP. 202, 228.

(٤) سيرة ذاتية، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

الإعدامات التي نفذها جمال باشا في حقّ القوميين العرب، تشير مراسلات أرسلان مع القنصلية والسفارة الألمانيتين في بيروت والآستانة إلى محاولاته اليائسة لوقفها، وأن الدوائر السياسية في برلين لم تعر هذه المسألة أهمية قصوى، خشية إغضاب حلفائها العثمانيين. وعبر التقارير التي كان يرفعها إلى الألمان، كان أرسلان يصف الأوضاع في سورية، المواقف الشعبية على أنها مؤيدة لدول المحور، وخصوصاً تحول الدروز عن تأييد بريطانيا إلى جانب ألمانيا، وارتعاد المسيحيين السوريين من الانتصارات التي حققتها ألمانيا والدولة العثمانية على أعدائهما. ورأى أرسلان أن إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات (٨ أيلول ١٩١٤)، التي كانت وبالاً على الدولة العثمانية، وإنهاء وضع جبل لبنان الخاص في السلطنة (المتصرفية)، كان ضربة موجهة لرجال الدين الكاثوليك[١] ولدول «الوفاق الودي»[٢]، لكن، أرسلان طالب المسلمين في المقابل بمعاملة حسنة للمسيحيين.

وفي عام ١٩١٧، زار أرسلان برلين موفداً من قبل وزير الحربية أنور باشا. فأحاطته حكومتها برعاية خاصة كزعيم درزي رفيع، واستغلت وجوده عندها، بعدما رأت فيه عنصراً عربياً هاماً لمساندة السياسة العثمانية[٣]. ومنذ تلك الزيارة، أخذ أرسلان يعمل على نشر المقالات في الصحف الألمانية[٤]، وأصدر كتيبات مناهضة لدولة الوفاق والمؤيدة لدول المحور.

---

(١) أدى إعلان «الجهاد» إلى انتشار مشاعر الجامعة الإسلامية بين المسلمين في الدولة العثمانية. لكن ذلك، تسبب من ناحية أخرى في ازدياد عداء المسلمين تجاه المسيحيين في السلطنة، حيث كانت توجه الاتهامات إلى الآخرين بأنهم يؤيدون دول الوفاق الودي. انظر:
M.E. Yapp, The Making of the Modern Near East, PP. 269-270.

(٢) PAAA/Türkei 177, R 14032, Der Libanon, Bd. 12, Wagenhein an Bethmann Hollweg, Nr 250., A 28594, Therapia Oct. 24th 1914. 1 Suppl...

(٣) William L Cleveland. The Role of Islam, op. cit., P. 39.

(٤) أحصى الباحث الألماني الراحل Gerhard Höpp ٥١ مقالاً نشرها أرسلان في الصحف والدوريات الألمانية ما بين عامي ١٩١٧ و١٩٤٣.
Gerhard Höpp, Texte aus der Fremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896-1945. Ein Bibliographie, Berlin 2000, PP. 20-23.

كما ألقى الخطب أمام الألمان، وأمام الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية دعا فيها إلى تأييد ألمانيا. وأثناء إقامته في ألمانيا عام ١٩١٧، ألقى محاضرة على الألمان حول المجاعة في سورية. فدافع عن الألمان والعثمانيين كمسببين لها، وعللها بالحصار البحري الذي ضربته أساطيل دول الوفاق الودي على الساحل السوري[١]. وفي عام ١٩١٨، زار أرسلان برلين مرة أخرى مبعوثاً لأنور باشا.

٤ ـ استنتاج

كان شكيب أرسلان من القيادات العربية التي أدركت أن تصدي البلاد العربية لقوى الاستعمار المتربصة بها تتطلب مسألتين: أولاً: الإبقاء على الرابطة بين العرب والعثمانيين والتضامن الإسلامي معهم، وثانياً: ضرورة الحصول على دعم دولة قوية للتصدي لما تحيكه دول «الوفاق الودي» من مخططات لتقاسم ممتلكات الدولة العثمانية وبالتالي منع سقوط المنطقة العربية تحت حكمها. وكانت ألمانيا، في نظر بعض المسلمين والعرب، الدولة المؤهلة للدفاع عن الإسلام نتيجة اعتمادها سياسة دؤوبة للتقرب إليه انتهجها عاهلها وليم الثاني.

ومع كل جهود أرسلان لدعم ألمانيا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، تعاملت ألمانيا معه ومع غيره من رجالات الحركة العربية على أنهم مجرد مصادر للمعلومات أو أدوات للدعاية وليسوا حلفاء. ففي عام ١٩٤١، كتب رئيس شرطة الأمن الألماني إلى الخارجية يقول إن أرسلان رجل غير موثوق فيه، وأن العرب من مصر إلى شمال سورية يصفونه بالشرلطان. وسبق ذلك في عام ١٩٣٨ أن رفضت رئاسة الوزارة الألمانية والشرطة السرية زيارة أرسلان إلى ألمانيا، في حين اعتبرته وزارة الخارجية رجلاً طاعناً في السن

---

(١) أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٢٢٥.

يجب ألا يُعطى قدراً أكثر من حجمه. هكذا، انتهى شكيب أرسلان، في نظر السياسة الألمانية، رجلاً طاعناً في السنّ غير مفيد لمصالحها، بعدما كان من أكثر المروجين للصداقة بين ألمانيا والشعوب الإسلامية، وقدّم من أجل ذلك خدمات جليلة لها.

تداعيات الحرب العالمية الأولى في جبل عامل

الدكتور علي شعيب(*)

آلية السلطة في جبل عامل

تجمع المصادر التاريخية على أن جبل عامل الذي عُرف بعد الحرب العالمية الأولى باسم جنوب لبنان كان أوسع مساحة، وشكَّل الشيعة الأكثرية المطلقة فيه إلى جانب السنّة والمسيحيين على اختلاف طوائفهم. وكانت تحكم العلاقات بين هذه الفئات غلبة قرار الأكثرية وفق منطوق التركيبة العشائرية لآليات الحكم العثماني التي لم تعمل على دمج الخصوصيات المناطقية في وحدة مجتمعية قائمة على الولاء للوطن. لكن هذا التنوع الديني لم يشهد أية فرقة بل خضع لمنظومة قِيم اجتماعية وأخلاقية لم تتأثر بالصدامات الطائفية التي شهدها جبل لبنان طيلة منتصف القرن التاسع عشر، كما لم تتأثر بالمناوشات العسكرية بين زعامات جبل عامل وحكام جبل لبنان التي استمرت لفترة طويلة. هذا الواقع جعل التفاف العامليين نحو ذاتهم ضرورة من ضرورات وجودهم وعاملاً أساسياً من عوامل أمنهم واستقرارهم بعد أن أصبح المحيط بمثابة المصدر الرئيسي لتهديدهم. وقد فرضت حالة المناكفة مع المحيط العثماني ضرورة تشكل الجماعة العاملية وفق أسس مشابهة للجماعات المجاورة، أي بداية وعيها لتمايزها. فقد حرص قادة

(*) د. علي شعيب، أستاذ التاريخ الحديث المعاصر في الجامعة اللبنانية.

الجماعة من روحيين وسياسيين على تسيير مجتمعهم وتقرير مستقبل جبلهم ضد حالة الاستلحاق القسرية من قبل الولاة العثمانيين المستبدين. وفي ظل أجواء الاستعدادات الدائمة للمواجهة اعتمدت المشورة بين الطرفين لاتخاذ القرار الذي يحظى بإجماع الرأي ويعهد بتنفيذه إلى الزعيم السياسي ويتولى رجال الدين الشيعة دور الرقابة على ممارسته. تجدر الإشارة إلى أن هذا الجبل لم يكن فريداً في خصوصيته، بل إن معظم مناطق بلاد الشام كانت تفتقر إلى الوحدة في التفكير بخلاف الوحدة الجغرافية.

تاريخياً انحصرت الزعامة في جبل عامل في إحدى أقوى عشائره وأكثرها نفوذاً وأقدرها على حسم الخلافات الدخلية. وكانت هذه الزعامة معقود لواؤها في الأسرة الوائلية وأقطابها أسرة علي الصغير من مشرف وناصيف النصار إلى علي وخليل الأسعد... ورغم أن الأسر العشائرية العاملية قد تنازعت فيما بينها على مناطق نفوذ ورسمت توزيعاً لمقاطعات جبل عامل، إلا أن هذه المنازعات مرت دون أهمية.

مواقف النخب العاملية من الهوية والولاء للسلطنة

عشية نشوب الحرب العالمية الأولى واجهت النخب العاملية الشيعية تحديين أساسيين وكان يفترض أن يحسموا أمرهم منها:

- التشكيك بهويتهم العربية.
- مسألة الولاء للسلطنة العثمانية في مرحلة حاسمة من تاريخها.

١ ـ التشكيك بهوية الشيعة العربية

بعد منتصف القرن التاسع عشر ارتابت الهجمة الاستعمارية الغربية على المنطقة العربية من حالة النهوض القومي العربي التي طالت معظم شرائح المجتمع العربي على اختلاف مذاهبها الدينية، فراحت تعمل من خلال بعض

المستشرقين والرحالة على دعوات قومية مناهضة للعروبة في الوسط العربي، تحلّ فيه الطائفة الدينية مكان الأمة القومية. وطال التشكيك بعروبة كل الأقليات الإسلامية غير السنية والطوائف المسيحية في المشرق والمغرب العربي. وفي هذا الإطار الذي طرحت فيه مسألة الأقليات تعاطت القوى الغربية الكبرى مباشرة مع هذه المسألة عبر أجهزة أيديولوجية تهيئ المعطيات التاريخية والواقعية الراهنة التي بحثها الاستشراق لإعادة صياغتها وفق المنطق الذي برر توجهها التفتيتي. ما طال الشيعة العرب من التشكيك بانتمائهم العربي ورد عند كثير من المؤرخين والرحالة والمستشرقين. وقد عزوا أصل السكان في جبل عامل إلى العنصر الفارسي لما يلاحظونه من وحدة المعتقد بين أهليه والشيعة في إيران[1]. فقد أشار طنوس الشدياق في كتابه (تاريخ الأعيان) عند ترجمته لمشايخ الحمادية في بلاد جبيل زاعماً بأنهم جاؤوا البلاد مع قومهم من ناحية بخارى[2]. كذلك فإن صاحب كتاب «التحفة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية» المطبوع في مصر تأليف إسماعيل علي مدرّس علم تقويم البلدان في الجامع الأزهر قال «المتاولة فريق الشيعة وهم من أصل فارسي»[3]. أما المستشرف هنري لامنس فقد أشار نقلاً عن البلاذري بأن الشيعة من العنصر الفارسي[4]. وذهب بعض الرحالة إلى القول بأن الشيعة هم أكراد أتوا من بلاد فارس، هذا ما أشار إليه الرحالة أرنست رينان وبعده الرحالة لورتيه حيث قال إن بعض العائلات الشيعية في جبل عمل نقلها معه

---

(١) أحمد رضا: المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، جريدة المقتطف، أيار ١٩١٠، مجلد ٢٧، ص ٤٢٦.

(٢) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، بيروت ١٨٥٩، ص ١٦٦.

(٣) محسن الأمين: خطط جبل عامل، حققه وأخرجه حسن الأمين مطبعة الإنصاف، بيروت ١٩٦١، ص ٥٤.

(٤) انظر البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦١، ٢٠١ ـ ٥٢٢، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٧.

صلاح الدين الأيوبي إلى هذه المنطقة وهي كردية الأصل[1]. كما أشارت جريدة البشير في ١٧ تشرين الأول ١٩٠٤ عندما تناولت وفاة عميد الأسرة الصعبية نعيم بك الحسن الفضل في النبطية «أن الفقيد يتصل بنسبه بالسلطان صلاح الدين الأيوبي»[2].

خلال تلك المرحلة وبالتحديد عند طرح القوى الاستعمارية مسألة توزيع ثروة «الرجل المريض» لم تستسيغ النخب الفكرية العاملية التشكيك بهويتهم العربية لإغراقهم في دوامة الصراع المذهبي، لذلك تصدت لتلك الاتهامات ويمكن ملاحظتها عند كل من:

- الشيخ أحمد رضا في جريدة المقتطف أيار ١٩١٠م ٣٧ وكانون الثاني ١٩١١م ٣٨ حيث يقول «... إن الشيعة في جبل عامل أقدم منها في العجم بل قد كان لتثبيت دعائم التشيع في إيران، يد لأبناء جبل عامل بما انتشر من علمائه في تلك الديار في ذلك العصر وأخصهم المحقق الكركي»[3].
- وفي دراستين للسيدين محسن الأمين وعبد الحسين شرف الدين وردتا في كرّاس بعنوان «الشيعة والمنار» وهو ملحق بالجزء السابق في مجلة العرفان - المطبعة العصرية بيروت ١٣٢٨هـ[4].
- محسن الأمين خطط جبل عامل - تحقيق حسن الأمين ج١ مطبعة الإنصاف بيروت ١٩٦١[5].

---

(١) E. Renan; Mission de Phenicie, Paris 1864, P. 633. وقد تبنى وجهة نظره عدد من الرحالة منهم Lortet.

(٢) جريدة البشيرة ١٧ تشرين الأول ١٩٠٤.

(٣) انظر جريدة المقتطف: الشيخ أحمد رضا: المتاولة أو الشيعة في جبل عامل م ٣٧، ١٩١٠، ص ٤٧٩.

(٤) انظر كراس الشيعة والمنار وهو ملحق بالجزء السابع من مجلة العرفان المطبعة العصرية، بيروت، السنة ١٣٢٨هـ، ص ١٠.

(٥) محسن الأمين: خطط جبل عامل، تحقيق حسن الأمين، ج١، مطبعة الإنصاف ١٩٦١.

- الشيخ علي الزين: للبحث عن تاريخنا في لبنان بيروت ١٩٧٣[1].
- وفي أعداد متفرقة من مجلة العرفان لصاحبها أحمد عارف الزين والتي صدرت عام ١٩٠٩.

مع ذلك يمكن القول أن الشيعة في بلاد العرب كان عندهم ميل لإيران ضد الدولة العثمانية، لكنه ميلٌ فحسب ولم يصل كما تثبت الأحداث التاريخية إلى حدود التمرد الحقيقي ولا إلى صوغ مشروع سياسي انفصالي ولا إلى لعب دور طابور خامس لمصلحة إيران. وهؤلاء الشيعة كانوا يميلون إلى الإستكانة السياسية. وأبناء العشائر (فمنهم في البقاع أو جنوب العراق) كانوا متمردين بصورة فطرية ضد أية سلطة مركزية حتى ولو كانت شيعية على الأرجح.

أما التحرك المذهبي البحت فلم يكن يتم إلا عندما يثير الحساسيات أو يكون واضح في ميوله المعادية للمذهب. وما هو واضح أن العامليين أستطاعوا الاحتفاظ بمقاطعاتهم ردحاً من الزمن في ظل مشايخ إقطاعيين وبالتالي فإن الشيعة في جبل عامل كانوا أسرى إقصائهم التاريخي عن مراكز في السلطنة العثمانية وضعف تمدنهم في مرحلة سيطرة المدن السياسية وتخلف قياداتهم، وضعف هويتهم الطائفية وتراثهم من الاستكانة السياسية[2]. ويقول الشيخ بن عبد الصمد... «إن التعصب الذي عانى منه هو وأنداده في جبل عامل (من العثمانيين) له مثيل في تعامل حكام إيران مع العلماء المخالفين»[3].

---

(١) الشيخ علي الزين: للبحث عن تاريخنا في لبنان، بيروت ١٩٧٣، ص ٦٤.

(٢) غسان سلامة: المجتمع والدولة في المشرق العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) د. دلال عباس: بهاء الدين العاملي، دار الحوار ١٩٩٥، ص ١١٢.

يشير صاحب مجلة المنار الشيخ محمد رشيد رضا «أن الشيعة يلتمسون دولة تأويهم وتنصرهم لا لرفع القيد عنهم فقط بل لحصد أهل السنة»[1]، واقعاً لم يحظ العامليون في الدولة العثمانية بدور ريادي بل كانت العلاقة أشبه ما تكون إلى المساكنة التي ارتاح إليها الطرفان. وكان رد السيد محسن الأمين على حملة مجلة المنار بالقول «... فإن تنفير الحكومة من رعاياها وتنفير رعاياها منها أضر من تنفير أهل مذهبين بعضهم من بعض.. وأن الحكومة العثمانية أيدها الله بالنصر قد أعطت الشيعة في العراق وغيره الحرية في مذاهبهم وساوت بينهم وبين غيرهم من الرعايا في الحقوق ولم تقصر في الإحسان إليهم.. وعلماء (الشيعة) محترمون عند الحكومة كغيرهم فلماذا لا يحبون سلطانهم وحكومتهم العثمانية كالسنة وهي الدولة الإسلامية العظمى الحاكمة على جميع المسلمين من سنيين وشيعيين والحامية لثغور المسلمين والحافظة لبيضة الإسلام...»[2].

وعشية الحرب العالمية الأولى كان الزعيم العاملي كامل الأسعد بما أوتي من لياقة التصرف وبما ساعده في أوضاع المحيط العثماني وتواكله، وضعف الجهاز الإداري والقوانين المتبعة أن يستغلها أحسن استغلال. وكان أبرع من تعاطى مع المفاهيم الأساسية للطائفة الشيعية آنذاك، من حيث تبنيه آليات الفكر الشيعي ومقدرته على إشباع الحاجيات التاريخية للعامليين وفي مقدمتها الحفاظ على المذهب. ويبدو أن الأسعد وجد الخصوصية العاملية القائمة على المصالحة مع العثملة لا تسعفها إلى الذهاب أبعد من ذلك، أي التنازل عن نهج الاعتراف الصريح بشرعية السلطنة العثمانية مقابل وكالة دائمة

---

(١) انظر كرّاس الشيعة والمنار، مصدر مذكور، ص ١٠

(٢) المصدر نفسه، ص ٩.

لإدارة محلية عاملية، وذلك جعله رمزاً للعامليين بحكم حاجتهم إلى من يحميهم أو إلى من يقويهم في بعض الحالات تبعاً للظروف السياسية السائدة.

تجدر الإشارة إلى أن استئثار الأسعد بالقرار السياسي العاملي كان استناداً إلى تأييد رجال الدين الشيعة له إذ كانت المشورة تتم بين الطرفين ويتخذ القرار الذي يجمع الكل على تنفيذه[1]. وهذا التأييد شكّل العماد الأساسي لسلطة الأسعد المطلقة نظراً للمكانة التي احتلها هؤلاء عند أبناء المذهب الشيعي العاملي، وحسب تقرير رفعه قائد جيوش الشرق الفرنسي إلى وزارة الخارجية بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ بداعي استخدامه لأغراض «مفيدة» «أن الاحترام الذي يكنه المتاولة لمجتهديهم كبير جداً فهم يطيعونهم بصورة عمياء رغم قوانين السلطات العثمانية التي أخضعت قضاياهم إلى القاضي السني أو المحاكم المدنية، وهم يحسمون دائماً خلافاتهم لدى المجتهد... فهم يعتبرون أن القضاة المعينين من قبل السلطان غير شرعيين. إن السلاطين اغتصبوا السلطة فقراراتهم غير معتبرة والحكم الشرعي لا يمكن أن يكون إلا من قبل مجتهد معروف ومزكّى من زعيم علمائهم»[2]. (المرجع الأعلى).

وتكمن أهمية آل الأسعد في أنهم قادوا العامليين في المعارك ضد حالة التعسف للولاة العثمانيين وقدرتهم فيما بعد على إقامة مصالحة مع العثملة لتجاوز حالة التعسف وبهدف الحفاظ على الانتماء المذهبي الملتئم حول علاقات أهلية منتظمة في دورة حية داخلية تتخذ من التقية ممانعة أهلية سلمية في مواجهة استبداد سلطوي. ولم يرد لهذه المصالحة أن تتدرج إلى مشروع سياسي انفصالي تواجه سلطنة قائمة على المذهب.

واستطاع آل الأسعد الاستفادة من المتغيّرات التي أدخلتها السلطنة العثمانية على نوعية الممارسة السلطوية في الأطراف والدور المتعاظم الذي

---

(١) محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، دار النهار للنشر ١٩٨١، ص ١٠٤.

(٢) نقلاً عن وجيه كوثراني: بلاد الشام، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٠، بيروت، ص ٢٠٢.

منحته للعصبيات المحلية لقاء استمرار خضوعها للباب العالي. هذه الوضعية لكامل الأسعد جعلته ينتخب إلى مجلس «المبعوثان» في الأعوام ١٩٠٨ و١٩١٢ و١٩١٤.

وبناء على ذلك ـ وحسب مدير القنصلية الفرنسية في صيدا ـ فإن كامل الأسعد رفض الاشتراك في أهم مؤتمر سياسي عقد في بلاد بشارة (بنت جبيل) والذي استبعد منه المسيحيين للمطالبة بحماية إنكليزية بهدف تأسيس امبراطورية عربية تتماشى ومطالب النهج العروبي والفوز بخليفة عربي[1].

والواضح أن رفض الأسعد المشاركة في المؤتمر يندرج في سياق قطع الطريق على قوى خارج جبل عامل تحاول ربط الجبل بمشاريع يعمل لها في بلاد الشام ضد السلطنة العثمانية ومن ثم النيل من آحادية زعامته المكرسة بشرعية أهليه. وهذا ما كان يحرص على استمراريته في سياق تأسيسه لعصبية المدافعة عن الذات ضد الآخر.

وعندما تولى حزب الاتحاد والترقي السلطة في الآستانة في تموز ١٩٠٨، تحت شعار الإصلاح والمساواة شاعت بين أوساط الوطنيين العرب الأوهام حول إمكانية إحداث تحولات جذرية في المناطق العربية وتحررهم الوطني من نطاق السلطنة العثمانية. لذلك تعاونوا مع حزب الاتحاد والترقي على أمل مساعدتهم. وقد توسم العرب خيراً عندما أعلن خلال تلك السنة الاحتفال رسمياً بتدشين سكة حديد الحجاز وتسمية الشريف حسين أميراً على مكة. حينئذ انخرطت النخب العاملية في تأسيس فروع لهذا الحزب في مناطقهم. ويورد محمد جابر آل صفا حقيقة الأمر «تألف للاتحادية لأول عهدها عدة فروع في جبل عامل. وكان في مقدمتها فرع النبطية الذي تولى تشكيله سنة ١٩٠٨ وتحليف اليمين على السيف والمصحف ووضع عصبة

(١) Adel Ismail: Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban, Beyrouth 1979 tome 19 doct. No. 72, le 16 decembre 1912 P. 215-219.

على العيون مندوب الهيئة المركزية في بيروت نظام الدين بك مفتش الصحة في الولاية... انتظم في سلك الجمعية فريق من أهل العلم والأدب والوجاهة من النبطية وجوارها. وقد تألفت الهيئة المركزية من محمد جابر آل صفا والأستاذين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، ثم أنشأ الفرع نادي رحباً تلقى فيه المحاضرات الاجتماعية والخطب الداعية للإصلاح ونبذ الشقاق والإخلاص للدولة. وكان له أثر حميد في حل كثير من المشاكل وتخفيف وطأة ذوي السلطة والنفوذ. وكان للفرع مقام محترم في المركز العام واشترك في المؤتمرات الاتحادية وأدى للجمعية خدمات جليلة وجمع أموالاً وفيرة لمشروعي الأسطول والطائرات العثمانية»[1]. أما في مرجعيون فقد ظهرت عدة جمعيات منها جمعية الاتحاد والترقي وجمعية حب الوطن العثماني الذي ترأسه دانيال زغرب مدير جريدة المرج[2].

رفض الشوفينية العثمانية على قاعدة الولاء للوطن العثماني

لم تمضِ فترة على تولي الاتحاديين السلطة في الآستانة حتى أخذوا ينكثون بوعودهم الإصلاحية وسعيهم لإذابة كل القوميات وحضارتها عبر تتريكها، فضلاً عن تمسكهم بالنظام المركزي الذي ورثوه حين تولوا السلطة، وراحوا يتشددون في النظام المركزي بدلاً من أن يخففوها. كان ذلك يعني حمل العرب على التخلي عن أمانيهم الفكرية العربية. عندها انخرطت النخب العاملية في مجهود عربي للحفاظ على هويتهم لما ترمز لوحدة الشعب ووحدة المصير والمصلحة المشتركة مقابل أخطار خارجية. ولم يستجب هؤلاء النخب لتغليب المصلحة الطائفيّة على المصلحة القومية العربية. ووجدوا أن الدعوة للتتريك القائمة على الدين ما هي إلا غطاء لتغليب فئة

(١) محمد جابر آل صفا: مصدر مذكور، ص ١٨٤ و١٨٤.
(٢) جريدة المرجع (مرجعيون) ١٤ تموز ١٩٠٩.

تركية على كافة الشعوب فرفضوها. في ١٢ محرم ١٣٣٠هـ أرسل فرع الاتحاديين في النبطية استعفاءهم من جمعية الاتحاد والترقي عبر رسالة بعثت إلى سلانيك وبيروت جاء فيها: «لسعي الاتحاديين ضد القومية العربية المتفانية في عثمانيته ولإهمالهم أمر المعارف في البلاد العربية عامة ولتحققنا استئثار بعض أشخاص بأمور الجمعية على غير منفعة الوطن.

ولإصرار الحزب الاتحادي في «المبعوثان» على تعديل الدستور المادة ٣٥ من الدستور يجعل المشروطية في خطر عظيم.

نحن البقية الباقية من جمعية الاتحاد والترقي نقدم استعفاءنا وننسحب منها قاطعين كل علاقتنا معها» التواقيع: محمد الحاج علي - محمود الحسن الفضل - سليمان ظاهر - أحمد رضا - كامل الحسن - فايز الحسن - محمد ياسين، محمد جابر[١].

أما في صيدا، فقد أشارت جريدة جبل عامل إلى أن نادي جمعية الاتحاد والترقي فيه أصبح اسماً بلا مسمى ولم يبقَ على بابه سوى قطعة مكتوب عليها اسم الجمعية.

لم يكن عزوف النخب العاملية عن سياسة حزب الاتحاد والترقي الشوفينية ليقعوا في مخططات الاستعمار الغربي التي استهوت أكثر من طرف في المنطقة العربية، بل توجهوا للانخراط في كل جهد لصون الهوية العربية، كما ساندوا السلطنة العثمانية في التصدي للهجمة الغربية باعتبارها تطال الجميع دون استثناء. في ١٧ تشرين الأول ١٩١٢ دعت جريدة جبل عامل العامليين لمؤازرة الدولة العثمانية في الحرب ضد الأجنبي فيما خرجت مظاهرة في صيدا لهذه الغاية[٢].

---

(١) جريدة جبل عامل ١١ كانون الثاني ١٩١٢.

(٢) المصدر نفسه ١٧ تشرين الأول ١٩١٢.

في ضوء هذا التوجه السياسي العاملي جاءت برقيات التأييد إلى المؤتمر القومي العربي الأول سنة ١٩١٣ والمنعقد في باريس من زعماء صيدا وأخرى من الشيخ أحمد عارف الزين - صاحب مجلة العرفان وجريدة جبل عامل - لتصب في خانة هذا التوجه. وقد ورد في برقية الزين «إن بلاداً كبلادنا ووطناً كوطننا، وأمة كأمتنا، ضرب الجهل فينا بحرانه وأناخ علينا صر الزمان بكلكله... لهي جديرة بكل إصلاح، حرية بالسعي وراءه الرقي والنجاح خصوصاً داخلية البلاد وبواديها التي وصلت إلى حالة لا يمكن أن يصورها اليراع، وتأنف من سماع الأحداث التي تحدث بنا الأسماع. لذلك نحبذ ما قمتم به أتم تحبيذ ونناصركم في مشروعكم بما نستطيع، لأن حركتكم المباركة ترقى إلى حفظ استقلال البلاد تحت العلم العثماني المظفر. وها نحن نمد إليكم يد المصافحة آسفين لعدم استطاعتنا الحضور... منتظرين كل ما يلزم من الحزم والسلام في البدء الختام»[١].

جاء التأييد للمؤتمر استناداً للموضوعات الوطنية التي تضمنتها الدعوة التي وجهتها لجنة المؤتمر العربي السوري إلى القوميين العرب وهي متضمنة النقاط التالية:

١ - الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

٢ - حقوق العرب في المملكة العثمانية.

٣ - ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

٤ - المهاجرة من سوريا إلى سوريا[٢].

---

(١) د. وجيه كوثراني: وثائق المؤتمر القومي العربي الأول، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٦٢.

(٢) إيضاحات من المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي في عاليه (مقررات ديوان الحرب العرفي في عاليه) نشرت هذه الإيضاحات من قِبل القائد العام للجيش الرابع جمال باشا. مطبعة الطنين استامبول سنة ١٣٣٤ هجرية، ص ٥٠.

وفي هذا السياق من التوجه العروبي كانت النخب العاملية مع طليعة القوى العربية التي برزت في التصدي للمخططات الصهيونية على فلسطين. في عام ١٩١٤ نشرت صحيفة الإقدام رسالة من جودت قندوس ورد فيها أن الطلبة الفلسطينيين في أسطنبول إلى جانب شباب صور ومرجعيون أسسوا جمعية غايتها توحيد الكلمة وجمع القلوب عموماً والفلسطينيين خصوصاً للسعي في سبيل مصلحة البلاد ولا سيما مكافحة الصهيونية بكل الوسائل. فإذا لم يتيسر ذلك من خلال المال فمن خلال رجال العلم والأدب والإخلاص. ولقد وضع مؤسسو الجمعية مخططهم بحيث يكون مقر رئاستها في القدس وتكون لها فروع في مختلف المدن الفلسطينية. وفي تلك الرسالة نفسها قال الكاتب: إن أعضاء الجمعية قد بدأوا بالفعل في الاتصال بأعضاء البرلمان[1].

التداعيات السياسية للحرب على جبل عامل

عند نشوب الحرب العالمية الأولى سمّت السلطنة العثمانية جمال باشا قائداً عسكرياً على بلاد الشام في كانون الأول ١٩١٤. وحسب مدير الأمن العام العثماني في تلك المنطقة كان يحمل في جيبه مشروعين خطيرين:

١ - إلغاء سائر الامتيازات التي يتمتع بها الجبل اللبناني منذ العام ١٨٦٠ وإخضاع سكانه للسيادة العثمانية.

٢ - القضاء على الفكرة العربية التي اختمرت في نفوس العرب لخدمة سياسة التتريك[2].

تلازم ذلك مع ترسخ قناعات عند معظم النخب العربية عن صعوبة

(١) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ط٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣، ص ٧٣.

(٢) عزيز بك: سوريا ولبنان في الحرب العالمية، ترجمة فؤاد ميدان، بيروت ١٩٣٣، ص ١٢٩.

التفاهم مع السلطنة العثمانية حول تقرير مصير المنطقة العربية بعدما بددت سياسة التتريك آخر الأوهام حول إمكانية التوصل إلى تعاون بين الفريقين. لذا عقدت هذه النخب لواء قيادتها إلى الشريف حسين في الحجاز لإعلان الثورة في المناطق العربية إلى جانب الحلفاء، وعهد إلى عبد الكريم الخليل ورضا الصلح مهمة تنظيم الثورة في جبل عامل. لكن هذه المهمة اصطدمت بموقف كامل الأسعد حيث بقيت الزعامة في هذا الجبل معقودة له مستنداً إلى دعم النخب الدينية الشيعية العاملية وإلى موقف الوجيه النبطاني فضل الفضل الذي رفض الاستجابة لمطلب عبد الكريم الخليل في إحداث ثورة في جبل عامل.

وقد اغتنم كامل الأسعد مناسبة نشوب الحرب الأولى ليجدد الولاء للسلطنة العثمانية عبر برقية إلى جمال باشا يعلمه بأن خمسماية متطوع بسلاحهم الكامل باتوا علي أهبة الزحف إلى الجبهة وأن شباب جبل عامل مستعدون للزحف على العدو في أي وقت يأمر[1]. كما بعث إليه بتقرير بتاريخ ٨ حزيران ١٩١٥ جاء فيه «أن اجتماعاً عقد في دار الشيخ راشد عسيران حضره عبد الكريم الخليل والشيخ محمد إبراهيم والشيخ أحمد رضا ورضا بك الصلح أعقبه اجتماع آخر عقد في دار آل الجوهري حضره زهاء ٣٠ شخصاً وأن الغاية من هذه الاجتماعات تمهيد الطريق لإحداث ثورة واسعة النطاق في البلاد في تلك المنطقة»[2].

وقد لعب الشيخ أسعد الشقيري دوراً في شرح موقف الأسعد لدى جمال باشا إذ أمّن لقاء بين الطرفين في القدس بحضور الوجهاء العامليين: محمود بك التامر والحاج إبراهيم عبد الله ومحمود بك الأمين.

أما عن واضع المؤامرة فأشار كامل الأسعد «تدور منذ مدة دعايات واسعة لإحداث ثورة في المنطقة السورية تبدأ في واحد من جهتين، من صيدا

(١) علي شعيب: مطالب جبل عامل، دار مجد ١٩٨٧، ص ٦٢.

(٢) عزيز بك: مصدر مذكور، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

وزحلة، فجماعة الجمعية اللبنانية يشتغلون في منطقة زحلة وجماعة حزب اللامركزية السوري يشتغلون من جهة صيدا».

ولتدعيم مضمون ما قاله أشار الأسعد إلى دليلين:

١ ـ الإشاعات المتوافرة عن مهمة عبد الكريم الخليل في جبل عامل واجتماعاته المتتالية برضا الصلح وعبد الوهاب الإنكليزي ورفاقه.

٢ ـ التصريح الذي أدلى به الشيخ محمد إبراهيم إمام بلدة أنصار إلى عدد من سكان قريته ومنهم عبد المنعم (عاصي) ـ الذي نقل الخبر إلى كامل الأسعد ـ أن عبد الكريم زاره وأعلمه أنه يعمل على إحداث ثورة قريباً بالتعاون مع رضا الصلح ورفاقه، وكان بين الذين شاركوا في الزيارة كلٌ من الشيخ راشد عسيران والشيخ أحمد رضا والشيخ أحمد عارف الزين[١]..

في أعقاب هذا الاجتماع اتخذ جمال باشا قراراً بتوقيف جميع الأشخاص الوارد ذكرهم وتحري دورهم وسائر الدور والمكاتب المشتبه بها وإحالتهم إلى الديوانِ الحربي العرفي في عاليه، وكان نصيب بعضهم الشنق والبعض الآخر النفي وتبرئة آخرين.

تداعيات الحرب على العلاقة بين أطياف المجتمع المحلي

لم يشهد التاريخ الحديث على علاقة متوترة بين الشيعة والمسيحيين. وقد أجمعت المصادر على حالة الانسجام بين أطياف المجتمع العاملي.

وأشار الرحالة إدوارد روبنصون عند مروره بالنبطية إلى مجلس شورى للبلدة مؤلف من أعضاء ينتسبون إلى مذاهب مختلفة[٢].

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٢) إدوارد روبنصون: مباحثات أجنبية في تاريخ لبنان، ترجمة أسد شيخاني، ج١، منشورات وزارة التربية، بيروت ١٩٤٩، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

عشية الحرب الأولى وجد كامل الأسعد أن وشائج العلاقة القديمة مع المسيحيين والتي ترسخت أثناء حوادث عام ١٨٦٠ لم تعد مرتكزاتها متوفرة في مطلع القرن العشرين. فقد عقد مسيحيو أطراف جبل لبنان ولاءهم لفرنسا شأن المركز. وعند إجراء الانتخابات لدى مجلس المبعوثان عام ١٩١٤ استغل كامل الأسعد المناسبة لتجديد العلاقة مع المسيحيين عبر فتح قنوات اتصال بالقنصيلة الفرنسية بواسطة مبعوثه الفرد خوري. وأشار مدير القنصلية الفرنسية في بيروت Coulondre في رسالة بعث بها إلى الرئيس (بوانكريه) إلى رغبة كامل الأسد في إقامة علاقة مع القنصلية الفرنسية «لكونه مرشحاً للانتخابات التشريعية القادمة ويعتبر بدون شك أن دعمنا يضمن له مساندة الإكليروس الماروني في المنطقة. ويستطرد القنصل أن تقرب الأسعد من فرنسا فهو أمر ثمين ذو معنى». لكن الواقع أن حرص الأسعد على بقاء شرعيته الأهلية في مجتمعه لم يكن ليؤثر على طبيعة المصالحة مع العثملة، بل كان يقيم معادلة دقيقة بين الأمرين بحيث لا ترجح كفة على أخرى. وكانت مبالغة من القنصلية في تفسير موقف الأسعد بأنه يريد التقرّب من فرنسا[١] لأنه كان يحرص على عدم توريط طائفته في حروب مع الجوار كما فعلت بعض العصبيات العائلية أو الدينية الأخرى.

وأثناء الحرب الأولى عمل جمال باشا على إحداث فتنة بين الشيعة والمسيحيين في جبل لبنان، ويشير محمد جابر آل صفا إلى ذلك «من الوقائع المثبتة لذلك، أنه أراد إحداث فتنة بين اللبنانيين وأهل جبل عامل وبين الشيعة والمسيحيين، فاستدعى لقيادته بعض زعماء جبل عامل وأبلغهم... أن يكونوا على استعداد لمهاجمة الشوف ودير القمر وما يتبعهما، وأفهمهم أن لبنان يتمخض بثورة ضد المسلمين يغذيها الأجانب، واختص عبد اللطيف الأسعد بقيادة الحملة على لبنان الجنوبي وجبل الشوف. وأدرك عبد اللطيف

(١) د. وجيه كوثراني: مصدر مذكور، ص ١٩٧ و١٩٨ (بلاد الشام).

بك الغاية من هذه الحركة التي يُراد بها هلاك الفئتين، ثم إلقاء التبعية على الأهلية أنفسهم والإجهاز على من بقي منهم»[1].

وكان قنصل ألمانيا في صيدا ميشال ابيلا قد تلقى تطميناً أيضاً من محمود بك الفضل في النبطية بعدم رغبة العامليين في افتعال حوادث مع جيرانهم في جبل لبنان[2].

ومن يستعرض أعداد جريدة المرجع (المرجعيونية) ٩ كانون الثاني ١٩٠٩ وأعداد مجلة العرفان شباط ١٩٠٩ يُلاحظ مدى الوئام بين أطايف المجتمع العاملي على اختلاف أديانه، فضلاً عن قيام جمعيات مختلطة بين المسلمين والمسيحيين كجمعية الإصلاح الخيرية التي أسسها أمين عبد الله في قرية الخيام وقد ناهز عددها على المايتي عضو[3].

وخلال الحرب الأولى شهدت حالة من التكافل الاجتماعي بين أبناء جبل عامل على اختلاف مذاهبهم. ويشير الأب قسطنطين باشا المخلصي أن يوسف الزين باع ديناً إلى دير المخلص ٢٠٠ قنطار من الحبوب ما بين قمح وشعير وذرة وفول وعدس. وفي حين استقبل كامل الأسعد كثيراً من جياع المسيحيين الذين وفدوا إلى دار الطيبة إما مرضى وإما فارين من الجندية أو الأحكام السياسية[4].

من ناحية أخرى أشار الشيخ سليمان ظاهر في كتابه «جبل عامل في الحرب الكونية» أن المسيحيين اللاجئين إلى قرى الشيعيين في جبل عامل

---

(١) محمد جابر آل صفا: مصدر مذكور، ص ١٢٩.
(٢) علي حسين مزرعاني: النبطية في الذاكرة ١٨٦٠ ـ ١٩٩٩، ٢٢.
(٣) جريدة المرجع (مرجعيون): ١٥ أيار ١٩٠٩.
(٤) قسطنطين باشا المخلصي: لمحة تاريخية في أعمال الرهبنة المخلصية خلال الحرب العامة، عُني بطبعه الخوري باسيليوس نحاس، المطبعة التجارية لورنس فاس الولايات المتحدة ١٩٢٠، ص ١٦.

لقوا زمن المجاعة المواساة الجميلة، فآوى الشيعيون قسماً عظيماً منهم، وعاملوا الفارين من التجنيد أحسن معاملة»[1].

تداعيات الحرب الاجتماعية والاقتصادية

١ ـ التجنيد الإلزامي

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى خضع جبل عامل كبقية مناطق السلطنة العثمانية للأحكام العرفية، واختص هذا الجبل بسياسة جمال باشا التعسفية بعدما وجد عند أبنائه ميلاً للعروبة والاستقلال، فعمد إلى تجنيد الرجال وسوقهم إلى جبهات القتال حتى لم يبق منهم إلا المرأة والصبي والعاجز والقادرين على دفع البدل النقدي عن الخدمة العسكرية من الذين خدموا في العسكرية فوق ثلاثة أشهر، كما استثني عن التجنيد أئمة المساجد من المسلمين الذين يحملون براءة خاصة أو مراسلة من شيخ الإسلام وهذا لم يكن متوفراً لدى رجال الدين الشيعة. لكن بعد تدخلات شارك فيها وجهاء من جبل عامل ومن بيروت سوي أمر هذه الفئة[2].

ترتب على نشوب الحرب الأولى انتشار الذعر بين السكان القاطنين على الساحل من احتمال ضرب أساطيل الحلفاء لها، فهجر الناس من صيدا وصور إلى المناطق الداخلية وخاصة إلى النبطية.

وفي هذه الأثناء كثرت الوشايات من رجالات الاتحاديين في بيروت وصيدا ومن يتزلف إليهم من الأهلين أمثال طلعت الكردي قومندان جندرمة صيدا ومصباح البزري وأخوه ومن لف لفهما من المتنازعين على النفوذ في

---

(١) الشيخ سليمان ظاهر: جبل عامل في الحرب الكونية، دار المطبوعات الشرقية، بيروت ١٩٨٦، ص ٢٣.
(٢) مذكرات السيد عبد الحسين شرف الدين، غير منشور، ص ٦٢ ـ ٦٣.

بلدهم. كما أطلق يد الجندرمة بتنفيذ حكم الموت شنقاً أو رمياً بالرصاص في كل متهم بالفرار من الجندية. فكانت تنصب المشانق في صور والنبطية وبنت جبيل مترافقة مع انتهاك للأعراض كما فعل العريف بدر العكاوي من مخفر أنصار أو يترافق مع عقاب جماعي لعائلة الفار كما فعل الحاج بدر غرة البيروتي بعائلة من قرية جباع. وقد استفحل الفرار من الجندية في أواخر عام ١٩١٧ بعد فشل الحملة في فتح الديار المصرية، وشمل الفرار الترك أنفسهم ويشير سليمان ظاهر «امتلأت الديار العاملية المجاورة لفلسطين بما كانوا يحملونه من أسلحة»، كما يعزو أسباب الفرار من الميادين إلى تفضيل الجندي الأجنبي من ألماني ونمساوي عليهم في الأقوات وفي الراحة وفي إمرة الجيش»[1].

٢ ـ المصادرة

فور نشوب الحرب العالمية أغلق مدير الناحية في جبل عامل مخازن تجار الغلال وأخذ مفاتيحها وحسب الناس من ذلك أن في نية الدولة مصادرة الغلال، وسيكون ذلك مدعاة لمجاعة مقبلة فتجمهر جماعة منهم وهمّوا برفع أمرهم وخوفهم من عواقب المصادرة إلى أولي الأمر ولكن جاء من نصحهم بأن هذا تدبير عسكري لا يمكن أن ينقض وأن كل من يرفع الشكوى يُحال إلى الديوان العرفي العسكري. وأعقب ذلك، كما يشير الشيخ أحمد رضا في مذكراته، أنه صدر أمر بمصادرة الذرة البيضاء لأجل التكاليف العسكرية ثم برقية بتكليف الأهالي في نواحي جبل عامل بحياكة البذلات العسكرية مع جوارب وكفوف. وقد فرض على ناحية النبطية حياكة ٢٠٧ بدلات وإعفاءهم من حياكة الجوارب والكفوف لعدم أهليتهم لصناعتها. كما فرضت على ناحية النبطية قائمة موزعة على التجار والأهالي بـ ٥ آلاف أقة من الذرة البيضاء

(١) الشيخ سليمان ظاهر: مصدر مذكور، ص ٣٨ ـ ٤٨.

مضاف إليها ما كان جمع قبلها وهو ثلاثون ألف أقه. وفي ٢١ أيلول ١٩١٤ ورد أمر عسكري بجمع المال نقداً للتكاليف العسكرية بصورة عامة وفرض على ناحية النبطية ثلاثين ليرة ذهبية عثمانية، كما فرض على مرجعيون الضعفين[1].

ترافق تنفيذ القرارات الحكومية من رجالات السلطنة العثمانية بالعنف والنهب والسلب والرشوة لإملاء الجيوب. وقد منيت النبطية عام ١٩١٦ بقائمقام صيدا الذي جعلها قاعدة للمصادرة أو التجارة، فكان يقصدها على حين غفلة مصحوباً بقوة من الجندرمة فيصادر ما تقع عليها أيديهم من الغلال ويقوم أسعارها بما يمليه عليه ضميره وضمير من يصحبه من بطانته. وينقد ثمنها ورقاً تركياً على أساس اعتبار الليرة الورقية ليرة ذهبية. كما انتشرت الجندرمة المكلفة بضبط الأمن على ترصد الطرق على المتاجرين بالغلات حتى انحصرت التجارة فيها في التهريب[2]. وما زاد الوضع المعيشي سوءاً عمليات البيع للحبوب والمؤن التي تعرضت لها القرى العاملية قبل الحرب العالمية من قبل ألمانيا التي كانت تهدد الأهالي بالأتراك في حال امتناعهم عن بيع ما لديهم من الحبوب، إضافة إلى ذلك كانت السلطة ترسل جنودها لمداهمة بيوت الفلاحين والتفتيش عن مؤونة والويل كل الويل لمن تجد عنده مخزناً للحبوب لم يعلن عنه من قبل فتصادره ثم تغرم صاحبه بمبالغ ضخمة.

٣ ـ المجاعة

لم يجد الشيخ سليمان ظاهر الذي عايش تلك الفترة تعليلاً لأسباب المجاعة إلا في السلطات نفسها. وبرأيه فإن الجراد وإن أضر في محاصيل بعض الجهات عام ١٩١٦ فلم يكن من مسببات المجاعة لأن أعوام الحرب

(١) علي حسين مزرعاني: مصدر مذكور، ص ٤٤.
(٢) الشيخ سليمان ظاهر: مصدر مذكور، ص ٤٤.

كانت محاصيل المزروعات تزيد على حاجة البلاد وعلى حاجة الجيش لو أن الحاجة روعيت. لذلك يحمل المسؤولية لنهج المصادرات العشوائية من قِبل السلطات في تلك الفترة التي ملأت الإهراءات بما يزيد على أضعاف أضعاف حاجتها، حتى يتلف أكثرها فلا ينتفع منه الأهلون ولا الجيش نفسه الذي أصابه الجوع، دع ما تسرب منه إلى جيوب المصادرين ورجال الجيش والسلطات المحلية الذين انقلبوا تجاراً في مادة حياة الجيش والأمة.

وفي مكان آخر يعرض سليمان ظاهر مشاهداته لضحايا الجوع تتساقط في الطرق حيث رأى منهم من يتداعى إلى جيف الحيوانات ويزاحم بعضهم بعضاً على اقتطاع قطعة منها يقتات بها. وأدّت الحال إلى استمراء كثيرين لحوم الآدميين، واقتناص ضعفاء البنية من الأطفال الهائمين على وجوههم كما تقتنص الطريدة[١].

في هذه الأثناء طلب السيد عبد الحسين شرف الدين من الميسورين الشيعة صرف الخمس المترتب شرعاً على منتوجاتهم على المحتاجين، ويورد أسماء بعض من استفاد[٢].

٤ ـ الغلاء

يقول الشيخ سليمان ظاهر أن الغلاء وما نجم عنه من المجاعة مقصودان من السلطة العثمانية، وأن الغلاء ذر قرنه في السنة ١٩١٥ وأخذ في التصاعد إلى السنة ١٩١٨، ولم يكن مقتصراً على الغلال فحسب بل شمل كل ضرورات الحياة. وفي الأخير يدرج جدولاً بتطور أسعار المنتوجات الزراعية على أنواعها: سعر مدّ الحنطة وهو خمسة أرطال إسلامبولية وربع الرطل، ثلاثمائة قرش على سعر الليرة الذهبية أي مائة واثني عشر قرشاً رائجاً، والذرة

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣ ـ ٤٦.
(٢) السيد عبد الحسين شرف الدين: مصدر مذكور.

البيضاء والصفراء (٢٣٠) والشعير (١١٠) والعدس (١٢٠) والباقية (٥٠) والكرسن (٤٠) والفول (٦٠) ورطل الأرز الحولاني (٨٠) وأوقية السكر (٢٥) وصفيحة زيت البترول أربع ليرات عثمانية ذهباً[١].

بالمقابل يشير السيد عبد الحسين شرف الدين في مذكراته إلى تدني أسعار الأثاث والأمتعة والمقتنيات بل والأملاك لأنها كانت الذخيرة لشراء بعض الضروريات من الأغذية، «فكم من أرض واسعة شريت بتافه من الدقيق وكم...»[٢].

٥ ـ الأوبئة

منيت البلاد العاملية إلى جانب المصادرات والغلاء والجوع بمآسي الأوبئة. فتفشت الحميات الخبيثة وأعظمها حمى التيفوئيد، فحمى القمل أو التيفوس، وقضت على الألوف من الأرواح، وكان أشد الأوبئة فتكاً وإيلاماً مرض الكوليرا الذي سمي بمرض (الهواء الأصفر) حيث فتك بالأهالي لدرجة أن ضحاياه لم يجدوا من يدفنهم كونه مرضاً معدياً، ففي بلدة شقراء مثلاً مات في يوم واحد اثنا عشر نفساً... وامتنع الناس عن دفنهم وحتى توانى الأخ عن حمل أخيه إلى المقبرة ودفنه، وقد نال المرض من شقيق السيد عبد الحسين شرف الدين وابن عمه[٣].

التفنن في الضرائب

ازدهر في الحرب بازار الضرائب، وتفننت فيها الحكومة العثمانية ما شاءت، وزاد عملها في ابتكار أساليب جديدة في التفنن. فبعد المصادرات وما رافقها من تعسف، أصدرت العملة التركية من فئات القرش الواحد إلى

(١) الشيخ سليمان ظاهر: مصدر مذكور، ص ٤٧.
(٢) السيد عبد الحسين شرف الدين: مصدر مذكور.
(٣) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج٤، صيدا ١٩٥٧، ص ٨٥.

المائة ليرة على أساس النقد الذهبي وأجبرت شعوبها على التعامل بها بطرق الإكراه، فهي مجبرة على قبضه على الأساس الذي وضعته الحكومة، ومضطرة إلى التعامل به على غير ذلك، فكانت تتكبد منه من جراء ذلك أعظم الخسائر.

وعشية انتهاء الحرب سنّت السلطنة عام ١٩١٨ قانون الإعاشة، وهو جباية ١٢,٥٪ من حاصلات الفلاح باسم ضريبة العشر، و٢٥٪ باسم إعاشة موظفيها، هذا في الغلات الشتوية والصيفية و٢٥٪ من التبن و٥٠٪ من الزيت والزيتون والزبيب والدبس، ثم سنّت السلطنة قانوناً آخر سمته بقانون قرض الحرب، وكان المفروض على كل قرية يستوفى نقداً. والقرية التي لا تستطيع تقديمه نقداً كانت تصادر ماشيتها وتُباع لاستيفاء القرض، مع الضرائب الأخرى التي كانت تصب على رؤوس الأهلين بلا قانون صادر[١].

تداعيات نهاية الحرب الأولى

بعد جلاء القوات العثمانية للمرة الأولى، منذ أربعة قرون عن المناطق العربية اعتبره العامليون كغيرهم من العرب بارقة أمل جديد لمستقبل أفضل، وخاصة أن دول الحلفاء قبل دخولها إلى الشرق أشاعت بأن مجيئها ما هو إلا لمنح شعوبه حق تقرير المصير. وعزز من صحة هذه الشائعات مبادئ الرئيس الأميركي نلسون الأربعة عشر حول حق الشعوب في تقرير مصيرها في وقت لم يكن لواشنطن هذه الصورة الاستعمارية كما كانت لفرنسا وبريطانيا عند شعوب العالم الثالث آنذاك. تلازم شيوع آمال الحرية مع دخول القوات العربية بقيادة الأمير فيصل إلى دمشق في ٣ تشرين الأول ١٩١٨ وتشكيله حكومة عربية فيها. سارع العامليون لتأييد حكومة فيصل وبإنشاء حكومات تتولى تسيير الحياة اليومية في مناطق جبل عامل. لكن الأمور لم تأتِ بحسب

(١) الشيخ سليمان ظاهر: مصدر مذكور، ص ٥٢.

ما أراده أبناء جبل عامل بل بعث صراع على الزعامة بين كامل الأسعد ورياض الصلح، إذ تمسك الأول بموقفه القائم على أن مصير هذا الجبل منحصر بأعيان البلاد وما يتفقون عليه هو النافذة، وأنه يملك التفويض من الأمير فيصل بهذا الخصوص. ومن جهة أخرى شهد الجبل صراعاً مكشوفاً من نوع آخر وبتشجيع فرنسي بين أكثرية مسيحية فيه مؤيدة للانتداب في كل مواقفه وأكثرية إسلامية تطالب بالوحدة السورية كخطوة أولى نحو الوحدة العربية الشاملة. وبهذا انقلب الوئام السياسي والاجتماعي إلى حالة فوضى عارمة اتخذت طابعاً طائفياً ورسمت حدود وهمية بين مناطق جبل عامل. وقد عجزت النخب العاملية وعلى رأسهم كامل الأسعد من لجم حالة التدهور لأن الأمور تعدت خيارات التعايش في جبل عامل إلى خيارات أشمل من خارج الحدود أي بين مستقبل عصبية الطائفة وعصبية الدولة القومية. وبات جبل عامل تحت رحمة الهتافات المعبرة عن عمق الخلاف بين أبنائه، ومما قيل:

طقوا وموتوا يا عدوان ... البنديرة شريفية

ومن الطرف الآخر:

فيفا فيفا ... يحيا دين الصليبا

أو:

يا أم التنورة الحمرا ... بكشكش مبروم

صار الحكم فرنساوي ... طوقوا يا روم

وما بقي من السكان بعدما فتكت بهم الأمراض والجوع قصد الكثيرون من اللبنانيين وخاصة من وادي التيم بلاد حوران للعيش وقضى كثيرون منهم نحبهم في هجرتهم، كما أدّت حالة الضنك الشديد والبؤس والتعاسة إلى نزوح بعض السكان إلى المدن ولما فتحت الطريق البحري أمام الناس هاجر قسم كبير من السكان إلى مختلف أصقاع الأرض وخاصة إلى الأميركيتين

حيث التحق بعضهم بأقربائه. وفي هذه الفترة برز دور لجمعيات الإغاثة الأميركية كجمعية الصليب الأحمر الأميركاني وجمعية النجمة الحمراء في قرية المية ومية قرب صيدا، حيث كان يحضر الطعام في المطبخ العام ثم يرسل على ظهور الرجال والدواب إلى جميع القرى المحيطة مع إعاشة الخبز وما يتبعها وتخليص ألوف الأطفال والمشردين وإيوائهم وتعليمهم.

موقف فرنسا من عملية الاعتداء على قنصليتها في بيروت عام ١٩١٤

الدكتور قاسم الصمد(*)

المقدمة

يجدر بنا، في مستهل بحثنا هذا، أن نسجل شكرنا وتقديرنا للزملاء رئيس وأعضاء اللجنة المنظمة للمؤتمر، على الجهود المباركة التي قاموا ويقومون بها، في ظل الظروف الصعبة التي يمر بها لبنان عامة والجامعة اللبنانية خاصة، وعلى الحس الوطني الذي ينطلقون منه الهادف إلى خدمة وطننا عن طريق كتابة تاريخه العلمي الصحيح.

كان اختيارنا لموضوع البحث «موقف فرنسا من عملية الاعتداء على قنصليتها في بيروت»، واستنادنا حصراً على وثائق الخارجية الفرنسية، يصدران عن همّ مقيم في داخلنا يستحثنا دوماً على البحث عن الحقيقة في مصادرها، الحقيقة المتعلقة بموضوع هام في حياتنا الوطنية، كما يصدران عن إدراكنا لأهمية تتبع الاعتبارات التي تنطلق منها الدول القوية والفاعلة في تعاملها مع غيرها من الدول والشعوب، وهي المصرة على أن تبقى أسيرة مصالحها دوماً دونما مراعاة لأصول وتقاليد العلاقات الدولية، أو لمشاعر الشعوب المغلوبة المستسلمة لحسن ظنها، أو لأرواح الضحايا الصارخة في وجه جلاديها ووجه المتباكين على طهارتها على حد سواء.

(*) أستاذ التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية ـ الفرع الثالث.

أما أهمية الموضوع فتعود برأينا إلى أمور عدة منها:

١ ـ إن عملية الاعتداء هي حدث تاريخي هام ومتفرد. هام لأن جهة محاربة أقدمت عليه في ظرف عصيب وبهدف محدد هو الاطلاع على ما قد تحويه السجلات المتروكة في القنصلية، قصداً أو تقصيراً، من أسرار تستفيد السلطات التركية منها في حربها الضروس مع فرنسا وبريطانيا؛ وهو حدث متفرد لأنها ربما تكون المرة الأولى في تاريخ الدبلوماسية والعلاقات الدولية أن تقدم دولة ما على السطو على مركز قنصلي تابع لدولة عدوة، بالرغم من وجود أختام ومن رفع علم دولة محايدة عظمى كالولايات المتحدة الأميركية على القنصلية، وهي الدولة التي اتفق على أن ترعى المصالح الفرنسية في ولايات الدولة العثمانية.

لقد كان لحادث الاعتداء نتائج مأساوية وتداعيات خطيرة تمثلت، على المستوى اللبنانية والعربي، بإعدام أربعة عشر شخصية وطنية قيادية في بيروت وثمانية في دمشق وسبعة في حيفا بتاريخ السادس من أيار ١٩١٦، وهو يوم العيد الوطني الذي ما زال يُحتفل به سنوياً، وهو الحادث الذي يستبطن حتى اليوم خلافاً بين جهات وطنية حول وجوب اعتبار الذين عُلقوا على المشانق هم شهداء الوطن والأمة أم متآمرين مع طرف أجنبي عدو للوطن والأمة.

٣ ـ إن إقدام السلطات التركية على فعلتها والضجة المتأخرة التي أحدثتها في مختلف الأوساط المحلية والدولية، الشعبية والرسمية، أفضيا إلى ما يشبه الأزمة في العلاقات الفرنسية الأميركية وإلى اتهامات سيقت بحق القنصل الأميركي في بيروت، وفي وجه الحكومة الأميركية التي «جبنت عن الثأر لكرامتها المنتهكة»، في الوقت الذي تعالت الصيحات والمطالبات من قبل الأوساط السياسية والشعبية والاقتصادية الفرنسية مستنكرة تقصير الحكومة الفرنسية في حماية أصدقاء فرنسا والمتعاملين معها في الشرق.

٤ ـ إن الحكومة الفرنسية التي، على ما يبدو، لم تفاجأ بما أقدمت عليه السلطات التركية، والتي وقفت عاجزة عن إنقاذ أصدقائها من جهة وسمعتها من جهة ثانية، لم تتأخر عن محاولة استغلال ما حدث على صعيدين اثنين:

- على صعيد الرأي العام العربي والإسلامي لاستثارته ضد الدولة التركية المسلمة على ما ترتكبه هذه من اضطهاد وتجويع وترويع،
- على الصعيد الأميركي لدفع الرئيس الأميركي والحكومة الأميركية، ليس فقط إلى استبدال قنصلها في بيروت ومعاقبته على التقصير واللافعالية، بل إلى خلق مشكلة كبيرة مع الحكومة التركية ومن ثم إلى إعلان الحرب على ألمانيا حليفة تركيا، وهو ما حصل بعد أقل من سنة، حين وافق الكونغرس الأميركي على دخول الحرب إلى جانب فرنسا وبريطانيا بتاريخ السادس من نيسان عام ١٩١٧.

٥ ـ كذلك تنبع أهمية موضوعنا من الغموض الفاضح الذي ما يزال يلف الموقف الفرنسي، أو جهات فرنسية، في تعمدها إبقاء الوثائق في أدراج القنصلية في بيروت، وهي التي تعرف، أو التي يجب أن تعرف، أن ما تتضمنه من معلومات ومن أسماء المتعاملين معها، يشكّل خطراً أكيداً على هؤلاء، وهي التي يفترض بها أن تتوقع أن تفعل السلطات التركية ما فعلت؛ كما أن ما يزيد الغموض التباساً هو ما أكده السفير الفرنسي في اسطنبول عند إعلان الحرب أنه أصدر أوامره إلى القنصل في بيروت بإتلاف أو نقل الوثائق السياسية قبل إغلاق القنصلية الفرنسية استشرافاً منه لخطر حصول ما حصل فيما بعد.

إن كل هذا، معطوفاً على بعض سوء الظن الواجب في المنهجية التاريخية، يؤكد استعداد فرنسا الدولة، وكل دولة أخرى، للتضحية بأصدقائها خدمة لمصالحها؛ وهذا ما يفسّر عدم دهشة الحكومة الفرنسية أو عدم تفاجئها

بحصول الاعتداء على قنصليتها، وما يفسّر أيضاً تأخرها في تحويل الحادث إلى أزمة مفتعلة مع الحكومة الأميركية.

في الوقائع

فور دخول تركيا الحرب العالمية الأولى، إلى جانب ألمانيا والنمسا، في مستهل شهر تشرين الثاني عام ١٩١٤[١]، وفي اليوم الثاني عشر من تشرين الثاني ١٩١٤، اقتحمت فرقة من الجيش التركي قنصلية فرنسا العامة في بيروت، فكسرت الأقفال الفرنسية ونزعة الأختام الأميركية الموضوعة عليها، باعتبار أن حكومة الولايات المتحدة الأميركية قبلت بأن تُسند إليها مهمة رعاية المصالح الفرنسية في ولايات السلطنة العثمانية، باستثناء مدينة القدس حيث عهد لإسبانيا بتلك المهمة.

إن من السهولة بمكان القول بأن ما أقدمت عليه السلطات التركية، وبأمر مباشر من أحمد جمال باشا، قائد الجيش العثماني الرابع، لم يكن هدفه استرجاع حق مغتصب أو تحقيق نصر عسكري أو سياسي أو معنوي على فرنسا، بل كان بهدف محدد هو الاستيلاء على وثائق الأرشيف الفرنسي المتبقية في القنصلية[٢]، وبالتالي معرفة أسماء الأشخاص أو الجهات التي

(١) لم يتفق المؤرخون على تاريخ دقيق لإعلان أو لدخول تركي الحرب فعلياً: الدكتور سليمان موسى في كتابه «الحركة العربية» ص ٩٨ يحدده في الثاني من تشرين الثاني، والدكتور زين زين في كتابه «الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان» ص ٥٧ يحدده في الخامس منه، بينما يورد الدكتور إدمون رباط في كتابه La formation historique du Liban ص ٢٤٠ أن تركيا دخلت الحرب في اليوم الأخير من شهر تشرين الأول، في حين تحدد موسوعة Bordas «Dictionnaire encyclopédique d'histoire, Vol. 4, P. 2100» ذلك التاريخ بالتاسع والعشرين من تشرين الثاني؛ والأرجح أنها وقعت في خطأ التحديد مطبعياً فبدل القول Le 2 Novembre قالت Le 29 Novembre.

(٢) يقول د. سليمان موسى أن السلطات التركية قد أقتحمت أيضاً قنصلية بريطانيا في بيروت ودمشق، غير أنها لم تجد شيئاً في قنصلية بريطانيا. المرجع نفسه، ص ١٠٩.

نسجت أو أقامت علاقات مع الفرنسيين لسنين طويلة خلت. لكن هذه السلطات، وكما تفيد وثائق الخارجية الفرنسية، لم تتفحص تلك السجلات ولم تطلع على الوثائق حتى خريف العام التالي ١٩١٥.

لماذا تأخرت السلطات التركية في ذلك؟

الجواب على ذلك نتتبعه في سياق ردود الفعل على فعلة اقتحام القنصلية، وعلى مدى صفحات بحثنا هذا.

إلا أن ما يلفت النظر وما يستدعي البحث والتدقيق، هو أن تتأخر ردة الفعل وكذلك تحوّل فعلة الأتراك إلى مشكلة فأزمة، ليس فقط على صعيد محلي داخلي بل على صعيد المغتربات اللبنانية وعلى الصعيد الديني وصولاً إلى نذر أزمة دبلوماسية بين حكومة فرنسا والإدارة الأميركية مروراً بالضغوط التي مارستها الأوساط الشعبية والاقتصادية والسياسية الفرنسية على بريان، رئيس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسية، تستحثه العمل على تدارك الوضع في بلاد سوريا وعلى نجدة أصدقاء فرنسا والمتعاملين معها في بلاد الشرق.

إن وثائق الخارجية الفرنسية التي تمدنا بمعطيات دقيقة وقيمة عن فترة الحرب العالمية الأولى وما تلاها، تظهر أيضاً وبكل وضوح أن اقتحام القنصلية الفرنسية في تشرين الثاني ١٩١٤، ثم تفحُّص الوثائق في خريف ١٩١٥ لم يثيرا ضجة أو يسببا تخوفاً أو يستحثا فعلاً جدياً حتى ربيع العام ١٩١٦، حيث نقرأ في رسالة بعث بها وزير فرنسا المفوض في مصر «دوفرانس» إلى رئيس الوزراء وزير الخارجية الفرنسي «بريان» بتاريخ ٢١ نيسان ١٩١٦ ما ملخصه:

إن من بين الأخبار التي تنشرها جريدة المقطم، خبر توقيف الوجيه الماروني البيروتي جوزف هاني وتوجيه استدعاء إلى كل من: أيوب تابت، رزق الله أرقش، ميشال تويني، خليل زينيه وبترو طراد، للمثول أمام المجلس

العرفي في عاليه. كما صح خبر إعدام جوزف هاني في بيروت، فإن خليل زينية، الموجود في القاهرة لفت نظر الوزير المفوض الفرنسي بأن أسماء الأشخاص الواردة أعلاه مطابقة تماماً للأسماء الستة المسيحيين أعضاء اللجنة التنفيذية لجمعية الإصلاح الذين تقدموا، في آذار أو نيسان عام ١٩١٣، بعريضة، إلى كوجيه القنصل الفرنسي العام في بيروت، يطالبون فيها إما باحتلال فرنسا لسوريا أو بإعادة بيروت ومدن الساحل إلى لبنان، أو بالضغط على تركيا لإجبارها على القبول بالإصلاحات التي ينادون بها.

كما أعلمت المقطم أن توقيف هاني والإجراءات المتخذة بحق الشخصيات الخمسة الأخرى كان نتيجة لعملية التفتيش في وثائق القنصلية الفرنسية العامة، ويخشى من أن تكون السلطات التركية قد وجدت تلك الوثيقة، أو نسخة عنها، المقدمة إلى كوجيه، كذلك وثائق أخرى ومنها تلك التي وقعها كل من المونسنيور مسرة مطران بيروت للروم الأرثوذكس، المونسنيور رحماني بطريرك السريان، مونسنيور شبلي مطران الموارنة، والمونسنيور صوايا متروبوليت بيروت للروم الكاثوليك.

وينهي الوزير المفوض الفرنسي رسالته من مصر بالقول:

إنه إذا ثبت إبقاء تلك الوثائق وغيرها في أرشيف القنصلية في بيروت، ويظهر أن ذلك صحيح للأسف لأن الخبر ورد من مصادر عديدة، فلا بدَّ من أن تعمد السلطات التركية إلى الاطلاع عليها، وبالتالي فإنها لا بدَّ أن تعمد إلى المزيد من التوقيفات والملاحقات بحق الوجهاء المذكورين[1].

(١) Documents diplomatiques français relatifs à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du mandat; 1914-1946, collection dirigée par Antoine Hokayem page 132-133, No. 119. Le 21 avril 1916.

ردة الفعل الفرنسية

١ ـ بعد إنقضاء ما يزيد عن السنة ونصف السنة على اقتحام السلطات التركية مبنى القنصلية الفرنسية في بيروت، وبعد مرور ما يزيد عن التسعة أشهر على إعدام القافلة الأولى من الشهداء في صباح ٢١ آب ١٩١٥ في ساحة البرج في بيروت[1]، وحتى يوم الثالث عشر من أيار عام ١٩١٦، أي بعد إنقضاء أسبوع على إعدام الدفعة الثانية من الشهداء في السادس من أيار[2]، اقتصرت ردة الفعل الفرنسية، استناداً على رسالة بعث بها رئيس الوزراء الفرنسي ـ وزير الخارجية إلى سفيره في واشنطن، على قلق فرنسا من الوضع الخطير الذي يعيشه السكان في سوريا، الذين يتعرضون لكافة أنواع الضغط: الابتزاز، الشراسة، تدابير النفي والسجن، وعلى تخوفها من ازدياد الجرائم وتحولها إلى مجزرة منظمة كالتي تعرضَ لها الأرمن.

وفي الوقت الذي يستبعد فيه الرئيس الفرنسي أية إمكانية لتدخل الحلفاء، كالقيام بحملة عسكرية أو فتح جبهة جديدة بسبب الصعوبات الكبيرة، وبحجة أن ذلك سيفاقم حالة السكان سوءاً ويعرضهم لتدابير انتقامية فورية من السلطات التركية؛ لذلك فهو يطلب من سفيره أن يلفت نظر حكومة الولايات المتحدة، المدافعة عن القِيم الإنسانية، ولما تتمتع به من نفوذ معنوي، كي

(١) تألفت هذه القافلة من الشخصيات المسلمة التالية أسماؤهم:
عبد الكريم الخليل، صالح حيدر، مسلّم عابدين، نايف تللو، محمود المحمصاني، محمد المحمصاني، عبد القادر الخرسا، محمود العجم، سليم عبد الهادي، نور الدين القاضي وعلي الأرمنازي، يراجع كتاب سليمان موسى: الحركة العربية، ص ١٠٨.

(٢) تألفت هذه القافلة من أربعة عشر شخصية وهم: سليم الجزائري، أمين لطفي الحافظ، عبد الغني العريسي، الشيخ أحمد طبارة، الأمير عارف الشهابي، توفيق البساط، سعيد عقل، جلال البخاري، سيف الدين الخطيب، باترو باولي، محمد الشنطي، جرجي الحداد، الدكتور علي عمر النشاشيبي وعمر حمد، المرجع نفسه، ص ١١٦.

تمارس ضغطها على الحكومة التركية ودفعها إلى إعطاء الأوامر بمنع التدابير المتخذة بحق السكان في سوريا[١].

والجدير ذكره في هذا المجال، هو أن الأوساط والغرف التجارية والصناعية الفرنسية في باريس وليون وبوردو ومرسيليا، قد عمدت في هذه الفترة، من شباط حتى أيار من العام ١٩١٦، إلى توجيه رسائل إلى رئيس الوزراء الفرنسي بريان تطلب فيها العمل على الحفاظ على المصالح الاقتصادية الفرنسية التقليدية في بلاد سوريا، من خلال إصرارها في أية محادثات دولية خلال الحرب أو بعدها، على الاحتفاظ بسوريا كاملة تحت النفوذ الفرنسي من جبال طوروس حتى حدود مصر ومن البحر المتوسط حتى أعالي بلاد ما بين النهرين، مع ميناء إسكندرون وولاية أضنة[٢].

٢ ـ فور شيوع خبر إعدام القافلة الثانية من الشهداء في السادس من أيار، نشطت الجالية اللبنانية في مصر للضغط على الحكومة الفرنسية، من خلال وزيرها المفوض في مصر، تشكو إليها سوء الحال الذي وصل إليه اللبنانيون؛ فالحكومة التركية تمنع إدخال المؤن إلى لبنان مما سبب مجاعة أودت بحياة «ثمانين ألفاً من السكان»[٣]، وأن ثلاثة مطارنة موارنة استدعوا

(١) Documents diplomatique. Page 136. No 115, le 3/5/1916.

(٢) Document P. 127, No. 104, le 18/2/1916; P. 129. No. 107, le 18/3/1916; P. 127, No. 116 le 5/5/1916; P. 149. No. 129 le 15/6/1916. Doc. P. 140, No. 118 le 13/5/1916.

(٣) اعتماداً على الأخبار التي نقلها من لبنان رجل دين ماروني إلى وزير فرنسا المفوض في مصر، والتي تتضارب مع ما تورده رسالة وزارة الخارجية الأميركية إلى السفير الفرنسي في واشنطن، المؤرخة في ١٦ حزيران ١٩١٦م وفيها ما يقوله القنصل العام الأميركي في بيروت من أن عدد ضحايا المجاعة هو خمسين ألف قتيل؛ وفيها أيضاً ما يقوله القنصل الإسباني التنفيذي في بيروت الواصل حديثاً إلى اسطنبول الذي لا يعتقد أن الحكومة العثمانية تنفذ مخططاً مسبقاً متفقاً عليه لتجويع سكان لبنان، وإن بضعة آلاف ماتوا جوعاً بسبب النقص الكبير في المواد الغذائية، ومن ثم يعود إلى القول أن القنصل الأميركي في بيروت يعتقد أن العدد هو أقرب إلى العشرين ألفاً منه إلى الثمانين Doc. P. 152. No. 132. le 26/6/1916.

للمثول أمام المجلس العرفي في عاليه[١]، واثنين تعرضا للنفي[٢]، كما أن البطريرك الماروني قد ترك بكركي في السابع من الشهر متوجهاً إلى عاليه للحضور إلى المجلس العرفي ولم يعرف إن كان قد تم استدعاؤه أم أنه حضر بإرادته[٣].

أما في ما يخص وثائق القنصلية في بيروت، فقد ذكرها وزير فرنسا المفوض في مصر عند إيراده خبر استدعاء مئة وثمانين عائلة مسيحية ومسلمة للمثول أمام المجلس العرفي اعتماداً على ورود أسمائها في الوثائق التي وجدت في قنصلية فرنسا في بيروت، كذلك ولنفس السبب:

«تمّ مؤخراً إعدام ١٤ شخصية في بيروت، ٨ في دمشق، ٧ في حيفا»[٤].

ومع ذلك، فإن ردة فعل الحكومة الفرنسية على ما وصلها من أخبار الإعدام والنفي والتجويع، جاءت خلواً من أية إشارة فعلية تدل على أن ما حصل لأصدقائها في سوريا ولبنان نتيجة الاعتداء على قنصليتها في بيروت، قد شكّل لها أو أحدث في أوساطها صدمة تستدعي ردة فعل سياسية أو عسكرية، للثأر لأصدقائها الذين تعرضوا ويتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد، أو للثأر لكرامتها التي تعرضت لضربة قوية جراء عملية بعثرة وتفحص محتويات قنصليتها من قبل دولة عدوة؛ هذا ما يبدو واضحاً في رسالة المدير المساعد للشؤون السياسية والاقتصادية في وزارة الخارجية الفرنسية إلى «جوسيران» السفير الفرنسي في واشنطن، يطلب فيها توجيه الشكر للحكومة الأميركية على تقديماتها السخية، وإحاطتها علماً بالأعمال التي تقوم بها

(١) المطارنة الثلاثة هم: بصبوص في صور، عريضة في طرابلس، ومسعد في دمشق.

(٢) تذكر الوثيقة أن أحدهما هو المطران شبلي.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٤) تذكر الوثيقة أن أحدهما هو المطران شبلي، ص ١٤٠.

السلطات التركية بحق السكان في سوريا، والتمني عليها بأن تصدر تعليماتها الفورية إلى سفيرها في اسطنبول لثني الحكومة التركية عن ارتكاب مجزرة بحق السوريين شبيهة بما فعلته مع الأرمن[1].

٣ ـ ولما بدأت الضغوط تتوالى على الحكومة الفرنسية، من قِبل الأوساط الشعبية والدينية اللبنانية جائرة بالشكوى مما يعلنه ويمارسه قادة الأتراك، متوجهة بالنداء تلو الآخر إلى فرنسا لكي تفي بالتزاماتها المادية والمعنوية التاريخية تجاه اللبنانيين، معلنة عزمها على إرسال وفد لطلب والتماس النجدة من فرنسا ولتحريك الرأي العام فيها، لافتة نظر الفرنسيين إلى أن ما يقضي على اللبنانيين ليس سببه الحصار المضروب على السواحل اللبنانية بل بسبب كونهم مؤيدين ومناصرين لفرنسا؛ ومع ذلك فلم تتغيّر لهجة الرئيس الفرنسي «بريان»، ولم تتطور وتيرة الفعل، أو ردة الفعل، الفرنسية حيال ما يجري لأصدقائها اللبنانيين وخاصة الموارنة أصدقائها الخُلّص.

ففي رسالة مؤرخة في ٢١ أيار ١٩١٦ من الملحق العسكري الفرنسي في القاهرة إلى الحكومة الفرنسية، يصور فيها حالة الرعب التي يفرضها جمال باشا، الذي يُجاهر بمشاعر العداء الشديد لفرنسا، يورد تصريحاً معلناً لأنور باشا يقول فيه:

«إن الامبراطورية العثمانية لن تستعيد حريتها وشرفها إلا بالقضاء على الأرمن واللبنانيين. إننا وكما سحقنا الأرمن بالحديد والنار، فإننا سوف نبيد اللبنانيين بالجوع»[2].

وفي اليوم التالي، يبرق وزير فرنسا المفوض في مصر «دو فرانس» إلى «بريان» يحيطه علماً بالأخبار المقلقة التي وصلت من سوريا، وبالصدمة

(١) Doc. P. 145. No. 123. le 16/5/1916.

(٢) Doc. P. 146. No. 125. le 21/5/1916.

الواسعة في أوساط السوريين والجالية اللبنانية في بور سعيد، الذين يناقشون مشروع إرسال وفد إلى باريس ليلح في طلب النجدة من فرنسا ويحرك الرأي العام فيها»، وما زلت أحاول جاهداً لثنيهم عن ذلك ولتهدئتهم، مؤكداً لهم أن حكومة الجمهورية قد أحيطت علماً بالوضع القائم في سوريا بكل الدقة الممكنة»[1].

كذلك وفي اليوم التالي، ١٣ أيار ١٩١٦، يرسل «دوفرانس» إلى رئيس حكومته «بريان» رسالة متضمنة نداءً إلى فرنسا أطلقه المونسنيور دريان، مطران الموارنة في مصر.

في الرسالة يقول «دوفرانس» أنه من الطبيعي أن يضطرب المطران دريان من الأخبار الخطيرة التي تصل تباعاً إلى مصر، عن الحالة في لبنان وعن المجاعة التي تبيد السكان نتيجة تصرف الحكومة التركية.

إنه نداء إلى فرنسا، حامية لبنان منذ القدم، وهي التي تعهدت للبنانيين بالتزامات مادية ومعنوية... ومن المؤكد أن حصار السواحل الذي يفرضه الأسطول الفرنسي هو الذي يحول دون وصول المؤن إلى لبنان، غير أن ما لا يدركه اللبنانيون كفاية، هو أن ذلك ليس إلا عائقاً نسبياً نظراً لأن جميع المواد الغذائية التي تصل بحراً إلى سوريا لا يستفيد منها اللبنانيون بسبب مصادرتها من قبل الأتراك؛ ومن المؤكد أيضاً أن وجود أسطولنا واحتلالنا جزيرة أرواد خلقا لدى السوريين آمالاً زائفة شجعتهم على التخلص من حذرهم في مواجهة السلطات المحلية...

يخلص «دوفرانس» إلى القول بأنه ليس دقيقاً أن لبنان يُقضى عليه جوعاً لأننا نمنع وصول المواد الضرورية بحراً، بل إن السكان، للأسف، يتعرضون للجوع والسجن والنفي والإعدام لأنهم مؤيدون لفرنسا ولأن أسطولنا يشكل،

(١) Doc. P. 147. No. 126 le 22/5/1916. Reçu le 22 mai à 13 h 45.

بصورة دائمة، أملاً لهم وتهديداً لمضطهديهم[1]. وينهي الوزير الفرنسي المفوض في مصر رسالته بلفت نظر حكومته إلى المسؤولية الضخمة التي يتحملها المطران دريان تجاه السوريين عامة والموارنة منهم بشكل خاص[2].

بالرغم من كل السوداوية التي تصطبغ بها حالة السكان، وبالرغم من كل أعمال التنكيل والتجويع التي تمارسها السلطات التركية بحقهم، وبالرغم من كل الآمال التي يعلقها الموارنة على فرنسا، حاميتهم التقليدية، وبالرغم من كل النداءات والتوسلات والدعوات لإنقاذهم، وهم ضحايا ما يمارسه جمال باشا بحقهم نتيجة اكتشافه أسماء المتعاملين مع، والمناصرين لفرنسا في سجلات القنصلية الفرنسية في بيروت من جهة، وضحايا المستهترين أو المقصرين أو المتقصدين إبقاء وثائق تلك السجلات في أدراج القنصلية من جهة ثانية، بالرغم من كل ذلك، تبدو ردة فعل «بريان»، رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها، أقرب ما تكون إلى دعوة «الضحايا» إلى الصبر على البلاء، وإلى الاستسلام لقدرهم، بل إلى دعوتهم للامتناع عن أي تحرك إلا بناءً على طلب من فرنسا.

ففي رسالة لـ «بريان» إلى وزيره المفوض في مصر بتاريخ الرابع والعشرين من أيار ١٩١٦، رداً على رسائله المتتالية، جاء ما يلي:

أ - إن حال السكان السوريين تقلق الحكومة الفرنسية منذ زمن طويل.

ب - لا يمكن لأحد أن يحلم بالقيام بحملة حقيقية وفتح جبهة جديدة.

ج - لقد ظهر للحلفاء أن التدخل ولو كان محدوداً يهدد بجعل حال السكان أكثر مأساوية ويسبب مجزرة عامة.

د - لم يبقَ إلا القيام بمحاولة حماية السكان عن طريق مناشدة الحكومة

(١) Doc. P. 147-148. No. 127. le 23/5/1916.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

الأميركية، المكلفة حماية المصالح الفرنسية في تركيا، ولفت انتباهها إلى الوضع المأساوي في سوريا. «وقد وعدتني الإدارة الأميركية بأن تقوم بكل ما يتعلق بها لتحاشي الأخطار وتدارك الوضع»[1].

هـ - إن حكومة الجمهورية تؤكد للسوريين بأنها تشاركهم مخاوفهم ولن تنسى المآسي التي أنزلها بهم الحُكام الأتراك.

و - يلح بريان على وزيره المفوض في مصر على ثني أي وفد عن التوجه إلى فرنسا، «إلاّ بناءً على طلبنا»، لأن ذلك سوف يضاعف غضب الأتراك ويجعل جهودنا غير ذات فائدة.

ز - إن حكومة الجمهورية سوف تسعى لدفع السفارة الأميركية في اسطنبول إلى تحسين وضع السوريين المضطهدين[2].

٤ - غير أن التطور السياسي الهام الذي استجد في موضوع ردة الفعل الفرنسية حيال الوضع في سوريا ولبنان المؤسس على عملية اقتحام القنصلية الفرنسية العامة في بيروت، والذي دفع برئيس الحكومة وزير الخارجية الفرنسي إلى مقاربة الموضوع بشكل مختلف ونبرة أعلى، ولأهداف كانت خافية غير معلنة طوال الفترة الممتدة من خريف العام ١٩١٤ إلى حزيران من العام ١٩١٦، هذا التطور بدأ أولاً في السابع من حزيران من هذه السنة برسالة السفير الفرنسي في روما إلى «بريان»، يحيطه علماً بالمسعى الذي قام به لديه المونسنيور شديد، الوكيل البطريركي الماروني في روما، في موضوع التدابير الواجب اتخاذها لمد يد المساعدة للسكان في سوريا وبشكل خاص في لبنان، وثانياً بالرسالة المقتضبة الهامة التي وجهتها لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية إلى «بريان» أيضاً، تطالبه فيها باتخاذ التدابير

(١) Doc. P. 148. No. 128. le 24/5/1916.

(٢) Doc. P. 148. No. 128. le 24/5/1916.

الفعّالة لوضع حدٍ للفظاعات التي تمارس بحق الجماعات السورية البائسة[1].

في رده الطويل إلى السفير في روما، يتناول «بريان» أموراً كان قد تناولها في رسائل سابقة ومستعملاً بخصوصها نفس التعابير تقريباً. من هذه الأمور:

أ - الأخبار عن سوريا والوضع الخطير للسكان الذين يتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد والعسف وخطة الباب العالي للقضاء عليهم جوعاً وأن الحكومة الفرنسية لم تنفك عن الاهتمام بمصيرهم.

ب - استحالة القيام بحملة فعلية على جبهة جديدة لأن ذلك سوف يؤدي إلى تأزيم الحالة وقد يدفع إلى ارتكاب مجزرة عامة.

ج - الوسيلة الوحيدة الممكنة لحماية السكان هي ما فعلته حكومة فرنسا من لفت انتباه الحكومة الأميركية ومناشدتها الاهتمام بالوضع المأساوي في سوريا وإن الإدارة الأميركية قد وعدت بالقيام بما تستطيعه لتجنب الخطر.

د - تذكير المونسنيور شديد بالروابط الكثيرة التي تشد بين فرنسا والموارنة وإن فرنسا تقاسمهم همومهم.

هـ - الطلب من السوريين في المغتربات الإصغاء إلى النصائح التي يسديها إليهم ممثلو فرنسا، لجهة الامتناع عن القيام بأي تحركات عامة أو مظاهرات، مما يعرض للفشل كل المساعي لإنقاذ مواطنيهم[2].

أما الجديد في ردّ الفعل الفرنسي الوارد في جواب «بريان» إلى سفيره في روما فيتمثل في أمرين اثنين:

(١) هي المواضيع المدرجة على جدول الأعمال الذي صوتت عليه لجنة الشؤون الخارجية في ١٤ حزيران مرفقة برسالة مؤرخة في ١٧ منه موقعة من قبل «G. Leygues» رئيس اللجنة إلى رئيس الوزراء وزير الخارجية.

(٢) Doc. P. 150-151. No. 131. le 20/6/1916.

أولاهما: التذكير بفضائل فرنسا وكرمها وإنسانيتها تجاه الجماعات التي توخت دائماً مساعدة فرنسا لها، وإنها، ومنذ أن علمت بالضيق الذي يعانيه أصدقاؤها السوريون والعرب، **سارعت إلى دراسة الوسائل التي تثبت لهم أنها لا تعاملهم كمقاتلين،** ومستعدة لنجدتهم من المجاعة التي تهددهم بالفناء. لذلك كلفت سفيرها في واشنطن بأن يعمد فوراً إلى تأمين مساعدة أميركية لا يمكن بدونها إيصال الأقوات إلى المواطنين السوريين. وهذا ما يسعى السفير إلى تحقيقه، من خلال تنظيم عملية جمع التبرعات «التي يفترض أن تكون قد ابتدأت في مصر، أميركا، أوستراليا، إيطاليا، . . . وفي المغتربات السورية واللبنانية، والتي سوف تساهم فيها حكومة الجمهورية بمبلغ محترم».

ثانيها: لقد بدأ «بريان» للتو بتكليف سفيره في واشنطن الطلب من الحكومة الأميركية الموافقة على القيام بالمساعي الضرورية لدى الباب العالي كي يقبل تزويد السكان السوريين: مسيحيين ومسلمين بالمؤن الضرورية، بإشراف لجنة يجري تشكيلها في الولايات المتحدة تستطيع اختراق الحصار المضروب على السواحل الشرقية للبحر المتوسط، على متن زوارق تستأجر خصيصاً لهذه المهمة، بشرط أن توافق السلطات التركية على إعطاء ضمانة السماح للجنة الإشراف ومراقبة عملية توزيع الإعاشات على السكان، أما في حال رفض الحكومة العثمانية، فلا يبقى أمام الحكومة الفرنسية **إلا أن تستغل هذا الموقف لصالحها بأن تشيع في جميع البلدان العربية قدر ما يكنّه الأتراك من كره للأهالي المسيحيين منهم والمسلمين بشكل خاص وإظهار نبل التدخل الفرنسي لصالحهم، وفضح مخطط أنور وجمال في دفعهم إلى الموت جوعاً**[1].

لكن رسالة رئيس لجنة الشؤون الخارجية إلى «بريان» المؤرخة بيوم ١٤ حزيران ١٩١٦ تكتسي أهمية خاصة في موضوعنا، ليس لأنها تلتف نظر

(١) المصدر نفسه، ص ١٥١.

الحكومة إلى حالة الرعب التي تخيم في سوريا، أو لأنها تطلب من الحكومة العمل على تزويد السكان البائسين **بالمؤن بواسطة جهات محايدة؛ بل لأنها تلمّح إلى أمرين جديدين** هامين يوحيان، باستعمالها لغة دبلوماسية حاذقة، بشبهة اتهام خطيرة للحكومة بأنها إما مقصرة بحماية أصدقائها وإما بتدبيرها عن سابق تصور وتصميم ما حصل للسكان من اضطهاد أو بمحاولة استغلال ما حصل لما فيه مصلحة فرنسية ولو كان ذلك على حساب مآسي الناس ودمائهم؛ هذان الأمران هما:

١ - إن اللجنة تطلب من الحكومة اتخاذ des mesures énergiques[1]، بمعنى تدابير فعالة وسريعة ذات فائدة، لوضع حد للفظاعات التي ترتكبها السلطات التركية بحق السكان؛ لكأن رئيس لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية يتهم الحكومة الفرنسية بالتقصير وبأن ما اتخذته حتى الآن، ١٤ حزيران ١٩١٦، لم يكن فاعلاً بما يضمن إنقاذ أصدقاء فرنسا من لبنانيين وغيرهم.

٢ - إن اللجنة، في رسالتها القصيرة المقتضبة، تلفت النظر، أو تنبه أو تتهم الحكومة بأن ما يمارس بحق السوريين من كل عرق ودين، «suspects d'être favorables à la France»[2]. ما يُشتبه أو يُظن أو يُعتقد أو يُتوهم بأنه مناسب لفرنسا أو أنه يخدم مصالح فرنسا. إن اللجنة تسوق اتهامها وتعبّر عنه بلغة وتعابير، مع تجهيلها للجهة المتّهَمة، فيها من الفصاحة والوضوح بقدر ما فيها من الغموض والإبهام.

لا شك في أن شيوع وتضخيم أنباء ما تمارسه السلطات التركية بحق السكان من اضطهاد وتجويع ونفي وإعدام، ما أدى إلى ازدياد الضغوط الشعبية على السلطات الفرنسية وخاصة أعضاء البرلمان الفرنسي الذين ينتمون

(١) المصدر نفسه، ص ١٥١.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥١.

إلى تيارات سياسية مختلفة منها المنافس المتربص والمراقب للحكومة، ومنها المؤيد والمشايع والحريص على بقائها في الحكم وعلى تصويب أدائها وسمعتها، كل ذلك كان، برأينا، الدافع للجنة البرلمانية للشؤون الخارجية إلى إيلاء موضوع الحالة الصعبة لأصدقاء فرنسا في الشرق الأهمية اللازمة، وإلى توجيه رسالتها المعبرة القوية بدلالاتها ولغتها إلى رئيس الحكومة الفرنسية، الذي يحرص كثيراً على تمتعه برضى وتأييد أعضاء البرلمان الفرنسي وبقائه في الحكم قدر حرصه وربما أكثر على سمعة فرنسا ونفوذها في صفوف أصدقائها ومشايعيها في الشرق.

لذلك يبادر «بريان»، وبعد مرور ما يزيد عن الأسبوعين على رسالة لجنة الشؤون الخارجية، إلى إرسال مذكرة هامة إلى رئيس اللجنة السيد Leygues، يعرض فيها ما سبق أن ذكره في رسائل سابقة إلى جهات كثيرة، ومن ذلك:

- الوضع الخطير للسكان في سوريا وخطة الباب العالي لإفنائهم جوعاً.
- استحالة القيام بفتح جبهة جديدة خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى ارتكاب مجزرة بحق السكان.
- لفت انتباه الحكومة الأميركية إلى ما يتعرض له السوريون من اضطهاد منظم، ووعدها للحكومة الفرنسية بأن تقوم بما تستطيعه لتفادي ذلك.
- تكليف السفارة الأميركية في اسطنبول بالقيام بالمساعي الضرورية لكي يوافق الباب العالي على تزويد السكان بالمؤن وعلى إشراف لجنة أميركية على ذلك خوفاً من مصادرة السلطات التركية لها.
- إن توزيع التبرعات بواسطة اللجنة الأميركية بحاجة إلى ضمانة أكيدة من السلطات التركية، وهذا ما لم تحصل عليه وزارة الخارجية الفرنسية حتى الآن[1].

(١) Doc. P. 153. No. 133 le 1/7/1916.

لكن «بريان»، وفي محاولة منه لتبرئة ساحته وإظهار حرصه على سمعة فرنسا ومصلحتها، وللرد على رسالة لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي وما تحمله من شبهة إتهام له ولحكومته بالتقصير أو التباطؤ وربما التآمر، مما يسيئ إلى علاقة فرنسا مع شرائح شعبية كبيرة في الشرق، نراه يعمد من جهة إلى التهديد بعدم التسامح مع مضطهدي أصدقاء فرنسا، ومن جهة أخرى يعود إلى قضية الاعتداء على قنصلية فرنسا في بيروت ورفع المسؤولية عن حكومته وتحميل عبء ومسؤولية ذلك للحكومة الأميركية، راعية المصالح الفرنسية في الولايات العثمانية.

يقول «بريان» في مذكرته:

«... إنه بناءً على طلب السفارة الفرنسية في واشنطن، وبناءً على رجاء فرنسي، قامت الحكومة الأميركية بتوجيه إنذار إلى الباب العالي بأن حكومة الجمهورية لن تسمح بأن يمر دون عقاب ما ارتُكب من إعدامات بحق الأمير عمر، ابن الأمير عبد القادر[1]، وغيره من الشخصيات السورية لا لذنب ارتكبوه سوى محبتهم الحضارة الفرنسية.

«إن هذا الإنذار جاء مرفقاً بالإعلان أننا سوف نتخذ التدابير المناسبة، في الفترة القادمة، بحق كل من سيظهر أنه المسؤول عن هذه الاعتداءات مهما علا شأنه.

«أما في ما يخص موضوع الاعتداء على الأرشيف في القنصليات الفرنسية في سوريا التي جرت خلال خريف العام ١٩١٥؛ فقد نزعت السلطات التركية الأختام الأميركية الموضوعة على القنصليات الفرنسية واستولت على الأرشيف الموجود فيها وقد ظهر أن الاعتداء على الأختام الأميركية التي كان يفترض احترام حصانتها، لم يكن يتوقعه أحد في حالة احترام الحق العام.

(١) يقصد الأمير عبد القادر الجزائري.

«لكن، ومنذ أن أحيطت وزارة الخارجية علماً بما استجدّ من أمور، فقد عمدت إلى إخطار السفير الفرنسي في واشنطن، بأنها وإن كانت تقدر عمل الحكومة الأميركية الشجاع في الدفاع عن مبادئ الحق الدولي وأفكار العدالة والإنسانية، إلا أنه يجدر بها ألا تبقى غير مبالية بالاستخفاف الذي تعاملت به السلطات التركية مع الأختام الأميركية.

«لقد عمدنا إلى القيام بخطوات سريعة لدى الحكومة الأميركية لكي نحثها على أن تتحمل مسؤوليتها في الدفاع عن السوريين، ضحايا العمل المنافي لحقوق الإنسان الذي أقدم عليه الأتراك، وفي أن تضع حداً للاضطهاد الذي أحدثه الاعتداء على أختامها الخاصة وبسبب أعمال سابقة على قطع العلاقات مع تركيا»[1].

وهكذا يجهد «بريان»، المحاصر بالضغوط من مختلف الأوساط الشعبية والدينية والمتهم بالتقصير في الدفاع عن أصدقاء فرنسا وعن سمعة فرنسا وبالتالي في التهاون بالحفاظ على مصالح فرنسا والمهدد ليس فقط بالمراقبة من قبل لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي بل بالمحاسبة أيضاً على أعمالٍ وسياسات لم ترق إلى المستوى الذي يليق بدولة كبرى بنت مجدها التاريخي على أُسس من الشرف والحرية وحقوق الإنسان؛ يجهد «بريان» في محاولة الدفاع عن نفسه لإظهار ما قامت به حكومته على أنه لم يكن بالإمكان القيام بأكثر مما قامت به من: جمع التبرعات ومحاولة إيصال المؤن عن طريق لجنة محايدة إلى الجائعين والمضطهدين من أصدقاء فرنسا الآملين بأن تهب فرنسا، الحاضنة التاريخية لآمالهم، إلى نجدتهم بقواها وأساطيلها المنتشرة في مياه البحر المتوسط الشرقي وخاصة في جزيرة أرواد.

ومن إنذاره للسلطات التركية بأنه سوف يحاسب كل من ارتكب جريمة

(١) Doc.P. 154. No. 133. le 1/7/1916.

بحق أصدقاء فرنسا، ينتقل «بريان» إلى محاولة رفع التبعية والمسؤولية عن حكومة فرنسا وإلصاقها بحكومة الولايات المتحدة الأميركية، التي يتوجب عليها، برأيه، ألا تكتفي بإعلان دفاعها عن مبادئ العدالة والإنسانية، بل أن تعمد إلى الثأر لكرامتها المنتهكة بالاعتداء على أختامها الخاصة وعلى حق وضع تحت حمايتها، ربما بإعلانها الحرب إلى جانب فرنسا والحلفاء، وبالتالي فكأنه يريد القول، في معرض الدفاع عن نفسه، أن من يجب توجيه اللوم أو التهمة إليه بالتقصير هو حكومة الولايات المتحدة القادرة على ذلك وليس الحكومة الفرنسية العاجزة عن القيام بأية حملة عسكرية على أية جبهة جديدة.

٥ ـ غضب بريان

إن ما لم يقله الرئيس «بريان» أعلاه في مذكرته إلى لجنة الشؤون الخارجية، بنبرة هادئة وتعابير سياسية رصينة ومدروسة بعناية، أفرغه نقمة عارمة على «هوليس» قنصل أميركا في بيروت، وغضباً ودهشة من اكتفاء حكومة الولايات المتحدة الأميركية بالاحتجاج لدى الحكومة العثمانية على ما اقترفه موظفوها من اعتداء على قنصليات فرنسا في مدن الشرق الموضوعة تحت الحماية الأميركية؛ أفرغ ذلك في رسالته العاجلة إلى سفيره «جوسيران» في واشنطن، بنبرة عالية اللهجة وبتعابير قاسية، تحمل طلباً صريحاً باتخاذ تدابير فورية بحق القنصل «هوليس» أقلها نقله من وظيفته في بيروت، عقاباً على تكاسله في حماية مصالح فرنسا؛ كما تحمل الرسالة أيضاً طلب القيام بإفهام الرئيس «ويلسن» خطورة الوضع الذي يقلق الحكومة الفرنسية وحثه على اتخاذ التدابير الضرورية لإنقاذ الأرواح البشرية المهددة نتيجة الاعتداء على حق وضع تحت حماية «الراية المنجمة».

في رسالة «بريان» العاجلة والطويلة إلى سفيره في واشنطن، المؤرخة بالرابع من تموز عام ١٩١٦، جاء ما ترجمته:

«إن الاعتداء على أرشيف القنصليات الفرنسية في تركيا: في حلب، دمشق، جده، حيفا وبيروت، من قبل السلطات المحلية على الرغم من وجود القناصل الأميركيين الذين عهد إليهم أمر حماية مصالحنا، قد أثار كثيراً الرأي العام والبرلمان؛ وبذلك تكون الحكومة العثمانية قد خرقت عمداً مبادئ حقوق الإنسان، متجاهلة احتجاجات القناصل الأميركيين الغير مجدية والتي بقيت حتى اليوم بدون أية عقوبة.

«إن هذا الاعتداء على أرشيفنا كان له نتائج خطيرة خصوصاً في سوريا، حيث إن تفحص ملفات القنصلية العامة لفرنسا في بيروت قد سمح للأتراك بكشف أسماء عملائنا والمشمولين بحمايتنا، الذين دفعوا ثمن إخلاصهم لنا شتى أنواع الاضطهاد من النفي حتى الموت.

«لقد اهتمت الحكومة، منذ البداية، بتخليص أرشيفنا ولم تتوان، ومنذ دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء، عن حث الحكومة الأميركية على الحفاظ على سرية وثائقنا الدبلوماسية.

«ففي ٢٧ كانون الثاني ١٩١٥ أحطنا الحكومة الأميركية علماً، وبواسطتك، بما أثارته سرقة الأرشيف في بيروت من ضجة، فأجابتك وزارة الخارجية (الأميركية) في ٧ شباط بأن الأختام قد نزعت في ١٢ تشرين الثاني ١٩١٤ لكن الأتراك أبقوا على الأرشيف سليماً.

«وفي جواب أميركي جديد في ٣ حزيران (١٩١٥) رداً على طلب فرنسي بتاريخ ٢٨ نيسان ١٩١٥، أعرب السيد «مورغانتو» السفير الأميركي في القسطنطينية عن رأيه بأنه لا ينصح حالياً بنقل الأرشيف إلى مكان آمن بناءً على ما سبق أن طلبناه.

«بالرغم من خطواتنا هذه وبالرغم من الحماية الأميركية، أبلغنا السفير الأميركي في باريس في ٥ تشرين الأول ١٩١٥ أنه مع كل الجهود التي بذلها

السفير الأميركي في القسطنطينية ومع كل الاحتجاجات التي قدمها قنصل الولايات المتحدة في بيروت فقد اقدمت السلطات التركية على نزع الأختام الأميركية وبدأت تفحُّص الأرشيف. ثم كُلفت في ٩ تشرين أول بأن ترجو الحكومة الأميركية الاحتجاج بشدة على هكذا اعتداء ضد حقوق الإنسان.

«وبنتيجة الاتصالات التي أجريت معنا، تبين أن قنصل الولايات المتحدة في بيروت، السيد «هوليس»، اكتفى بتأكيد سرقة الأرشيف الفرنسي وتفحصه من قبل لجنة من الموظفين العثمانيين بالرغم من الاحتجاجات العلنية التي حصلت في ٢٧ أيلول؛ كما أن السيد «مورغانتو» الموجود بإجازة في الولايات المتحدة والذي تباحثت معه بالمشكلة، قد أسرّ إليك بأنه لم يتوقف عن طلب نقل القنصل الأميركي والذي استاء منه كثيراً وبأنه قد حصل على ما طلبه للتو.

«وعقب مسعى جديد ملح لدى حكومة الولايات المتحدة فإننا لم نحصل، في ١٨ نيسان ١٩١٦، إلا على معلومات إضافية عن المذكرات المتبادلة بين سفارة الولايات المتحدة في القسطنطينية والباب العالي في موضوع الاعتداء، في عدة مدن من تركية، على قنصليات الدول المتحاربة الموضوعة تحت الحماية الأميركية.

«ومنذ أن علمت بأعمال الانتقام التي تمارسها السلطات التركية بحق السوريين، الذين كشف تفحص الأرشيف علاقاتهم التي أقاموها مع قنصلية فرنسا في بيروت قبل الحرب، فقد بعثت إليك، في ٨ أيار الماضي، ببرقية مشيراً فيها إلى النتائج الخطيرة جداً للاعتداء الذي ارتكب، وراجياً منك إخطار الحكومة الأميركية **بضرورة اتخاذ عدة إجراءات بحق القنصل الأميركي «هوليس»، الذي بقي في منصبه بالرغم من التقاعس الذي أظهره في الدفاع عن المصالح الفرنسية الموضوعة تحت الحماية الأميركية، وبحق الحكومة العثمانية بسبب استهانتها بموضوع الأختام الأميركية**. وقد أضفت بأننا **ننتظر**

من الحكومة الاتحادية أن تعمد فوراً إلى مواجهة كل ما يمارسه الأتراك من اضطهاد ضد السوريين، استناداً إلى ما أطلعوا عليه من الأرشيف المسروق.

«إن الأخبار المأساوية، الكثيرة والمقلقة، التي تصلنا يومياً عما يمارسه الأتراك من أعمال فظة تجاه السوريين من: نفي وتجويع وإعدام، ما يعطي القضية أكثر فأكثر، أهمية أكبر، وما يؤكد الضعف الذي أظهرته حكومة الولايات المتحدة في دفاعها عن مصالحنا في بيروت، **وصبرها الذي يصعب تبريره أمام اعتداءات تركيا الخطيرة على حقوق الإنسان، مكتفية باحتجاجات غير مجدية على الاستخفاف بحرمة أختامها وبالحماية الأميركية، وفي ظل نتائج مرعبة يندى لها جبين الإنسانية.**

«**إنني لا أستطيع أن أستوعب بقاء السيد «هوليس» في منصبه** بالرغم من ضعف تصرفه المختلف عن تصرف قنصل إسبانيا في القدس الذي استطاع، بمجهوده الشخصي، مجابهة السلطات التركية وتأمين احترام المصالح الفرنسية المكلف برعايتها.

«**إن ما يدهشني أيضاً أن تكتفي قوة كالولايات المتحدة، التي تقيم مجدها** على احترام الحق ووضعه فوق كل اعتبار، **باحتجاجات على النمط الذي أظهرته في هكذا ظروف وفي مواجهة حكومة كالحكومة العثمانية الحالية.**

«إنني أعتمد على خبرتك وحصافتك لإفهام الرئيس «ويلسون» كم أن هذا الوضع يقلق الحكومة الفرنسية، واعتقادها الراسخ بأن **الولايات المتحدة سوف تتخذ التدابير الضرورية للحفاظ على حياة الأشخاص المهددين نتيجة الاعتداء على حق وضع بحماية الراية المنجمة»**[1].

إننا إذ نورد الترجمة الكاملة والحرفية لرسالة الرئيس الفرنسي «بريان» إلى

(١) Doc. P. 154, 155, 156. No. 134. le 4/7/1916.

سفيره في واشنطن، فليس لكونه فقط تحمل صفة الاستعجال urgent، وليس لأنها آخر رسالة (وثيقة) أطلعنا عليها يتناول فيها «بريان» موضوع الاعتداء على قنصلية فرنسا العامة في بيروت وعلى أختام دولة محايدة (حتى يومها) هي الولايات المتحدة الأميركية، بل لأنها:

- الوثيقة التي استعرض فيها مسؤول فرنسي على هذا المستوى مراحل المشكلة بتفصيل ودقة منذ يوم الاعتداء على القنصلية في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٤.
- الوثيقة الوحيدة التي لم يكرر فيها «بريان» أموراً سبق له أن ردّدها في كل مراسلاته السابقة مع قناصل وسفراء فرنسا ومع جهات دولية أخرى، مثل: الأخبار المقلقة وعجز فرنسا واستحالة القيام بفتح جبهة جديدة والعمل على توزيع المؤن والحصول على ضمانات و...
- الوثيقة التي ابتدأت وانتهت، وتضمنت كل فقرة من فقراتها، بالإشارة إلى عجز الولايات المتحدة الأميركية عن حماية المصالح الفرنسية التي وضعت تحت حمايتها وإلى اكتفائها بالاحتجاجات غير المجدية التي قدمتها إلى السلطات التركية.
- الوثيقة التي لم تشر إطلاقاً إلى مسؤولية ما تتحملها الحكومة الفرنسية سواء في إبقائها الملفات التي تتضمن وثائق تحوي أسماء أصدقائها أو عملائها داخل قنصليتها في بيروت أو في عجزها أو استنكافها عن القيام بأية محاولة جدية تجبر فيها الحكومة التركية أو تمنعها من الاعتداء على مصالحها وعلى أصدقائها اللهم إلا التهديد والوعيد بمحاسبة المسؤولين عن الاعتداء في «الفترة القادمة»، وإصرارها على إيلاء الأمر كله وتحميل حكومة الولايات المتحدة كامل المسؤولية عنه.
- الوثيقة التي يصب فيها «بريان» جام غضبه على القنصل الأميركي في بيروت «هوليس» بسبب عجزه وتكاسله وقلّة حيلته، والتي يبدي فيها

دهشته، وبنبرة عالية ومصطلحات أبعد ما تكون عن اللغة الدبلوماسية وهدوئها ورصانتها، من إبقاء «هوليس» في منصبه، فكأنه يحمله مسؤولية ما حصل من جهة ويملي على حكومة الولايات المتحدة ما يتوجب عليها من اتخاذ قرارات أو القيام بتشكيلات دبلوماسية وقنصلية في وزارة الخارجية أو إنزال القصاص بقنصلها ومحاكمته أو عزله أو أية إجراءات أخرى كثيرة من جهة أخرى.

- إنها الوثيقة التي يبذل فيها «بريان» منتهى جهده ويستعمل كل أسلحته المتوافرة ويحث سفيره على توظيف خبرته وحصافته لإخطار حكومة الولايات المتحدة بضرورة تحمل مسؤولياتها ويستحثها على الثأر لكرامتها المنتهكة، ليس فقط باستبدال «هوليس» بقنصل آخر أو محاسبته على تقصيره، بل لدفعها إلى القيام بمجهود وخطوات أكثر فعالية من مثل قطع العلاقات مع الدولة العثمانية ومن ثم إلى تحويلها من دولة محايدة إلى دولة محاربة، كما ستتبين ذلك من ردّ السفير «جوسيراند» على رسالة رئيسه «بريان»، مما يسمح لنا بأن نستشف منه سعي الحكومة الفرنسية إلى استغلال موضوع الاعتداء على القنصلية وعذابات السكان ودماء الشهداء في سبيل تأمين مصالحها، من خلال انخراط الولايات المتحدة الأميركية في الحرب العالمية الأولى إلى جانب فرنسا وبريطانيا بكل ما تتمتع به من قوة سياسية واقتصادية وعسكرية.

٦ ـ السفير يستعقل الرئيس

لم يتأخر السفير «جوسيراند» في الردّ على رسالة رئيس الوزراء وزير الخارجية «بريان»، فكتب إليه رسالة وصلت في السابع من تموز ١٩١٦، يطمئنه فيها إلى أنه سينفذ تعليماته بقدر ما تسمح الظروف، ولكن من المستحسن ألا تغيب عن البال بعض الاعتبارات والأمور التي يحاول السفير،

من خلال التركيز عليها، ليس فقد تهدئة رئيسه بل تذكيره بما غاب منها عن ذهنه، وهي أمور بديهية في السياسة والمنطق وفي العلاقات بين الدول ما كان منها محارباً أو محايداً، مما يوحي لقارئ رسالة السفير بأن كلاً منهما، الرئيس والسفير، يعيش في جو مختلف عما يعيشه الآخر، أو أن ثقافة ومعرفة كل منهما تختلفان عن ثقافة ومعرفة الآخر، أو أن ما يريده الرئيس ويخطط له ويسعى للوصول إليه من خلال مشكلة القنصلية الفرنسية العامة في بيروت، قد غاب تماماً عن ذهن السفير أو عجز عن التقاط الفكرة لاستغلال الفرصة، وهذا برأينا ما يميز بين ذهنية الموظف واستقامته، مهما بلغت حصافته، وبين واقعية السياسي وانتهازيته مهما بلغ ترفعه وصدقيته.

يحاول السفير «عقلنة» رئيسه و«فرملة» اندفاعه من خلال وضع الأمور التالية في نصابها:

أ ـ إن المساعدة التي يقدمها المحايد للمحارب تبقى محدودة وشبه رسمية «ففي المبدأ لا يمكن أن ننتظر من قبلها (الولايات المتحدة) تدابير إلزامية»[1].

ب ـ إن فرنسا إذا أقدمت على توجيه اللوم إلى الحكومة الأميركية الاتحادية بسبب احتجاجها غير المجدي على اعتداء السلطات التركية على قنصلية فرنسا وعلى ما نتج عنه، فإنها سوف تجيب بأنه إذا اقتضى الأمر الانتقال من الأقوال إلى الأفعال، فهذه مهمة فرنسا المحاربة وليس الولايات المتحدة المحايدة؛ فرنسا التي تملك في البحر المتوسط الشرقي قوات معتبرة في البر والبحر، والفرنسيون المعنيون الرئيسيون لم يحاولوا أكثر من الاحتجاج غير المجدي على ما حصل لقنصليتهم ولأصدقائهم.

(١) Doc. P. 156. No. 135. le 7/7/1916.

ج ـ أما أن تعمد الولايات المتحدة إلى مجرد قطع علاقاتها مع السلطنة العثمانية فلا يعني إلا أن يزيد الوضع خطورة بدل تحسينه.

د ـ لقد أذهل ما أبداه «هوليس»، من ضعف المبادرة وقلّة النشاط، رؤساءه بمقدار ما أذهل الفرنسيين، وهم الذين أظهروا في خدمة فرنسا كل مهارة وشجاعة، «مما يوجب علينا ألاّ نسرف في احتجاجنا خشية أن نُجابه بحجة أنه طالما يوجد في مراكزنا وثائق جد خطيرة، فإنه من المدهش والمؤسف جداً لا يعمد موظفونا إلى نقلها إن تعذر عليهم إتلافها»[1].

هـ ـ إن الحكومة الأميركية قررت فعلاً استبدال القنصل «هوليس» بقنصل آخر ممتاز كان يخدم في اليونان، ولكن بسبب العداوة بين البلدين، فقد رفضت تركيا اعتماده لديها كقنصل أميركي في بيروت. أما أن يُقارن تصرف «هوليس» بما أظهره قنصل إسبانيا في القدس من نشاط وقدرة، فلا يصح بشكل مطلق، إضافة إلى أن الأمر يتعلق باختلاف طبيعة ونوعية تصرف المسؤولين في كل من بيروت والقدس، وهذا معروف ومعتمد في كل البلدان وخاصة في تركيا.

وهكذا استطاع السفير الفرنسي في واشنطن تنفيس الاحتقان والتوتر اللذين شابا العلاقة بين فرنسا والولايات المتحدة، التي كادت أن تتحول إلى ما يشبه الأزمة، وربما كانت المرة الأولى في تاريخ العلاقات الدولية أن يحصل اعتداء على قنصليات ومصالح دولة محاربة من قبل الدولة المحاربة الأخرى وأن تثير حادثة من هذا النوع أزمة بين دولتين إحداهما محاربة والأخرى محايدة، في ظل غياب المنظمات الدولية أو احترام بنود المعاهدات المتعلقة بحصانة المراكز القنصلية والدبلوماسية وبواجبات الدولة المحايدة

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

التي قبلت القيام بمهمة رعاية مصالح دولة محاربة في أراضي دولة محاربة أخرى.

إلا أن جهود السفير «جوسيران» تلك لم تمنع محاولة «بريان» السياسية البارعة في استغلال حادثة الاعتداء التركي على القنصليات الفرنسية، وفي إصراره على تحميل حكومة الولايات المتحدة وزر نتائجها، من أن تؤتي ثمارها السياسية والعسكرية، مع أسباب ودوافع أخرى كثيرة، عندما أقدمت حكومة الولايات المتحدة الأميركية على إعلان الحرب إلى جانب كل من فرنسا وبريطانيا في السادس من نيسان عام ١٩١٧.

في التحليل وسوء الظن

إذا تجاوزنا الإجابة عن السؤال المشروع الذي يقول:

«هل أن السلطات التركية كانت تنتظر اندلاع الحرب بينها وبين فرنسا، ومن ثم اقتحام القنصلية الفرنسية في بيروت، حتى تستطيع معرفة الشخصيات والجهات المتعاونة مع فرنسا؟

باعتبار أن صداقة الكثيرين من هؤلاء وعلاقتهم مع فرنسا تعود لسنوات طويلة قبل الحرب، وباعتبار أن الكثير من الجمعيات السياسية والأدبية كانت تمارس عملها وترفع شعاراتها وتتقدم بمطالبها وحتى أنها تعقد مؤتمراتها بمعرفة ومراقبة السلطات التركية لها.

وإذا ضربنا صفحاً عن تتبع أسباب تكاسل «هوليس» في حماية مصالح فرنسا، وهل كان ذلك تلكؤاً شخصياً منه أم تنفيذاً لسياسة بلاده التي لم تكن ترغب في إظهار انحيازها إلى فرنسا والحلفاء أو الضغط باتجاه تأزيم علاقاتها مع السلطنة العثمانية؟

وهل أن القرار باستبداله بقنصل آخر عمل سابقاً في اليونان كان عقاباً له

على تقصيره، أم تنفيساً للاحتقان وإرضاءً لحكومة فرنسا، أم أن مدة خدمته في بيروت قد انتهت؟

باعتبار أن ما كان بيده وتحت سلطته ولكونه يمثل دولة محايدة لم يكن يسمح له بأكثر من الاحتجاج بكلام دبلوماسي وباتصالات لن تؤدي إلى أكثر ما أدّت إليه، وباعتبار أن ما يدافع عنه من مصالح فرنسية ومركز قنصلي في بيروت لا يرقى إلى مرتبة القداسة التي تتصف بها الأماكن الدينية في القدس التي تشرف عليها جميعات فرنسية من دينية وغيرها والتي سُهل على القنصل الإسباني في القدس الحفاظ عليها والقيام بما يتوجب عليه كممثل لدولة إسبانيا المحايدة في الحرب العالمية الأولى.

أما السؤال المركزي الذي لا يمكن لنا أن نتجاوزه أو أن نحجم عن التصدي للإجابة عليه فهو التالي:

هل كان إبقاء الوثائق، الحاوية أسماء أصدقاء فرنسا وعملائها، في أدراج القنصلية العامة في بيروت تقصيراً من القنصل وموظفيه؟ أم كان مقصوداً وعن سابق تصور وتخطيط وتصميم من قبل جهات حكومية معينة؟ وهذا يستتبع بالطبع الشك بوجود جهة ما، غير السفير الفرنسي في اسطنبول الرئيس المباشر للنقصل في بيروت، كانت تصدر الأوامر إلى القنصل مباشرة دون معرفة السفير أو موافقته؛ وهذا يعني، إن استحال الشك يقيناً، أن الحكومة الفرنسية قد اتبعت، في هذه القضية على الأقل، سياسة مزدوجة ذات وجهين: وجه تمثله أوامر السفير في اسطنبول بضرورة إتلاف الوثائق السياسية، وهذا ما سنتبينه فوراً، ووجه تمثله جهات حكومية معيّنة كان لها في الموضوع مآرب أخرى.

بعد الضجة الواسعة التي أقلقت الرأي العام الفرنسي وأثارت النقمة في مختلف الأوساط على السفير الفرنسي في اسطنبول يوم إعلان الحرب، متهمة إياه بالتقصير وبالتالي التسبب في ما حصل من نتائج وأحداث مأساوية؛ لذلك

بادر السفير السيد «بومبار» إياه إلى توجيه رسالة إلى «بريان» في الخامس عشر من تموز عام ١٩١٦ جاء فيها ما ترجمته حرفياً:

«في حديثها عن إعدام العديد من الشخصيات السورية الذي وُجدت أسماؤهم في الوثائق التي استولت عليها السلطات التركية في قنصليات فرنسية عدة في الامبراطورية العثمانية، أوردت إحدى الجرائد المسائية أنه كان يمكن تجنب الأحداث المأساوية لو أصدرنا الأمر إلى قنصلنا بإتلاف سجلاته، أو على الأقل الوثائق التي يمكن أن تشكّل حجة للألمان (الأتراك) في الانتقام.

«جاء في التعليمات التي وجهتها إلى القناصل، عند قطع العلاقات، الأمر بألا يتركوا في الصناديق المختومة الموجودة في مراكزهم إلا الوثائق الغير سياسية، كما أوصيتهم صراحة بإتلاف، مع شيفرة الرموز، الوثائق التي يمكن أن تعرّض لشبهة الاتهام الأشخاص، من أبناء البلاد، الذين سبق لقنصلياتهم أن أقامت علاقات معهم. إنني أرى من واجبي إعلام معاليكم بذلك لإجراء ما يلزم»[1].

في هذا الوجه من السياسة الفرنسية، التي مثّلها السفير في اسطنبول عند اندلاع الحرب، تبدو تعابير هذه السياسة وتوجهاتها وتوجيهاتها صريحة ناطقة بالأوامر التي هدفت إلى تفويت الفرصة على السلطات التركية ومنعها من الانتقام من أصدقاء فرنسا وعملائها، من خلال إتلاف الوثائق التي تكشف تورطهم في التآمر والتعامل مع قنصلياتها المتواجدة في الكثير من مدن وولايات السلطنة العثمانية وأخصها وأهمها القنصلية الفرنسية العامة في بيروت.

أما الوجه الآخر من تلك السياسة، التي يجد الباحث نفسه مسوقاً إلى إتهام دهاقنتها، المخططين والآمرين والمنفذين، متسلحاً بسوء الظن وعدم

(١) Doc. P. 159. No. 137. Le 15/7/1916.

الثقة المشروعين في منهجية البحث التاريخي، ومترسملاً بمعطيات تاريخية ثابتة تظهر أحياناً تعبيراتها على لسان أبطالها، وترد أحياناً مجهولة الفاعل في الظاهر معلومة الجهة المتورطة حلةً ونسباً.

١ ـ المعطى التاريخي الثابت الأول هو أن رئيس الحكومة الفرنسية الذي حاول، وكاد أن ينجح في محاولته، خلق أزمة كبيرة مع الإدارة الأميركية بسبب تكاسل وقلّة حيلة قنصلها في بيروت، مصراً على طلب محاسبته وإنزال العقوبة به، في حين أن الوثائق الفرنسية، التي استطعنا الاطلاع عليها، أغفلت تماماً ذكر القنصل الفرنسي العام في بيروت وموظفي القنصلية وإخلالهم القيام بواجباتهم، وهم الذين قصّروا قسراً أو تعمدوا التقصير في تنفيذ أوامر رئيسهم المباشر، السفير الفرنسي في اسطنبول، كما أغفلت تماماً الحديث عن أية إجراءات مسلكية من معاقبة أو حتى توجيه اللوم إلى أي من القنصل أو أحد موظفي القنصلية الفرنسية في بيروت.

وفي هذا السياق، تأتي رسالة السفير «بومبار» إلى الرئيس «بريان» يبرئ فيها ساحته ويؤكد قيامه بواجبه لإنقاذ أرشيف القنصلية في بيروت، إدراكاً منه لما تحويه وثائقه من أسرار، واستشرافاً لما قد يجره فضح تلك الأسرار من نتائج خطيرة على أصدقاء فرنسا، حيث يرى السفير، في مسلكية وانضباط لا غبار عليهما، **أن مصلحة فرنسا تكمن في الحفاظ على أصدقائها ومنع العدو من الاطلاع على طبيعة ومستوى العلاقة مع أصدقائها والمشمولين بحمايتها.**

في حين يتراءى للباحث وجود سياسة فرنسية غير معلنة تعتمدها وتنفذها جهات فرنسية عليا ونافذة خططت ونفذت بدم بارد، متخطية التراتب الوظيف وموقع السفير في اسطنبول، خطة الإبقاء على الوثائق في القنصلية العامة في بيروت، لأنها تجد أن **مصلحة فرنسا تكمن في التضحية بأصدقائها**، والسبيل إلى ذلك إدراكها، بل يقينها، أن السلطات التركية سوف تعمد، وفور إعلان الحرب، إلى كشف أسرار تلك الوثائق وإلى الانتقام من الأشخاص الذين ترد أسماؤهم فيها.

٢ـ المعطى التاريخي **الثاني** الثابت نجده في رسالة لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية إلى الرئيس «بريان»، حيث تطلب اللجنة منه اتخاذ التدابير الفاعلة لوضع حد لأنواع الاضطهاد التي يتعرض لها السكان التعساء في سوريا، وفي هذا الاتهام صريح للحكومة بأنها وحتى الرابع عشر من حزيران ١٩١٦ قد قصرت بالقيام بما يحفظ فعلاً أرواح أصدقاء فرنسا وبالتالي مصلحة فرنسا؛ وحيث تورد اللجنة، في سياق لفت نظر الحكومة إلى ما يتعرض له السوريون من أنواع الاضطهاد، عبارة اعتراضية بين فاصلتين، بلغة حاذقة توصّف المفعول وتجهّل الفاعل:
.«Suspects d'être favirables à la France»

إن لجنة الشؤون الخارجية، التي صوتت بتاريخ الرابع عشر من حزيران ١٩١٦ على نص مذكرة بخصوص الوضع في سوريا وبعثت به في السابع عشر من الشهر نفسه إلى رئيس الوزراء، بما تجمع لديها من الوقائع وما اطلعت عليه من خفايا السياسة الفرنسية المعتمدة في موضوع الاعتداء على القنصليات، وما تعرض له أعضاؤها، باعتبارها ممثلي الشعب الفرنسي، من ضغوط الرأي العام الفرنسي واللبناني والعالمي نتيجة شيوع الأخبار عن الوضع المأساوي في لبنان وسوريا وعن أعمال النفي والاضطهاد والمجاعة والإعدام التي تعرض ويتعرض لها أصدقاء فرنسا وعملاؤها، مما يعرض سمعة فرنسا وكرامتها وصدقيتها لأشد المخاطر، ما أجبر اللجنة على التوجه إلى «بريان» وحكومته مباشرة بالإتهام بالتقصير والعجز عن القيام بالتدابير اللازمة والواجبة في ظل هذا الوضع، وباتهام الحكومة بأنها، وإن لم تخطط وتدبّر للوصول بالأمور إلى ما وصلت إليه، فهي تعمل من قبل بعض أركانها للاستفادة مما حصل واستغلال عذابات ودماء السوريين «من كل عرق ودين» في حربها ضد تركيا، مما يجعل البعض يعتقد أو يتوهم بأن ذلك يخدم مصالح فرنسا.

إن لجنة الشؤون الخارجية، التي لجأت إلى الإيحاء وعدم تسمية الجهة أو الأشخاص الذين يعتقدون ويتوهمون أن ما حصل قد يخدم مصالح فرنسا، تقصد بالتأكيد فريقاً فرنسياً سياسياً ـ فكرياً أو عسكرياً ـ مخابراتياً كان، ومنذ ما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قد أعد للأمر عدته فوضع خطة القفز فوق صلاحيات السفير في اسطنبول وتوجيه الأوامر مباشرة إلى القنصلية العامة الفرنسية في بيروت بعدم إتلاف الوثائق التي تشكل حجة للسلطات التركية لأن تفعل ما سوف تفعله في اعتدائها على حرمة القنصلية ومحتوياتها، بانتظار ما يتبع ذلك من تطورات تصب في مصلحة فرنسا الاستراتيجية.

٣ ـ أما المعطى التاريخي الثابت **الثالث** والأخير فهو ما كشفه «بريان» في رسالته إلى سفيره في روما، الذي تعرض لضغوط الأوساط الدينية وخاصة من قبل المونسنيور شديد الوكيل البطريركي الماروني في روما؛ ففي معرض إظهار جميل فرنسا على الموارنة واللبنانيين، من عدم معاملتهم كمحاربين أعداء يسكنون في أراضي دولة محاربة، ومن سعيها إلى الإلحاح على حكومة الولايات المتحدة للضغط على الحكومة العثمانية كي تقلع عن أساليب الاضطهاد الذي تمارسه على أصدقاء فرنسا وعملائها الذي اطلعت على أسمائهم في أرشيف القنصلية في بيروت، إلى السعي لجمع التبرعات ومحاولة إيصالها إلى المعوزين في المناطق اللبنانية، **بشرط الحصول على ضمانة تركية بالموافقة على مراقبة لجنة أميركية محايدة لعملية توزيع الإعلانات** لئلا تعمد السلطات إلى مصادرتها وحرمان المستحقين من الأهالي من مبالغها أو كمياتها.

أما في حال رفض الحكومة العثمانية، يقول «بريان»:

«فلا يبقى أمامنا إلا استغلال موقفها هذا بأن نشيع، في جميع البلدان العربية، **قدر ما يكنه الأتراك من كره للأهالي، المسيحيين منهم والمسلمين**

بشكل خاص، وإظهار نبل التدخل الفرنسي لصالحهم، وفضح مخطط أنور وجمال في دفعهم إلى الموت جوعاً»[1].

إنه الكلام الصريح بلغة فصيحة لا لبس فيها، يُسرّ به رئيس الحكومة الفرنسية، وهو العارف والمشرف والمشترك أو الموافق على كل المخططات التي تضعها الحكومة وأجهزتها المدنية والعسكرية لخدمة المصلحة الفرنسية، يُسرّ إلى سفيره في عاصمة الكثلكة بملامح خطته ومراحلها، إنطلاقاً من إبقاء الأرشيف في أدراج القنصلية في بيروت، مروراً بوضع شروط صعبة، يعرف تماماً صعوبة إن لم يكن استحالة قبول السلطات التركية بتنفيذها، منها القبول بالسماح لمراكب مستأجرة ومحملة بالمؤن والمساعدات اختراق الحصار المضروب على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط، ومنها أن تحصل الحكومة الأميركية على ضمانة مسبقة من السلطات التركية بالموافقة على تزويد المواطنين السوريين من مسلمين ومسيحيين بالمؤن وقبولها بإشراف «لجنة تشكّل حالياً في الولايات المتحدة على عملية توزيع هذه المؤن خوفاً من مصادرتها من قِبل الأتراك. فكأن «بريان» بشروطه هذه يتوخى ويتمنى ويتوقع رفض أنور وجمال لمشروع إرسال المساعدات ليصل إلى المرحلة التالية من خطته وهو تهييج الرأي العام الإسلامي في جميع البلدان العربية وحثه، إضافة إلى نقمته على إعدام قوافل الشهداء والنفي، على القيام بالثورة على الأتراك المضطهدين الذين يقبلون بأن يموت الناس جوعاً على أن يسمحوا بإنقاذهم عن طريق السماح بإدخال المساعدات الآتية من أميركا وغيرها بهمة وكرم فرنسيين نبيلين!؟

إن المصلحة الفرنسية العليا تكمن في النصر على الألمان وحلفائهم

(1) Doc. P. 150-151. No. 131. Le 20/6/1916.

الأتراك، وهو الهدف الذي لا يعلوه هدف ويهون في سبيله كل التضحيات ويستحل فيه كل المحرمات، فلا بأس إن تحقق الهدف على حساب دماء الناس وعذاباتهم بدفعهم للقيام بالثورة تنفيذاً للمخطط الفرنسي، هذه الثورة التي انطلقت شرارتها من مكة في العاشر من حزيران عام ١٩١٦، حيث أعلنها الشريف حسين ضد الدولة التركية المسلمة بدفع وتخطيط إنكليزيين، تتلاقى وتتزامن مع ما كانت الحكومة الفرنسية تسعى إليه في لبنان وسوريا منذ ما قبل اندلاع الحرب في صيف العام ١٩١٤، ومع ما وصلت إليه من مراحل تنفيذ خطتها في العشرين من حزيران ١٩١٦ تاريخ إرسال «بريان» رسالته إلى سفيره في روما.

الخاتمة

إن استقراء وثائق الخارجية الفرنسية وتحليل بعض ما تفصح عنه وبعض ما تلمح إليه من معلومات وشذرات تتعلق بموضوع الموقف الفرنسي من عملية الاعتداء على القنصلية الفرنسية العامة في بيروت من قبل السلطات التركية فور دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، كانا، الاستقراء والتحليل، يهدفان للوصول إلى الحقيقة الجلية في موضوع هام وخطير من مواضيع تاريخنا اللبناني ليس إلاّ؛ هذه الحقيقة، التي تبدو جافة أو مقلقة أو جارحة، هي التي يجب أن تبقى الهدف الأسمى لكل بحث تاريخي، تترسمل بها أجيالنا لبناء وطن عزيز، وتدرك من خلالها أهداف الدول القوية، في كل آنٍ وزمان، للحفاظ على مصالحها ولو أدى ذلك إلى التضحية بمصالح غيرها من الدول والشعوب والأوطان.

إن ما قد يبدو في استقرائنا وتحليلنا من إسراف في التوغل خلف الكلمات وما بين السطور أو في سوء الظن في نوايا القادة والزعماء للدول

القادرة، مَن فرنسا إلى تركيا، ومن كل غرب إلى كل شرق، ليس نابعاً من فرضية مسبقة أو من عصبية شبقة، بل إن مرده إدراك، بل يقين بأن العلاقات بين الدول والشعوب تتأسس على المصالح بالدرجة الأولى وليس على العواطف، وبأن القادر والقوي منها مستعد للتضحية بالعاجز والضعيف وإن ادعى أبوة أو أخوة أو أمومة.

مصادر البحث ومراجعه

١ - Documents Diplomatiques français relatifs à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du mandat: 1914-1946. Collection dirigée par Antoine Hokayem. Tome 1.

Beyrouth: les éditions universitaires du Liban. Paris: L'Harmattan. 2003.

٢ - إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه - ١٣٣٤هـ. نشرت من قِبل القائد العام للجيش الرابع العثماني أحمد باشا باشا. مطبعة الطنين. اسطنبول ١٩١٨.

٣ - Mourre Michel: Dictionnaire encyclopédique d'histoire. 8 volumes Bordas. Paris 1978.

٤ - Rabbath Edmond: La formation historique du Liban politique et constitutionnel. Essai de Synthèse. Publications de l'université Libanaise. Beyrouth 1973.

٥ - موسى سلميان: الحركة العربية، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ - ١٩٢٤، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧.

٦ - زين زين نور الدين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان. دار النهار للنشر، بيروت ١٧٧.

تبدلات اجتماعية في جبل لبنان وآفاقها بعد الحرب العالمية الأولى

الدكتور مسعود ضاهر

مدخل منهجي

كتبت دراسات علمية كثيرة، ومن اتجاهات ومناهج علمية متنوعة ومتباينة، حول ما عاناه سكان جبل لبنان وباقي المقاطعات اللبنانية في الحرب العالمية الأولى[1]. وتسعى هذه الدراسة:

* إلى تقويم شمولي لأبرز تلك الدراسات بهدف إظهار الحقائق التاريخية الموثقة والتي تساهم في:

---

(١) أشرت في دراساتي السابقة إلى كثير من مصادر تلك المرحلة ومراجعها. يراجع بشكل خاص:
مسعود ضاهر: «تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ ـ ١٩٢٦»، بيروت ١٩٧٤ و١٩٨٤.
مسعود ضاهر: «استراتيجية الحصار والتجويع ضد جبل لبنان ١٩١٤ ـ ١٩١٨». دراسة قدمت إلى مؤتمر: «الحرب العالمية الأولى في ذاكرة بلدان شرق المتوسط». وتمّ تنظيمه في المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت بالاشتراك مع المعهد الفرنسي للدراسات عن الأناضول في اسطنبول، والمعهد الألماني للدراسات التاريخية في روما. عقد المؤتمر في بيروت في الفترة ما بين ٢٧ نيسان والأول من أيار ٢٠٠١. ونشر في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ١٩٧، الصادر في حزيران ٢٠٠٣، صفحات ٣ ـ ٢٢.
ولمزيد من الاطلاع، يراجع في هذا المجال: ـ **أديب باشا: «لبنان بعد الحرب»**، القاهرة ١٩١٩.

- Antoine Yammine: *«Quatre ans de misère: Le Liban et la Syrie pendant la Guerre»*. Hindié, Le Caire, 1922.

* تحليل التبدلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها لبنان في نهاية الحرب.

لقد اعتمدت منهجية المقارنة بين المصادر العلمية لتلك المرحلة وكيفية تجلي الحقائق التاريخية.

من خلال مذكرات شهود عيان لا يرقى الشك إلى حبهم للبنان واللبنانيين. فهناك مذكرات مهمة لشخصيات لبنانية بارزة، دينية ومدنية، عايشوا تلك المرحلة الصعبة، وخبروا عن كثب سياسة العثمانيين والحلفاء معاً. ثم قدموا حقاً شهادات على قدر كبير من الدقة والموضوعية من جهة، واختلاف وجهات النظر من جهة أخرى. إلا أنها، بتكاملها، تظهر الفاعلين الحقيقيين الذين صنعوا مأساة مدمرة أودت بحياة مئات الآلاف من اللبنانيين.

إن تعرية مواقف القوى المحلية والإقليمية والدولية التي شاركت في تجويع الشعب اللبناني تثبت بالملموس أن المجاعة التي حلّت بجبل لبنان وسائر أرجاء المنطقة كانت جزءاً من استراتيجية عامة تواطأ فيها مسؤولون من الأتراك العثمانيين، ومن الفرنسيين، والإنكليز، والألمان في وقت واحد ولأهداف استراتيجية متباعدة. كما أن نقص المناعة الإنسانية والوطنية في الأزمة ساهم في تضخيم حجم المأساة. فقد لعب تجار الحبوب، من لبنانيين وسوريين، دور قذراً في تجويع أشقائهم حتى الموت. وتغلبت المصلحة النفعية المركنتلية التي تغلب مبدأ الربح السريع دون ضوابط أو قِيم أخلاقية على الشعور الإنساني لدى تجار الحروب من الحكام والتجار، والمرابين، والمضاربين. قد شكل هؤلاء طبقة أثرياء الحرب التي شاركت في حكم لبنان من مختلف الطوائف وفي جميع المناطق، دون أن توجه إليها أصابع الإتهام عن الجرائم الكبيرة التي ارتكبتها بحق لبنان واللبنانيين.

إنطلاقاً من هذه الرؤية المنهجية، كان لا بدَّ من الإشارة إلى عدد من الملاحظات المنهجية:

الملاحظة الأولى: أن بعض من فرضوا الحصار على الشعب اللبناني حتى الموت جوعاً تمّ توصيفهم في عدد من الكتب التاريخية بالمنقذين والمدافعين عن حرية اللبنانيين المسلوبة. فساهم ذلك التوصيف في تعميق مأزق البحث التاريخي حول تلك الحقبة من تاريخ لبنان.

الملاحظة الثانية: أن بعض أثرياء الحرب من تجار الحبوب، وسارقي أموال المعونات الواردة من الخارج، والمضاربين بقوت الشعب، وصفوا بالمحسنين الطيبين، وشكّلوا طليعة الفئة الارستقراطية اللبنانية التي شادت القصور الفخمة على حساب مأساة الشعب اللبناني. مع ذلك، لم يتساءل أي من المؤرخين اللبنانيين عن مصادر ثروة تلك الفئة التي نظر إليها غالبية اللبنانيين بكل إجلال واحترام في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى.

الملاحظة الثالثة: أن الحرب العالمية الأولى أظهرت ضرورة الاهتمام بتاريخ المدن الكبرى وليس فقط تاريخ جبل لبنان. فبيروت التي كانت تنمو بسرعة، تحملت العبء الأكبر من ويلات تلك الحرب بسبب كثافة السكان فيها، وكثرة الفقراء والعاطلين عن العمل، وعدم توفر الاحتياط الكافي من الغذاء أو الحصول عليه لإدخاره.

لقد حلّت ويلات الحرب، بالدرجة الأولى، على سكان المدن أكثر من سكان الأرياف. وكان على من كتب تاريخ تلك الحقبة أن يظهر حجم المأساة التي حلّت ببيروت وباقي المدن الساحلية التي تحملت أوزار تلك المجاعة بسبب الحصار البحري وسياسة التجويع.

الملاحظة الرابعة: أن الكتابة التاريخية المؤدلجة ركزت على مجاعة السكان المسيحيين في جبل لبنان دون أن تشير، وبصورة علمية دقيقة، إلى حجم تلك المجاعة في المدن والمناطق اللبنانية المجاورة. وهذا ما شجع لاحقاً عدداً من المؤرخين المؤدلجين من طوائف أخرى بالقول إن إسلامية

سكان تلك المدن كانت وراء إغفالهم في الدراسات اللبنانية عن المجاعة، علماً أن الذين ماتوا في تلك المأساة البشرية هم لبنانيون من جميع الطوائف. إلا أن الكتابة الطوائفية المؤدلجة أدخلت هذا الحدث الوطني الإنساني في دائرة التاريخ المؤدلج الذي يحول اللبنانيين إلى أرقام في لعبة الطوائف المتناحرة.

الملاحظة الخامسة: أن هذا الشكل من الكتابة المؤدلجة عن ضحايا المجاعة، والحصار، والجراد، والأوبئة وجد شبيهاً له في كتابة مؤدلجة من نوع آخر تظهر إنقسام الرأي العام اللبناني إبان تلك المرحلة بين من مرحب بالفرنسيين والإنكليز كمحررين، وبين رافض لهم باعتبارهم طلائع لاحتلال المنطقة على قاعدة إتفاقيات سايكس ـ بيكو السرية.

الملاحظة السادسة: أن الكتابة التاريخية عن تلك المرحلة لم تتنبه بشكل كاف لوعد بلفور الذي قضى بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. علماً أن هذا الحدث قد تسبب لاحقاً بحروب في المشرق العربي لم تنقطع طوال القرن العشرين. وهي ما زالت مفتوحة على جميع الاحتمالات، وتهدد مصير لبنان واللبنانيين.

أضواء على كيفية التأريخ للمجاعة الكبرى في المناطق اللبنانية ١٩١٤ ـ ١٩١٨

حظيت تلك المجاعات بعدد كبير من المؤتمرات، والدراسات العلمية، والكتب، والمذكرات. ولا يتسع المجال لتعدادها ومناقشته، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث منها تعبّر عن اتجاهات متباينة جداً ومتناقضة لكنها تقدم لوحة شاملة مهمة لفهم أسباب تلك المجاعة وأبعادها:

أ ـ مذكرات لطف الله نصر البكاسيني

يعتبر هذا الكتاب مصدراً تاريخياً بالغ الأهمية. فقد كتبه لطف الله نصر

البكاسيني، وصححه ونشره الخوري ثابت الديراني، وكلاهما ماروني من جبل لبنان. وقد صدر عام ١٩٢٢، أي بعد أربع سنوات فقط على نهاية الحرب العالمية الأولى. وهو مصدر غني بالأرقام، وسجل حافل بأسماء القُرى اللبنانية المتضررة، وبملاحظات نقدية قيمة[١].

فعلى سبيل المثال لا الحصر، قدم البكاسيني ملاحظة دقيقة وغير مسبوقة آنذاك حول البعد الإنساني للمجاعة، والذي أغفله عدد كبير من المؤرخين المؤدلجين. كتب البكاسيني: «أمسك الأغنياء على ما في أيديهم من المال فخف الشغل وكسدت الحرف وأقفلت أبواب البحر فانقطع الغوث من المهاجرين، وخنق السوري واللبناني معاً، وطغا الجراد في أول سنة من الحرب فأوقع الخراب واستنزف ما بقي في يد اللبناني من أسباب الحياة. ورأت الحكومة لبنان في جسمه هذا الجرح البليغ فأجهزت عليه. قطعت عنه الحنطة وسائر الحبوب من أنحاء سوريا كلها إلا القدر القليل الذي تستر نيتها الخبيثة من قتله جوعاً على أعين الملأ. وكانت إذا أراد اللبناني الخروج إلى البقاع أو حوران أو غيرهما من البلدان الفائضة فيها الغلال ليبتاع مؤنة، تمانعه أشد الممانعة أو تتقاضى منه «الوثائق» وهي لا تعطيها إلا للعدد القليل. ومتى أبرز اللبناني وثيقته فإنما يباع من الحبوب ما لا يحسب شيئاً لقلته. أما وسائل النقل فلم يبق لها وجود لأن السكة الحديدية قد انقطعت لأجل الخدمة العسكرية والخيل والبغال والجمال وحتى الحمير جمعتها الحكومة». وأضاف: «كنت ترى عامة الناس يذهبون أفواجاً كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، لينقلوا على ظهورهم شيئاً من الحبوب من أماكن بينهم وبينها مسافة يومين أو أكثر. وقد بلغت الحكومة من الظلم أنها كانت تكمن لهم على أبواب المدن، وفي مفارق الطريق، وعلى معابر الأنهر. وهناك تقيم الجنود

(١) لطف الله نصر البكاسيني: «نبذة من وقائع الحرب الكونية». صححه ونشره «الخوري ثابت الديراني». مطبعة «الاجتهاد» في بيروت عام ١٩٢٢ في ٥٧٥ صفحة. تراجع: صفحات ٣٥٨ ـ ٣٦١، و٣٧٥.

والسماسرة وكثيراً ما كانوا يسلبون المسافر زاده بداعي تهريب الخبز والداعي الحقيقي إرادة أن يملأوا بطونهم الفارغة».

ثم أشار إلى عامل مهم من عوامل المجاعة وهو دور الألمان: «ومن أكبر أسباب هذا الغلاء الفاحش دولة ألمانيا. فإنها في السنة الأخيرة من الحرب أصبحت تبتاع كل ما استطاعت ابتياعه من حنطة البلاد بأثمان يعجز الوطنيون عن المشترى بمثلها. ولكثرة ما تبتاعه كان لديها زهاء عشرين ألف سيارة تنقل الحنطة إلى بلادها. فما الحيلة وقد انقطع الشغل، ونضب الرزق، وارتفع السعر، وضاق الزرع. فهل بقي للفقير سوى الجوع والموت؟».

وانتهى إلى استنتاج في غاية الأهمية: «إن هذه الحرب أرتنا من غرائب الأطوار البشرية أشكالاً وأنواعاً. أرتنا الإنسان وحشاً ضارياً يفترس أخاه ويسكر بشرب دمه في ميادين القتال ويفتخر بخراب البلاد وهلاك العباد. أرتنا الإنسان دنيئاً سافلاً بلا شعور ولا إحساس حتى إنه ليبني هناءه على شقاء أخيه ويتلذذ في عذاب أمثاله ومواطنيه. وكان بعض الأغنياء، بل قل معظمهم، يقضون نهارهم في أثناء هذه المجاعة الهائلة بالمضاربات المالية وتحصيل الأرباح الوافرة في كل أصناف التجارة. ثم يحيون لياليهم بالولائم والرقص والقصوف وأخوهم المسكين في ظلمات الليل عند أبواب دورهم المقفلة وتحت نوافذهم البارزة منها الأنوار يئن ويستصرخ ويتضور جوعاً فيذهب صراخه سدى لما يحول دونه ودون أذن الغني من نغمات البيانو وغناء المغنيات وعزف آلات الطرب. وإذا سمع الغني أنينه وبكاءه أوعز إلى خدمه أن يبعدوه ويطردوه مضروباً مهاناً. وفي صباح اليوم التالي يمر ذلك الغني في شارع المدينة فيشاهد المسكين الذي طرده ليلاً مطروحاً على الأرض جثة باردة يابسة، فيتخطاه غير مكترث له كأنما هو قد مرّ على جثة بهيمة».

ب ـ مذكرات الأمير شكيب أرسلان

ترك الأمير شكيب مذكرات متفرقة وهي تقدم صورة شمولية بالغة الدقة حول الأسباب الحقيقية للمجاعة، والأهداف التي توخاها الفرنسيون والإنكليز منها[1]. ورغم إتهامه بالانحياز إلى العثمانيين، إلا أنه لم يغفل سوء الإدارة العثمانية الذي بلغ حد الاستهتار بأرواح الناس. وكانت نتيجة السياسة السيئة أن عجز الفقراء ومتوسطو الحال عن شراء الحبوب، ولم تنفع أساليب السلطنة في المصادرة بسبب فساد الجهاز الإداري العثماني بكامله لدرجة أن تلك الإدارة عجزت عن تأمين الحبوب للجيش العثماني نفسه. فقد عانى ذلك الجيش من شدة المجاعة ومات منه الآلاف على الطرقات بعد أن حاولوا الاستمرار على قيد الحياة مستخدمين أبشع الأساليب قسوة وهمجية ضد السكان المحليين الجائعين. مما ساعد على توليد صورة قاتمة عن همجية الجيش العثماني كما رسختها السنوات الأخيرة لحكم السلطنة في أذهان السكان في بلاد الشام.

كتب الأمير شكيب: «فالذي يقصد «التجويع» لا بدّ أن يكون هو شبعان لا جائعاً، وإلا فلا يكون قصد التجويع بل يكون أصيب هو بالجوع وعجز عن الميرة. ومن عجز عن كفاية نفسه فهو عن كفاية غيره أعجز... فإن قلنا إن الأتراك أماتوا نصارى لبنان تجويعاً لمحبتهم لفرنسا فقد مات ألوف مؤلفة من مسلمي سوريا من الجوع أو من الأمراض الناشئة من فقد الغذاء والدواء، فهل قتلت الدولة هؤلاء المسلمين أيضاً لحبهم لفرنسا؟ وإن ردّ بأنها تعمدت قتل هؤلاء لكونهم عرباً فهل تتعمد قتل أتراك (الأناضول) ومهاجري

---

(١) **ذكريات الأمير شكيب أرسلان** عن «الحرب الكونية الأولى وعن المجاعة في سوريا ولبنان». جمعها نجيب البعيني من مصارها الأصلية، ونشرتها دار نوفل في بيروت عام ٢٠٠١. تراجع صفحات ٤٩ ـ ٥٢.

(أرضروم) و(ان) و(تبليس) وهم أكراد وجميع ارتكانها عليهم؟. كنا في الآستانة سنة ١٩١٧ و١٩١٨ وكان كثير من الفقراء فيها يموتون جوعاً، وهي عاصمة الملك وكان الأغنياء يوزع عليهم الخبز الأسود المجهول الماهية بمقادير.

وأكد أرسلان على قناعة راسخة لديه مفادها أن المجاعة في بلاد الشام كانت جزءاً من استراتيجية الحلفاء في الحرب العالمية الأولى تجاه هذه المنطقة. فكتب: «لو شاء الحلفاء لأوصلوا الإعانات إلى سواحل سوريا كما أوصلوها إلى ممالك أخرى عضها الجوع بنابه أثناء الحرب ولوقوا من الموت أولئك الألوف الذين ماتوا من مسلمين ونصارى. إن الحلفاء مع كونهم في حال حرب مع ألمانيا أمكنهم أن يتفقوا معها على إعاشة بلجيكا وتعينت لذلك لجنة مؤلفة من متحايدين إسبانيين وهولنديين كانت تأتي بالحبوب والأرزاق من أميركا وتوزعها على المعوزين في بلجيكا.

ولقد ثبت أنهم أرسلوا إلى البولونيين بإمدادات وافرة وإلى الصربيين وإلى غيرهم. فلو كانوا يحبون أهل لبنان كما يدعون لاتفقوا مع الدولة العثمانية وقتئذ وأغاثوهم ولو بسداد العوز، ولأنقذوا تلك الخلائق من الموت، أو لسمحوا على الأقل بتسريب الإعانة التي أرسلتها أميركا لأجل سوريا، والإعانة التي كان الباب ينوي إرسالها إلى المسيحيين وهم كانوا الحائلين من دونها. أفتكون هذه هي الحقيقة وتكون التبعة العظمى في عدم دفع هذه المجاعة عليهم، ونأتي نحن، لأغراض في الأنفس، فنبرئهم من جناية هم أنفسهم أدرى بأنهم كانوا فاعليها لأسباب حربية وسياسية قامت في نفوسهم، ونقول لهم: كلا إنما أجاعنا الأتراك وأنتم أولاء أحييتمونا؟ ولكثرة ما نردد أمامهم هذه الكلمة يبلغ بهم الأمر أن يظنوا كونهم صاروا أحق بالبلاد من أهلها وأن يصارحونا بقولهم: لولانا لكنتم جميعاً هلكتم جوعاً.

ج ـ دراسة الباحثة الألمانية ليندا شيلشر: «مجاعة ١٩١٥ ـ ١٩١٨ في سوريا الكبرى»

اعتمدت الباحثة منهجاً نقدياً في دراسة الأسباب العميقة للمجاعة في جبل لبنان والمشرق العربي إبان تلك المرحلة. وقد انطلقت من مقولات التاريخ الشمولي لهذه المنطقة، وذلك بالاستفادة من وثائق الأرشيف الفرنسي، والألماني، والإنكليزي، والعثماني، وبعض المصادر المحلية[1]. وعرت هشاشة المقولات الانفعالية السائدة حول أسباب تلك المجاعة، ومسؤولية كل من القوى التي شاركت في أهوالها.

ترى الباحثة بحق أن أسباب المجاعة تعود إلى تحالف عدة قوى ضد الفقراء ومتوسطي الحال من اللبنانيين وسكان المناطق المجاورة. وضم ذلك التحالف قوى عثمانية، وفرنسية، وألمانية، وبريطانية، وسورية، ولبنانية. وزاد في هول المأساة وصول الجراد بأرتال كبيرة، والأوبئة، وسوء التغذية، والمصادرة، وسوق الشباب إلى الجندية. تضاف إلى ذلك رغبة القيادة العسكرية الألمانية في شراء الحبوب لتموين جيوشهم مهما كانت الأسعار مرتفعة. مما أوجد سوقاً سوداء حقيقية استفاد منها تجار الحبوب في مختلف مقاطعات بلاد الشام ومدنها، خاصة في حوران وبيروت ودمشق وحلب. ونبهت الباحثة إلى التغييب المتعمد لكثير من وثائق تلك المجاعة من الأرشيفين الفرنسي والبريطاني لعقود عدة نهاية بعد الحرب. ولفتت انتباه الباحثين إلى حصر الفرنسيين والإنكليز على تحميل العثمانيين بمفردهم هول تلك المجاعة لكي يبقى سجلهما خالياً من وثائق الإدانة الدامغة لمرتكبي تلك المأساة.

---

(١) **L. Schatkowski Schilcher: «The Famine of 1915-1918 in Greater Syria».** In: Jhon Spagnolo (ed): *«Problems of the modern Middle East in historical perspective».* Essaya in Honour of Albert Hourani, The Middle East Centre, Saint Antony's College Oxford, Ithaca press 1992, Chapter Thirteen, pp. 229-258.

بعد هذه الإشارات السريعة إلى ثلاث نماذج لدراسات رصينة عن المجاعة الكبرى في لبنان. نخلص إلى القول بأن جماعة «الاتحاد والترقي»، خاصة جمال باشا، والإعدامات التي نفذها ضد أحرار بلاد الشام لعبت الدور الأساسي في توجيه أصابع الإتهام ضد الأتراك العثمانيين. وقد طالت المجاعة، بدرجات متفاوتة، غالبية المناطق اللبنانية وليس جبل لبنان فقط. ولم يكن الأتراك المسؤولين الوحيدين عنها بل شاركتهم قوى أوروبية أخرى. وأخطر ما تعرض له تاريخ تلك الحقبة من تشويه أن الكتابة المؤدلجة نجحت في إلباس التهمة إلى الجانب العثماني منفرداً.

لكن الوثائق الدامغة تؤكد بما لا يقبل الشك أن أطراف تلك الجريمة كانوا من الأتراك العثمانيين، ومن الفرنسيين، والإنكليز، والألمان، وتجار الحروب من اللبنانيين والسوريين. وجرى تغييب الوثائق الفرنسية والإنكليزية التي تدل على هول ذلك الحدث تحت ذريعة السرية التاريخية التي كانت تمتد لخمسين سنة. فأخرج موضوع المجاعة من دائرة البحث العلمي لعقود عدة، ولم يشجع الباحثون على الخوض فيه حتى فترة قريبة. لكن دراسات علمية رصينة عادت لتتناوله بكثير من الدقة والموضوعية، وعرت مواقف جميع الأطراف التي شاركت في تجويع اللبنانيين، وأعادت الاعتبار للحقائق التاريخية في هذا الموضوع البالغ الأهمية في تاريخ لبنان المعاصر.

أضواء على التبدلات الاجتماعية في لبنان بعد الحرب العالمية الأولى

أ ـ التبدلات الديموغرافية

تضاربت المعطيات التاريخية بشكل واضح حول تحديد عدد اللبنانيين الذي قضوا جوعاً في الحرب العالمية الأولى. ويعود التضارب، بالدرجة الأولى، إلى التلبك المنهجي الناجم عن استخدام المفاهيم والمصطلحات العلمية لتحديد هوية الأماكن الجغرافية التي حصلت فيها المجاعة.

كما أن هوية «اللبنانيين» الذين ماتوا جوعاً في مرحلة تاريخية لم تكن واضحة لأن لبنان الحالي لم يكن قد اتخذ هوية جغرافية وسياسية واضحة المعالم. ونتج عن ذلك التلبك المنهجي مشكلات حادة أثرت على البحث العلمي الموضوعي في أحداث تلك الحقبة. فكان من الصعب جداً معرفة الرقم الدقيق لضحايا المجاعة. ومع غياب الأرقام الرسمية الموثوقة تم تداول ما ورد في مذكرات بعض الدبلوماسيين ورؤساء فرق المساعدة وشهود العيان. فقدر عدد قتلى المجاعة بحوالي المائتي ألف طبقاً لمصادر ألمانية، وبحوالي ١٨٠ ألفاً طبقاً لمصادر فرنسية[١]، و١٢٠ ألف طبقاً لمصادر أميركية. ويرتفع الرقم إلى ما بين ١٥٠ إلى ٢٥٠ ألفاً حسب تقدير بعض اللبنانيين. وينخفض كثيراً تبعاً لتقدير الأمير شكيب أرسلان. فحين يسأل في مقابلة صحفية مع جريدة **«مرآة الغرب»** الصادرة في نيويورك بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٢٧، عن عدد موتى المجاعة في سوريا ولبنان أجاب: «لا يوجد لذلك إحصاء مضبوط وإنما أقدر أن أقيس موتى جبل لبنان على درجة موتى الدروز. فالدروز كانوا قبل الحرب ٦٢ ألف نسمة فصاروا ٤٨ ألفاً، أي مات منهم ١٤ ألفاً. فموتى المجاعة هم ١٤ ألفاً من الدروز وعدد مماثل من الطوائف الأخرى.

وأظن موتى سائر الطوائف هي على هذه النسبة. ومما لا ينبغي نسيانه أن عدد الذين ماتوا بالجوع رأساً هو قليل جداً وإنما كان بالأمراض المتعددة التي نشأت عن قلّة الغذاء... وأخمن الذين ماتوا في سوريا من المجاعة ومن الأمراض الناشئة عن قلّة الغذاء وفقد وسائل النظافة بستمائة ألف على الأقل، أكثرهم من المسلمين، لأن المسلمين هم الفرقة الكبرى في البلاد، وقد كانت الإصابات على نسبة العدد»[٢].

(١) **L'Asie Française.** Supplément de numéro 199, Février 1922.

(٢) **ذكريات الأمير شكيب أرسلان**... مرجع سابق، ص ٨٣.

كان لتلك الكارثة الأثر الكبير في التبدلات الاجتماعية التي شهدها لبنان خلال السنوات التي أعقبت مباشرة نهاية تلك الحرب. وأشير هنا، بشكل مكثف جداً، إلى بعض مظاهرها.

أولاً: التبدلات الديموغرافية وبروز دور بيروت على حساب جبل لبنان

طوال القرنين التاسع عشر والعشرين هاجر اللبنانيون بكثافة إلى كثير من دول العالم وأقاموا فيها جاليات كبيرة. وفي حين يقدر عدد سكان لبنان المقيمين بحوالي أربعة ملايين نسمة فإن جميع الدراسات العلمية التي تناولت تاريخ الهجرة اللبنانية تؤكد على أن الرقم الأدنى لعدد المهاجرين اللبنانيين والمتحدرين من أصل لبناني يفوق مرتين عدد السكان المقيمين.

مع تطور الدراسات العلمية الأمبيريقية حول هجرة اللبنانيين، من مختلف المناطق والطوائف، إلى الخارج باتت الحاجة ملحة إلى إعادة نظر جذرية في المفاهيم المستخدمة في دراسة تاريخ النزوح من الأرياف إلى المدن، ومنها الهجرة إلى الخارج. فالمفاهيم المتداولة غير قابلة للتعميم في حالتي النزوح والهجرة. كما أن التساؤلات المنهجية تدفع بالدراسات العلمية حول موضوعات النزوح والهجرة من مختلف المناطق اللبنانية لإظهار سمات التشابه أو الخلاف في أسبابها بين منطقة أو قرية أو جماعة أو طائفة. ولماذا تحولت بعض الدول أو المناطق الغنية في مختلف القارات، ومنذ القرن التاسع عشر، إلى عوامل جذب لأعداد كبيرة من اللبنانيين؟

لقد توصل الباحثون في مشكلات الهجرة اللبنانية إلى مقولات علمية مهمة لتحليل هذه الظاهرة المتزايدة باستمرار. وأبرز تلك المقولات: عوامل الطرد القسري للمهاجر كالظروف الاقتصادية الصعبة، والتعسف السياسي، والأنظمة التسلطية، والضرائب الفادحة، والنزاعات الطائفية، والمشاريع الاستعمارية الأجنبية، والمشروع الاستيطاني الصهيوني وغيرها. تقابلها عوامل

جذب شجعت المهاجرين على السفر إلى الخارج، ودعوة بعض أقربائهم للالتحاق بهم في بلاد الاغتراب، والتشبه بمن هاجروا واغتنوا، وولادة الجيل الثاني وما يليه من أبناء المهاجرين في الخارج وغيرها.

وذلك يتطلب المزيد من الدراسات الأمبيريقية حول علاقة الهجرة بمختلف جوانب الحياة الاجتماعية، ومنها مشكلة النزوح قبيل الحرب العالمية الأولى من أرياف بلاد الشام إلى بيروت التي تحولت إلى مدينة كبيرة تضج بالحركة الاقتصادية، والإبداع الثقافي.

تجدر الإشارة هنا إلى أن النزوح أو الهجرة كلاهما ظاهرة بشرية متبدلة باستمرار، في أسبابها، وتجلياتها والنتائج التي ترتبت عليها في جميع المجالات. وتعود أسباب حركات النزوح من الأرياف إلى المدن في بلاد الشام، والهجرة منها إلى الخارج إلى عوامل اقتصادية بالدرجة الأولى، دون تجاهل العوامل الأخيرة ومنها سياسة القمع التي مارستها السلطنة العثمانية ضد السكان في جميع المناطق اللبنانية. مع ذلك، لا بدَّ من التأكيد على وجود أسباب محلية تختلف بين منطقة لبنانية وأخرى. وقد شكلت عنصر دفع للسكان المحليين للنزوح إلى المدن أو الهجرة إلى الخارج في حقب تاريخية متباعدة. هناك عوامل محددة كان لها دور في دفع آلاف اللبنانيين للنزوح نحو المدن طلباً للعمل، أو العلم، أو الاستقرار النفسي. فاتجهت جماعات الريفيين إلى المدن المجاورة لهم في بلاد الشام. لكن الغالبية الساحقة منهم توجهت نحو بيروت التي بدأت تتسع بشكل سريع منذ مطلع القرن التاسع عشر، لأسباب داخلية وإقليمية ودولية. وذلك على حساب باقي المدن اللبنانية ومنها ما كانت مركزاً للولاية كمدينتي طرابلس وصيدا.

كانت حركة نزوح اللبنانيين من الأرياف إلى المدن الساحلية اللبنانية ظاهرة طبيعية مستمرة منذ أقدم العصور. إلا أنها اتخذت طابع النزوح الجماعي بأعداد كبيرة إلى بيروت، وعن مختلف مناطق بلاد الشام طوال

القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وقد أشرت في دراسة سابقة بعنوان: «الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني: نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر»[1]، إلى عوامل مهمة ساهمت في تطور مدينة بيروت بسرعة كبيرة لم تعرفها باقي المدن اللبنانية بشكل خاص، ومدن بلاد الشام بشكل عام.

فقد كانت بيروت مجرد قرية كبيرة لا يتجاوز عدد سكانها الستة آلاف نسمة في مطلع القرن التاسع عشر. ثم ارتفع عدد سكانها إلى قرابة ١٢٠ ألف نسمة في مطلع عهد الانتداب.

لقد أثبت حكام بيروت وقادة الرأي فيها حكمة عالية في إدارة شؤونها. ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ظهر توافق عثماني - فرنسي - بريطاني لتطوير بيروت وتحديث مظاهر السكن والحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والفنية فيها. فتم تطوير مرفأ بيروت على أيدي شركة خاصة برساميل أجنبية كبيرة، وتحول بسرعة إلى أكبر مرافئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وذلك على حساب مرفأ طرابلس وباقي مرافئ بلاد الشام.

لذلك، وفي الفترة الزمنية التي تلت الحرب العالمية الأولى مباشرة شكلت بيروت أكثر من باقي المدن اللبنانية عنصر استقطاب لكثير من الوافدين إليها من جبل لبنان وباقي مناطق بلاد الشام، ومنهم أعداد كبيرة من شمالي لبنان، وجنوبه، وبقاعه. فاستقر قسم منهم للسكن والعمل فيها. وأكمل قسم آخر طريقه باتجاه البحر، فانطلقت حركة هجرة لبنانية كثيفة من بيروت إلى الخارج.

(١) **مسعود ضاهر: «الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني: نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر»**. مقالة منشورة في كتاب صدر بإشراف الأستاذ عبد الجليل التميمي تحت عنوان «**الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني**»، زغوان، تونس ١٩٨٨، صفحات ٨٦١ ـ ٤٧٨.

من ناحية أخرى، نقلت الإرسالية الإنجيلية الأميركية مدرستها من عبيه إلى بيروت وحولتها إلى كلية أو جامعة منذ عام ١٨٦٦. ثم فتح الآباء اليسوعيون فرعاً لجامعة ليون الفرنسية في بيروت منذ عام ١٨٧٥ سرعان ما تحولت إلى جامعة القديس يوسف. وانتشرت المدارس، والمطابع، والحركة الثقافية والفنية على نطاق واسع. وتهافت إليها الشعراء الأجانب، والرحالة، والتجار.

وفتحت وكالات السفر الأجنبية مراكز فيها لنقل آلاف المهاجرين من بلاد الشام إلى الخارج. فنزح إليها عشرات الآلاف من سكان المناطق المجاورة للسكن الدائم والعمل، أو لسلوك طريق الهجرة عبرها إلى بلدان الاغتراب[1].

لم يعترض العثمانيون على هذا المخطط بل حاولوا الاستفادة منه من طريق تحويل بيروت إلى مركز لولاية واسعة منذ عام ١٨٨٧ تضم مناطق هي الآن في سوريا وفلسطين. فنشطت فيها حركة العمران، وانتشرت المراكز المالية والتجارية، واتسعت دائرة الخدمات الصحية، والتراماواي، والمياه، والإنارة. واتخذت الدول الأجنبية من بيروت مركزاً لقناصلها، كما اتخذتها الشركات الأجنبية مركزاً لوكالاتها التجارية عبر وسطاء من التجار اللبنانيين. وتمّ ربط بيروت بدمشق عبر طريق للنقل البري المنظم بالسيارات، ونقل البضائع والركاب بالقطار.

جاء الانتداب الفرنسي ليتوج مرحلة تاريخية طويلة من تطور بيروت على حساب مناطق جبل لنان، وجبل عامل وباقي مقاطعات بلاد الشام. وساهم

(1) **Massound DAHER:** «Some remarks on the development of the city of Beirut 1800-1975». In: *Méditerranée, Moyen-Orient: Deux siècles de rélations internationales*. Recherches en Hommage à **Jacques Thobie**». L'Harmattan, Paris 2003. PP. 587-598.

الحضور الأوروبي والأميركي فيها منذ القرن التاسع عشر إلى تحويل المدينة إلى عاصمة إقليمية كبيرة في شرقي البحر المتوسط.

وألحق بها الاقتصاد الهش لمتصرفية جبل لبنان الذي تمخض عن مأساة كبيرة أودت بحياة آلاف اللبنانيين. ومع إعلان بيروت عاصمة لدولة لبنان الكبير، وبوابة اقتصادية وثقافية لجميع مناطق بلاد الشام، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر، تميّزت بإلحاق باقي المناطق اللبنانية قسرياً ببيروت.

فحين أعلن الفرنسيون مدينة بيروت عاصمة لدولة لبنان الكبير جعلوها مركزاً لإدارة جميع الدويلات السورية الخاضعة للانتداب الفرنسي، ومركزاً لتجميع قواهم العسكرية، والإدارية، والسياسية، والمالية. فتحولت إلى مركز استقطاب كبير، ليس لأبناء المدن والأرياف اللبنانية فحسب بل لأبناء المدن والأرياف في جميع مناطق بلاد الشام. يكفي التذكير بأن أحد الباحثين الفرنسيين وصف بيروت في عهد الانتداب بأنها: «المدينة التي تحجب بلاد الشام»، والمقصود بذلك مناطق الانتداب الفرنسي. وبنتيجة تلك التطورات الموضوعية، شهدت بيروت موجات نزوح بأعداد كبيرة من سكان الأرياف البعيدة. فأقاموا لهم أحياء صغيرة، أو هوامش قروية لأبناء كل منطقة. مما ساهم في ترييف مدينة بيروت بدل إعطاء هويتها للنازحين الجدد.

ثانياً: تبدلات اجتماعية

اعتاد سكان جبل لبنان، ولعقود طويلة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، على تربية التوت لإنتاج الحرير. لكن إغلاق طريق البحر تحول إلى مأساة إنسانية كبيرة بسبب كساد المواسم من جهة، واحتكار الحبوب وارتفاع أسعارها بشكل جنوني. ولعبت الإدارة العثمانية في بلاد الشام دوراً سلبياً إبان الحرب بسبب تواطؤ بعض أركانها مع التجار المحليين لجني أرباح فاحشة.

مع ازدهار بيروت برزت تبدلات اجتماعية عميقة ساهمت في ولادة تبدلات اقتصادية واجتماعية مهمة في عقد العشرينات أو بالأحرى إبان مرحلة الانتداب بأكملها. فتضاعف سكانها تقريباً خلال تلك المرحلة، واجتذبت المدينة أعداداً كبيرة من الريفيين، وبدأت بيوتها وأحياؤها تتخذ مظهراً طبقياً واضحاً ما بين سكن الفقراء وقصور الأغنياء بالإضافة إلى بدايات تشكل أحياء الطبقات الوسطى.

من جهة أخرى، لعب النظام الاقتصادي في لبنان على قاعدة الليبرالية ونظام الخدمات دوراً ملحوظاً في تطوير عمل القوى المنتجة، وبشكل خاص عمل المرأة اللبنانية التي بدأت تدخل بقوة في عملية الإنتاج، ونظام العمل المأجور، والانتقال من الأرياف إلى المدن. وظهر تغيير تدريجي في السلوك والعادات ونمط العيش والسكن، وعادات الزواج، والطلاق، والإرث وغيرها من التبدلات التي أسست لتغيير جذري في العقود اللاحقة.

كان للبنى التحتية العصرية والشركات الحديثة التي أطلقتها أو طورتها إدارة الانتداب على النمط الرأسمالي الأوروبي كسكة الحديد، وشركات الترامواي، والمياه، والكهرباء، والتبغ والتنباك، ومرفأ بيروت، وغيرها الدور الأساسي في إيجاد فرص عمل جديدة لعشرات الآلاف من العاملين والعاملات. يضاف إلى ذلك أنها حاولت مجدداً تنشيط قطاع الحرير طوال عقد العشرينات وحتى أواسط عقد الثلاثينات. ومن المعروف جيداً أن هذا القطاع الذي ازدهر في القرن التاسع عشر وساهم في ولادة البورجوازية اللبنانية التي أطلق عليها صفة «بورجوازية الحرير»، كان يقوم، بالدرجة الأولى، على العاملات وليس العمال. وكان لهذا القطاع الفضل الأول في نشوء فئة العاملات اللواتي يحصلن على أجور نقدية وليس عينية مما ساعد في تطوير الأضاع الاقتصادية والاجتماعية في جبل لبنان بشكل خاص وباقي الأرياف اللبنانية بشكل عام.

ونتيجة لتلك الأعمال التي قامت بها إدارة الانتداب ظهر تغيير جذري مهم في البنى الاجتماعية لبعض المناطق اللبنانية، ومنها مناطق متصرفية جبل لبنان أو «لبنان الصغير». وأبرزها:

أولاً: زيادة حدة الانقسام الاجتماعي بين الفقراء والأغنياء

وقد ساعد ذلك الإنقسام على ولادة قوى سياسية ذات توجهات طبقية منذ مطلع عهد الانتداب وفي طليعتها الإعلان عن «حزب العمال العام في دولة لبنان الكبير»، ثم حزب الشعب اللبناني»، ثم «الحزب الشيوعي اللبناني» وغيرها.

ثانياً: بقاء آلاف العائلات اللبنانية دون معيل من الذكور

فكان على النساء تحمل المسؤولية بجدارة كبيرة لإعالة جميع أفراد العائلة والقيام بكثير من الأعمال التي كانت من اختصاص رب العائلة بالدرجة الأولى. وبدا واضحاً أن المرأة اللبنانية لعبت دوراً أساسياً في الحرب العالمية الأولى في إنقاذ عائلتها وإيصال أبنائها إلى شاطئ الأمان مع نهاية تلك الحرب.

ثالثاً: بروز طبقة المحتكرين من التجار وأصحاب النفوذ

لم تكن نتائج الحرب العالمية الأولى واحدة بالنسبة لجميع الفئات الاجتماعية في المناطق اللبنانية. ففي حين تضرر مئات الآلاف من اللبنانيين، ومات قسم كبير منهم جوعاً أو من طريق الأمراض، والأوبئة، وسفر برلك، فإن قلّة من أعيان المناطق اللبنانية والشامية جمعت ثروات كبيرة من مآسي اللبنانيين وباقي سكان المنطقة في تلك الحرب، وأبرزهم تجار الحبوب في بيروت ودمشق وحلب وحوران وغيرها. وحين أصبحت آلاف العائلات دون مأوى أو معيل، وبعد أن باعوا المنزل، والأثاث، والأراضي، وكل ما يملكون من متاع في سبيل البقاء على قيد الحياة لأيام إضافية بانتظار الفرج،

كانت فئة من المحتكرين، والمرابين، والانتهازيين، وأرباب السلطة والنفوذ، وبعض المؤسسات تجمع ثروات طائلة على حساب مآسي الناس.

رابعاً: تبدلات في حجم الملكية ونوعية المالكين

فقد بيعت مساحات واسعة جداً من الأراضي بأسعار بخسة للغاية، وتمت السيطرة على قسم آخر بواسطة الهيمنة المباشرة ووضع اليد وتزوير المستندات الرسمية، واختلاس قسم كبير من أموال المغتربين المرسلة إلى ذويهم. كذلك جمع تجار الحبوب، والمتنفذون من أركان الإدارة السابقة، والمضاربون بالنقد المعدني (الذهب والفضة) والنقد الورقي، ثروات طائلة تمّ توظيفها لاحقاً في بناء القصور، أو إدخارها في البنوك.

خامساً: تخلخل النظام البطريركي في لبنان

ليس من شك في أن النضال من أجل البقاء على قيد الحياة، بمفردها أو مع أطفالها، قد أكسب المرأة اللبنانية نوعاً من الاستقلالية داخل النظام البطريركي الذي كان مسيطراً بقوة إبان تلك الفترة. ومع نهاية الحرب تبلور وضع جديد يحتاج إلى دراسة علمية طويلة ومتأنية. فأصبحت عائلات كثيرة بعد الحرب، من لبنانيين وأرمن، ليس لها من معيل سوى عمل الأم بعد أن مات الزوج أو فقد في ظروف الحرب. واختبرت المرأة آنذاك كل أشكال العمل الممكنة، فشاركت الميسورات منهن في أعمال الإغاثة، ومساعدة الأيتام، والمعوزين، والمنكوبين، في حين زادت أعباء المسؤولية العائلية على كاهل العاملات في الحصاد، والزراعة، والحرف التقليدية وغيرها.

لقد تركت ظروف الحرب العالمية الأولى آثاراً إيجابية مهمة ساهمت في بروز تطور ملحوظ في دور المرأة اللبنانية. برزت نخبة منهن تلقت قسطاً وافراً من الثقافة في أرقى المدارس والجامعات العاملة في لبنان، ومارست العمل الصحفي أو الكتابة الأدبية، أو الأعمال المهنية أو الفنية. وأصبح وضع المرأة اللبنانية بعد الحرب أفضل نسبياً عما كان عليه في السابق.

كانت النخب النسائية تتوقع من إدارة الانتداب إنصاف المرأة اللبنانية بعد الغبن الكبير الذي لحق بها إبان المرحلة العثمانية الطويلة. ورغم الإصلاحات التي أدّت إلى إرساء دعائم دولة عصرية في لبنان، تساءلت تلك النخب بحق: أين موقع المرأة في الحياة السياسية اللبنانية؟ ولماذا تمّ تغييبها من مجلسي الشيوخ والنواب؟ ولماذا لا يحق لها تسلم المراكز الإدارية الكبرى في الدولة كالمحافظ، والقائمقام، والمدير؟ ولماذا حرمت من الوصول إلى رئاسة البلدية، أو حتى إلى وظيفة مختار، وأحياناً كانت تمنع عليها عضوية المجالس البلدية أو المجالس الاختيارية؟

سادساً: انتشار الدعوة إلى الحرية والمساواة

بعد الحرب مباشرة، اعتمد الفرنسيون للبنان صيغة النظام الجمهوري المبني على الدستور المكتوب، ومبدأ التمثيل الشعبي كقاعدة للحكم والنظام السياسي على أسس ديموقراطية برلمانية. فارتضى اللبنانيون تلك الصيغة وتمسكوا بها، ودافعوا عنها مع المطالبة بتعديلها وتطويرها نحو الأفضل. ففي ظل الدستور والعمل الديموقراطي المراقب بدقة من جانب إدارة الانتداب الفرنسي شهدت الساحة اللبنانية ولادة العديد من الأحزاب والمنظمات السياسية في لبنان، منها أحزاب ذات توجهات محلية أو قومية أو أممية. ومنها أحزاب ذات توجه طائفي أو علماني. وطالب المتنورون اللبنانيون بالمساواة التامة بين الذكور والإناث في جميع المجالات خاصة وأن المرأة قد أثبتت مشاركتها النشطة في جميع الأعمال التي كان يقوم بها الرجال.

بعض الملاحظات الختامية

شهدت نهاية الحرب العالمية الأولى تبدلات ديموغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية شكلت السمات البارزة لدولة لبنان الكبير. وقد تميزت بيروت عن باقي المدن اللبنانية الأخرى بديمومة الحراك السكاني واستمرار تدفق الوافدين أو النازحين إليها من مختلف مناطق بلاد الشام.

ولعل أبرز سمات ذلك الحراك السكاني في لبنان والمنطقة المجاورة أن مدينة بيروت شكّلت محطة مهمة بين استقطاب النزوح الريفي والهجرة الدافعة إلى الخارج. فبعد أن تنوعت مصادر النزوح إلى بيروت من المناطق المجاورة، ولأسباب ذاتية وموضوعية، تحولت المدينة نفسها إلى عامل دفع لأعداد كبيرة من اللبنانيين نحو الخارج. فقد تقلصت فيها فرص العمل، والتجارة والسكن المريح لوافدين لا يمتلكون الرأسمال، وغالبيتهم الساحقة من الأميين باستثناء قلّة ضئيلة ممن لديهم الحد الأدنى من الثقافة، وليس بينهم عمال مهرة أو عمال متخصصون، وغالبيتهم الساحقة ممن لا يتقن عملاً محدداً.

لذلك دفعت بيروت بهجرات متلاحقة نحو الخارج، وعلى شكل موجات مستمرة منذ أكثر من قرن من الزمن. فغادروها على شكل هجرات جماعية طوعية اتجهت في مراحل متعاقبة نحو مناطق محددة أبرزها: مصر، ثم أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، ثم أميركا الجنوبية، ثم أفريقيا، ثم دول الخليج العربي، ومؤخراً إلى كندا وأوستراليا. ومع أن غالبية المهاجرين الأوائل قد مارسوا العمل التجاري بأشكاله الدنيا البدائية والمتطورة، بالإضافة إلى العمل في الزراعة والصناعة والحرف، فإن نسبة مهمة منهم لعبت دوراً مميّزاً في نشر الصحافة، وممارسة مختلف أنواع الثقافة والآداب والفنون والعمل النقابي والسياسي.

تجدر الإشارة إلى أن قسماً ملحوظاً من أبناء الجيل الثاني والثالث من المهاجرين نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة، داخل مدارس وجامعات لبنان أو في مدارس البلدان المضيفة. ومع أن الهجرة قدمت للبنان فوائد مالية ومعنوية كبيرة، فإن إتساعها المفرط بدأ ينذر بكارثة حقيقية على لبنان واللبنانيين. فمنذ عهد الانتداب أصبحت هجرة المثقفين والمبدعين من اللبنانيين مصدر قلق شديد تهدد ركائز المجتمع اللبناني، وتحرم مؤسسات المجتمع المدني من قوى شابة قادرة على التغيير الديموقراطي لجميع البنى السائدة في لبنان.

على الجانب الاجتماعي، يعتبر العقد الذي تلا نهاية الحرب العالمية الأولى، وهو عقد العشرينات بكاملة، بداية جدية لتحدي الموروث الكثيف من العادات والتقاليد التي كانت تعيق تحرر المرأة اللبنانية. وقد جاءت بعض قرارات الانتداب لتعطيها الطابع الرسمي أو الحقوقي عبر الأنظمة والقوانين المتعلقة بالزواج، والطلاق والإرث، والعمل، وغيرها. وشهدت تلك المرحلة بروز عدد من رائدات الحركة النسائية مما يؤكد وجود منطلقات صلبة لنضال المرأة اللبنانية بعد قيام دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠.

على جانب آخر، شجع الفرنسيون التعليم الخاص على حساب التعليم الرسمي وذلك في إطار تعزيز المدارس الخاصة التي كانت ناشطة في بيروت وجبل لبنان قبل الحرب العالمية الأولى. ويلاحظ في هذا المجال أنه بعد أن أهمل العثمانيون طويلاً مسألة التعليم في مركز السلطنة وولاياتها، لم يتنبهوا لأهميته إلا في السنوات القليلة التي سبقت انهيار السلطنة، وذلك من طريق تأسيس عدد لا بأس به من المدارس الرسمية، ومدارس الصنائع والفنون. لكن مدارس الإرساليات الأجنبية، ومدارس الطوائف، هي التي لعبت الدور الأساسي في تنشيط التعليم في متصرفية جبل لبنان وولاية بيروت.

وفي العقد الأول فقط لمرحلة الانتداب، شجع الفرنسيون التعليم الرسمي. وصدرت قرارات عدة قضت بفتح مدارس رسمية للبنين والبنات في

مختلف المناطق اللبنانية. وانتشر التعليم الرسمي على نطاق واسع في عقد العشرينات، إلى أن أنزلت حكومة الرئيس إميل إده ضربة أليمة به في عام ١٩٢٩. وكانت الفتيات اللبنانيات أكثر المتضررين من تلك التدابير. فاستمر تعليم بعضهن بصعوبة بالغة على كاهل الأهالي وبعض المؤسسات الخاصة. وقد ساهمن في ولادة جيل جديد من اللبنانيات المتعلمات اللواتي انخرطن في سوق العمل إلى جانب الرجال. وقد اتجه عملهن، بشكل أساسي، نحو القطاع التربوي، والقطاع الصحي، والإدارات الخاصة والعامة، وقطاع الخدمات، والعمل في الفنادق، ومراكز الهاتف، وغيرها. وشهدت تلك المرحلة بداية عمل المرأة في الصحافة، والطباعة، والإعلام، والمهن الحرة كطبيبات، ومهندسات، ومحاميات.

أما القطاع الزراعي، والعمل المنزلي، وجانب أساسي من العمل الحرفي فقد بقي موقع المرأة العاملة فيه دون تغيير كبير طوال مرحلة الانتداب. قد دلت الاحصائيات الموثقة أنه في مطلع عقد العشرينات كانت أحياء المدن اللبنانية لا تزال تعج بالكثير من الحرف التقليدية التي قدر عددها بالآلاف. وكان بعضها ذا طابع عائلي بحت ويعمل فيها الرجال والنساء والأولاد معاً.

لكن دخول المصانع الحديثة، أو تحديث بعض الصناعات القديمة، ساهم في تدمير غالبية تلك الحرف، مما زاد في عدد العاطلين عن العمل، خاصة في صفوف النساء. وظهر العمل المؤقت، بأجور زهيدة، على نطاق واسع في صفوف القوى العاملة النسائية. وقد تعرضن لأقسى درجات الاستغلال والقهر الاجتماعي، وكانت النساء محرومات من التنظيم النقابي ولم يتعودن بعد على الانخراط فيه. لكن القوى الطليعية في الحركة النقابية اللبنانية آنذاك، وفي طليعتها النقابي البارز فؤاد الشمالي، سارع إلى إصدار سلسلة من الدراسات التثقيفية (الكراريس)، والمقالات الصحفية خلال سنوات ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠، طالب فيها بإنصاف العاملات، وإعطائهن الحق

بالتنظيم النقابي، ومساواة المرأة مع الرجل في الأجور وساعات العمل والعطل الأسبوعية والسنوية المدفوعة الأجر، ورفع الظلم عنهن، ومنع التعرض لكرامتهن أثناء العمل، وعدم تشغيل النساء في أعمال خطرة، ومنع تشغيل الأولاد منعاً باتاً، وإلزام الدولة بتأمين حق التعليم للجميع.

ختاماً، لعبت السياسة العثمانية في جبل لبنان والمشرق العربي الدور الأساسي في حصول المجاعة في كثير من المناطق اللبنانية. ولم يكن العثمانيون المسؤولين الوحيدين عنها بل شاركتهم قوى أوروبية أخرى. وأخطر ما تعرض له تاريخ تلك الحقبة من تشويه أن الدعاية الأوروبية الكثيفة في لبنان نجحت في إلباس التهمة إلى الجانب العثماني منفرداً وتمّ تغييب الشركاء الآخرين في تلك الجريمة وهم فرنسيون، وإنكليز، وألمان، وأثرياء الحرب من لبنانيين وسوريين. لكن تبدلات اجتماعية مهمة أعقبت تلك المرحلة. فنجح اللبنانيون في تجاوز تلك المأساة بعد أن أدخل الفرنسيون تدابير مهمة لإرساء قواعد لدولة عصرية ما تزال تتعثر في جميع خطواتها، لأسباب داخلية وإقليمية ودولية متشابكة.

المسألة الزراعية ومأساة «حرب الجوع» في متصرفية جبل لبنان

(من الفكر الاقتصادي إلى الدراسات المونوغرافية)

د. سيمون عبد المسيح(*)

«الزراعة هي الأم التي ترضع الشعوب»

تعكس اتجاهات الفكر الاقتصادي في جبل لبنان عشية الحرب العالمية الأولى، عمق أزمة اقتصاد المتصرفية حيث لا تشكل الحاصلات الزراعية سوى ٩٪ من الدخل، والصناعة ٤،٥٪، في حين تشكل الأموال الواردة من أميركا ٤٠٪ والاصطياف ٩٪ وعائدات الحرير ٣٦٪، أي أن أكثر من ٨٥٪ من الدخل مرتبط بالعوامل الخارجية. ويمكن تلمس الإنقسامات في هذا الفكر بين رؤية الإدارة العثمانية التي تُعاني من تأثيرات التدخل الغربي عبر نظام الامتيازات ومن النزف البشري عبر الهجرة، ورؤية ليبرالية لبنانية تدعو إلى تنمية السياحة والتجارة وتثني على فوائد الهجرة.

لقد كان وصف هذه البنية الكلية لاقتصاد المتصرفية (macro-économie) مرتكزاً للعديد من التفسيرات التاريخية للمجاعة الكبرى خلال الحرب الكونية، إلا أن الدراسات المونوغرافية لحالات محددة (قرية أو مدينة أو

(*) أستاذ في كلية التربية ـ الجامعة اللبنانية.

مشروع زراعي...) بقيت شبه غائبة، ويكتفى عادة في تاريخ القُرى والمدن بذكر الأسباب العامة المتداولة، دون استخدام المعطيات الكمية الخاصة بالعلاقة بين الإنتاج الزراعي والديموغرافيا لإنتاج حقيقة جديدة أو تأكيد التفسيرات التقليدية.

لا تكشف الحقيقة عن ذاتها إلا عبر مسار بحثي شاق، وفي كثير من الأحيان تتناقض الحقيقة العلمية مع الحس المشترك حتى ولو تحوّل إلى معرفة مدرسية أو ساهمت هذه الأخيرة في تعميمه. وفي هذا البحث، استعادة لكيفية مقاربة المسألة الزراعية في الفكر الاقتصادي لحظة المأساة أو قبلها، وتعيين التوقعات التي ميّزت بعض الآراء بما يسمح بإعادة توزيع المسؤولية الجنائية عن موت ثلث السكان في جبل لبنان، هذا من جهة، أما المسار الثاني فهو تحليل اقتصادي جزئي لعينات مونوغرافية، يرتكز إلى وثائق كمية ومتسلسلة.

I ـ المسألة الزراعية في الفكر الاقتصادي

أشار الفكر الاقتصادي في عصر النهضة إلى المخاطر الناتجة والتي يمكن أن تنتج عن تخلّف الزراعة في بلادنا، وكان تطور الزراعة في أوروبا بمثابة النموذج ـ المعيار الذي يتطلّع إليه هذا الفكر[1]، فهو إذ يستعرض تاريخيتها وعلاقتها بالأساطير والعبادات يدرك أن نهضة الزراعة في أوروبا متزامنة مع ثورتها الصناعية، وتحديداً مع الاكتشافات التي حدثت في مجال الكيمياء، متوقفاً عند فروعها[2]، ودور الحكومة في فتح المدارس وتشجيع

(١) راجع الخطبة التي تلاها الخواجه حنين خوري في الزراعة (١٨٦٩) في «أعمال الجمعية العلمية السورية ١٨٦٨ ـ ١٨٦٩» (مجموعة العلوم)، إعداد وتحقيق يوسف قزما خوري، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠، ص ص ١٤٢ ـ ١٤٦.

(٢) زراعة البستان، زراعة الأشجار، زراعة الأحراج، زراعة العنب، علم تدبير البرية. المرجع نفسه، ص ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

الشركات، واستحداث وزارة لها. وهو إذ يقارن مخاطرها مع التجارة، يقدم نماذج لمشاريع زراعية ناجحة[1] في البيئة المحلية. على أن واقع الزراعة (ومنذ الستينات) ليس مرضياً، فهي مهملة إلى درجة أن «المحصولات التي تخرج من البلاد السورية ليست العشر مما كان يمكن إخراجه منها لو كانت الزراعة بحالة الرواج والإتقان»[2].

وعندما داهمت الحرب العالمية الأولى اقتصاد جبل لبنان، طرح هذا الفكر مجموعة من الإشكاليات ما زالت راهنة وصحيحة، إلا أن توقعاته لم تكن متشائمة إلى الحد الذي ستبينه الوقائع الكارثية والمهولة التي حصلت خلال كتابة تلك النصوص[3]. ولعل ميزة تلك النصوص أنها لم تكتفِ بوصف الزراعة، بل إنها ارتقت إلى مستوى تحليلي، خاصة لجهة تحديد موقع القطاع الزراعي بالنسبة إلى قطاعات اقتصادية أخرى وبخاصة الصناعة والاصطياف وعائدات المهاجرين من خلال تحليل أرقام الدخل القومي، وهنا برزت العلاقة الجدلية بين مختلف هذه القطاعات.

ففي مقالة «لمحة نظرية في الزراعة»[4] ينبّه الكاتب «من يسرح طرفه في قرى لبنان البديعة، حيث يرى آثار العمران في كثير من أنحاء الجبل، ألا

(١) جنينة الطبيب دومبروولسكي الصغيرة التي تعطي مدخولاً سنوياً قرابة عشرين ألف غرش، ونموذج أخر لتاجر ترك التجارة (ولذات العيشة المدنية) وذهب إلى البقاع حيث أسّس مشروعاً زراعياً مربحاً. المرجع نفسه، ص ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٥. ثم يقترح تأسيس شركتين، الأولى تنشئ مدرسة زراعية يستجلب لها معلّم أوروبي، والثانية للقيام بالتجارب الزراعية. ثم يثبت ملخصاً عن الإصلاح الزراعي في فرنسا (١٨٦٧). ص ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) النصوص التي نشرت في «لبنان، مباحث علمية واجتماعية»، وهو الكتاب الذي نشرته لجنة من الأدباء بهمة إسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان سنة ١٣٣٤ مارتية (١٩١٨)، نظر فيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور فؤاد إفرام البستاني. منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ج١، ١٩٦٩، ج٢، ١٩٧٠.

(٤) المرجع نفسه، ج٢، ص ص ٣٦٧ ـ ٣٧٩، وصاحب المقالة هو حسين كاظم بك.

يخدع بالظواهر، إذ إن ما يشاهد في لبنان من وراء النعمة والحضارة ورخاء العيش واليسر، ليس له أقل علاقة بتربته وجباله... والحقيقة هي أن كل ما يلوح على هذا الجبل من مجالي النعمة والرفاهية لم تخلعه عليه التربة والجبال بل كساه إياه المال الذي جمعه ابن لبنان بالاقتصاد في بلاد المهجر. فصار ذلك دأبه وديدنه. فالحياة إذاً والنعمة كلتاهما مستعارة في هذا الجبل... إن كل شيء منسوب إلى الإنسانية والمدنية وكل رقي وميزة في هذه الأصقاع قد أنتجته عادة المهاجرين وبها أيضاً يثبت ويدوم»[1].

لكن الوقائع الجديدة تدفع إلى التفكير بطريقة أخرى بحسب هذا المراقب العثماني، «فحوادث الأيام الأخيرة تدل على أن كل أمة من الأمم تضطر بعض الأحيان إلى حصر معيشتها وحياتها في ذاتها وبأرضها. وربما استمرّ هذا الاضطرار عدة سنوات بإزاء مزاحمة الأمم دون شفقة. ففي مثل هذه الأيام المهولة لا بدّ للسكان من استحضار محاصيل وافرة من أراضيهم»[2] بسبب انقطاع العلائق التجارية وأسباب المعاش بين الأمم. إن انبعاث نهضة زراعية (عندما يقع الصلح) تقتضي ضرورة إحياء التربة العقيمة والسعي للاستفادة من القوى الذاتية، خاصة إذا ما سعت أميركا إلى إقامة مصاعب عديدة ووضع قوانين للمهاجرة... «وحينذاك ترى كل أمة أنها مضطرة ومكرهة لتأمين كيانها بما عندها من القوى وخصوصاً من الحاصلات التي يمكنها إنتاجها من أرضها...» مقترحاً برنامج إصلاح زراعي (تحسين التربة، التشجير، إقامة أحواض للري، تجديد وتأصيل البذور، واستخدام آلات زراعية...) وذلك لتجاوز حالة الزراعة الراهنة التي تدعو إلى الحزن، إذ «كان من اللازم أن نفطن قبلاً لهذه الضروريات ونعد لوازم التكامل ووسائطه»[3].

(١) المرجع نفسه، ص ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٦٩.

بدوره يخلص ألبير نقاش (١٨٨٤ ـ ١٩٥٤) في «نظرة في حالة جبل لبنان الاقتصادية»[1] إلى ما يعزز إشكاليات هذا البحث:

أ ـ إذا كانت المساحة الصالحة للزراعة في متصرفية جبل لبنان لا تتجاوز ٤٠٠ كلم٢، وإذا كانت غلّة الكيلومتر المربع الواحد كافية لمعاش ١٥٠ لبنانياً كانت نتيجة هذا الحساب أن الجبل لا يستطيع أن يقوم إلا بمعاش ٦٠,٠٠٠ نفس. هذا مع مبالغتنا في اعتبار الأراضي الزراعية كلها حسنة التربة والأمر ليس كذلك لأنه لا يوجد في لبنان أكثر من مئة كيلومتر مربع من التربة الجيدة الخصبة»[2]. هذا الواقع الزراعي هو الذي دفع باللبنانيين للتفتيش عن مصادر عيشهم في الهجرة والاصطياف وأشغال الحرير وبعض الصنائع المحلية.

إلا أن «الحرب العمومية» كادت «تطحن الجبل» حيث توقفت النقود من المهجر، وحالت دون الاصطياف، ومنعت دخول بزور القز،... وهذا ما أدّى إلى فقدان اللبنانيين ٨٠٪ من «وسائل معاشهم واقتصادهم القانوني» فلم يبقَ أمامهم سوى غلاّت زراعتهم التي لا تكفي إلاّ لمعاش قسم ضعيف من الأهلين، وقد تفاقمت الأزمة مع قلّة وسائل النقل وغلاء المحصولات الغذائية.

لقد استعاد الفكر الاقتصادي الليبرالي في جبل لبنان آراء الاقتصاديين سميث ومالتوس وريكاردو، بحيث إن «الأزمة الهائلة التي لاحت عللها... وتابعت نتائجها المفجعة»[3] تدخل في إطار القوانين الاقتصادية التي أشار إليها هؤلاء، ويبدو أن القوانين المالتوسية المتعلقة بالتوازن بين النمو الاقتصادي والنمو الديموغرافي هي التي استكملت المرجعية النظرية وساعدت على التبرير والتخفيف من التشويهات التي حدثت في بنية اقتصاد المتصرفية، والتي تتحمل جزءاً من مسؤولية موت نسبة كبيرة من السكان.

(١) المرجع نفسه، ص ص ٤٧٢ ـ ٥٥٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٥٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥٥.

ب ـ فالليبرالية اللبنانية مصرة على أن الترقي الاقتصادي والقانوني للجبل لا يتوقف على الفلاحة والزراعة، مهما تحسنت الطُرق الزراعية، وأُنشئت مشروعات الري، وذلك بسبب قلّة الأراضي الزراعية، وهي تتأمل بعد ظروف الحرب بالعودة إلى تحسين وسائل الاصطياف الذي أمّن أرباحاً في عام ١٩١٣ بلغت ٢٠ مليون غرش، على أنها في تلك المرحلة كانت ما زالت مؤمنة بأن للصناعة أيضاً في لبنان مستقبلاً حسناً. ومرة أخرى يتم تدعيم هذه الأراء بالفكر الاقتصادي الغربي، فبحسب الألماني مولر أن تاريخ رقي الأمم (الاقتصادي) درجات متتالية (رعي ـ فلاحة ـ أعمال صناعية ـ أعمال صناعية تجارية)، كما أن الشعوب تبتدئ بالتبادل الحر غير المقيّد لتتجه إلى الحماية عن الصناعة المبتدئة أمام المزاحمة الأجنبية السابقة بالعمل والمتقدمة تقنياً[١].

يأمل نقاش تطور الصناعة مع قوانين جمركية جديدة، وبفعل سمات فيزيولوجية وعقلية خاصة عند اللبنانيين تميزهم عن «سكان الداخلية» وبفضل أموال المهاجرين، والأمل باستثمار الفحم السيال أي توليد الطاقة الكهربائية من المصادر المائية، كما حصل في سويسرا ولومبرديا. ويخلص إلى أن الاصطياف والصناعة هما أساس متين لنهضة لبنان وحياته الاقتصادية في المستقبل[٢].

* * *

ينبغي تأسيس الفرضيات وبرهنتها على قاعدة الأرقام، فما هي نسبة الأراضي المستثمرة زراعياً في متصرفية جبل لبنان؟

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٥٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٥٦.

جدول رقم (١)
تصنيف الأراضي في المتصرفية

الأراضي	المساحة Km^2
الأراضي الزراعية الجيدة التربة	١٠٠
أراض مزروعة تربتها أقل جودة	٢٠٠
غابات وأحراج	٥٠٠
أراض غير مستثمرة	٢٤٠٠
مساحة الجبل	٤٢٠٠

المصدر: ألبير نقاش، نظرة في حالة جبل لبنان الاقتصادية، في: حقي، لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ج٢، ص ٤٧٢.

جدول رقم (٢)
تصنيف الأراضي في المتصرفية

الأراضي	المساحة Km^2	النسبة المئوية
أرض زراعية جيدة	١٠٠	٪٣
أرض أقل صلاحية	٣٠٠	٪٩
غابات	٦٠٠	٪١٨
أراض غير مستثمرة	٢٢٠٠	٪٧٠
مساحة المتصرفية	٣٢٠٠	٪١٠٠

المصدر: Dr. A. Ruppin, *Syrien,* ALS WIRTSCHAFTS GEBIET, (1916). Traduit par Georges SCHAIB, Bibliothèque Orientale, Beyrouth. (Dactylographie), p. 33.

يتبين من كلا الجدولين، أن نسبة الأراضي الزراعية الخصبة لا تتجاوز ٣٪ من مساحة المتصرفية الإجمالية، ترتفع إلى ٩ ـ ١٢٪ إذا أضيفت إليها أراضٍ أقل خصوبة، واستناداً إلى هذه الأرقام فإن نسبة سكان المتصرفية (وعددهم ٣٥٠,٠٠٠ نفس) إلى كامل المساحة هي ١١٠ في الكلم^{٢} و٨٧٥ نفساً في الكلم^{٢} نسبة إلى الأرض المزروعة، وهي بين ٨ ـ ١٥ نفساً في الولايات المجاورة[١].

ولكن ما هي نسبة مساهمة الزراعة في الدخل؟

جدول رقم (٣)
العائدات المالية في المتصرفية

حاصلات زراعية	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٩,٠٩
فنادق واصطياف	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٩,٠٩
صناعة	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٤,٥٤
موسم الشرانق	٦٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٢٧,٢٧
حل الشرانق	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٩,٠٩
أموال واردة من أميركا	٩٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٤٠,٩
المجموع	٢٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٪١٠٠

المصدر: ألبير نقاش، مصدر سابق، ص ٤٧٢-٤٧٣.

(١) المرجع نفسه، ص ٤٧٢.

جدول رقم (٤)
العائدات المالية في المتصرفية

عائدات مالية من أميركا	٩٠,٠٠٠,٠٠٠
عائدات الحرير	٦٠,٠٠٠,٠٠٠
عائدات منتجات زراعة	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
عائدات بيع الحرير	١٥,٠٠٠,٠٠٠
عائدات اصطياف	١٥,٠٠٠,٠٠٠
عائدات الصناعة	١٠,٠٠٠,٠٠٠
المجموع	٢١٠,٠٠٠,٠٠٠

المصدر: Ruppin, Op. cit, p. 22.

جدول رقم (٥)

الإدخالات والإخراجات

إدخالات	بالقروش
حنطة	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
شعير وحبوب	٤٥,٠٠٠,٠٠٠
خيل، بغال، حمير، بقر	٢,٥٠٠,٠٠٠
حيوانات قصابية	٣,٥٠٠,٠٠٠
كراسته بنية	٥,٠٠٠,٠٠٠
سمن، سكر، قهوة وغيره	٨,٠٠٠,٠٠٠
جلود غير مدبوغة	٥,٠٠٠,٠٠٠
خيطان قطن	٩٠٠,٠٠٠
صوف وشعر	٤٠٠,٠٠٠
أمتعة أوروبية	٦٥,٠٠٠,٠٠٠
المجموع	١٥٥,٣٠٠,٠٠٠

إخراجات	بالقروش
شرانق حرير	٤٠,٠٠٠,٠٠٠
حرير	٢٥,٠٠٠,٠٠٠
أجراس ومعادن ومقالع حجارة	٥,٥٠٠,٠٠٠
صابون	١,٥٠٠,٠٠٠
جلود	٢,٧٠٠,٠٠٠
منسوجات وشغل يد	١,٥٠٠,٠٠٠
صنعة الشعر وغيرها	١,٠٠٠,٠٠٠
تبغ وسواكير	٢,١٠٠,٠٠٠
بطاطا	٣٠٠,٠٠٠
مشروبات كحولية	٥,٢٠٠,٠٠٠
زيت زيتون	١٢,٥٠٠,٠٠٠
حاصلات الأشجار المثمرة	٣,٥٠٠,٠٠٠
عنب وزبيب	٤,٠٠٠,٠٠٠
اصطياف	١,٥٠٠,٠٠٠
أموال من أميركا	٩٠,٠٠٠,٠٠٠
المجموع	١٩٦,٣٠٠,٠٠٠

المصدر: جلال بك، **الأحوال الزراعية والتجارية والصناعية والاقتصادية في جبل لبنان**، لبنان، مرجع سابق، ص ٤٧.

١ ـ يلاحظ أن أرقام الباحث الألماني Ruppin (١٩١٦) متطابقة مع أرقام نقاش، إلا أنه يخفض قيمة عائدات الاصطياف إلى ١٥ مليون قرش وكذلك عائدات نسيج الحرير إلى ١٥ مليوناً، وبهذا تصبح قيمة الدخل ٢١٠

مليون قرش بدل ٢٢٠ مليوناً (والواقع أنه عند جمع أرقامه بلغت ٢٢٠ مليوناً وهكذا فالخطأ يمكن أن يكون في الجمع أو في أرقام الاصطياف وعائدات النسيج). هذه الواردات تنخفض في جدول جلال بك إلى ١٩٦,٣٠٠,٠٠٠ مليوناً، ويبدو أن الفرق الأساسي نتج عن تقدير منخفض لعائدات الاصطياف في هذا الجدول الأخير إذ لم يتجاوز مليوناً ونصف المليون قرش.

يستخدم كل اقتصادي الأرقام لتفسير رؤيته أو لتبريرها، فنقاش رأى بوادر المستقبل الاقتصادي في الاصطياف والصناعة، فليس بقدرة الزراعة تأمين العيش إلا لـ ١٧٪ من سكان المتصرفية، ولعله مقتنع بأن الهجرة حلّ منطقي، وأن موت السكان في الحرب قانون مالتوسي صحيح، ويقترح حلاً يقوم على تطوير الاصطياف والصناعة بعد تأمين البنى التحتية اللازمة وأبرزها على مستوى الاصطياف: توسيع شبكات الطرقات وتحسينها (وقد كان للأموال الاغترابية دورها في هذا المجال) مما يسهل استخدام السيارات بدل عربات الخيلا، وتطبيق قوانين التنظيم المدني في مراكز الاصطياف، واستثمار الإعلان لجذب المصطافين، وتأسيس إدارة مركزية لتفتيش البلديات... أما الصناعة فمرتبطة بشكل أساسي باستثمار القوة المائية المحركة في توليد الطاقة الكهربائية والإنارة وتسيير السكك الحديدية (الترامواي) على هذه الطاقة الجديدة. أما الموظف العثماني جلال بك (مدير الغابات والزراعة) المهتم بالاحصاءات «أسپتاتستيك» كمرآة للحياة الاقتصادية والحيوية فله رؤية أخرى. إنه يعترف بأن «هذا العلم (الإحصاء) لم يبلغ عندنا الدرجة المبتغاة» ولهذا فالمعلومات التي استند إليها في تحليله الاقتصادي لم تكن مبنية على أساسات الاحصاءات الثابتة[1]. وهو في تفسيره لجدول «الإدخالات والإخراجات»

(١) جلال بك، **الأحوال الزراعية والتجارية والصناعية والاقتصادية في جبل لبنان**، لبنان، مباحث علمية...، ص ٤٥٦.

يربط بين التأخر الزراعي والصناعي والهجرة التي بلغت ١٢٠ ألف نسمة أي ما يقارب ثلث سكان الجبل (علاقة جدلية). وتحليله يقوم على الفرضية التالية: بما أن الواردات من المهاجرين إلى أميركا هي في حدود ٩٠ مليون قرش، فإن قليلاً من التكامل والترقي في الزراعة والصناعة الداخلية يعوض أضعاف هذا المبلغ وذلك بإضافة سبعة ملايين قرش على كل قلم من المواد الزراعية والصناعية، إن لجهة تحسين محصول الشرانق بإصلاح خلل الطرائق المحلية، وتطوير مصانع الحرير المحلية بدل تصدير الشرانق إلى أوروبا، وإحياء الزراعة (أشجار مثمرة، تربية الزهور) وتطوير بعض الصناعات (كحول، عطريات، حياكة، صابون)، فلا يعود الفقراء والعمال يهجرون وطنهم. وتتوضح الرؤية العثمانية في خاتمة مقالته:

«إن عدم حصول الترقي لحد الآن كان سببه الموانع السياسية وغيرها من الأسباب، ومن ثم يجب أن نأمل بأن القدرة والانتباه اللذين شوهدت مآثرهما في الشعب وفي كل نقطة من المملكة عقيب إلغاء تلك الامتيازات الأجنبية المعهودة التي كانت علينا كابوساً جسيماً حتى السنين الأخيرة سوف يظهران بحرية ونشاط بعد عقد الصلح مع أعدائنا فيتم لنا الترقي والتكامل بطريق العلم والاجتهاد»[1].

* * *

تميز الفكر الاقتصادي في مقاربته للمسألة الزراعية في هذه المرحلة بسمات معيّنة، فهو يقيمها دوماً من منظور تطور علم الزراعة في أوروبا. على أن هذا الأخير وجد بعض تطبيقاته في المستوطنات الألمانية واليهودية في فلسطين، وقد شكّلت هذه الأخيرة نموذجاً أوروبياً استثمرته التقارير الدبلوماسية والأبحاث لمقاربته بالأنماط التقليدية السائدة[2].

(١) المرجع نفسه، ص ٤٧١.

(٢) راجع: DR. A.R. Ruppin, *Syrien ALS wirtschaftsgebiet (1916)*.

١ ـ كتب أحد كبار الموظفين العثمانيين أنه لا يمكن «البحث عن زراعة لبنان في الوجهة العلمية لأن فنون الزراعة مجهولة فيه تماماً»[(١)]. وحتى «الأمور الابتدائية التي هي في غاية البساطة» معدومة فهناك نقص في المعرفة بالزراعة والنظريات العلمية الضرورية وأن أصول الزراعة المتبعة (في بلادنا) هي بقية اتصلت إلينا من زمن الرومانيين. وقد عرض لمشكلات الزراعة وأبرزها تراجع الغابات[(٢)] وضرورة إحيائها، وفقر التربة وعدم إغنائها بالأسمدة بالرغم من تطور الزراعة الكيماوية، وقد ركّز كغيره على أهمية المناوبة الزراعية، (أو الزراعة المتناوبة) أي بتنويع الزراعات في أرض معيّنة بدل إنهاكها بزراعة واحدة أو اعتماد مبدأ إراحتها. وإشار إلى أهمية المراعي لتربية الحيوانات وحفظ التربة من الانجراف، وشجع على زراعة الفواكه (مستوحياً نموذج إقليم صوفر) والخضار. وطالب بإقامة السدود لحل مسألة الري... وهو إذ يرى أن الزراعة ما زالت في عهد الطفولية، يتساءل بسخرية عن إمكانية تطبيق القواعد والنظريات العلمية، ما يتطلب ترقٍ تدريجي[(٣)]. منهياً بما يبدو قناعة عند الأيديولوجية العثمانية في هذه المرحلة: إبراز الوجوه السلبية للمهاجرة في إطار رؤية العلاقة المتبادلة بين المهاجرة وتخلف الزراعة.

٢ ـ تناول سليم الأصفر (+ ١٩٢١) مسألتي الزراعة والصناعة في لبنان بطريقة علمية وتقنية بحتة، فلم يظهر في مقالتيه[(٤)]، لا ضغط الحدث المعاصر ولا الخلفية الأيديولوجية، بالرغم من انتسابه إلى أحد أبرز البيوتات البورجوازية البيروتية، وفي نص الأصفر ربط محكم بين الأبعاد التاريخية

(١) حقي، لبنان مباحث، **مقالة حسين كاظم بك**، المرجع السابق، ص ٣٦٩.
(٢) يبدو أن خدمة السكة الحديدية، قد ساهمت في قطع الأشجار، المرجع نفسه، ص ٣٧٣.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٨.
(٤) حقي، لبنان مباحث...، انظر مقالته عن «الزراعة في لبنان»، ج٢، ص ص ٣٨٠ ـ ٤٣٤. ومقالته الثانية عن «الصناعة في لبنان»، ج٢، ص ص ٤٣٥ ـ ٤٥٥.

والعلمية والعملية، مازجاً فيما بينها بما يعكس ثقافته الموسوعية الشاملة وخبرته الميدانية.

يستعرض أولاً، الثروة الحرجية بتنوعها النباتي وتوزعها الجغرافي، والآفات التي تعرضت لها بفعل الحروب والتعدين والأتاتين (صناعة الكلس) والفحم والماعز، معدداً منافعها المناخية، ودورها في تكوين الينابيع والحفاظ على التربة. إلاّ أن الغطاء النباتي تعرض إلى دمار كبير خلال الحرب الأولى «إن مساحة الأراضي الحرجية في الجبل قبل الحرب كانت تعدل ٢٥ بالمائة بنسبة مساحته... لكن هذه المساحة نقصت فيما بعد، وإذا استمر النقص جارياً كما هو الآن بدون أقل احتراس فنخشى جداً من أن ينتشر الدمار في غاباتنا وتزيد توسعاً البقع الصلعاء الخالية من التربة...»[(١)].

يربط الوعي التاريخي بين تطور الزراعة والنمو السكاني في مقارنة بين لبنان في المرحلة الرومانية ولبنان المتصرفية، وفي الحقبتين تطورت مشاريع الري التي اعتبرت عنوان النهضة الحقيقية في المجال الزراعي. كتب الأصفر «... ما كان أعظم سرورنا لما رأينا في السنين الأخيرة أفكار المتنورين من مواطنينا متجهة إلى هذا الموضوع كاهتمامهم بمشاريع نهر إبراهيم ونبع العسل وعين الدلبة والباروك ونتمنى أن تأخذ هذه المشاريع دوراً مهماً وتخرج من القول إلى الفعل»[(٢)].

يعي الأصفر أن الزراعة ما زالت في حالة متأخرة، وبخاصة في ميدان التقنيات الزراعية، مقترحاً طرائق لإنتاج الأسمدة العضوية. وهو إذ يتناول المحصولات الزراعية يعترف بعدم وجود معلومات رسمية عن المساحات المزروعة «كما أننا نجهل كمية الحبوب المختلفة التي تدخل لبنان من الخارج لتكملة احتياجاته الغذائية لأن قسماً منها يستمده من مرافئ بيروت وطرابلس

(١) المرجع نفسه، ص ٣٨٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨٧. راجع أيضاً حول الري والمشاريع المائية مقالة ألبير نقاش **«نظرة في حالة جبل لبنان الاقتصادية»**، المرجع نفسه، ص ص ٤٧٣ ـ ٤٨٦.

وصيدا، وغيرها مقيدة مع واردات هذه المدن الخصوصية، وقسم يدخل من البر على الدواب من الولايات المجاورة ومن البقاع وحوران خصوصاً لكنه يستورد أعظم كمية عن طريق البترون وجبيل وجونيه بواسطة الشخاتير، ويدخل إلى هذه البلدة (جونية) سنوياً مليون كيله، ويعدلون ما يرد إلى الجبل عن باقي الطرقات (البترون وجبيل وطرابلس إلخ) بضعفي هذه الكمية ومعظم هذه المداخلات من القمح والشعير والقطاني»[١]. وإذا كان معدّل «مقطوعية» اللبناني السنوية من الحنطة تقدّر بثمانين رطلاً فضلاً عما يدخله في طعامه من البرغل وملحقاته (الكبة والكشك والفريكه والسميد)، فإن محصول لبنان من الأغلال لا يكاد يفي بمؤونة الجبل ثلاثة أو أربعة أشهر في السنين الجيدة[٢]، ولذلك يضطر إلى الاستيراد من حيفا وعكا ومرسين وصور وغزة، ومن الداخل السوري (حوران وحلب وحمص وحماه) عند انخفاض الأسعار[٣].

---

(١) حقي، لبنان مباحث...، المرجع نفسه، ص ٣٩٠.

(٢) خاصة أن «المردودية» الإنتاجية ضعيفة، فمحصول الفدان (٢٨١٢م^2) ١٥ ـ ٢٠ مداً ومعدل محصول المد من ٥ ـ ٧ بالواحد، وهذا المعدل هو نصف المردودية في مناطق متطورة زراعياً.

(٣) يبلغ إنتاج القمح في سوريا مليون طن تقريباً، موزعة بين ١٥٠ ألف طن في حوران و١٠٠ ألف طن في البقاع، و٥٠ ألف طن في فلسطين وشرقي الأردن، والباقي ينتج في المناطق الأخرى. إذا طرحنا لحاجات البذار ١٠٪ من هذا الإنتاج يبقى ٩٠٠ مليون كلغ يتبغي توزيعها على ٤ مليون نسمة مجموع عدد السكان في سوريا، أي ٢٢٥ كلغ لكل شخص في السنة. ويبدو أن سوريا تستهلك كامل إنتاجها من القمح، ولا يبقى إلا القليل للتصدير، إنما كان لهذا الواقع أن يتغيّر في وقت محدد، بسبب التوسع في ذراعة المنطقة، وتطور وسيلة نقل الإنتاج عبر شبكة سكك الحديد. وكان سعر طن الحنطة في المرافئ المختلفة في موسم طبيعي يتراوح بين ٢٠٠ ـ ٢٥٠ فرنكاً.

Dr. A. Ruppin, Syrien ALS Wirtschaftsgebiet (1916), PP. 49-50.

إلا أن عيساوي شكك في أرقام روبن الخاصة بإنتاج الغلال استناداً إلى قاعدة قسمة الإنتاج على المساحة، حيث تبدو المردودية مرتفعة جداً (غلة الهكتار ١,٥ طن من القمح) في حين أنه في وقت متأخر مثل فترة ١٩٣٤ـ١٩٣٨ كان متوسط غلة هكتار القمح في سوريا ٠,٩٧ طن متري، وبالنسبة إلى لبنان ٠,٥٢، وفي فترة ١٩٢٢ ـ ١٩٣٣ كانت غلة الهكتار الواحد أكثر انخفاضاً. راجع شارل عيساوي، **التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠ ـ ١٩١٤**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠، ص ٤٠٩.

ويخلص الأصفر في دراسته إلى أنه أمام عدم إمكانية توسيع نطاق الزراعة (لأن للتوسع على حساب الأحراج نتائج سلبية)، لا بدَّ من تحسين نوعيتها بإتقانها، وهو إذ يقر بالتأخر في ميدان الزراعة بالمقارنة مع «الممالك العامرة» إن على مستوى الأدوات الزراعية أو التسميد (لقلة المواشي)، يقترح استعمال الأساليب التي اختبر العلماء فائدتها، وزراعة متنوعة موزعة على مدار السنة لموازنة المخاطر، وتكثير الأشجار المثمرة لثمار تبقى زمناً طويلاً وتنقل بسهولة (جوز، لوز، سفرجل، تفاح، تين ناشف، زبيب، دبس...)، وعلى الحكومة إنشاء مدارس زراعية وتأسيس جمعيات زراعية وعقد مؤتمرات، وتأسيس مختبرات ومشاتل.

* * *

يبدو من حرارة هذه النصوص أن المأساة لم تكن قد وقعت أو أنها لم تكن قد تظهّرت، وأن لمسنا في بعضها استشرافاً سوداوياً، وفي بعضها الآخر قناعة مالتوسية باردة؛ هذا ورغم مرور ما يقارب القرن من الزمان تكرست فيه تفسيرات السرديات التاريخية والفنية (الأدبية)، إلا أن التفسيرات الكمية لعينات محددة بقيت قليلة، حيث تنصب مساهمتنا على تحليل حالتين من شمال المتصرفية توفرت وثائقهما الكمية، الاقتصادية منها والديموغرافية بما يسمح برؤية العلاقة بينهما.

II ـ أبحاث تطبيقية

١ ـ الإنتاج الأحادي وموت الفلاحين (حالة حدتون)

يتطلب التحليل الحسابي[١] للعلاقة بين إنتاجية الأرض والنظام الغذائي قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها، توفر أرشيف يحتوي على قيودات مداخيل ومصاريف مساحة عقارية محددة من جهة ومعطيات ديموغرافية (سكانية) من جهة ثانية؛ وتبرز في هذا الميدان البيوتات الكهنوتية (عائلات ارتسم منها كاهن أو سلسلة كهنة = خوارنة) كحافظة لهذا النمط من الأوراق والدفاتر والسجلات (الخاصة والكنسية)، لأن الهيئة الدينية هي التي تعلمت القراءة والكتابة، وعقلنت محاسبتها الخاصة. وسنستثمر في هذه الدراسة وثائق كاهن من قرية حدتون وآخر من مزيارة، والقريتان كانتا تتبعان لقضاء البترون في فترة المتصرفية. وتقضي العلمية تحليل المعطيات الكمية الخاصة بكل حالة، والمقارنة بينهما ودراسة كل منهما في النطاق العقاري والجغرافي والأيكولوجي والاقتصادي وخاصة الديموغرافي، وذلك لتحديد المتغيرات المختلفة، وإذا ما كانت كارثة موت الناس خلال الحرب الأولى قد تأثرت بواحد أو أكثر من هذه العوامل بقطع النظر عن تفسيرات المعرفة المدرسية ومرجعيتها: سرديات الحرب الأولى التاريخية والفنية.

(١) في إطار المقارنة بين المزرعة العربية (قرب الخليل) والمزرعة الألمانية (في سارونة شمال يافا) في فلسطين عام ١٩٠٥، اعتمدت منهجية محاسبية تحدد فيها مساحة المزرعة وما فيها من مبان ومعدات ري وأدوات ومعدات وحيوانات بحيث تقدر القيمة المالية الإجمالية لرأس المال الثابت والمتحرك بالإضافة إلى عدد العاملين، ثم تقدر إنتاجيتها (إجمالي الدخل) بحسب أنواع الزراعة وتربية الماشية وتحسم المصاريف (ضرائب + أجور + صيانة أدوات + نفقات أسرة) للحصول على الفائض السنوي. راجع شارل عيساوي، **التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠ ـ ١٩١٤**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠، ص ص ٤٦٧ ـ ٤٧٢ نقلاً عن:
Auhagen, Bei träge Zun Kenntnis du Landsnatun und der Landwirtschaft Syriens, P.P. 73-79.

١ ـ ١ ـ كان عدد سكان قرية حدتون[١] في بداية القرن العشرين ٣٦٠ نسمة ارتفع إلى أكثر من ٤٠٠ نسمة بقليل قبل الحرب العالمية الأولى، ومنهم ١٥٪ كان قد هاجر إلى القارة الأميركية اعتباراً من الثمانينات من القرن التاسع عشر. والجدير بالملاحظة أن معدلات النمو السكاني كانت جد مرتفعة منذ استقر الأجداد في القرية قرابة عام ١٧٠٠، فحتى عام ١٨٣٤ تضاعف عدد السكان أكثر من ٥ مرّات (في ٦٤ سنة). ثم تضاعف كذلك ٦,٢٨ مرّات بين ١٨٣٤ و١٩١٤ (٨٠ سنة)، في حين أنه لم يتضاعف خلال القرن العشرين (١٩٢٠ ـ ٢٠٠٦) (٨٦ سنة) سوى ٣ مرات، بما يسمح بالاستنتاج أن الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية ـ الجنسانية، كانت أكثر ملاءمة لإحداث الثورة الحيوية في ميدان النمو الديموغرافي.

دون شك تعتبر مأساة الحرب الأولى في جانبها الديموغرافي مفصلية، إذ توفي حوالي ١٨٨ شخصاً خلالها أي ٥٨٪ من المقيمين (و٤٧٪ من مجمل السكان)، إلا أن مؤشرات تراجع النمو كانت قد بدأت منذ سبعينات القرن التاسع عشر إذ يبيّن تحليل نمو عدد السكان في فترات زمنية متساوية، أنه تضاعف بين ١٨٥٠ ـ ١٨٨٣ (٣٢ سنة) ٣,١٨ مرات، في حين أنه لم يتضاعف بين ١٨٨٣ ـ ١٩١٤ (٣١ سنة) سوى ١,٥٤ مرة، مما يعني أن نسب النمو كانت أعلى قبل ١٨٨٠[٢] (كما كانت أعلى بالتأكيد قبل ١٨٤٩).

(١) تقع قرية حدتون في الناحية العليا من منطقة البترون، على بعد ٢٥كلم من مركز القضاء (البترون) وعلى ارتفاع ١٠٠٠ ـ ١٢٥٠م من سطح البحر، وكانت تتبع حتى سنة ١٩١٠ مديرية تنورين وألحقت بعد ذلك بمديرية الوسط المستحدثة ومركزها شبطين.

(٢) تبيّن أرقام الولادات أن الفترة الممتدة بين ١٨٨٠ و١٩١٤ هي التي شهدت الثورة الحيوية، بمعدل سنوي يتراوح بين ٨ ـ ٩ ولادات، لكن نسبة عدد الولادات إلى عدد السكان في هذه المرحلة هو أدنى منه للفترة السابقة، ففي الستينيات كانت نسبة الولادات ٦,٥٪ انخفضت في الثمانينات إلى ٣,٣٩٪ ثم إلى ٢,٥٠٪ في العقد الأول من القرن العشرين. وهذا ما يؤكد أن وتيرة تضاعف السكان كانت أقوى في حقبة ١٧٧٠ ـ ١٨٧٠ ثم بدأت بالتراجع مع تقسيم الإرث العقاري المتزامن مع أزمة اقتصادية ومالية وغذائية، وبدا أن علاقة جدلية أكيدة حكمت الديموغرافية والاقتصاد منذ سبعينيات القرن التاسع عشر.

وفي هذه المقارنة لم نغيب عامل الهجرة الذي ميّز الفترة الثانية، إنما في حدتون لم يتجاوز عدد المهاجرين حتى عام ١٩٠٠، التسعة بما لم يؤثر بقوة على نسب النمو بين الفترتين، وعلى أي حال، فإن هذه الهجرة هي مؤشر على الأزمة الاجتماعية ـ الاقتصادية والمالية (والنفسية) للفترة الثانية، حيث نفترض أنها لم تؤثر على النمو الديموغرافي، بل هي أزمة ناتجة عن تشابك العلاقة بين اقتصاد جبل لبنان الطرفي واقتصاد أوروبي مركزي، أدى إلى تشوهات كبيرة في الأول ناتجة عن تبعيته وبخاصة توجهه نحو الإنتاج الآحادي لسلعة غير غذائية، ما سيرتب مخاطر كبيرة عند حدوث أزمات في الاقتصاد المركزي كما حدث في الانحطاط الكبير (١٨٧٣ ـ ١٨٩٦) أو في حالة الحروب، ولهذا فإن هذا التحليل، يدرج هذه العلاقة في إطار المسؤولية العامة عن الكارثة السكانية في جبل لبنان.

لقد تراجعت الظروف الإيجابية الملائمة للنمو الديموغرافي، والتي كانت سائدة حتى بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر، فإلى تجزئة الملكيات، اختل التوازن الغذائي بفعل الزراعة الآحادية للتوت، وبدأت أزمة قطاع الحرير في جبل لبنان بسبب المنافسة الكبرى اليابانية والصينية وعدم الكفاءة النسبية في صناعته المحلية[1]، فتراجعت مداخيل الفلاحين في الوقت الذي ازدادت فيه المصاريف الاستهلاكية وبخاصة الغذائية مما أدى إلى تراكم الديون[2] على عائلات كثيرة ودفعها إلى رهن ملكياتها العقارية وإلى الهجرة.

---

(١) حول مشكلات صناعة تربية القز وصناعة حلّ الحرير في جبل لبنان، راجع مقالة ألبير نقاش القيمة «نظرة في حالة جبل لبنان الاقتصادية» في إسماعيل حقي، لبنان مباحث . . . ، ج٢، ص ص ٤٧٢ ـ ٥٥٦، أعاد نشر الجزء المتعلق منها بالحرير في لبنان عام ١٩١٤، شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب، ص ص ٤٧٤ ـ ٤٨٥.
راجع كذلك روجر أوين، **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ ـ ١٩١٤**، ترجمة سامي الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٠٠، ص ص ٣٥٠ ـ ٣٥٤.

(٢) إن حجم الديون المتراكمة على العائلات الفلاحية لمرابين ريفيين أو مدينيين كان كبيراً، وتتضمن «الوصايا» إلزام الورثة رد الديون إلى أصحابها قبل تحديد كلفة الطلعة (الجنازة). =

١ ـ ٢ ـ يتبين من خلال الجدول رقم ٦ (تطور الوفيات في حدتون خلال سنوات الحرب العالمية الأولى وبحسب الأشهر) أن عدد الوفيات عام ١٩١٦ هو ١٠٢ (٥٤,٢٥٪ من مجمل وفيات الحرب) و٥٧ وفاة عام ١٩١٧ (٣٠,٣١٪) و٢٥ وفاة سنة ١٩١٨ (١٣,٢٩٪)، وبذلك تكون السنة الأولى للمجاعة هي التي التهمت أكثر من نصف ضحاياها، وهذا ما يستلزم التفسير (وتفسير لماذا تأخرت المجاعة حتى آذار ١٩١٦). فهل الظروف الموضوعية العامة لعام ١٩١٦ هي سبب جوهري؟ ولماذا تراجعت الوفيات في السنتين التاليتين بشكل تدريجي؟ هل تراخت قبضة الحصار أم حدث التوازن بين إنتاجية الأرض وعدد السكان؟ ولماذا تركزت الوفيات في فصل الربيع؟ وما العلاقة بين المجاعة والأمراض؟

جدور رقم (٦)

تطور الوفيات في حدتون خلال الحرب العالمية الأولى بحسب السنوات والأشهر

الشهر / السنة	ك٢	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	ت١	ت٢	ك١
١٩١٤										٢		
١٩١٥	٢						١					
١٩١٦	٢	٣	١١	١٧	١٤	٨	٦	١٢	١٢	٦	٦	٣
١٩١٧	١	٦	١٨	١٤	٩	٦	—	١	—	١	—	—
١٩١٨	١	٢	٤	٦	٨	—	—	—	—	٣	—	—
المجموع	٦	١١	٣٣	٣٧	٣١	١٤	٧	١٣	١٢	١٢	٦	٤

المصدر: دفتر الخمس كتب (رعية حدتون)، كتاب المتقلين (وفيات الحرب) ص ص ١٥٣ ـ ١٥٨.

= كما أن الرسائل الواردة من المهاجرين، تبيّن حجم الديون، وأن تحويلاتهم المالية كانت تهدف بصورة أساسية إلى تسديدها والحيلولة دون التنفيذ العقاري، ويمكن الإفتراض أن العائدات المالية التي أرسلت من قبل العديد من المهاجرين الناجحين، قد استخدمت لتسديد الدين، ما حال دون تحقيق وفر. راجع للباحث «حدتون، بين المجتمع الكهنوتي والمجتمع المدني».

بعض هذه الأسئلة مشروع ـ رغم أن اقتصاد القرية ليس مغلقاً ـ وتكمن أجوبتها في تحليل تطور الوفيات ليس بحسب السنوات فقط، بل أيضاً بحسب الأشهر. إذ تبين أنه في أشهر آذار، نيسان، أيار، حزيران، (فصل الربيع) في السنوات الثلاثة (١٩١٦ ـ ١٩١٨)[١] توفي ١١٥ شخصاً (ما نسبته ٦١,٨٢٪) توزعوا تباعاً (٥٠، ٤٧، ١٨) في حين لم يمت في أشهر الشتاء (ك١، ك٢، شباط) سوى ٢١ شخصاً، ٤٥ منهم عام ١٩١٦، أي أن الوفيات انحسرت كلياً في صيف وخريف ١٩١٧ و١٩١٨. ما هو تفسير هذا التوزع الزمني لوفيات المجاعة والمرض في حدتون؟ نفترض أن وفيات ١٩١٦ خضعت بقوة لظروف وآليات الاقتصاد الكلي وتأثرت بالتدابير السياسية والعسكرية والمالية العامة، وتصح عليها مجمل التفسيرات والتحليلات التي تضمنتها كتب السرديات التاريخية والفنية والمذكرات الشخصية[٢]. ولكن وإن

(١) نلاحظ أن المجاعة في حدتون لم تبدأ عام ١٩١٥ بحيث يمكن الاستنتاج أن مجموعة من الأسباب العامة (المعروفة مدرسياً) كالجراد (نيسان ١٩١٥) والتحركات العسكرية في هذا العام التي أعاقت نقل الحبوب، ومصادرة الحيوانات... لم يكن لها تأثير مباشر وفوري.

(٢) كنماذج عن هذه التفسيرات العامة لأسباب المجاعة، المعبّر عنها مباشرة بعد إنتها الحرب، ما كتبه البكاسيني (١٩٢٢) محملاً المسؤولية للأتراك الذي نفذوا حكم الإعدام بالشعب في متصرفية جبل لبنان «لاعتقادهم أنه الأشد ميلاً إلى الدول المعادية» إذ قطعت الحكومة الحنطة وسائر الحبوب من أنحاء سوريا، وقامت بمصادرة الخيل والبغال والجمال والحمير ما أدى إلى أزمة في وسائل النقل، كما أن الجنود والسماسرة كانوا يأخذون من النساء ما حملوه من مسافات طويلة، واحتكر أرباب الحكومة الغلال وباعوها بأغلى الأثمان. وساهمت إلمانيا في الغلاء الفاحش، لأنها «أصبحت تبتاع كل ما استطاعت ابتياعه من حنطة البلاد بأثمان يعجز الوطنيون عن المشترى بمثلها، ولكثرة ما تبتاعه كان لديها زهاء عشرين ألف سيارة تنقل الحنطة إلى بلادها». ولكن هذه الأسباب لم تحل دون تفسير اقتصادي: انقطاع موارد الرزق انقطاعاً يكاد يكون تاماً. فالقرية في لبنان قليلة الخصب، وقد غرست فيها أشجار التوت لتربية دود القز لاستنتاج الحرير وهو واحد من مصادر معاشهم، «ويحصلون الجزء الأخير وهو الأكبر من شغلهم بالأجرة أو من حرفة قليلة العائدة» بالإضافة إلى عائدات المهاجرين إلى أميركا «فأصبح بعض سكان الجبل على شيء من اليسار»، ولكن عند اشتعال الحرب جفت هذه الموارد الثلاث إذ «هبط سعر الحرير وقلّت غلاله واشغلت الأرض بزراعة الحنطة والشعير وذلك لم يشبع السكان، أتلف شجر التوت والكرم وامتص من الأرض خصبها. وأمسك =

كانت هذه التفسيرات تصح على مجمل سنوات الحرب، إلا أن التوزع الزمني للوفيات في عينة محددة (حدتون في حالتنا) يساعد بشكل أدق على فهم العلاقة بين الاقتصاد والجوع والمرض والموت، كما يساعد على فهم العلاقة بين اقتصاديات القرى والاقتصاد العام.

إن تركز الموت في الأشهر الممتدة بين آذار وحزيران، واستمرارية هذا التركّز في ٣ سنوات، له مدلوله ومعناه: إن مونة الصيف المتشكلة من قمح وحبوب أخرى وتين ودبس... كانت تنضب في شهر شباط من كل سنة، ولما كانت الآليات الاقتصادية السابقة المؤمنة لهذا النقص عبر التبادل التجاري (المردود المالي لموسم الشرانق واستخدامه في شراء القمح من المدن عبر

= الأغنياء على ما في أيديهم من المال فجف الشغل وكسدت الحرف وأقفلت أبواب البحر، فانقطع القوت من المهاجرين». راجع لطف الله نصر البكاسيني، **نبذة من وقائع الحرب الكونية**، هذبه ونقحه القس مبارك تابت الديراني اللبناني، مطبعة الاجتهاد، بيروت، ١٩٢٢.
ويتفق كنعان (١٩٦٣) مع البكاسيني في تحمل المسؤولية للسياسة التركية، إذا صادرت القيادة العامة المنتوجات الزراعية من داخل البلاد لتخزينها (كما صادرت أصنافاً عديدة من البضائع الأجنبية لخزنها احتياطاً)، فارتفعت أسعار المأكولات وسائر المواد الغذائية ولا سيما الحنطة، فارتفع سعر رطل الدقيق من ٣ غروش ذهب قبل الحرب إلى ١٠٠ غرش ذهب في سنتي ١٩١٧ ـ ١٩١٨؛ كما أن التحركات العسكرية في ربيع ١٩١٥ واستخدامها للسكك الحديدية قد عرقل شحن الحبوب إلى لبنان وبيروت؛ ويتوقف تفسير كنعان عند الجراد (نيسان ١٩١٥) الذي حجب الشمس وجرّد الأشجار الحرجية من أوراقها فبدت هياكل حزينة، وربط بين الجوع وتفشي الأمراض مثل التيفوس (ربيع ١٩١٥ـ نهاية ١٩١٦) والهواء الأصفر (تموز ١٩١٦) والملاريا حيث ضحاياها بالآلاف بسبب النقص في أقراص الكينا... وقد قدّر كنعان ضحايا الحرب ـ ١٣٠ ألفاً: **بيروت في التاريخ**، الجزء الأول بقلم داود خليل كنعان والجزء الثاني بقلم إبراهيم نعوم كنعان، بيروت، ١٩٦٣. (والكتاب يتضمن مجموعة من الصور النادرة عن مآسي الحرب والمجاعة في بيروت). كما قدّم ونشر البعيني، ذكريات الأمير شكيب أرسلان عن الحرب الكونية الأولى، نوفل، ٢٠٠١.
كذلك كتاب يمين (١٩٢٢)، **٤ سنوات من البؤس**، القاهرة، ١٩٢٢ (بالفرنسية):

A. Yammine, *Quatre ans de misère*, le Caire, imprimerie Emin Mendie, 1922.

Linda Schatrowski Schilcher, *«The Famine of 1915-1918 in Grater Syria»* In Problems of the Modern Middls East, in historical perspective, Essays in Honor of Albert Hourani, John spagnolo (ed.), Ithaca press, Reading 1992.

المرافئ أو عبر التجارة البرية) قد تعطلت بفعل الحصار والتدابير العسكرية والإدارية، والإرادة السياسية، فإن الجوع، وبالتالي الموت كان بانتظار الناس في الربيع، ولا تتوقف موجاته إلا اعتباراً من تموز ١٩١٧ وحزيران ١٩١٨ حيث تعود الأرض في دورتها الإنتاجية لتقدم الغذاء لفلاحيها. أما لماذا استمر الموت في صيف ١٩١٦؟ هنا يمكن التأكيد على عامل الجراد[١].

أمام أزمة الغذاء التي واجهتها القرية، خرج أهلها يبحثون عن النجاة خارجها، فماتوا في القُرى والمدن القريبة منها والبعيدة[٢]، ولا نعرف ـ إلا من بعض المرويات ـ مدى النجاح الذي حققه البعض في العودة إلى قريته حياً يحمل قمحاً، إنما المؤكد موت بعض الناس على تخوم القرية أثناء عودتهم.

من زاوية احصائية أخرى، بلغ عدد وفيات الذكور ٩٩ (٥٢,٦٥٪) والإناث ٨٩ (٤٧,٣٥٪) فتنازع البقاء لم يكن لصالح الرجال وأثبتت النساء قدرة على مواجهة الجوع.

١ ـ ٣ ـ في تفسير مجاعة قرية حدتون ونتائجها السكانية، لا بدَّ من

(١) اعتبر الجراد ومنذ مدة طويلة كأكبر خطر يهدد الزراعة في المنطقة، ومنه فصيلتين الإيطالية والسودانية، وقد ظهر في سنين سابقة (١٨٦٦، ١٩٠٦، ١٩١٠) وفي كل مرة كانت الكلفة المالية لإتلاف بيوضه كبيرة. «وفي آذار ١٩١٥ ظهر الجراد السوداني مجدداً وانتشر في كل أنحاء سوريا (وكذلك في مصر وآسيا الصغرى) وبأعداد كبيرة. فعلى شريط يتكون من عدة مئات من الأمتار عُرضاً، كانت تطير رفوف متلاصقة تمتد بين ٢٠ ـ ٣٠ كلم طولاً، ثم تغط في الأماكن المزروعة بالحبوب والأشجار، حيث تأكل الجذوع والأغصان التي لم تزهر بعد، ثم راح يفتك بقمح الصيف. ولقد قدرت الخسائر الناتجة عن غزوة الجراد هذه في سوريا بـ ١٠٠ مليون فرنك. وقد ظهر الجراد مرة أخرى عام ١٩١٦.

Ruppin, op. cit., P. 41-42.

(٢) تدل أمكنة موت الناس، على المجال الجغرافي الحيوي الذي تصوروه مصدراً للحصول على القوت، وقد تشكل نتيجة العلاقات التجارية والإدارية والسياسية السابقة، وهو محافظة الشمال لاحقاً.

رؤية العلاقة بين الاقتصاد الداخلي للقرية ـ وبخاصة ما يتعلق منه بالاكتفاء الذاتي على مستوى المنتجات الغذائية ـ والاقتصاد العام لمتصرفية جبل لنان.
لقد اتجه اقتصاد القرية في القرن التاسع عشر، بقوة نحو الزراعة الآحادية للتوت، شأنه شأن اقتصاد المتصرفية[١]، إلى الحد الذي كان يتم فيه اقتلاع أشجار الزيتون المعمرة، كما تقلّصت الأراضي «البيضاء» أي «السليخ» المخصصة لزراعة الحبوب، مما يعني تراجع كميات الغذاء الضرورية

(١) إن اقتصاد متصرفية جبل لبنان هو واحد من أكثر الاقتصاديات اندماجاً في التقسيم الدولي للعمل في بداية القرن العشرين ويمكن من خلال تقسيم الواردات إلى جبل لبنان (بنية التجارة الخارجية للمتصرفية سنة ١٩١٣) إلى ٥ مجموعات: المواد الغذائية (٤٩,٢٦٪)، السلع الأوروبية المصنّعة (٤١,٨٥٪)، جلود (٦,٤٤٪)، حيوانات نقل وجر (١,٦١٪)، مواد أولية ونصف مصنعة نسيجية (٠,٧٦٪)، استنتاج أن منطقة ريفية كجبل لبنان تشكّل وارداتها الغذائية نصف قيمة الواردات (في حين إنها ٢٠,٤٠٪ من واردات بر الشام) وهذا هو نتيجة التخصص القوي لجبل لبنان في آحادية إنتاج الحرير للتصدير. وقد كان لهذا التخصص آثار أخرى، فاستيراد الجلود والأصواف وبعض خيوط القطن يعكس استمرارية حرفية محلية في متصرفية جبل لبنان تشمل الدباغة والسكافة وصناعة السروج والنسيج والحلاله، وهذه الحرف لا تجد مواداً أولية لها بسبب التخصص الشديد في زراعة التوت؛ كما يمكن تفسير استيراد حيوانات النقل بسبب ضعف تربية الدواجن والماشية الناتج عن التخصص الآحادي. ويمكن من خلال تحليل أنماط استعمال السلع المستوردة، حيث النسبة المرتفعة لسلع الاستهلاك المباشر (٤٩,٢٦٪) تعود إلى أهمية الواردات الغذائية. أما ارتفاع نسبة السلع ذات الاستهلاك الدائم (٤١,٨٥٪) فسببه النسبة المرتفعة للسلع المصنّعة. هاتان الظاهرتان تعكسان التخصص في زراعة التوت. أن النسبة المنخفضة لاستهلاك السلع الوسيطية (٧,٢٠٪) والتجهيزات (١,٦١٪)، فتعكس ضعف الصناعة التحويلية والبنية البدائية للتجهيزات الأخرى (وسائل نقل، بناء، آلات زراعية..).
وبالمقابل تؤكد بنية الصادرات: شرانق الحرير ٣٨,١٧٪ + خيوط الحرير ٢٣,٨٦٪ = ٦٢,٠٣٪، زيت الزيتون (١١,٩٣٪)، درجة التخصص في جبل لبنان، وحيث الشرانق تلعب دوراً أكثر أهمية من الخيوط مما يعكس أزمة الحلالات المحلية وانهيار صناعة حل الحرير...
وخلاصة التحليل لبنية التجارة الخارجية للمتصرفية عام ١٩١٣ تدل على تخصص في صادرات المواد الخام الحريرية، وهذا التخصص أدى إلى انهيار الزراعة الغذائية وتراجع الحلالات والصناعة النسيجية المحلية وإضعاف النشاطات الحرفية والمانيفاكتورية.

Boutros LABAKI, *Introduction à l'histoire économique du Liban*, Beyrouth, 1984, PP. 357-368.

(وبخاصة القمح) في منحى تعاكسي مع النمو الديموغرافي المتزايد، مما سيطرح مسألة الأمن الغذائي في حال أي خلل يصيب اقتصاد الحرير المرتبط بقوة بصناعة النسيج في فرنسا، باعتبار أن مردوده المالي، كان الوسيلة الوحيدة لشراء كميات القمح وغيره من المواد الغذائية، لسد النقص الناتج عن التخصص الآحادي في الإنتاج.

للبرهنة على ما يبدو نظرية عامة، واستناداً إلى الوثائق المحلية، سنصف حالتني محددتين من الاقتصاد المنزلي.

أ ـ تمثل ملكية إحدى العائلات الفلاحية، كما استقرت في بداية القرن العشرين عينة عن الإنتاج الآحادي، فلقد تشكلت من ٢٣ عقاراً (بما فيها ٣ حارات للسكان ملحق بها قطعة سليخ وتوت ومختلف في جدار القرية) مساحتها ٧ دراهم وقيراطان، يمثل فيها التوت قرابة ٧٠٪ وربما تجاوز ذلك، لأن الصيغ القانونية والإدارية تحتفظ بالتوصيف الأساسي الذي يعود إلى تاريخ المساحة (١٨٦٧)، إذ بعد ذلك ازدادت عملية التوسع في زراعة التوت، وتؤكد المقارنة بين إنتاجية هذه الملكية عام ١٨٦٧ وما أضحت عليه في بداية القرن العشرين، فرضية التوجه نحو الإنتاج الآحادي، فاختفت حصة الزيتون، وتراجعت إنتاجية كل من المختلف والسليخ، وبالمقابل ارتفعت حصة التوت، وهذا يعني تراجع الإنتاج الغذائي (الحبوب والزيتون و«المختلف»، خضار وفاكهة...) لصالح إنتاج التوت حيث الحاجة إلى تتجير مادة الشرانق للحصول على مردود نقدي في ظل اقتصاد اتجه بقوة نحو العلاقات الرأسمالية.

جدول رقم (٧)
التخصيص الآحادي في ملكية عقارية (حدتون)

السنة	مكونات الملكية العقارية												المجموع			عدد العقارات
	توت			سليخ			زيتون			مختلف			حبة	قيراط	درهم	
	حبة	قيراط	درهم	حبة	قيراط	درهم	حبة	قيراط	درهم	حبة	قيراط	درهم				
١٨٦٧	٦	١٨	٢	٢٢	٦	١	٠	٣	٠	٢٢	٦	١	٢	١١	٥	٢٣
١٩٠٠	٠	٤	٤[1]	١٠	١١	١[2]	٠	٠	٠[3]	٠	١٠	١	٠	٢	٧	٢٣

المصدر: ـ دفتر مساحة حدتون (١٨٦٧) محفوظات الشيخ نصار أبي دوميط.
ـ أوراق الشيخ دوميط ريشا طانيوس أبي نصر.

(١) بما فيها ٣ حارات سكن، ووجود زيتون بين التوت في ٣ عقارات.
(٢) ٤ عقارات سلخي فيها أيضاً توت و٣ عقارات مع «مختلف».
(٣) لا وجود لعقارات زيتون صرف بل هو متداخل مع التوت والسليخ.

ب ـ مقاربة أخرى للتخصص ونتائجه الكارثية المحتملة على الأمن الغذائي، وبالتالي مخاطره على الديموغرافيا. يتبين من خلال تحليل مداخيل ومصاريف أحد الكهنة في حدتون[1] بين عامي ١٩٠٠ و١٩٣٠ بأن موسم الشرانق شكل المردود الزراعي الأساسي طيلة العقود الثلاثة بنسبة تراوحت بين ٧٠ـ٨٠٪ من المدخول الزراعي، وتوزّعت النسبة الباقية على منتجات العنب ومشتقاته ومبيعات بعض المواشي. . . على أن بنية المصروف أي الاستهلاك هي التي تبرز بشكل واضح المخاطر المحتملة، فقد شكّلت السلع الغذائية نسبة مرتفعة من مجمل المصروف، وتشتمل بصورة أساسية على «الغلة» ويقصد بها «الحنطة والقمح والطحين»، فعلى سبيل المثال تم شراء قمح وطحين عام ١٩١٠ بما قيمته ١١٣٠,٢٥ قرشاً من مدينة البترون، وهذا المبلغ مساوٍ تقريباً لمردود موسم الشرانق في هذه السنة. وإذا أضفنا إلى «الغلة» مشتريات أخرى من الحبوب والخضار والقلقاس والفواكه والزيت والزيتون، وسلع غذائية وترفيهية أخرى (بالإضافة إلى الديون، والتجهيزات المنزلية، والأقمشة والخامات والملابس، والسكافة، والأجور الزراعية، والنقل ومصاريف الانتقال، والميره، والطبابة والأدوية والتكاليف القضائية والواجبات الاجتماعية. . . والتي تشكل جميعها أبواب المصروف) يمكن إذاك تصور نتائج انهيار اقتصاد الحرير على البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية وبالتالي الديموغرافية. وعلى أي حال فإن مؤشرات الأزمة ومخاطرها كانت قد ظهرت في سبعينيات القرن التاسع عشر بفعل الأزمة الدورية التي أصابت الاقتصاد الأوروبي، فانعكس ذلك بقوة على اقتصاد جبل لبنان. وتحدث البعض عن حالات مجاعة وموت في تلك الفترة، لا بل أن النمو

(١) راجع دراستنا، «حدتون بين المجتمع الكهنوتي والمجتمع المدني»، وبخاصة الفصول التي تتناول الحياة الاقتصادية في العقود الأولى من القرن العشرين استناداً إلى دفاتر الخوري باسيليوس خليفة.

الديموغرافي المتصاعد أصيب بانتكاسة[1].

١ ـ ٤ ـ كيف برزت تأثيرات وفيات المجاعة على أ ـ البُنى العائلية، ب ـ المشهد العمراني، ج ـ الملكية العقارية؟

أ ـ اندثرت أجباب بكاملها داخل العائلات، كما انقرضت بيوتات عديدة داخل الأجباب، إلا أن عوامل أخرى ساهمت في عدم استمرارية بعض فروع الشجرات العائلية، أبرزها الهجرة أو عدم الزواج، أو عدم الإنجاب أو إنجاب إناث فقط، أو دخول بعض ذكور العائلات إلى الرهبنة. إن النمو السكاني البطيء خلال القرن العشرين هو أحد أبرز نتائج المأساة المتمادية.

ب ـ إن المشهد الأثري الذي استمر يطبع صورة القرية طيلة القرن العشرين ـ وما زالت بعض مخلفاته بادية للعيان حتى الآن ـ هو عشرات البيوت التي تحولت إلى خرائب بسبب موت ساكنيها[2].

وإذا كان النمو الديموغرافي الذي شهدته حدتون في العقود السابقة للحرب، قد أدّى إلى توسع عمراني، من مؤشراته البارزة التداخل بين أحياء العائلات، (ببناء منازل تعود لعائلة داخل الحيز الجغرافي المخصص لعائلات أخرى)، أو ببناء منازل خارج النواة التاريخية للسكن، في الوديان وعلى

(١) اكتشفت عدة دراسات في الديموغرافيا التاريخية المستندة إلى دفاتر الكتب الخمسة «ثغرة السبعينات». راجع الفصل المخصص للديموغرافيا في عمشيت في أطروحتنا «التحولات الاقتصادية وانتقال النفوذ السياسي من المقاطعجية إلى الخواجية»، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب ١٩٩١.

(٢) نشرت صور فوتوغرافية لعدة قُرى في جبل لبنان عمّها الخراب بسبب موت أهلها جوعاً، وبخاصة لقرى بلادَي جبيل والبترون وكسروان، وهي بعدسة الأب اليسوعي J. Delore (1873-1944) التقطها مباشرة بعد انتهاء الحرب، ومن القُرى المحيطة بقرية حدتون، اتخذت صور قرى حاقل وشبطين وعبدللي (ص ١٧١ ـ ١٧٥). وقد كتبت كارلا اده في الكتاب التكريمي عينه (ص ٩٣ ـ ٩٩)، إن هذه الصور الفوتوغرافية عن القُرى المهجورة والمنازل الخربة، تسمح بتجديد الدراسات عن هذه الفترة. . .

Levon Nordiguian (sous la dir.).

الهضاب المحيطة بها، فإن الخراب قد حلّ بها جميعاً مقلصاً القرية عمرانياً إلى نواتها كما تشكلت قبل قرن من الزمان.

ج ـ يعكس الواقع العقاري كما استقر في الثلاثينيات من القرن العشرين، نتائج موت فروع وأجباب بكاملها داخل العائلات، ما أدّى إلى انتقال أملاكها إلى أقاربها أو إلى عائلات أخرى بفعل المصاهرات. لكن العلاقات المالية (الديون) المستمرة منذ ما قبل الحرب وخلالها، (والتي بعثت بعد وقف العمل بالموريتوريوم وهو القانون الذي تجمدت الديون بموجبه خلال الحرب)؛ والديون الجديدة، ساهمت بدورها في انتقال الملكيات، أما بالتنفيذ العقاري أو عبر عمليات البيع، وقد استثمرت هذا الواقع خواجية خارجية (كانت تلعب دور المرابي منذ أواخر القرن التاسع عشر) وأخرى داخلية، تعتبر الأموال الاغترابية مصدر قوتها. لقد أعاد توزيع الملكية العقارية بعد الحرب، توزيعاً جديداً للسلطة، بفعل العلاقة الأكيدة بينهما في اقتصاد زراعي بموازاة استمرار علاقات كهنوت ـ سلطة، أو معرفة ـ سلطة...

د ـ من الصعب تعيين الاستمراريات والانقطاعات في ميادين أخرى، أبرزها البنى العقلية والأخلاقية، لكن بعض الوقائع تبرز تجدد إرادة الكهنة بمعاودة فتح مدرسة القرية (دون نجاح في تحقيق ذلك بصورة مرضية بسبب استمرار الصراع فيما بينهم، وهي استمرارية ملفتة، بعد مأساة مروعة) مع الإشارة إلى تأسيس الرهبنة المارونية لمدرسة سيدة ميفوق (المجاورة لحدتون) عام ١٩٢٠، تلقى العلم فيها مجموعة ممن سيلعبون دوراً بارزاً في تاريخ القرية الثقافي والتراثي. من جهة أخرى لا تبرز وصايا العشرينات على الأقل حدوث تغييرات أو انقطاعات واضحة، إذ استمرت السمة الدينية لهذه الوصايا، ما يدل أن التحول نحو الوصايا العلمانية عند كُتّاب العدول قد حدث فيما بعد، بفعل تغلغل القِيم المدنية وتقدم مؤسسات الدولة.

٢ ـ دمار المشروع الزراعي (حالة صخره ـ مزيارة):

٢ ـ ١ ـ في منتصف القرن التاسع عشر، أسس كاهن مزياري (اسمه مارون صليبا) مستوطنة زراعية في صخرا ـ دير نبوح منطقة الخالدية (من مديرية إهدن قضاء البترون في مرحلة المتصرفية) على الحدود الشمالي التي تفصل المتصرفية عن قضاء الضنية في ولاية طرابلس. وقد تملك الخوري مارون صليبا أرض المستوطنة نتيجة تعامل تجاري مع الآغوات آل رعد في الضنية، إذ اهتم بتسويق حريرهم وتزويدهم بحاجاتهم من السلع، أي أنه كان وسيطاً بين خواجية (بورجوازية) الجبل المارونية والآغوات، وربما عمل ككاتب عندهم ومدبر لأعمالهم[1]. يمكن اعتبار هذه المستوطنة بمثابة «عهدة خواجية كهنوتية» إذ طبقت فيها ـ بعد أن وفدت إليها عائلات مزيارية ومن قُرى أخرى ـ علاقات اقتصادية ـ اجتماعية تداخل فيها نمط الشراكة المقاطعجي التقليدي مع نمط علاقات رأسمالوية من حيث دفع أجور العمل نقداً وتبادل السلع الاستهلاكية.

لقد توسعت مساحة هذه العهدة، ففي الخمسينات من القرن التاسع عشر تأسست بشراء أراضي الآغوات رعد وبعض فلاحي إيعال ودير نبوح، وفي التسعينيات (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥) تمّ شراء أراضٍ من بيت المقدم بما قيمته ٣٢٢٠٠٠ قرش، ثم ازدادت المساحة في بداية القرن العشرين بشراء أراضٍ من ملاكي قرية الخالدية. مصادر التمويل هي الوظيفة الدينية، التجارة وأموال المهاجرين المزياريين إلى البرازيل وإفريقيا. لقد كانت المساحة سنة ١٨٨٧ ٢٠ حبة فقط إلا أنها أضحت فيما بعد ٣ دراهم و١٧ قيراطاً، وهي أكبر مساحة من دفتر الخالدية وتشكل ١٨٪ من المساحة الإجمالية لهذه القرية.

(١) راجع كتابنا (قيد الطبع) «المعجزة المزيارية»، وتحديداً القسم الثاني وهو بعنوان «الوظيفة الدينية والمشروع الاقتصادي في صخره ـ مزيارة، دراسة في أرشيف بيت صليبا» (١٨٥٠ ـ ١٩٢٤).

منذ بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر، كان يعمل في هذه العهدة قرابة ٤٥ شخصاً بين رجل وامرأة، ينتمون إلى قُرى صخره ومزيارة حميص وعيمار ودير جنين. ويستنتج من خلال تحليل المحاسبة، أن العلاقة التي تربط صاحب العهدة (الخوري مارون ومن بعده ولديه الشيخ إلياس والخوري يوحنا مارون) بالفلاحين هي مزيج من نظامين اجتماعيين ـ اقتصاديين تداخلا في هذه المرحلة التاريخية: الأول هو نظام الشراكة وفق النمط المقاطعجي أو وفق نمطه الخواجي المتجدد، والثاني رأسمالوي حل فيه الأجر اليومي كجزاء للعمل بدل نظام المحاصصة السابق، فمن جهة نلحظ شراكة على الشرانق، ومن جهة ثانية علاقات تبادل سلعي ـ نقدي بين طرفي العلاقة ودفع أجور يومية من بيت صليبا إلى الفعلة والفلاحين والحصادين الذين يعملون في أرزاقهم[1].

لقد أمنت هذه العهدة مداخيل كبيرة، أضيفت إلى مداخيل الوظيفة الدينية، مما سمح لبيت صليبا ببناء حارتين الأولى في صخره قبالة قلعة بربر آغا في إيعال وأخرى في مزيارة، وباستخدام الأجراء والخدم، والعيش بمستويات استهلاكية مرتفعة، وتوسيع الملكية العقارية وامتلاك طواحين القمح ومدارس الزيتون... وكل ذلك شكل قاعدة مادية لنفوذ معنوي وسياسي في مزيارة ومحيطها.

يبلغ المدخول الزراعي السنوي (عندما يكون الموسم جيداً) ١٩ ـ ٢٠ ألف قرش كما في سنتي ١٩٠٤ و١٩٠٦، ويشكل الزيت النسبة الكبرى (٦٢,٠٧٪ و٧٥,٨٧٪) يليه الشرانق بنسبة (١٨,١٥٪ و٢٠,١٠٪)، أما السلع الزراعية الأخرى فتشكل نسباً متواضعة من حجم المداخيل السنوية، ومنها الخروب والحبوب (كالحنطة والشعير) والتين والعنب.

(١) حول أنماط الشراكة وتحليل العلاقة بين أصحاب العهدة والزبائن، راجع الفصل الثالث من القسم الثاني وهو بعنوان «المشروع الزراعي في صخرة ـ مزيارة» (١٨٩٠ ـ ١٩٢٤).

وبالمقابل تراوحت قيمة المصروف السنوية بين ٨٥٠٠ قرش و١٨٠٠٠ قرش، وقد بلغ مجموع المصروف بين ١٩٠٣ و١٩٠٨ ٨٠١٦٩,١٠ قرشاً بمعدل ٣٦ قرشاً ونصف كمصروف يومي على ٦ سنوات، ويعتبر هذا المصروف كبيراً في فترة يتقاضى فيها الفاعل كأجر يومي ٦ قروش. وقد تألفت السلة الاستهلاكية من مواد غذائية غنية ومتنوعة أبرزها اللحم، ومواد ترفيهية أبرزها التنبك والتبغ العربي والإسلامبولي، ومواد الصيد، ثم ألبسة وأقمشة وأحذية، وأغراض مطبخية ومنزلية، وعلف حيواني، وأجور معلمين وعمال وفعلة، وواجبات اجتماعية[1].

٢ ـ ٢ ـ يحتوي الأرشيف على دفاتر يمكن من خلالها تحديد كلفة الأعمال الزراعية في هذه العهدة بين ١٩٠٧ و١٩٢٤، وهذا ما يسمح بملاحظة انهيار المشروع الزراعي خلال الحرب العالمية الأولى[2]:

أ ـ في سنة ١٩١٤ تحولت المحاسبة من اعتماد السنة الشمسية إلى اعتماد ما يمكن تسميته «السنة الموسمية» حيث تبدأ في تشرين الأول وتنتهي في تموز والهدف معرفة قيمة الخسارة والربح وفق الموسم.

ب ـ تراوحت الكلفة السنوية للعمل في الأملاك قبل الحرب بين ٥٠٠٠ و٧٠٠٠ قرشاً سنوياً، ويتراوح عدد الفعلة بين ٥٥٠ و٨٦٨ فاعلاً سنوياً، وتعتبر هذه الكلفة بمثابة استثمار مرتفع في الزراعة. ولكن هذه الكلفة هبطت في سنوات ١٩١٥، ١٩١٦ و١٩١٧ وبلغت أدناها سنة ١٩١٨ حيث لم تتجاوز ٥١٤ قرشاً، وغياب محاسبة سنوات ١٩١٩، ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٣ مما يعني خراب هذا المشروع، أما أرقام ١٩٢٠ و١٩٢٤ فهي تعكس التضخم في العملة أكثر مما تعكس عودة الديناميكية إلى الحياة الزراعية.

(١) حول المداخيل والمصاريف والحارات والأجراء، راجع الفصل الأول من القسم الثاني.
(٢) تم استثمار هذه الدفاتر في بناء فصلين من كتاب «المعجزة المزيارية» يمكن مراجعتها: «المشروع الزراعي في صخره ـ مزيارة: أنماط الشراكة وكلفة الإنتاج» و«الإنتاج الزراعي والتقنيات الزراعية».

جدول رقم (٨)

تكاليف العمل في الأملاك في صخره ـ مزيارة (١٩١٢)

(بالقروش العثمانية)

التكاليف		عدد الفعلة	نوع العمل
بارة	قروش		
٣٠	٢١٧	٣١ ١/٤	نكش مع الفدان، زراعة حنطة في عريض الدبورية في ٢٨ ك٢ ١٩١٢
	٢٣٢	٣٢	كلف كشف زيتون السهلة ٢٦ ك٢ ١٩١٢
	١١٢١	١٥٧	كلف نصب زيتون في شقفة الارغول في ٣١ ك٢ ١٩١٢
	٧٧	١٠	شغل في العودة
	٤٢٤	٣٠	كلف زراعة شعير في وادي نصر
	١٨٥٨	٢٣٦	كلف شغل زيرة الوادي
	١٠٧٤	١١١	زقاق قشاش زيتون إلى أتون صخره
	٢٢١	١٠	شغل في ساقية زيرة الوادي
	٢١٠	٣٥	كلف حليشة شعير في الحقلة
	٧٤	٨	كلف حصيدة في الحقلة
	٣٣	٨	فراط خروب صخره
	٣٧	٦	عمار حفة زيرة الطاحون
	١٩٥	٢٩	كلف زراعة حنطة في وادي نصر ٧ ت١ ١٩١٢
	٢٠	٣	نقب وراء المدرس ٢٧ ت٢ ١٩١٢
	٩١	١٣	زراعة حنطة في صخره عند الأرغول وآتون صخره ١٣ طبه بلدي
	١٠٣٨	١٤٩	كلف زراعة شعير عند مراح العقبة ١٧ ك١ ١٩١٢ ـ ٢٤ ك٢ ١٩١٣
٢٠	٦٩٢٣,١٠	٨٦٨	المجموع

المصدر: أرشيف بيت صليبا، دفتر رقم ١٤: دفتر إجمال الشغل في الأملاك وزراعة الحنطة (١٩٠٧ ـ ١٩٢٤).

جدول رقم (٩)

تكاليف العمل في الأملاك في صخره ـ مزيارة (١٩١٧)

(بالقروش العثمانية)

التكاليف		عدد الفعلة	نوع العمل
بارة	قروش		
	٩٦٩	١٤٠	كلف زراعة باقية وحنطة وشعير وأجور فلاحة ونكاش، وتنقية زيتون وكروم وتشحيل زيتون وزقاق سواد، وعزيل سكر الطاحون.
	٣٠	١٠	كلف حليشة شعير ١٩١٧
١٠	٢٧٠	٧١	حليشة حنطة ١٩١٧
١٠	١٢٦٩	٢٢١	المجموع

المصدر: أرشيف بيت صليبا، دفتر رقم ١٤.

جدول رقم (١٠)

تكاليف العمل في الأملاك في صخره ـ مزيارة (١٩١٨)

(بالقروش العثمانية)

التكاليف		عدد الفعلة	نوع العمل
بارة	قروش		
٢٠	٩٣	٢١	حليشة شعير في ٤ حزيران ١٩١٨
٢٠	٨٤	٤	حصيدة حنطة في صخره في ٢٦ حزيران ١٩١٨
	٣٣٦	٤٦	حصيدة حنطة في وادي نصر في ٨ تموز ١٩١٨
	٥١٤	٧١	المجموع

المصدر: أرشيف بيت صليبا، دفتر رقم ١٤.

ماذا يعني الخط البياني لتطور أرقام كلفة الشغل في الأملاك بين ١٩٠٧ و١٩٢٤؟ لقد عم الخراب هذا المشروع الزراعي خلال سنوات الحرب، ليس فقط باختطاف قواه الإنتاجية أي العمال والفلاحين الذين ماتوا خلالها، بل تم تدمير مجمل الدورة الاقتصادية وبخاصة العلاقة مع مدينة طرابلس، لأن الاستثمار الزراعي في السنة القادمة يرتبط بتسويق الإنتاج للعام الجاري، والواقع أنه بدون تسويق ٣ سلع أساسية هي الزيت (والزيتون) والحرير والحنطة، من الصعب استمرار آليات المشروع الزراعي، ورغم ما بدا أنه تحسن في سنة ١٩٢٠ في محاولة لإعادة رسم العلاقة مع طرابلس، يستنتج من غياب محاسبة السنوات الثلاث التالية، صعوبة إعادة بناء البنية الاقتصادية (زراعية وتبادلية مع طرابلس) بعد أن تمّ تدميرها.

وليس من قبيل الصدف أن يهاجر صاحب المشروع إلى لاغوس - نيجيريا في العشرينيات، حيث يستبان من إحدى رسائله (١٩٢٥) عمق الأزمة الاقتصادية التي يعانيها بعد انهيار «عهدته الزراعية».

ج - في تحليل نوعية كلفة الإنتاج الزراعي، يتبين أن النسبة الأعلى منها هي كلفة زراعة الحنطة والشعير (٢٨,٣٨٪ سنة ١٩١٢) (٢٢,٤٣٪ سنة ١٩١٤). وترتفع كلفة زراعة الحبوب إذا أضفنا لها كلفة «الحصيدة» للقمح و«الحليشة» للشعير، وأجور نقل الإنتاج إلى البيادر ومنها.

الكلفة الثانية مخصصة لعمليات استصلاح الأراضي وترميمها وعمار «الهراويد» والحيطان ونقب الأراضي وقلب أتربتها، وأكلاف إنشاء البيادر و«تحويرها» سنوياً، وشراء ونقل الأسمدة، وحفر الآبار، وتنقية الكروم أو تشحيلها وتمسبكها. ثم تحتل كلفة الزيتون مكانها: زراعة نصوب جديدة، زقاق قشاش الزيتون واستعماله كوقود في الآتون. وكذلك كلفة الخروب.

كما برزت كلفة التقنيات الزراعية في العديد من السنوات، مثل إصلاح طواحين القمح ومدارس (معاصر) الزيتون وتأهيلها.

د - يعكس انخفاض الأجور خلال الحرب العالمية الأولى، ركود المشروع الزراعي، يقابل هذا الانخفاض في الأجور ارتفع أسعار السلع الزراعية بشكل كبير، ما يعكس الندرة.

جدول رقم (١١)

انخفاض أجور العمل الزراعي خلال الحرب العالمية الأولى

نوع العمل الزراعي	الأجر اليومي قبل الحرب (قرش عثماني)	الأجر اليومي خلال الحرب (قرش عثماني)
فلاح (كدنة فلاحة)	٢٠	١٥
حصاد (قمح)	١٠ - ١٢	٦
فاعل (عامل)	٦-٧-٨	٤-٥
نساء تعملن في الزراعة	٤ ١/٢-٥-٦	٣

المصدر: أرشيف بيت صليبا (صخره - مزيارة).

هـ - تبين المحاسبة أن إنتاجية الزيتون والزيت لم تتأثر بقوة، فخلال سنوات الحرب كان هناك موسمان جيدان، ففي سنة ١٩١٦ (وبعد موسم ١٩١٤ الماحل وموسم ١٩١٥ الضعيف جداً) بلغت الكمية المباعة من «الزيت الحلو» ١١٠ «قلات» (حوالي ٣٥٢٠ رطلاً) و٥٢ قلة من «زيت الجفت»[1] بما قيمته للنوعين ٤٤٤٠٤,١٥ قروش، وحقق موسم ١٩١٨ أعلى إنتاجية منذ العام ١٨٩٦، إذ بلغت ٢٧٩ قلة قيمتها ٨٦٧٩١ قرشاً. وينبغي تفسير ارتفاع القيمة للموسيمن، بارتفاع أسعار الزيت من جهة والتضخم

(١) يتم الحصول عليه بعد محاولة طحن وضغط ثانية، ولما كان «المطروف» يعني عصر الجفت لاستخراج ما تبقى فيه من الزيت ويتم ذلك في الطاحون المائي وليس في المدرس (المعصرة التقليدية)، فبدايته تبدأ مع انتهاء عصر الزيت الحلو أي في ك١ أو ك٢ وتستمر قرابة ٥ أسابيع في المواسم الجيدة.

المالي من جهة ثانية. فمنذ العام ١٩٠٥ وهناك ارتفاع متنام لسعر قلة الزيت، وفي عام ١٩١٤ كان سعرها ٢٤٠ قرشاً ارتفع إلى ٣٣٠ قرشاً سنة ١٩١٦ وإلى ٤٢٠ قرشاً سنة ١٩١٧ ثم انخفض إلى سعر ٢٦٠ ـ ٢٨٠ قرشاً سنة ١٩١٨ بسبب الإنتاجية المرتفعة. أما اتجاهات تصريفه، فمن المؤكد أن طرابلس استمرت المشتري الأول كما في الفترة السابقة، عبر بيوتات الزوق وعويضة وقطان، وبعضهم يقوم بتصنيع الصابون.

د ـ يملك آل صليبا حصة في طاحون بيت الخوري على نهر جوعيت كما امتلكوا طاحونان في الوادي الذي يفصل صخره عن إيعال (طاحون الوادي وطاحون الدبورية)، وليس في الأرشيف ما يدل على استمرار العمل في هذه الطواحن خلال الحرب العالمية الأولى وتحديداً بعد ١٢ آذار ١٩١٥، بل نلحظ عمليات ترميم في «سكر» الطاحون العليا «وبغلة» الطاحون السفلى، وأعمال على الطرقات الموصلة إليها وفي «مطروف» «الطاحون الفوقاني»، اعتباراً من أواخر عام ١٩١٨، ما يعني أنها هجرت خلال السنوات الماضية[١].

٢ ـ ٣ ـ لا تسمح القاعدة الوثائقية المتوفرة، بربط انهيار هذا المشروع الزراعي. كنموذج عن واقع الزراعة بشكل عام في مزيارة وفي منطقة زغرتا ـ الزاوية والتي تتميز بخصوصية اقتصادية حيث يتوازن مردود الزيت مع مردود الحرير يضاف عليهما عائدات مالية كبيرة من المهاجرين[٢] ـ بالواقع

---

(١) حول الطواحن في مزيارة وصخره، راجع «المعجزة المزيارية»، الفصل الرابع من القسم الثاني، وفيه تفاصيل عن ملكيتها وتقنياتها ومداخيلها وترميمها وتأهيلها وعقود تأجيرها وتاريخ توقف العمل فيها. . .

(٢) راجع سيمون عبد المسيح، دراسات في التاريخ الاقتصادي لشمال لبنان» ١٩٩٧، البحث الثالث: «جوانب من التاريخ الاقتصادي للزراعة في عهد المتصرفية من خلال وثائق آل طربيه»، ص ص ١٢٧ ـ ١٩٧.

الديموغرافي المباشر في صخره، أي بالفلاحين والعاملين في هذا المشروع، لكن هؤلاء هم جزء من الواقع الديموغرافي لمزيارة.

بلغ عدد سكان مزيارة عشية الحرب العالمية الأولى (احصاء ١٩١٣) ١٥٥٤ شخصاً منهم ١٢٠٢ مقيماً (٧٧,٣٤٪) و٣٥٢ مهاجراً (٢٢,٦٥٪). وكان الهرم السكاني يدل على فتوة هذا المجتمع (٤٨٪ أقل من ١٨ سنة، ٤٨٪ بين ١٩ ـ ٦٠ سنة و٤٪ فوق ٦٠ سنة) الذي تعرض إلى كارثة مخيفة خلال الحرب العالمية الأولى، إذ توفي حوالي ٥٨٥ نسمة، ما يشكّل ٤٨,٦٦٪ من عدد السكان المقيمين، وربما كانت أعداد الموتى تفوق ذلك[١] فبحسب إحصاء ١٩٣٨ بلغ عدد السكان المقيمين ٤٥٢ شخصاً فقط، مما يعني أن موجة جديدة من الهجرة استؤنفت بعد الحرب، وأن نسبة الولادات كانت ضعيفة جداً نتيجة ما حدث في «حرب الجوع»[٢].

هل أدّى التنوع الزراعي في منطقة زغرتا ـ الزاوية إلى تخفيض نسبة وفيات المجاعة إلى عدد السكان بالمقارنة مع بلاد البترون على سبيل المثال[٣]، مما يشكّل سنداً للفرضية القائلة بالآثار السلبية للإنتاج الأحادي؟

---

(١) في عينة موثقة في دفتر الكتب الخمسة لحرف مزيارة، توفي خلال سنوات ١٩١٦ ـ ١٩١٨، ١٠٣ أشخاص من أصل ٢٣٦ شخصاً مقيماً في هذا الحي من إحياء مزيارة وكنيسته مار سركيس وباخوس، أما في حميص (وهي حي آخر)، فبلغ عدد الوفيات خلال الحرب ٦٣ شخصاً وقد رسم الأديب والفنان يوسف الخوري يونس في إحدى قصصه (اليتيم) صورة المأساة التي حدثت في قريته «حميص ـ مزيارة» «كان ذلك سنة ١٩١٦. . . (وفي) القرية الرابضة بكآبة على هضبة من هضبات الشمال، كانت خافتة الصوت متغلغلة في وجوم عميق، كأنها مخدرة تحت مبضع الضائقة العامة التي شملت لبنان». . . نشرها في جريدة «الرقيب» على ٥ حلقات عام ١٩٤٩.

(٢) «حرب الجوع» بحسب وصف كبار السن في جبل لبنان للحرب الكونية الأولى، راجع:
Youssef Mouawad, *1944-1918 ou la guerre de la famine»*, in L. Nordiguian (sous la dir.), op. cit., PP. 101-105.

(٣) بحسب إحصاء ميداني عن موتى الحرب جرى في العام ١٩٢١ في بلاد البترون، تبيّن أنه توفي ٨٦٤٣ شخصاً، ما نسبته تقريباً ٤٥٪ من المقيمين، ورصدت نسبة مرتفعة في قُرى =

ثم ألا يمثّل مشروع آل صليبا الزراعي في صخره، استثناءً بالنسبة للفلاحين العاديين في مزيارة؟ وهل ساهم القرب الجغرافي للزاوية من مدينة طرابلس وسهول عكار بتخفيض نسب الموت؟ لا بدَّ من إجراء المزيد من الأبحاث المونوغرافية ومقارنتها لتعيير بعض المتغيّرات بحسب المناطق.

من الغرابة ألا تكون مأساة المجاعة خلال الحرب الكونية، قد شكّلت ميدان أبحاث معمّقة تنتج وعياً تاريخياً مرهفاً يعمل على تحصين مجتمعنا وواقعنا الاقتصادي المعاصر من تكرار التجربة، وهذا ما يتطلب تجاوز التفسيرات التي تلقي المسؤولية على الآخرين، إلى ثورة زراعية تؤمّن الحد الأدنى من الأمن الغذائي، إن لم يكن الاكتفاء الذاتي، في لحظة تتلمّس فيها مخاطر حقيقية، تعبّر عن نفسها بارتفاع أسعار المواد الغذائية بنسب عالية.

= شبطين (٦٣٪) ومراح الزيات (٥٩٪) ودريا وكفرحتنا (٥٤٪). راجع جان نخول، **دور مار أنطونيوس حوب في التصدي للمجاعة خلال الحرب الأولى**، في مجلة «دراسات بترونية»، العدد ٣، ٢٠٠٥، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

دور المطران بولس عقل الوطني في الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)

الخوري بولس عقل

مقدّمة تمهيديّة لا بدّ منها

قبل معالجة الموضوع، يتحتّم علينا إلقاء نظرة شاملة، ولو موجزة، على أهمّ الأحداث التي طرأت في المنطقة بعيد إعلان الحرب الكونية الأولى ودخول العسكر التركي جبل لبنان وشمول الحصار الذي ضربه الأتراك جميع المناطق والشواطئ اللبنانيّة وتضييق الخناق على السكّان بالتدابير القاسية والضرائب الفادحة والتجويع، لنرَ، ثمّة، ما كان دور الخوري بولس عقل الوطني في تلك الحقبة الصعبة من تاريخ الوطن.

في ٤ آب سنة ١٩١٤ أعلنت الحرب الكونيّة، فأخذ الأجانب والقناصل يهربون إذ شعروا بدنو دخول تركيا في الحرب وأخذوا أوراقهم باستثناء قنصل فرنسا.

أصدرت الحكومة التركيّة أوامر مشدّدة للأهلين بمنعهم الإشراف على السطوح وفتح النوافذ وإضاءة المصابيح ليلاً.

انضمّت تركيا إلى دول محور الوسط في تشرين الأوّل سنة ١٩١٤.

وقبل انقطاع المواصلات بين بيروت والإسكندريّة، نزحت نخبة من رجالات البلاد إلى الإسكندريّة منهم المحامون والأطباء والأعيان... ترك

بعضهم البلاد لإتهامهم بالانحياز إلى فرنسا وبعضهم إتقاء التجنيد الجبري في الجيش التركي، وآخرون للالتحاق بذويهم في وادي النيل.

وكان النازحون قد ارتاحوا إلى كلام السيّد جورج بيكو بأنّ غربتهم لن تطول أكثر من ثلاثة أشهر، في انتظار أن تجهّز فرنسا حملة لاحتلال بلادنا فيعودون إليها آمنين[١].

في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٥ وجّه جمال باشا، قائد الجيش الهمايوني الرابع وناظر البحريّة، بلاغاً إلى أهالي لبنان يعلمهم فيه بإعلان الأحكام العرفيّة التي تشمل جبل لبنان وأنّ كل من حاول من اللبنانيين كائناً من كان الإخلال بسلامة المملكة والأمن العام بأقلّ حركة، وكل من أبدى أقلّ مظهر من مظاهر العطف والمحبّة نحو أعدائنا الفرنسيس والإنجليز والروس، يُحاكم فوراً أمام ديوان حرب عرفي ليلقى جزاءه من العقاب... إنّ الحكومة المحليّة ستحتلّ جميع المؤسّسات والمكاتب التابعة للدول المخاصمة لنا الكائنة بجبل لبنان، وتحوّل حالاً كل ما لم ترَ الجهة العسكريّة لزومه لإقامة الجند مؤقّتاً إلى معاهد علميّة وطنيّة لترقية المعارف اللبنانيّة..

وفي اليوم عينه (٢٨/١١/١٩١٥) أصدر قومندان المفرزة العسكريّة بجبل لبنان الميرآلاي بلاغاً بشأن الأفعال والحركات الممنوعة بموجب أحكام الإدارة العرفيّة وهي: ١ ـ حمل السلاح علناً، ٢ ـ عقد كل اجتماع علني أو خفي والقيام بالمظاهرات والحركات المثيرة للخواطر، ٣ ـ جميع الجرائد الأجنبيّة، ط ـ إذاعة الإشاعات المختلفة ونشر الأوراق الضارّة ونقل محتوياتها.

ثمّ، في ٤ كانون الأوّل ١٩١٥ وجّه متصرّف جبل لبنان أوهانس قيومجيان إلى السيّد البطريرك الياس الحويّك كتاباً يحمل الرقم ٢٨١ يعلمه

(١) يوسف السودا: «في سبيل الاستقلال»، الجزء الأوّل، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، ص ٦٦ و٦٧.

بموجبه أنه عيّن الميرآلاي رضا بك قومنداناً حاكماً عسكرياً للمنطقة المركبة من متصرفيّة جبل لبنان ومركز قضائي بيروت وصيدا... وأنّه مرسل معه البلاغات التي نشرها خطاباً إلى أهالي جبل لبنان... طالباً اتخاذ الوسائط لتعميمها على كل القُرى والقصبات... وإنّ الإدارة العرفيّة شملت جبل لبنان كما أعلمت في جميع الممالك العثمانيّة وسينشر الميرآلاي رضا بك على حدة، بلاغاً بحق الأفعال الممنوعة بمقتضى الإدارة العرفيّة فيطلب تعميمها على الأهالي[١].

وعليه، طُلِبَ المطارنة أنطون عريضه وبولس مسعد ويوحنا مراد إلى الديوان العرفي في عاليه، وكذلك الخوري باخوس الفغالي والخوري بولس عقل، وكل من تأتيهم مراسلات من أمريكا وفرنسا.. وجرى تفتيش المراسلات الواردة والصادرة والاقتطاع منها.

طلب بكر سامي بك من السيّد البطريرك عشرين ألف قرش صاغ ثمن ستة آلاف وخمسمئة /٦٥٠٠/ ورقة يانصيب لمساعدة الجيوش العثمانيّة التي يبذل جنودها أرواحهم عن الوطن إسوةً بباقي العثمانيين فيما أنّ اللبنانيين مُعفَون من ذلك (١٤ نيسان ١٩١٥) فوزّعت الأوراق على الأديار والمدارس والكهنة[٢].

وألحّ الحاكم محمّد جمال باشا على السيّد البطريرك لطلب «الفرمان» له وللسادة الأساقفة مطارين الأبرشيّات. فاجتمع الأساقفة برئاسة البطريرك في دير مار يوحنا مارون ـ كفرحي والتمسوا من نظارتي العدليّة والمذاهب تبلّغ الفرمان. وقد أعفي منه المطران بولس عوّاد[٣].

(١) عن الأرشيف البطريرك الماروني في دير سيّدة بكركي.
(٢) من مفكرات الخوري بولس عقل ـ إميل حبشي الأشقر: «جهاد لبنان واستشهاده»، ص ٥١.
(٣) من مفكرات الخوري بولس عقل ـ برقيّة نجيب ملحمه الموجّهة في ٢٤/١١/١٩١٥ إلى السيد البطريرك ـ وبرقيّة متصرّف جبل لبنان أوهانس قيومجيان باشا المؤرّخة ٢/١/١٩١٦ الموجّهة إلى السيّد البطريرك بناءً لإلحاح دولة القومندان جمال باشا.

الغلاء والمجاعة

في أوائل شهر سباط سنة ١٩١٥ أخذت أسعار الحنطة وسائر حاجيات المعيشة بالارتفاع. وقفت إذ ذاك الأمطار والثلوج حاجزاً بين لبنان والولايات المجاورة، فعلا الصراخ واضطرّت الحكومة إلى تأليف شركة بيروتيّة لبنانيّة لمعالجة هذه العلّة فجلبت الحبوب التي أمكن جلبها من حلب، وكانت تبيعها بأسعار منخفضة للفقراء بموجب وثائق شخصيّة[1].

ومنذ سنة ١٩١٥، ظهر الجراد بكثرة لم يسبق لهامثيل فغطّى وجه السماء والأرض وأكل الأخضر واليابس، وعقبه الزحّاف فملأ الأرض ومرّ بالبيوت[2].

عمّت المجاعة البلاد وأضحى الناس يأكلون خبزاً مركباًمن أخلاط الشعير والفول والكرسنّة... وقد تقرّر طبيّاً أنّه يسبّب أوراماً في الرجلين. وأمسى الجياع يأكلون جميع أعشاب البريّة والبلّوط وقشور الليمون الحامض والملفوف والنفايات، وأخذوا يطحنون الرويشة من المخدّات ويخبزونها، ويسلقون الجلود والفراء اليابسة في الماء الغالي وسرائد النعال، حتى صرت ترى الكثيرين حفاة عراة مهزولين عيونهم غائرة وألوانهم شاحبة ووجوههم وأرجلهم متورّمة، وقد باعوا أثاث البيوت من فرش وثياب... فريق منهم هاجر إلى الولايات مثل طرابلس وعكار وبيروت وبعلبك والشام. والمتخلفون استدانوا المال بالفوائد الفاحشة وباعوا ورهنوا بأبخس الأثمان، والشاورن أكثرهم من طرابلس وبيروت. وتفشت الأمراض والأوبئة مثل حمى التيفوس والهواء الأصفر والحمى النمشيّة والجدري. فمات أكثر الناس جوعاً

(١) إبراهيم بك الأسود: «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان»، الجزء الثالث، ص ٥٤؛ وقد نشر الخوري يوسف الحداد لائحة مفصّلة بأسعار الحنطة والذرة والشعير منذ شباط ١٩١٦ حتى كانون الأوّل ١٩١٨، تجدر مطالعتها في «اللبنانيّة»، طبعة ثالثة في الصفحات ٨٠ حتى ٨٢ وهي تعطي صورة عن الغلاء المتصاعد باضطراد.

(٢) من مفكرات الخوري بولس عقل ـ الخوري يوسف الحداد: «اللبنانيّة»، ص ٥٧ حتى ٦١.

ومرضاً وامتلأت المقابر حتى أهمل الناس، أخيراً، مضطرين دفن موتاهم. فكانوا يغلقون عليهم الأبواب أو يحفرون لهم حفرة حذاء البيت ويدفنونهم فيها، وكم تركت جثث الأموات في البراري وعلى الطرقات[1].

وتجاه اشتداد الضائقة، أصدر السيّد البطريرك في سنة ١٩١٦ أمراً إلى السادة مطارنة الأبرشيّات موجباً عليهم إحصاء الفقراء في أبرشيّاتهم والاستدانة والبيع والرهن لأجل إعاشة الفقراء بعد استدعائهم رؤساء الأديار والمدارس للتداول معهم في هذا الأمر. ثمّ أصدر أوامر عدّة إلى وكلاء الأوقاف ليدفعوا الأموال الأميريّة عن الأهالي الذين أرهقتهم أوامر الحكومة المشدّدة بجمع الثياب والمؤن والإعانات للعسكر التركي وحجز الحمير والبغال والبقر عنوةً وبدون أي استئذان وإرهاق الفلاحين بمطالب لا طاقة لهم على أدائها، ومن يعتذر عن تلبية الطلب يضرب ويلكم في أم رأسه وعلى خدّيه ويُرفس ويلبط في بطنه وظهره. وعمّ الشعب خوف دائم من التسخير. وانتشرت اللصوصيّة في الطرقات المؤديّة إلى طرابلس ذهاباً وإياباً. حتى إنّ مدير البترون السيّد عبد القادر كان يخلع المشايخ ويبتز الأموال والتحف الثمينة من البيوت والأديار.

وبكلمة موجزة، استولت الحكومة بواسطة عملائها وموظفيها على كل ما ملكت أيديهم من شريط وحديد، تنك وتوتياً، خيش وخشب، كلأ وحطب، أسرّة وفرش، أغطية ولُحف، زيتون وزيت، دبس وتين، خرّوب ودُخّان، سجّاد وبسط، ماعز وخيل، بقر وحمير[2].

وفي سنة ١٩١٧، أصدر غبطة البطريرك الياس الحويّك منشوراً يحرّض

(١) من مفكرات الخوري بولس عقل ـ وقد أصاب الخوري يوسف الحداد وتفنّن في وصف تلك الضائقة الرهيبة، لا سيما في عرض نماذج عن تأثير المجاعة الفتاكة («اللبنانيّة»، ص ٧٨ حتى ١٠٥).

(٢) من مفكرات الخوري بولس عقل ـ ومدوّنات الخوري يوسف حداد: «اللبنانيّة»، ص ١٠٨.

فيه الأغنياء على التصدق والمساعدة الماديّة والأدبيّة، والكهنة على القيام بالواجبات الرعائيّة من افتقاد المرضى وتعزية الحزانى والاهتمام بالمدنفين ودفن الموتى. كما قبّح غبطته طريقة الإثراء بالربا الفاحش والتظلّم، وأمر بأن يقدّم كل المطارين والكهنة عشرة قداديس لراحة الأنفس المطهريّة، وأن يصرخ الجميع في آخر كل صلاة وزياح: «إرحم يا ربّ، إرحم شعبك ولا تسخط علينا إلى الأبد».

ووجّه غبطته كهنة الكرسي البطريركي إلى معتمدي الحكومة لاستجلاب الحنطة: الخوري بولس عقل لدى بكر سامي بك في بيروت وإلى دمشق، والخوري الياس ريشا إلى رياق، والخوري اسطفان الدويهي إلى تل كلخ، فحصلوا على وعد بتخصيص البطريركيّة بكميّة من الحنطة لتوزيعها على الفقراء، لكن الحكومة لم ترسل لهذه الغاية سوى عشر الكميّة التي وعدت بها.

وبناءً لنداء السيّد البطريرك فُتحت الأديار والمدارس للأولاد واليتامى والفقراء، كمدرسة عين ورقاء، ودير نسبَيه، ومدرسة الرومية، ودير سيدة المعونات، وأديار حوب، وكفيفان، وميفوق.

أمّا الكرسي البطريركي فظلّ فاتحاً أبوابه ـ سواء في بكركي أو في الديمان ـ طوال مدّة الحرب، بحيث كان يستقبل يومياً نحو ألف شخص يطلبون المساعدة. وللقيام بهذه المهمّة الإنسانيّة، باع غبطته الحرير وبعض الأملاك ووزّع أثمانها على الفقراء وتمّ هذا التوزيع عن يد المطارنة والأديار والمدارس والمرسلين والكهنة البطريركيين[1].

وأخيراً، اضطرّ السيّد البطريرك إلى رهن أملاك كفرزينا لدى التاجر

(١) من «يوميات الخوري بولس عقل».

الطرابلسي المعروف الحاج حسين عويضه[1] حتى بلغت قيمة الرهنية، إضافةً إلى فوائدها، عشرة آلاف ليرة ذهباً. وخُشيَ أن ينفذ الحاج عويضه الرهنية فتقع البطريركيّة في ضائقة خانقة. لكنّ الدائن تحلّى بأوفر قسط من اللياقة والإنسانيّة، رغم الضغوط المتكرّرة التي مورست عليه من قبل بعض ذوي السلطان!

وبعد إطلاع الحكومة على وثائق قنصلاتو فرنسا في بيروت عن يد الترجمان فيليب زلزل، أخذت تستدعي إلى الديوان العرفي في عاليه وإلى دوائر التحقيق في بيروت، كل من ورد اسمه في تلك الوثائق، ولو لم يكن مرتكباً أي جرم شنيع أو ذنب قبيح.

وهكذا أجبر سيادة المطران بطرس شبلي، أسقف بيروت، على تقديم استقالته والإقامة المؤقتة في دير مار عبدا هرهريا (في جديدة غزير)، ثمّ جرى نفيه إلى الأناضول حيث لقي حتفه هناك.

كما نفي إلى القدس وكيرشهير وغيرهما عدد كبيز من وجهاء البلاد وأعيانها[2].

وزاد الطين بلّة أن أعدم على ساحة المرجة في الشام الخوري يوسف الحايك، خادم رعيّة سن الفيل، فكان باكورة الشهداء[3]، ثمّ الشقيقان الشيخان فيليب وفريد قعدان الخازن، بالرغم من توسلات السيّد البطريرك

(١) وهي تمثل أهم مداخيل الكرسي البطريركي إطلاقاً.

(٢) أمثال رشيد بك نخله، سعد الله بك الحويّك، جرجي وإسكندر بك صفا، سليم باز، الدكتور، جرجي باز، سليمان بك كنعان، نمر أفندي شمعون، إبراهيم بك عقل، المير فائق شهاب، يوسف خطار البستاني، سجعان بك عارج سعاده، ميشال معوّض، الشيخ وديع طالب، إلياس روحانا، فارس مشرق، منصور البواري، نجيب شويفاتي، سعيد البستاني، الشيخ وديع حبيش (خال الرئيس فؤاد شهاب). وقد نفي هؤلاء مع عيالهم.

(٣) إميل يوسف حبشي الأشقر: «جهاد لبنان واستشهاده»، ص ٤٤ و٤٥ ـ لطف الله نصر البكاسيني: «وقائع الحرب الكونيّة»، ص ٢١٣ وما يليها.

لدى جمال باشا تعطفاً واسترحاماً[١].

منذ ٣١ آب ١٩١٥ احتلّ الفرنسيون جزيرة أرواد: لكونها مركزاً استراتيجياً يصلح لإقامة قاعدة عسكريّة في الجزيرة القريبة من الشاطئ السوري، فتكون منطلقاً لرجال المخابرات وواسطة اتصال مع قائد الحملة الفرنسيّة المتمركزة في بورت سعيد في مصر[٢]. وكان حاكم الجزيرة الكابتين ألبير ترابو (Trabaud) قد أقام إتصالاً بالشاطئ اللبناني بواسطة السيّد يوسف كرم، الملقب بالبواري، وشقيقه إبراهيم كرم[٣] الذي وضع، بناءً لطلب حاكم أرواد ترابو ٢٢ تقريراً حول الحالة العموميّة في البرّ السوري من الوجهات الاقتصاديّة والعسكريّة والاستراتيجيّة[٤].

وتجاه هذه الضائقة العامة، وأمام الحصار المحكم الذي ضربه الأتراك حول الشاطئ اللبناني، فكّر الخوري بولس عقل[٥] الاتصال بسيادة المطران يوسف دريان[٦] عن طريق جزيرة أرواد، لاستنهاض سيادته وحمله على دق ناقوس الخطر لإسماع اللبنانيين المقيمين في القطر المصري والمنتشرين في أوروبا وأمريكا والبرازيل صوت إخوانهم المقيمين في الوطن الذين يذوقون أمرّ أنواع الشقاء فيتضوّرون جوعاً ويموتون بشتى أنواع الأمراض الفتاكة، لعلّ ذوي المروّة يستطيعون إلى إنقاذ إخوانهم سبيلاً.

---

(١) لطف الله نصر: «وقائع الحرب الكونيّة»، ص ٢٤٤ وما يليها ـ إبراهيم حرفوش: «دلائل العناية الصمدانيّة»، ص ٥٥٠ وما يليها.

(٢) Lieutenant GUICHARD: «Les Forces navales françaises en Syria, Egypte, Mer Rouge», Travaux du Service Historique de l'Etat-Major de la Marine, 1935, PP. 399 et suivants.

(٣) مذكرات إبراهيم كرم المخطوطة، ص ٤.

(٤) وضعت التقارير ابتداءً من شهر تشرين الأوّل ١٩١٧ حتى نهاية الحرب سنة ١٩١٨، وهي لا تزال مخطوطة.

(٥) كان يومها أمين سرّ البطريرك الياس الحويّك.

(٦) النائب البطريرك في القطر المصري.

وشاءت العناية أن يتمّ الاتصال الأوّل بحاكم الجزيرة على النحو التالي:

يقول إبراهيم كرم[١]: «في شهر تموز ١٩١٦ وصلنا تحرير من أرواد يسألونا عن حالة المطران عبد الله والمطران شكر الله خوري الموجودين في كرسي الطائفة المارونيّة... ومن كوني كنت تعرّفت على الخوري بولس عقل... إذ كان موجود في دير مار عبدا هرهريا في جديدة كسروان... حالاً توجهت لمار عبدا وطلبت مواجهة الخوري بولس عقل وأفهمته سرياً عن مواصلتنا ومداخلتنا هذه فكنت أنظر إليه كأنّه لم يصدقني... ونظرته خايف من مقابلتي هذه، فبعد أخذٍ وردّ وقت طويل اقتنع مني وأراد يرسل تحرير إلى بشاره البواري... وتحرير إلى الحاكم وقد كتبهم وحتى يزيل كل وهم من فكره قد نقلتهم بخط يدي. وفي المساء حيث ان الميعاد لحضورهم قد توجهت للبوار، وأرسلت التعليمات اللازمة ومعهم تحارير الخوري بولس عقل.

وبعد أسبوع من هذا الوقت، وصل الجواب للخوري بولس من بشاره البواري وتحرير من الحاكم ترابو مع خمسون مجيدي راسل له إياها حسنة قداس»[٢].

ولا يتسع المجال، هنا، للتبسّط في مضمون جميع الرسائل المتبادلة بين الخوري بولس عقل وسيادة المطران يوسف دريان طوال سني الحرب الكونيّة. بل نكتفي بإيراد أهمّ المقاطع الواردة في الرسالة الأولى التي وجهها الخوري بولس عقل في ٢٣ آب سنة ١٩١٦ إلى سيادة المطران دريان[٣]

---

(١) مذكرات إبراهيم كرم، ص٤ و٥ ونحن نوردها على علاّتها رغم الأخطاء النحويّة الواردة فيها، أمانة لنصّها الأصلي.

(٢) يقول الخوري يوسف الحداد حول موضوع هذه الصدفة ما حرفيته: «ابتده (أي الخوري بولس) فكرة لم تخطر إلاّ له، ولو خطرت لسواه، لظلّت كميتٍ في قبر... ولو عملوا ما عمله في خدمة الوطن، ما مشينا في جنازة الجبل» («اللبنانية» ص ١٤١ حتى ١٤٣).

(٣) نشرها في نصها الكامل إبراهيم بك الأسود في «تنوير الأذهان»، ج٣، ص ٦٧ و٦٨.

حيث يقول: «... وطالما حاولنا أن نطلعكم على ما نحن عليه ولم نجد سبيلاً إلى إيصال «كتبنا وقد صبرنا على بلوانا حتى قيض الله لنا فرجاً لم نكن لنحلم به. فكأنّ الله تعالى لم يشأ أن «يحرمنا بعض العزاء ففتح لنا هذا الباب لنشكو وفي الشكوى بعض الفرج فكتبنا ما كتبنا باسطين «الكلام عن أحوالنا اللبنانيّة وبعثنا تقاريرنا الضافية الذيول إلى من نرّجي بهم فرجاً ونعقد على «هممهم العالية آمالاً طوالاً ونجاة من هذه البلايا الجسيمة.

«ولا شك في أنّ ملاكنا الذي يحمل تنهداتنا هو الذي يحمل إليكم كتابنا وقد أطلعتم على الرسائل التي نعدّها غير وافية بالغرض ولم نبلغ بها حدّ الحقيقة في ما كتبنا لأنّ فداحة الموضوع قد أثرت على مخيلتنا فلم نعد نقوى على الإحاطة بوصفه».

«مات نحو ثلث اللبنانيين جوعاً ونفي عدد وافر من أعيانهم إلى الأصقاع البعيدة مع عيالهم» وشطّ بهم المزار فانفرط عقد الاجتماع وعُلّق على الأعواد عدد من خيار الشبيبة اللبنانيّة... الآن «أكتب للسيّد السند وأطلعه على بعض أحوالنا المبكية، وأستنهض همته العالية للسعي وراء تخفيف «آلامنا»، والمجال لديه فسيح وله من نفوذ الكلمة ما يحقق الآمال.

«نحن على شفير هاوٍ إذا لم تتداركنا العناية وتدفع عنا الويلات الجسيمة. تسنّى للأتراك أن «ينتقموا وما من يردّ انتقامهم عنا. وإذا دهمنا الشتاء، ولم نجد مجيراً، قولوا على لبنان وساكنيه السلام.

«لا حياة لنا إلاّ بالاحتلال، فهل من سبيل إليه؟ بردّوا لظى قوبنا بالبشرى.

«... غبطته والسادة والمعاهد كلها في ضنك ولو لم تخفّ عنهم وطأة الضنك باستدانة المبالغ الطائلة لا تسع الخرق، على أنّه لم يبقَ سبيل للاستدانة لفروع صناديق المثرين، وبين من شملهم الضيق سيادة نسيم مسعد

العزيز الذي طُلب مراراً إلى الديوان العرفي بناءً على وشاية بعض الأشرار، وأعتذر باعتلال صحته، ولكنه في الأونة الأخيرة اضطرّ إلى تلبية الدعوة ولم يعد بعد. ففي كتاب آخر ننبئكم بما نعرف من أمره والسلام.

في ٢٣ آب سنة ١٩١٦. (التوقيع): الخوري بولس عقل».

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩١٦ ورد جواب المطران يوسف دريان إلى الخوري بولس عقل، نقتطف منه المقاطع التالية:

«... إنّ إعجابنا بغيرتكم المتوقدة ليس له حدّ يعرف، وتفانيكم في سبيل خدمة الوطن العزيز أسمى من أن يوصف فنسأل الله عزّ وجلّ بشفاعة سيّدة لبنان أن يكلأكم بعين عنايته سرمداً ويجزيكم خير الجزاء كما اختاركم في هذه الأزمة الشديدة لخدمة البائسين الذين لا معين لهم إلاّ الله.

«تلونا بكل حزن تقريراتكم جميعها التي تجرح الأفئدة وتفتت الحجارة الصلدة، وشاركناكم في أكداركم الشاملة وكدنا نهجر الكرى، وقد آلينا على النفس أن نتخذ كلّ وسيلة لنخفف آلامكم، وبدأنا بإبلاغ تقريراتكم إلى من يلزم في هذه الجهات وفي فرنسا وروميه وأمريكا، حتى أننا ملأنا «المعمور صراخاً وكان من نتيجة منشوراتنا أن تألّفت اللجان في كل مكان لإعانة منكوبي لبنان وسورية أيضاً، وتبودلت المخابرات بين كثيرين من ذوي الشأن، وهبّ اللبنانيّون والسوريّون في أمريكا يطلبون من الحكومة المساعدة، فاندفعت الولايات المتحدة إلى مخابرة الآستانة لتسمح للجنة «محايدة من لجان الصليب الأحمر الأمريكيّة أن تأتي بالإعانات على اختلاف أنواعها لتوزيعها على المنكوبين.

«وقداسة البابا أخذ بمخابرة من يلزم أيضاً، للسعي وراء تخفيف هذه الويلات.

«والدولة الإفرنسيّة اهتمّت في الأمر اهتماماً عظيماً والشعب الفرنساوي أخذ يسعى أيضاً بتأليف لجان لجمع الإعانات الماليّة وغير الماليّة، وجرت هذا المجرى الولايات المتحدة والقطر المصري «حتى اجتمع من المال شيء كثير ولكن، يا للأسف، حتى الآن لم يجدوا طريقة لإرساله بطرق أمينة.

«ومؤخراً رفعت اللجنة الفرنساويّة تقريراً (اطلعنا عليه) بعبارات تؤثر في النفوس لجلالة ملك إسبانيا يتضمّن استعطافه نحو هذا الشعب البائس وإرسال باخرة عليها ما يسدّ رمق الجياع من المؤن وإرسال بعثة من الصليب الأحمر الإسباني. . .

«أما مسألة الحملة على لبنان وسورية، فإننا منذ وطئت أقدامنا مصر أخذنا ببذل النفس والنفيس في سبيل تحقيقها، ونأمل أن ننال هذه الأمنية لا محال، لأنّه كان تقرّر القيام بذلك عند احتلال الحملة الإفرنسيّة جزيرة أرواد. ولكن فتح أبواب البلقان حال دون هذه الغاية. . .

«. . . أمس أرسلت كتاباتكم إلى أربابها وأشرت إلى كل واحد إلى طريقة إرسال جوابه.

«. . . حادثة الجاسوس الطرابلسي أثرت بنا جداً، واستغربنا مجازفة هذا الرجل، وأغرب من ذلك اتفاقه مع رجل من البترون عليكم، وقاكم الله من شرهما وحرسكم من جميع الغوائل فاحذروا من مثل هؤلاء المنافقين والله لا ريب في أنه يحرسكم لأنّ كل عملكم منصرف إلى الخير العام. . .».

في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٦. (التوقيع): الدكتور عارف[١]

(١) هو اسم مستعار للمطران دريان؛ نشر هذه الرسالة إبراهيم بك الأسود في مؤلّفه «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان»، الجزء ٣، ص ٦٨ حتى ٧٣.

وهكذا فُتح أمام الخوري بولس عقل مجال واسع للاتصال، من جهة، باللبنانيين المنتشرين في أوروبا[١] والولايات المتحدة الأميريكيّة[٢] والبرازيل[٣] بواسطة سيادة المطران دريان الذي كان يؤمّن إنطلاقاً من مصر الإرساليّات وأجوبتها عن يد الخوري بولس عقل، ومن جهة أخرى الاتصال بالحكومة الإفرنسيّة عن يد حاكم جزيرة أرواد للحصول على المساعدات الماليّة والأدوية والصحف وتلغرافات برج إيفل (Eiffel).

ومنذ مرحلة الاتصالات الأولى، حرص حاكم جزيرة أرواد الكابتين ألبير ترابو (Trabaud) على أن يحصر الاتصال الرسمي بالبطريركيّة المارونيّة، ولا سيما بشخص البطريرك الياس الحويّك، دون تعريض غبطته لأي أذى قد يلحقه به الأتراك إذا ما أطلعوا على اتصاله بالحلفاء وبديار الانتشار.

ولما كان السيد البطريرك الحويّك قد اتفق على أن يحصر مهمّة الاتصال بالخارج بأمين سرّه الخوري بولس عقل، وجب التعريف عن هذا الأخير بأنّه وحده يتمتع بصفة تخوّله القيام بهذا الاتصال الرسمي.

والمبادرة الأولى التي اتخذها الحاكم البير ترابو في هذا الخصوص، كانت في إعطاء الخوري بولس عقل لقب «مونسينيور» (Monseigneur)[٤]، وذلك لتكون له الصفة الرسميّة الواجبة تجاه دولة فرنسا، لا سيّما وأنّ هناك

(١) شملت الاتصالات فرنسا وإيطاليا والفاتيكان وإسبانيا والنمسا.
(٢) حيث تألّفت عدّة لجان لجمع التبرّعات العامة ومساعدة بعض الأشخاص ذويهم المقيمين في الوطن، وأهمّ هذه اللجان تلك التي رأسها الصحافي الشهير نعوم مكرزل صاحب «الهدى» النيويوركيّة وتولّى أمانتها العامة المونسينيور فرنسيس واكيم.
(٣) بواسطة لجنة ضمّت الوجيه غالب فرجان الحبّاقي الذي بذل جهداً دؤوباً لمساعدة منكوبي الحرب بواسطة المطران يوسف دريان والخوري بولس عقل.
(٤) مذكرات بشاره جرجس البواري، ص ١٨٧ في الحاشية الملحقة بكتابه المؤرخ في ٣/٨/١٩١٦ الموجّه إلى الخوري بولس عقل - كذلك جميع الرسائل الموجّهة من الحاكم ترابو إلى الخوري بولس عقل.

أساقفة نوّاباً بطريركيّين يقيمون في الكرسي البطريركي لم يرَ السيّد البطريرك مناسباً إقحامهم في مهمّة خطيرة للغاية، كالاتصال بديار الانتشار، ولا سيّما بالحلفاء وبخاصة فرنسا التي اعتبرها بلاغ جمال باشا، الذي أوردنا خلاصة مضمونه آنفاً، عدوّاً للدولة العثمانيّة يحظّر الاتصال به تحت طائلة عقوبة الإعدام، نظراً للأحكام العرفيّة الواجبة التطبيق في مناطق جبل لبنان.

وأكّد على الصفة الرسميّة التي يتمتع بها الخوري بولس عقل لإجراء المفاوضات باسم البطريرك الحويّك النائب البطريرك في القطر المصري المطران يوسف دريان في كتابه الصادر عن القاهرة في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٦ الموجّه إلى حاكم أرواد ألبير ترابو حيث أبدى سيادته استعداده لتبنّي الكتب الواردة من الخوري بولس عقل بصفته الرسميّة والتوقيع عليها[١]، ما سهّل على ترابو مواصلة السعي لدى رؤسائه لمطالبة بالمساعدة الماليّة لجبل لبنان عن يد البطريركيّة المارونيّة.

ويبدو أنّ هناك تبايناً في وجهات النظر لدى المسؤولين الفرنسيين في التعامل مع البطريركيّة المارونيّة، تبايناً ظهر واضحاً من خلال الرأي الذي أبداه السيّد جول كامبون (Jules Cambon) الأمين العام لوزارة الخارجيّة الذي شدّد على أن تكون مساعدة جبل لبنان على شكل **«هبة»** لا عن طريق **«قرض»** (Emprunt): لأنّ القرض لا يحصل إلاّ بين دولتين تتمتعان بسيادة، ولم يكن المسؤولون الفرنسيون يقبلون بأن يعطوا البطريركيّة المارونيّة دوراً رسمياً في العلاقات الدوليّة[٢]، وهي نقطة سنتطرق إليها لاحقاً.

(١) Cfr. *«Le démantellement de l'Empire Ottoman et les préludes du Mandat»,* oubrage publié par A. Hokayem, D. Abou Melhab et J. Charaf, Beyrouth 2003, Doc. N° 157, pp. 181 et 182.

(٢) Cfr. *«Le démantellement...» op. susmentionné,* Doc. n° 160, du 27/11/1916, pp. 184 et 185.

طابع المساعدة الفرنسيّة: أقرض هي أم هبة؟

حول طبيعة المساعدة الفرنسيّة للبطريركيّة المارونيّة، يقول بشارة البواري، وهو الترجمان المطلع على رأي حاكم جزيرة أرواد: «منذ ابتداء مفاوضة الخوري بولس عقل، أخذ يطلب مساعدة ماليّة باسم الفقراء ملحّاً علينا إلحاحاً متواصلاً وبدون انقطاع، كما يتضح من كتاباته، فكتبت له مراراً **أن لا يطلب مساعدة، بل قرضاً يدفع بعد الحرب**...»[١].

وكان الحاكم ألبير ترابو قد وجّه إلى الخوري بولس عقل صورتي مشروع وكالة يفوّض البطريرك الحويّك بموجبهما سيادة المطران يوسف دريان، ومن خلاله الحاكم ألبير ترابو، للقيام بالمعاملات اللازمة لدى الحكومة الفرنسيّة في سبيل الحصول على القرض[٢].

وقد وجّه الحاكم ألبير ترابو في ١٩١٦/١١/١ كتاباً إلى الخوري بولس عقل بخصوص القرض يقول فيه بالحرف:

- *«Je vous demande de vouloir bien me faire parvenir les deux formules dont je vous dressai le modèle.*

Il y a, je crois, le plus grand intérêt à hâter cette question, et je suis convaincu que ces papiers simplifient bien des shoses?[٣].

كذلك وجّه السيّد كاستيه (Castet) ـ الذي حلّ محل ترابو ـ في ١٩١٦/١١/١٢ كتاباً إلى الخوري بولس عقل بشأن القرض يقول فيه:

- «*Pour l'affaire de l'***emprunt**, j'ai le plaisir de pouvoir vous dire qu'on s'en occupe en haut lieu, et qu'avant peu, vous recevez probablement toute satisfaction»[٤].

(١) مذكرات بشارة البواري، ص ٢٤٨.

(٢) ولا نزال نحتفظ بنصّ الوكالتين المدبج بخط الحاكم ألبير ترابو في ملف مراسلاته إلى الخوري بولس عقل.

(٣) Dossier Original: Lettre du 1er novembre 1916 adressée par Trabaud à Paul Akl.

(٤) Dossier Original: Lettre du 12/11/1916 adressée par Castet à Paul Akl, P. 2.

وكان السيّد ألبير ترابو قد وجّه، في ١٩١٦/١٠/٢٥ كتاباً إلى الخوري بولس عقل تدور نقطته الثانية حول **«القرض»**، يقول فيها:

- *«Afin de lever toutes les difficultés et de hâter son exécution, je me permets, Monseigneur, de vous soumetre deux formules que vous pourriez me faire parvenir le plus tôt possible.*

Si vous le croyez possible, mais ce n'est pas indispensable, il serait bon d'apposer sur les papiers le cachet de Sa Béatutude.

Nous pourrons ainsi, faire aboutir au plus tôt cette importante question dont la réalisation est incontestablement de première nécessité?[1].

ثمّ في رسالته المؤرّخة في ١٩١٦/١٠/٣١ الموجّهة إلى الخوري بولس عقل، يقول بشارة البواري:

- «تأخرك عن إعادة الورقة المتعلقة بالقرض مراضاة منك حسب التعليمات، وتأخرك عن الجواب كدّرني جداً. على جوابك وعلى هذه الورقة موقوفة سرعة نجاح القرض. رجعت الآن خصيصاً لهذه الغاية، وسأعود مرّة ثانية يوم الخميس. أرجوك السرعة بالجواب وإعادة الورقة ممضاة...[2]

وبعد التداول مع غبطة السيّد البطريرك الياس الحويّك، وتلافياً لتوريط غبطته في أي مغامرة لا تحمد عقباها، نظراً لتشدّد السلطنة العثمانية وظلمها غير المحدود، فضّل الخوري بولس عقل أن يوقّع هو شخصيّاً عن البطريركيّة طلب القرض، وأقنع الأباتي أغناطيوس داغر التنوري الرئيس العام للرهبنة اللبنانيّة البلديّة[3] بأن يوقّع نصاً يتعهّد فيه بطلب القرض المضمون بأملاك

(١) Dossier Original: doc. N° 317, Lettre du15/10/1916 adressée par TRABAUD à Paul Akl, P. 3.

(٢) مذكرات بشاره البواري، ص ٢٥٧.

(٣) بمؤازرة المدير في الرهبنة اللبنانيّة الأب مرتينوس طربيه.

الرهبانيّة المذكورة مفوّضاً السيّد ألبير ترابو إجراء المعملات اللازمة للحصول على القرض، وهذا نصّ التعهّدين، كما ورد في اللغة الفرنسيّة:

Mont-Liban, le 2 novembre 1916

A Monsieur le Capitaine Tradaud, Gouverneur de Rouad

Monsieur le Gouverneur,

J'ai l'honneur de solliciter du Gouvernement Français un seciurs ou emprunt d'un million de francs garanti par les biens de l'Ordre Baladite maronite du Liban. Votre Excellence est chargé de négocier ce secours, ou emprunt, le plus tôt possible pour le Supérieur Général de l'Ordre dégà mentionné, afin qu'il en puisse secourir ses compartriotes.

Veuillez agréer, Excellence, l'expression de ma haute considération et de ma sincère reconnaissance.

P.A.

ثمّ ورد تصديق صد الأب العام على توقيع الخوري بولس عقل على النحو التالي:

Je soussigné Supérieur Général del'Ordre Baladite Maronite légalise la signature de Monseigneur P. Akl et garantis par led biens de notre Ordre la somme d'un million de francs qui me sera livrée par l'intermediaire de Son Excellence Mr. Albert Trabaud gouverneur de l'île de Rouad dans lequel j'ai pleine confiance.

Le 2 november 1916 Mille neuf cent seize.

Jgnace T.

Sup. Gén. Baladite[1]

(١) Correspondance échangée entre Paul Akl et le gouverneur de l'île Rouad (Dossier Original: document n° 9, page 17.

وقد تسلّم السيّد ألبير ترابو الكتاب المزدوج الموقّع من الخوري بولس عقل ومن الأباتي أغناطيوس التنوري في الثالث من تشرين الثاني ١٩١٦، وهما يفوّضان الحاكم ترابو **بطلب قرض قدره مليون فرنك يدفع بعد الحرب**، مضموناً بأوقاف الكرسي البطريركي وأوقاف الرهبنة المذكورة[1].

وبعد بضعة أيام على تسلّمه كتاب ضمانة القرض الموقّع من الأب بولس عقل والأباتي أغناطيوس التنوري، زار الحاكم ترابو السيّد بشارة البواري في بيته في العاشر من شهر تشرين الثاني ١٩١٦، وأخبره أنّه استحصل على إجازة بالسفر إلى فرنسا للمطالبة بالقرض، ثمّ أمره بالتوجّه فوراً إلى مصر للحصول على كتاب من سيادة المطران دريان مؤيداً ما جاء في الوكالة... فركب البواري حالاً القطار إلى مصر واستحصل على الكتاب بتوقيع سيادته. وهو كتاب أنشأه بالإفرنسيّة، وطبعه على الآلة الكاتبة الأب خليل إدّه اليسوعي[2].

ولدى عودته إلى بور سعيد في منتصف الليل، قيل للبواري أنّ الحاكم سافر فجأة بنسّافة على غير انتظار منه. فذهب السيّد بشاره وسلّم الكتاب المذكور إلى الأميرال صباح اليوم الثاني، فأرسله بصورة مستعجلة إلى الحاكم الذي... تناول الكتاب لدى وصوله إلى باريس وقبل مباشرة المباحثات[3].

ويضيف البواري قوله: في أثناء هذه المدّة (أي أواخر كانون الأوّل ١٩١٦) عاد الحاكم فائزاً من باريس وبيده تحويل بالمليون فرنكاً هبة من الحكومة الإفرنسيّة التي وعدته بتقديم المليون بعد الآخر لمساعدة لبنان حتى نهاية الحرب. ومنذ وصوله ابتدأنا بتقديم المال كلّما تيسّر لنا إلى الخوري بولس عقل، ثمّ بعد مدّة إلى نعوم أفندي باخوس حتى نهاية الحرب. فكان

(١) مذكرات بشاره البواري، ص ٢٥٢ و٢٥٣.
(٢) وهو الكتاب الذي ورد ذكره آنفاً في الحاشية، ذات الرقم ٢٧ بالمستند ذي الرقم ١٥٧.
(٣) مذكرات بشاره البواري، ص ٢٣٦ و٢٦٤.

مجموع القيمة المقدّمة لمساعدة فقراء لبنان من أصل المليون فرنك نحو اثنين وثلاثين ألف ليرة ذهباً، منها نحو خمسة وعشرين ألف ليرة عن يد الخوري بولس عقل، وما بقي استعاده المسيو بيكو وضمّه إلى المبالغ الطائلة التي صرفت في أوّل الاحتلال لإعاشة فقراء لبنان[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ توزيع المساعدات الماليّة اقتضى بذل جهد متواصل ومساعدين يتحلّون بالنزاهة والإستقامة، وفتح عدّة مراكز على الشاطئ اللبناني لتسلّم الأموال والمساعدات الطبيّة، وتأمين ورود الرسائل وأجوبتها لذويها. وهو عمل شاق تحفّه المخاطر، نظراً لعيون الحسّاد ولتشديد الرقابة التركيّة على الشواطئ، ولكثرة الجواسيس الذين كانوا يتحينون الفرص للإيقاع بالخوري بولس عقل ومعاونيه، رغبة في الحصول على الجائزة التي وعد بها كل من يقبض عليه.

وكان الخوري بولس عقل مستهدفاً ليلاً نهاراً. فكان تارةً، يتخفى في الأديار[2] والمحابس[3] أو يلجأ إلى المغاور والكهوف يفترض الأرض أو ينام في أماكن معرّضة لقطّاعي الطرق واللصوص وبعض الحيوانات البريّة المفترسة. وحيناً آخر، كان يصادف مرور بعض الجنود الأتراك فيحاول استمالتهم واستيعابهم وإذا لم يستطع، فإنّه كان يتوارى عن أنظارهم بعد تهديدهم.

لقد تمكّن الخوري بولس عقل، بفضل خرقه الحصار التركي على الشاطئ اللبناني، من إسماع أصوات اللبنانيين المقيمين في الوطن ونداءاتهم إلى ذويهم في أغلب القارات، والحصول على المساعدات الماليّة وتوفير

(١) مذكرات البواري، ص ٣٠٠ ـ وتجب الملاحظة هنا أنّ المبلغ الحقيقي من المساعدات هو خمسون ألف فرنك وأربعة وعشرون ألف ليرة استرلينيّة ذهباً، بحسب كتاب السيّد ألبير ترابو المؤرّخ في ٢/٩/١٩٢٢ الموجّه إلى المطران بولس عقل.
(٢) دير سيدة المعونات وميفوق والقطارة ومار مارون عنايا وكفيفان.
(٣) محبستا القطاره ومار مارون عنايا.

الأدوية المقطوعة كالكينا والبكربونات[١] والحصول بصورة منتظمة على قصاصات بعض الصحف الأوروبيّة وتلغرافات برج إيفل (Eiffel) التي لم يكن الخوري عقل يطلع عليها سوى غبطة البطريرك الحويّك لتشديد عزيمته وتفنيد الأخبار الكاذبة التي تنشرها السلطات التركيّة لتضليل المواطنين، ثمّ يعمد إلى إحراقها[٢].

ولما كانت البلاغات الرسميّة الصادرة عن الإدارة التركيّة، وهي مخالفة لواقع انكسار المحور التركي الألماني أمام جيوش الحلفاء المنتصرين وفلول المحور المتقهقرين، من شأنها أن تحدث بلبلة لدى أبناء الجبل وتثبط عزيمتهم. وحيث أنّ الخوري بولس عقل كان مطلعاً بالكفاية على حقيقة انتصارات الحلفاء مباشرة بواسطة تلغرافات برج «إيفل» فقد أوعز إلى صديقه الخوري طوبيا عطا الله صاحب جريدة «الحق» الصادرة في بيت شباب، وهي تحمل عنواناً باسم «تلغرافات» تنشر فيه البلاغات الرسميّة، أن يبدله بعنوان «تل خرافات» لطمأنة السكان إلى انتصار الحلفاء وتشجيعهم على الصمود.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ إدارة أرواد كثيراً ما كانت تتأخر في مدّ الجبل اللبناني بالمساعدات الموعود بها لأسباب عدّة، منها عوامل الطقس المعاكسة وقلّة البحارة الماهرين ذوي الخبرة وغيرها.

لذا، كان الخوري بولس عقل منذ تاريخ ١٩١٦/٩/٥ قد بعث إلى السيّد ألبير ترابو بتقرير مفصّل يقع في تسع صفحات كلّف بوضعه حضرة الأب يونس اللعازاري[٣] وهو يتضمّن مسحاً شاملاً وافياً عن منطقة قضائي زغرتا وبشرّي من الوجهة الاستراتيجيّة العسكريّة وعدد الأشخاص المؤهّلين

---

(١) كتاب البواري في ١٩١٦/١٠/٢٦ وكتابه في ١٩١٦/١٢/٢ الموجه إلى عقل: «المذكرات»، ص ٢٥٣ و٢٨٢ ـ كتاب ترابو المؤرّخ في ١٩١٦/١١/٢٥ الموجّه إلى عقل.

(٢) مذكرات البواري: الصحفات ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٢ و٢٢٨.

(٣) رئيس دير زغرتا.

للمقاومة ونوع السلاح الذي بأيديهم وكميّات الذخائر المتوفرة لديهم واستعدادهم الدائم للقتال[١]. وطلب عقل، بالنتيجة، نجدة الجبل اللبناني باحتلاله في أقرب وقت، بما أنّ المساعدة الماليّة لا تفي بالغرض المرجو والشعب البائس معرّض للفناء، لا سيّما وأنّ الحاكم التركي كان وضع مشروعاً يقوم على تجويع الشعب اللبناني وهي خطة لا تثير الخواطر والاشمئزاز كما يحصل في المجازر الجمعيّة.

وبقي الخوري بولس عقل، طوال الحرب، يطالب الدولة الفرنسيّة بمساعدة الجبل بحملة عسكريّة يؤازرها أبناء الشمال الأشاوس مشدداً على أنّ **الاحتلال** هو السبيل الوحيد للنجاة، وكل ما عداه ليس سوى حقن «مورفين» لا يلبث أن يزول مفعولها بسرعة[٢].

بعض سوء التفاهم بين عقل وأرواد

كان هناك بعض سوء التفاهم بين عقل وحاكميّة جزيرة أرواد، في الوقت الذي كان البطريرك الياس الحويّك يحرص كلّ الحرص على أن تكون المخابرات مع دولة فرنسا محصورة بأمين سرّه الخوري بولس عقل بقصد الحفاظ على السريّة التامة وإتقاء الوقوع في المخاطر المهلكة، كان بعض ذوي المآرب والمنافع الشخصيّة يحاولون جهدهم الاطلاع على خفايا الأمور فيتوجهون إلى أرواد مدعين أنّهم من أقرب المقرّبين إلى السيّد البطريرك[٣]. وثبت فيما بعد أنّهم ثرثارون أدعياء تباهوا بإذاعة سرّ المخابرات، وما اضطرّ

---

(١) Dossier Original: Sorrespondance entre Paul Akl et Albert Trabaud, doc. n° 3, pp. 2 et suibantes.

(٢) مذكرات البواري، الصفحات ٢٠٧، ٢٤٣، ٢٧١ و٢٧٤.

(٣) أمثال السيّد نعوم باخوس الذي بعد أرفضه الحاكم ألبير ترابو، عاد وقبل بإعطائه دوراً شخصياً بناءً لتوصية خاصة من الأب دي مارتنبريه اليسوعي. وثبت، فيما بعد أنّ الذي بعث به إلى أرواد هو السيد يوسف كرم البواري وليس الخوري بولس عقل (مذكرات إبراهيم كرم، ص ٩ و١٠)، وتقرير الخوري بولس عقل في ١٦ نيسان ١٩١٧ الموجّه إلى حاكم أرواد).

الخوري بولس عقل إلى إتقائهم ورفض التعامل معهم، لا سيّما وأنّ السيّد البطريرك لم يكن، إطلاقاً، عالماً بأمر ادعاءاتهم[1].

وبفضل تحرّك قطع الأسطول الفرنسي قرب الشاطئ اللبناني، وبخاصةٍ في منطقة جبيل، تنبّه الأتراك فشدّدوا الحصار والرقابة ليلاً بحيث استحال على الخوري بولس عقل القيام بالاتصالات المألوفة فاضطرّ إلى فتح مركز جديد بالقرب من البترون عهد بإدارته إلى شقيقه يوسف عقل يعاونه فيه بعض الكهنة أمثال الخوري طانيوس ضرغام العبريني.

تعرّض الخوري بولس عقل لأشدّ الأخطار

مع انتشار خبر المساعدات، أخذ بعض الحسّاد يشيعون خبر إتصال الخوري بولس عقل بالأسطول الفرنسي. وحاول بعض الأخوة الدارسين تمزيق حقيبة الخوري عقل في غيابه والحصول منها على ليرات ذهبيّة مسكوكة في أثناء الحرب، وتوجّه بعضهم إلى الديوان العرفي في عاليه وقدّموا الدليل على إتصال الخوري عقل بالأجانب، لا سيّما وأنّ الحاكم التركي جمال باشا كان حرّم التعامل بالعملة المسكوكة في زمن الحرب ليأمن عدم تهريبها. وتمكن الخوري عقل من تبرئة ساحة بواسطة صديقه إبراهيم بك الأسود، عضو مجلس الإدارة وأحد المترجمين لدى الديوان العرفي.

حتى أنّ الخوري يوسف صقر، خادم رعيّة البوار الذي شاهد البحّارة الفرنسيين يخرجون ليلاً من منزل يوسف كرم هدّد، هو وزوجته، بالإخبار عنهم إذا لم ينقدوه مبلغاً محترماً من المال. ما اضطرّ الخوري بولس عقل إلى إيفاد أستاذه الخوري بطرس باسيل المعرابي لتهديده بأشدّ العقوبات من قبل السيد البطريرك. وأخيراً، قبل الخوري صقر بالتوجّه إلى جزيرة أرواد

(١) وهي مسألة خطيرة سنفرد لها مقطعاً مسهباً في سيرة حياة لمطران بولس عقل التي ستظهر في وقت غير بعد.

لخدمة اللبنانيين الراعويّة طمعاً بمكافأة الحاكم ترابو. ثمّ جرى تسفيره مع عائلته إلى القطر المصري ليكون تحت إشراف سيادة المطران دريان[1].

ومرّة كلّف الخوري بولس عقل صديقه الخوري يوسف الحصري ـ وهو رفيق الدراسة في رومية ـ صرف مبلغ من الذهب قدره ثلاثة آلاف وسبعماية ونحو سبعين ليرة عثمانيّة بنكنوت. وقد صادف مرور البوليس التركي وجود الخوري الحصري على جسر بيروت فسأله بوليس النقطة عن الحقيبة التي في يده. فتلعسم الحصري وأخذ يدلي بمعلومات متناقضة، ما جعل البوليس يقتاده إلى مركز التحقيق الرسمي في بيروت.

وما إن علِم الخوري بولس عقل بالأمر حتى بادر إلى توجيه كتاب إلى صديقه الخوراسقف مخايل حويس[2] الذي اهتمّ فوراً بالقضيّة وتوصّل بعد مدّة طالت نحو شهرين إلى تخلية سبيل الخوري الحصري، نظراً لصِلاته الحميمة بمدير البوليس التركي، وأعيد المال المصروف بواسطة البطريركيّة. ولولا تدخل المونسينيور حويس الفعّال لدى المسؤولين الأتراك لكان الخوري الحضري قد ورّط، ولو عن غير قصد، الخوري بولس عقل بتهلكة لا تحمد عقباها.

جرأة الخوري بولس عقل وشجاعته البطوليّة

كُلِّف الخوري بولس عقل، طوال الحرب الكونيّة، بمهمّات عدّة تستوجب قسطاً وافراً من الجرأة النادرة والشجاعة البطوليّة. لكنه لم يتوانَ، في الظروف الصعبة، عن تأدية أي واجب طُلب منه.

(١) وهي واقعات موثقة سوف تنشر لاحقاً.
(٢) كان يقوم وقتذاك، بمهمّة الوكيل الأسقفي غي غياب المطران بطرس شبلي. وقد نشر الأستاذ أنطوان نصري حويس تفاصيل هذه الحادثة وصور الرسائل المتبادلة بين المونسينيور مخايل حويس والخوري وبولس عقل في كتابه: «تاريخ رجل لبنان المونسينيور ميخائيل حويس»، دار المحبّة، المريجه ٢٠٠٣، الصفحات ١٦٨ حتى ٢٠٥.

فتعهّد، مثلاً وبعد قليل من التردّد، بإيصال «رسالة مهمّة» من قائد الحملة الفرنسيّة في الشرق إلى الحاكم التركي جمال باشا، وهما رفيقا دراسة في معهد «سان سير» (St Cyr) العسكري في فرنسا، أملاً في أن ينسحب الجيش التركي قبل وصول جيوش الحلفاء، لئلا يحصل التصادم في ما بينهم[(١)].

إنّما عنوان الجرأة البطوليّة يكمن في الزيارة التي قام بها الخوري بولس عقل برفقة المطرانين بولس عواد ويوسف صقر إلى الحاكم التركي جمال باشا الموجود وقتذاك في مدينة دمشق.

كان القائد جمال باشا مستاءً للغاية من الأخبار التي ترده حول إتصال الخوري بولس عقل بالحلفاء الأعداء عن طريق جزيرة أرواد، لا سيّما وأن الإدارة التركيّة عثرت في دوائر البريد على رسالة وجّهها الشماس بطرس عقل[(٢)] إلى شقيقه الخوري بولس عقل يستحثه فيها على مساعدة الحملة الفرنسيّة ضدّ الدولة العثمانية.

حاول المطران عوّاد[(٣)] تهدئة خاطر الحاكم جمال باشا بإقناعه بأن مجرّد ورود كتابة من الشماس بطرس عقل إلى شقيقه الخوري بولس ليس دليلاً قاطعاً على تورّط الخوري بولس في مشروع مناهضة الدولة العثمانية العليّة. وأضاف عوّاد أنّ اعتلال صحّة الخوري بولس ونحول جسمه لا يتيحان له القيام بمثل هذا العمل الشاق الخطير[(٤)].

---

(١) كتاب عقل المؤرّخ في ١٩١٧/١/١٤ إلى المطران دريان ـ وكتاب الحاكم ترابو المؤرّخ في ١٩١٧/٥/١٢ الموجّه إلى الخوري بولس عقل.
(٢) الطالب الإكليريكي في معهد «سان سولبيس» في مدينة «بورود» بفرنسا.
(٣) وهو صديق جمال باشا الذي استثناه وحده ولم يلزمه بطلب الفرمان السلطاني.
(٤) كان الخوري بولس عقل يبدو ناحلاً، نظراً لقلّة النوم وللجهد الدؤوب الذي كان يصرفه في صياغة الرسائل والتقارير ليلاً نهاراً.

لكن جمال باشا لم يقتنع بمثل هذه الأدلّة، وكان في أثناء الحديث يزبد ويتوعد مردداً أنّه إذا تيسرّ له القبض على الخوري بولس عقل فسوف يقطّعه إرباً إرباً ليكون عبرة لسواه.

وفي النهاية، عرض المطران عوّاد على جمال باشا إحضار الخوري بولس عقل إليه ليتأكّد من صحّة ما يقوله بشأنه، وأنّ الأخبار والشائعات التي ترد إلى سعادة الحاكم هي ملفقة ولا أساس لها البتة من الصحة. فاستدرك جمال قائلاً: «فاتحت أخيراً السيّد البطريرك بشأن الخوري بولس عقل، فأجابني بأنّه **«خرج على الطاعة وليس مسؤولاً عنه إطلاقاً!»**[(١)].

فأصرّ المطران عوّاد وأبدى كامل استعداده لإحضار الخوري بولس عقل وأكّد استعداد عقل للمثول أمام جمال باشا متوسّلاً إلى هذا الأخير أن يعده بشرفه العسكري أنّه إذا حضر الخوري بولس عقل فلن يمسّه بأي سوء أو أذى.

ونظراً لصداقة المطران عوّاد لجمال ولمعرفته الحقة بأنّه عسكري نظامي يتقيّد بكلمة الشرف ـ وقد وعد بها ـ وبعد أن أمِنَ شرّه، أشار إلى الخوري بولس الذي كان برفقته قائلاً بصوت جهوري: **«هذا هو الرجل!»**.

والتفت جمال باشا إليه فرآه ناحل الجسم بهيّ المحيّا لا تدلّ سيماؤه على أنّه رجل مغامر يخاطر بحياته في سبيل مناهضة الدولة العثمانية، فاقتنع بصوابيّة كلام صديقه المطران عوّاد ولم يأتِ بأي ردّة فعل سلبيّة[(٢)].

---

(١) كان الخوري بولس عقل، بقصد تحييد غبطته ورفعاً لمسؤوليته، قد اتفق مع السيّد البطريرك على هذه المقولة.
(٢) أورد الخوري إبراهيم حرفوش خلاصة هذا الاجتماع في حاشية قال فيها بالحرف: «روي أن جمال باشا كان يُحرق الإرم على الخوري بولس عقل ولم يكن يعرف أنه في حضرته مع المطرانين» (حرفوش: «دلائل العناية الصمدانيّة، ص ٥٦١)؛ وإذا كان حرفوش لم يفصّل واقعة تلك الحادثة فلأنّه لم يكن بصدد كتابة حياة الخوري بولس عقل، بل كان يقتصر بحثه على تدوين تفاصيل حياة البطريرك الياس الحويّك، فجاء ذكر الحادثة عرضاً.

وعندما اشتدّت الرقابة على الخوري بولس عقل وضُيّق الخناق عليه فأمست حياته في خطرٍ مداهم، أبدى حاكم إرواد الفرنسي استعداده لنقله إلى الخارج بواسطة نسّافة خاصّة. لكنّ الخوري بولس عقل فضّل البقاء في الوطن في قلب المعترك، ولو على حساب حياته المهدّدة بالخطر المباشر.

شهادات في إخلاص الخوري بولس عقل وتفانيه في خدمة أبناء الوطن في أخطر الظروف وأدقها

لقد ثبت ممّا تقدّم، أنّ الخوري بولس عقل أدّى المهمّة الموكولة إليه بكل تجْرّد وإخلاص متحمّلاً وحده مسؤوليّة أعماله دون أن يورّط رئيسه البطريرك في أي إنزلاق لا تحمد عقباه.

وسنة ١٩١٩، استفتى السيّد البطريرك آراء المجالس الملّية في المناطق اللبنانيّة، جرياً على العادة القديمة، بشأن المرشحين للأسقفيّة على أبرشيّة بيروت المترمّلة بوفاة المطران شبلي في المنفى، فرشّح معظم المجالس الخوري بولس عقل من بين ثلاثة أسماء. لكن السيّد البطريرك الياس الحويّك فضّل إبقاءه في الكرسي البطريركي نظراً للثقة الكبرى التي كان يتمتع بها.

وبناءً لاقتراح سيادة المطران يوسف دريان، الذي عرف الخوري بولس عقل عن كثب، لا سيما في أيّام النكبة الوطنيّة، جرى انتخاب الخوري بولس عقل مطراناً على اللاذقيّة شرفاً ونائباً عاماً في الكرسي البطريركي، ورقّيَ إلى الدرجة الأسقفيّة في معبد سيّدة بكركي يوم الأحد الموافق ٢ آذار ١٩١٩ مع السادة الأساقفة أوغسطين البستاني وأغناطيوس مبارك وبطرس الفغالي.

لقد أثبتنا الواقعات الراهنة بما لدينا من مستندات خاصة وعامة حصلنا عليها من إدارة «أرشيف البحريّة الفرنسيّة» في منطقة «فنسان» (Vincennes).

ونعلم جيّداً أن السيّد البطريرك الحويّك كان قد عهد إلى الخوري حنا طنوس بُعيد الحرب الكونيّة بوضع كتاب مفصّل حول دور البطريركيّة

المارونيّة في تلك الحرب. واستناداً إلى الوثائق والرسوم التي زوده بها الخوري بولس عقل والمسؤول عن الأرشيف في البطريركيّة، قام الخوري حنا طنوس بوضع دراسة مفصّلة ودقيقة حول هذا الموضوع، لكنها لم تنجز طباعة، بل خنقت في المهد قبل أن تبصر النور[1].

لكنّ الخوري حنا طنوس ـ وقد صُعِق أمام هذا العمل الشنيع ـ حاول أن يعوّض بعضاً من هذه الخسارة الهائلة فقام ـ وهو ذو ذاكرة متقدة مميّزة ـ بوضع رواية تمثيليّة ضمّنها المواضيع الرئيسة التي كانت دراسته التاريخيّة تحتويها جملة وتفصيلاً[2].

بإيجاز كلّي، نقول: إن الخوري بولس عقل كان مثال الدقّة والانضباط في توزيع المساعدات الماليّة، بحيث احتفظ بالايصالات المتعلّقة بها بعد أن عمد إلى قيدها على نحو ولا أوضح، في سجل رسمي تتضح، من مراجعة حركة الداخل والخارج، شفافيّة التعامل وسواء السلوك والتصرّف.

وقد شهد بنزاهة الخوري بولس عقل وتجرّده واستقامته كل من:

أ ـ **الخوري منصور عوّاد**: الذي زار المطران بولس عقل واطلع على سجلات سيادته وأوراقه كافة، فوضع تقريراً مسهباً بهذا الخصوص نشره في صحيفة «البشير» التي أسّسها الآباء اليسوعيون في بيروت[3]، حيث أورد حضرته حاشية ضمّنها رأي كل من القاصد الرسولي السيّد فريديانو دجانيني وحاكم جزيرة أرواد في الحرب القومندان ألبير ترابو أوّل حاكم على لبنان الكبير بعيد الحرب.

---

(١) روي أنّ أحد أفراد الحاشية البطريركيّة كلّف من قام بإحراق المخطوطة المذكورة وهي جاهزة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت، بحيث حُرِمت الطائفة تراثاً وطنياً لا يعوّض.

(٢) هي: «العقل اللبناني والدهاء العثماني»، رواية في خمسة فصول، صدرت عن المطبعة الكاثوليكيّة ١٩٨١، تتصدرها مقدّمة لبولس سلامه.

(٣) نشر تقرير الخوري منصود عواد في عددي «البشير» الصادرين يوم الثلاثاء في ٣ شباط ١٩٢١ ويوم الخميس في ٥ شباط ١٩٢١.

ب ـ القاصد الرسولي السيد فريديانو دجانيني: بسؤال الخوري منصور عوّاد، أجاب القاصد الرسولي: «أنّ تصرّفات الخوري بولس عقل ممدوحة جدّاً تستحق الإعجاب والثناء، وأنّه لو حسم من الأموال التي وصلت إليه في الحرب أمانةً وإحساناً، لكان فعل عدلاً، لأنّ حياته بسبب غيرته كانت عرضة لأشدّ الأخطار في كلّ دقيقة والفاعل يستحق أجرته... وأنّ الخوري بولس عقل كان في تلك التوزيعات مثال التجرّد والنزاهة».

ج ـ سيادة المطران يوسف دريان: وهو العليم بكل دقائق الأمور: إذ كان له دور رئيس مهمّ في الحرب، بحيث تمكن، بعد اطلاعه على رسائل عقل وتقاريره، من استنهاض همة الجاليات اللبنانية في مصر وأوروبا وأمريكا والبرازيل فألّفوا عدّة لجان وجمعوا التبرّعات السخيّة لإخوانهم في الوطن وأرسلوا عن يد سيادته المساعدات لذويهم التي تسلّمها الخوري بولس عقل ووزّعها بكل أمانة ونزاهة وقد بلغت نحو مليوني فرنك ذهب[1].

لقد أدّى سيادة المطران دريان عدّة شهادات في تصرّف الخوري بولس عقل في أثناء الحرب وقد أُتلِفت كلها، من خزانة «أرشيف» البطريركيّة المارونيّة لأسباب يندى لها الجبين.. إنما تمكنا من جمع بعض من مقتطفات الرسائل التي وجّهها سيادة دريان وهي مؤرّخة في ٢٧/ ٥/ ١٩١٧ و٢/ ١١/ ١٩١٩ إلى المونسينيور فرنسيس واكيم أمين سرّ لجنة المساعدات النيوركيّة التي كان يرأسها الصحافي نعوّم مكرزل، جاء فيها بالحرف:

- **«وقد اطلعنا على دفتر حساباته فهي منظمة تنظيماً حسناً جداً. وفيما خصّ «الإرساليّات له منطبقة كل الانطباق على لوائحنا وعلى الدفتر**

(١) أي ضعف المساعدة الفرنسيّة البالغة مليون فرنك والتي وزّع منها أقلّ من نصفها، رغم توسّلات الخوري بولس عقل المتكرّرة لإنقاذ اللبنانيين من الموت جوعاً، إذ كان يطلب أرواد «التكرّم من المليون بريعه أو بربع ربعه»، (كتاب عقل المؤرّخ في ٣/ ١٠/ ١٩١٦: مذكرات البواري، ص ٢٣٤).

الذي بيدنا. ولم «يشك» أحد أمامنا ممّن أرسل لهم المال عن يدنا، بل كانوا كلهم ألسنة شكر وحمد «وقد كتب أهلهم عمّا أرسلوه إليهم، فإذا هو منطبق على ما وصل لهم بواسطة «سيادة العقل الغيور».

- **«بولس عقل الذي عرّض نفسه لكلّ خطر في سبيل هذه الخدمة العموميّة حتى «خطر الشنق والفناء لكلّ أهله ومعاونيه، والله سبحانه كان الواقي».**

- **«وفي الحقيقة إنّ فضله عظيم جدّاً لأننا جرّبنا كثيرين غيره بأن نتعاطى معهم «فرضوا حاسبين ألف حساب للغوائل. ولولاه لعُدمنا كل واسطة لأداء هذه «الخدمة العموميّة في هذه الظروف الحرجة كما لا يغرب».**

د ـ إبراهيم بك الأسود: لقد توصّل إلى إنقاذ الخوري بولس عقل من عقوبة الإعدام[1]... وقد أورد في كتابه «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان»[2] وصفاً مسهباً نقتطف منه المقطع الآتي: «... إنّ الأعمال الكبيرة التي قام بها دون سواه... ولم يأتِ بمثلها أحد في لبنان... كاد يفقد حياته في سبيل حياة اللبنانيين على نحو ما وصفه حضرة الفاضل نسيب أفندي الخوري (شديد) في مطلع الأبيات اللطيفة التي قد قدّمها له يوم سيامته الأسقفيّة، وهي:

ماذا عساك تقول في رجلٍ	يشقى لتسعد أيها الرجلُ[3]
يسعى إلى إنقاذ أمتهِ	بعزيمة ما مسّها كللُ

(١) يقول في حاشية وردت في مؤلّفه «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان» الجزء ٣، ص ٥١:
«تسنى لي لما كان لي من الصداقة مع رضى باشا من إنقاذ كثيرين من أبناء البلاد من طائلة القصاص من الذين كانت ترد عليهم من ذويهم في دار الهجزة «محرّرات متضمّنة الطعن الشديد بالدولة العثمانيّة... ولي الشرف أن أكون خدمت.. المطران بولس عقل بإلغاء الحكم الذي كان معدّاً للتنفيذ بحقه».

(٢) الجزء ٣، الصفحات ٦٣ حتى ٧٣.

(٣) يقصد بالرجل غبطة السيّد البطريرك الياس الحويّك.

مقتحماً ما ليس يقحمه في الروع إلاّ الأصيدُ البطلُ
مستهدفٌ للموت ليس له همٌّ سوى أن يسلم الجبلُ»[1]

هـ ـ إميل يوسف حبشي الأشقر: بعد أن اطلع بالكفاية على «أرشيف» المطران بولس عقل، قال:

«إذا عدّت الرجال الأبطال خلال الحرب، قدّم المطران بولس عقل عليهم جميعاً، ولهذا «التقدّم أسبابه...»[2].

و ـ الحاكم ألبير ترابو: وعندما تعرّض المطران بولس عقل، بعيد الحرب الكونيّة، لحملة شعواء ظالمة، وجّه إليه القومندان ألبير ترابو من قصر بيت الدين[3] رسالة مؤرّخة في ٤ آب ١٩٢١ يعبّر له فيها عن كامل تضامنه مستنكراً تلك الحملة الافترائيّة مكرّراً ثناءه على الأعمال المجيدة التي بذلها في سبيل أبناء الوطن في محنتهم، حيث يقول بالحرف:

- «Nous vivons dans un pays d'intrigues: la seule chose qui importe c'est de nous en édarter et de ne pas permettre que nous en soyions touchés.

- «Soyez certain, Monseigneur, que je sais mieux que tout autre les services que vous avez rendus à vos frères malheureux pendant la guerre: votre dignité épiscopale et votre ruban rouge en font foi.

«Combien je comprends votre désir de fuir les fracas du monde et la politique; qu'ils sont heureux ceux qui peuvent être simples spectateurs autour de l'arêne sans y pénétrer! Votre caractère et votre habit vous en préservent souvent, Dieu merçi!

(١) «تنوير الأذهان»، جزء ٣، ص ٦٥ و٦٦.
(٢) «جهاد لبنان واستشهاده»، ص ١٦٤.
(٣) حيث كان وقتذاك أوّل حاكم على لبنان الكبير على عهد المفوّض السامي الجنرال هنري غورو.

ز ـ الحكومة الإفرنسية في مناسبة تقليده وسام جوقة الشرف: «عند ظهر الخميس ٩ كانون الأوّل ١٩١٠وصل إلى المقام البطريركي الأميرال مورنه» (Mornet) والقومندان ترابو (Trabaud) حاكم لبنان الكبير يصحبهما رئيس أركان «الحرب وسواه من ضباط البحريّة.

«وما أن استقرّ بهم المقام حتى نهض الأميرال إلى وسط بهو الاستقبال، ودعى إليه سيادة «المطران بولس عقل مطران اللاذقيّة والنائب البطريركي. ووقف الجميع إجلالاً.

«فأخذ الأميرال بيده وسام جوقة الشرف الفرنساوي وتقدّم نحو سيادة المطران بولس» وقال:

«باسم الجمهوريّة الفرنساويّة أعلّق على صدرك هذا الوسام جزاء لخدماتك الجلّى «نحو فرنسا ولبنان معاً أبان الحرب الكونيّة وإقراراً بفضلك على الإنسانيّة. فإنّ «فرنسة، وخصوصاً البحريّة الفرنساويّة، التي عرفت حق معرفة الخدم التي أديتها «والأهوال التي قاسيتها بجهاد متواصل وإخلاص نادر تكافئك الآن بهذه الشارة «الممتازة».

ثمّ قبّله وسلّمه البرقيّة الواردة من قبل الجمهوريّة الفرنساويّة مع البراءة العالية الشأن...»[1].

وهكذا يكون المطران بولس عقل أوّل لبناني نال، بعد الحرب الكونيّة، هذا الوسام الرفيع.

وكان الوجيه السيّد أسعد بك لحود[2] قد وجّه في أوّل تشرين الأوّل ١٩١٩ إلى جميع الوجهاء ورؤساء البلديّات والمخاتير في بلادي جبيل

(١) نقلاً عن جريدة «البشير» عدد ١٩٢٠/١٩١/١٦، ص ٢.
(٢) الذي كان، على عهد تركيا، عضواً في مجلس المبعوثان (أي البرلمان).

والبترون نداء يدعوهم فيه إلى التلاقي والتعاضد بقصد إقامة تمثال للمطران بولس: عقل إقراراً بفضله وتخليداً لذكراه.

لكن سيادة العقل اعتذر عن قبول مثل هذا التكريم طوال حياته.

مصادر لبنانية من الحرب الكبرى : دراسة وتقويم

الدكتور ويغان العلم

المقدمة

١. القسم الاول: الموجز والتعريف

١. ١: جهاد لبنان واستشهاده، (مطبعة طبارة ١٩٢٠، ٣٧٥ ص.) لاميل يوسف حبشي.

١. ٢: اربع سني الحرب (نشر في جريدة الهدى، نيويورك، ١٩٢١، ٤٨١ ص.) لبشاره جرجس البواري.

١. ٣: لبنان في الحرب الكبرى، (بيروت ١٩٧٣، ٤٠٠ ص.) لابراهيم نعوم كنعان.

١. ٤: Quatre ans de misère, le Liban et la Syrie pendant la guerre للخوري انطوان يمين، مطبعة امين الهندي القاهرة، ١٩٢٢، (٢١١ ص.) بالفرنسية.

٢. القسم الثاني : المواضيع المشتركة بين المصادر الاربعة وخصوصية كل منها.

٢. ١. المحور السياسي : اشتراك ثلاثة من اصل اربعة مصادر بالعناوين التالية:

٢ . ١ . ١: دور الاتراك بالتهيئة لتدمير لبنان وابادة اللبنانيين جوعا ومرضا مع بداية الحرب .

٢ . ١ . ٢: سياسة التدمير والابادة ومحاولة التبرير التركية

٢ . ١ . ٣: ردات الفعل المحلية المتفاوتة

٢ . ٢. المحور الاجتماعي

٢ . ٢ . ١ : المجاعة.

٢ . ٢ . ٢: الامراض

٢ . ٣. المحور الاقتصادي

٢ . ٣ . ١: تطور اسعر صرف العملة التركية.

٢ . ٣ . ٢: تطور اسعار المواد الاستهلاكية وبخاصة المواد الغذائية وفي المقدمة الحبوب.

٢ . ٤. المحور العسكري

٢ . ٤ . ١: العنوان الاول، بلاغات جيش الاحتلال ومآثره .

٢ . ٤ . ١ . ١: بلاغ قيادة الجيش التركي الرابع في ٤ كانون الاول ١٩١٤ ومركزه دمشق.

٢ . ٤ . ١ . ٢: منشور جمال باشا قائد الفيلق الرابع في الشرق (١١ كانون الاول ١٩١٤).

٢ . ٤ . ١ . ٣: الاحتلال.

٢ . ٤ . ٢: جيش المتطوعين المحليين.

٢ . ٤ . ٣: العمليات العسكرية.

٢ . ٥. محور الشخصيات

٢ . ٥ . ١: الوجهاء والاعيان.

٢ . ٥ . ٢: شهادات لبعض اللبنانيين.

٢ . ٥ . ٣: المراسلات الشخصية.

٢ . ٥ . ٤: المتعاونون مع الحلفاء.

٣ القسم الثالث: اهمية المصادر اللبنانية في كتابة تاريخ لبنان الحديث.

٣ . ١. النموذج المغامر والمتعاون: بشارة البواري.

٣ . ٢. النموذج الصحفي الملتزم: اميل حبشي.

٣ . ٣. النموذج الانساني الحساس: الخوري انطوان يمين.

٣ . ٤. النموذج التوثيقي الاولي : ابراهيم كنعان.

خاتمة.

اثر المآسي والويلات على مستقبل اللبنانيين وبخاصة مواقفهم من استحقاق اعلان «لبنان الكبير».

المقدمة

اختيار المصادر اللبنانية هو بهدف **التنوع** في كتابة تاريخ لبنان الحديث والتمايز عن نمط قدسية التقارير الدبلوماسية ومفكرات القناصل ورسائل التأييد او الاحتجاج الاعلانية التي استحوذت مساحة واسعة وقطعت مسافة متقدمة في تدوين الاحداث والاقتراب من الشهادات الحية للذين عانوا باجسادهم وعاشوا الحدث وتحسسوا المأساة فأرتسمت صورها في مخيلاتهم ودونوها صفحات مأسوية بدمائهم واقلامهم. من هذه المصادر: **جهاد لبنان واستشهاده لاميل يوسف حبشي، لبنان في الحرب الكبرى لابراهيم نعوم كنعان، اربع سني الحرب لبشاره جرجس البواري**، Quatre ans de misère, le Liban et la Syrie pendant la guerre للخوري انطوان يمين. بناء عليه نوزع مصادرنا الى ثلاثة اقسام: الاول، **لمحة موجزة أو بطاقة تعريف بكل من هذه المصادر**؛ الثاني، **الموضوعات المشتركة بين هذه المصادر وخصوصية كل منها**؛ الثالث، **تقويم المصادر واهميتها بكتابة التاريخ الحديث: احداث وشخصيات**.

١. القسم الاول: الموجز والتعريف

١.١: جهاد لبنان واستشهاده، (مطبعة طبارة ١٩٢٠، ٣٧٥ ص.) لاميل يوسف حبشي

يقع الكتاب في خمسة فصول، يفرد حبشي لكل سنة بابا يعرض مشاهداته لمسلسل المآسي والبؤس ويشترك مع كل من يمين وكنعان وبشكل عابر مع البواري في نقل ماسأة اللبنانيين. يتناول الفصل الاول ككل الفصول الاربعة اللاحقة صوراً من الحرب الكبرى من سنة ١٩١٤ الى ١٩١٨. يستعرض في الفصل الاول عشرات العناوين العائدة لسنة ١٩١٤: من اغتيال ولي عهد النمسا في تموز ١٩١٤ الى علاقة الجبل ببيروت والرقابة على

الصحف ومناشير قيادة الفيلق الرابع العثماني ودخول بعض كتائبه الى زحلة والبقاع والجبل مروراً ببكفيا وبحرصاف اواخر تشرين الثاني وطرد الرهبان الفرنسيين والروس من سوريا وينهي احداث ١٩١٤ بمناظرة لبنانية ـ لبنانية بين محمد رضا ممثل جمال باشا والامير فايق شهاب حول «قدرة وامكانية اللبنانيين الدفاع عن بلادهم ومنع انزال جيوش الحلفاء». بالمقابل يكرر حبشي في الفصول الاربعة اللاحقة ابرز شوؤن الناس ومصائبهم لهذه السنوات على شكل مفكرة شبه يومية مدوناً ظروف الناس الصعبة والمساعدات المحلية او الاجنبية بواسطة المرسلين الاميركيين، موجات الغلاء واسبابها ونتائجها من مجاعة وهلاك، المقاومة باشكالها المختلفة وبخاصة بعد العثور على اوراق وموجودات القنصلية الفرنسية في بيروت وما سببته من اذلال واتهامات ونفي وشنق الى التجنيد الالزامي ومشهد الفرار الى الجبال والاودية، المصادرات على انواعها واعمال السخرة ومشهد البؤس بعد ان حلّت بهم الامراض. **ينفرد** حبشي دون الثلاثة الاخرين:

اولا: بتبرير «حاجة لبنان الى وصاية فرنسا، مشبها دورها بدور **الام تعطف على بنيها**» في رسالة موجهة الى المغتربين مستعرضا حالة البلاد والادارة (المالية والاقتصاد والتجارة والزراعة والاشغال والتعليم...) وكيفية معالجتها منوها بصفات وخصال ومزايا الفرنسيين من خلال البعض القليل الذي يعرفه. (الفصل الثاني).

ثانيا: **بفتح صفحة شخصيات لبنانية كاشفا ادوارها في التموين او التجويع، في الحماية او الوشاية** مكبرا دور المتفانين **لانقاذ الاطفال** والشيوخ من براثن الموت جوعا، منتقدا المحتكرين والواشين الذين تسببوا **بالمجاعة او النفي او السوق الى حبل المشانق**... موضحا دور هولاء واولئك ومن كافة فئات المجتمع: اكليريكيين (١٦) وعلمانيين (٩٤)، لبنانيين، فرنسيين (٨) واتراك (٩). (الفصل الثالث).

ثالثا: لائحة مفصلة **باسعار الورق النقدي العثماني** من اول اذار ١٩١٦ الى آخر تشرين الاول ١٩١٨ (ملحق من يوسف زخيا). (الفصل الرابع).

رابعا: لائحة اسمية موجزة **ببعض مصادر الاعانات** الخارجية خلال الحرب (ملحق للفصل الرابع).

خامسا: مختصر تاريخ بيت شباب[1] «بلدة المؤلف» وهي من خارج موضوعنا ومع ذلك نذكره لوروده في سياق المرجع الذي اخترناه كشاهد على ويلات الحرب الكبرى.

١. ٢: «اربع سني الحرب» (نشر في جريدة الهدى، نيويورك، ١٩٢١، ٤٨١ ص.) لبشاره جرجس البواري.

يروي تجربته كلبناني **التحق بالفرنسيين** هربا من الاتراك متنقلا بين جزيرة ارواد والشاطئ ومشكلا احدى حلقات الوصل بين اللبنانيين والعالم. أسهب بنشر دور المتعاونين لنقل الاشخاص والاموال والرسائل. يقع الكتاب في اربعة عناوين رئيسية:

الأول: البواري **الترجمان** لدى الجيش الافرنسي، المتنقل معهم من بيروت الى الاسكندرية فارواد.

الثاني: انتقاء البحارة وتدريب العناصر على **جمع المعلومات** عن العدو في لبنان.

الثالث: الاهم روايته **للمهام الصعبة** التي نفذها مع فريقه بنقل المعلومات

(١) يحتوي المختصر على عشرة عناوين تبدأ ببطون التاريخ السحيق من عهد الرومان والهياكل والناوويس الى الحروب «الوطنية» وعلاقة بيت شباب بكسروان الى عهد النكبات والخراب الى احوال البلاد بعد الحروب ومجيء المعنيين الى العهد الجديد ايام الشهابيين الى ثورة ١٨٥٨ الى طبيعة ومناخ واوضاع بيت شباب الى القرية اثناء وبعد الحرب الكبرى الى نبذة عن العائلات والاسر في البلدة.

والرسائل بين ارواد ولبنان مرتين في الاسبوع، اياً تكن حجم المخاطر او الاحوال الطبيعية.

الرابع: مرضه **وعودته** مع الفرنسيين نهاية الحرب.

انفرد البواري بنشر اربعة وثائق:

الاولى، **عشرات الرسائل** من الخوري بولس عقل (٣٠) والمطران يوسف دريان مصر(٢٠)، ويوسف كرم (١٠) وغيرهم... الثانية، **اسماء المتعاونين معه** ومع الفرنسيين وطبيعة مهامهم وترتيب خطف كثيرين ومنهم كهنة عن الشاطئ... الثالثة، لائحة بقيمة **الاعانات** التي تولى نقلها من الفرنسيين والمغتربين الى لبنان مع ذكر اسماء الوسطاء والمنتفعين... الرابعة، الاخبار العسكرية في عرض البحر من وصف المراكب الحربية والبوارج والغواصات وانواعها وطبيعة مهامها وغرق الكثير خلال المعارك الى مصادرة المراكب التجارية وفرض الحصار على المناطق الخاضعة للنفوذ العثماني.

١. ٣: لبنان في الحرب الكبرى، (بيروت ١٩٧٣، ٤٠٠ ص.) لابراهيم نعوم كنعان

خالف كنعان السابقين في مسألة التقسيم الى فصول واستبدلها باستعراض عناوين للمواضيع: (٩٠ من صلب المرحلة الزمنية[1] و٦٠ من خارجها اي قبل الحرب وبعدها[2]).

(١) يعرض عناوين ومواضيع مختلفة من الغاء الامتيازات الاجنبية في جبل لبنان الى دخول تركيا الحرب بعد اعلان الجهاد المقدس وخطاب الرجل القوي انور باشا ناظر الحربية الى منشور مطرانية بيروت المارونية الى عشرات العناوين عن احوال البلاد والعباد من مآسي ومظالم وجوع ومرض وتشريد ونفي وشنق وموت. ينقل منشور جمال باشا الذي يبرر فيه امام الرأي العام اعدام اللبنانيين والسوريين وهو عبارة عن مضبطة اتهام بحق هولاء الافراد المنتسبين الى جمعيات «معادية» للعثمانيين وادوارهم السلبية على الصعيد العام...

(٢) قبل الحرب يستعرض بحدود الاربعين عنوانا بدءاً «بالثورة العربية وولاية مدحت باشا =

تميز كنعان بايراد نصوصا كاملة او شبه خلال (٢٦٠ ص.) وعرضه احوال البلاد والعباد والمآسي وهذه امور مشتركة مع الآخرين. لن نكرر الموضوعات الانسانية من اقتصادية واجتماعية وحياتية التي تطرق اليها المؤلف لان المرجع، بخلاف الاخرين، لم ينشر في حينه اي بنهاية الحرب او بعدها بسنوات قصيرة بل سنة ١٩٧٣ لذلك فقد قيمتّه كشاهد مباشر على الاحداث ليتحول الى مرجع توثيقي.

انفرد بنشر رد جمال باشا كاملا وهو عبارة عن مضبطة اتهام بحق الشهداء يستند الى افاداتهم «المنتزعة بالقوة» واقوال الشهود «الموجهة» التي تفقد قيمتها الحقوقية كقرينة اتهام او براءة، ومنها يستطرد لادانة الجمعيات الاستقلالية اللبنانية والسورية والعربية على السواء.

١. ٤: Quatre ans de misère, le Liban et la Syrie pendant la guerre للخوري انطوان يمين، مطبعة امين الهندي القاهرة، ١٩٢٢، (٢١١ ص.) بالفرنسية.

انه المصدر **الاكثر دقة وتفصيلا والاكثر التصاقا بواقع الناس ومآسيهم** عاشها مع اللبنانيين يوما بيوم مشتركا في المواضيع التي خاضها الاخرون ولكنه امتاز عنهم بانسانيته وتحسسه لمشاعرهم وانصاته لصراخهم بصمت. يتوزع الكتاب الى ثلاثة اقسام رئيسية:

الاول: **اشترك فيه مع الاخرين** ويدور حول الاحداث الاليمة وزعها الى

= على سوريا كباعث للنهضة العربية الى الخلاف مع السلطان عبد الحميد والتسبب بنفيه الى اليمن بسبب تشجيعه لجمعية سرية كشفت ظلم الاتراك ومتبينا امكانية السوريين التجاوب مع الثورة ضد الاتراك... كما يستطرد المؤلف الى عهد المتصرفية والدستور العثماني ومذابح الارمن وعلاقة لبنان بحروب البلقان. ينهي القسم الثالث باربعة عشر عنوانا عن نهاية الحرب ودخول الحلفاء ومصير العملة التركية الورقية واعداد الاسرى وسفر الوفد اللبناني ومن بعده البطريرك الماروني الى مؤتمر الصلح في باريس.

اربعين عنوانا رئيسيا واخرى ثانوية تفصيلية: (من اعلان الحرب، إلى الاحتلال العسكري المباشر، الى الاحكام العرفية، وتذاكر النفوس العثمانية، الى التجنيد الالزامي، الى المصادرات على انواعها واعمال السخرة كما نقل صورة الاحوال الاجتماعية والاقتصادية المأساوية التي تسببت بها ازمات وقف الاستيراد والاحتكار وانتشار العملة الورقية فتفشت المجاعة والامراض...

الثاني: **اشترك مع الاخرين وامتاز عنهم** في آن، باستعراضه نظام الرعب (regime de terreur) بعد الاستيلاء على ارشيف القنصلية الفرنسية في بيروت وما استتبعه من **تحقيقات وتوقيفات ومحاكمات عرفية** واحكام نفي واعدام وافرد **صفحات لشهادات قوافل المساجين** وآخر كلمات الشهداء الوداعية الى المشنقة.

الثالث: **انفرد الخوري يمين** عن الاخرين واشترك بجزء منه مع البواري حول مسألة العلاقات السرية بين اللبنانيين والحلفاء. (بحر من المعلومات المعروفة والمجهولة عن كثيرين امثال: بشارة البواري وشقيقه حنا وابن شقيقه ابراهيم والمطران يوسف دريان، (مصر)، والكاهنين بولس عقل وجوزاف الراعي، ويوسف كرم وميشال دحروج وجورج نعيم...).

٢. القسم الثاني: المواضيع المشتركة بين المصادر الاربعة وخصوصية كل منها.

هناك **صعوبة للفصل الموضوعي** في المذكرات والسير الذاتية التي تصور احاسيس ومشاهدات وتنقل شهادات حية تختلف بين شاهد وآخر، لذلك **اعتمدنا تبويب مؤتمرنا الذي اقر خمسة محاور**.

٢. ١: الاول سياسي، اشتراك ثلاثة من اصل اربعة مصادر بالعناوين التالية:

٢ . ١ . ١ : دور الاتراك بالتهيئة لتدمير لبنان وابادة اللبنانيين جوعا ومرضا مع بداية الحرب.

تحت هذا العنوان المركزي تطالعنا المصادر ببحر من المعلومات ادرجناها في **عناوين ثانوية**: من بدء «**آليات اعلان الحرب** (الارادة السنية، اعلان السلطان «محمد رشاد» الجهاد المقدس، بيان ناظر الحربية «جمال باشا» الى فتوى شيخ الاسلام «خيري الاركوني» لقتال الكفّار)، **والغاء الامتيازات** (يتمتع بها الجبل من ايام المتصرفية) **ودخول الجيش التركي الى لبنان واغلاق المدارس الاجنبية والرقابة على الصحف وفرض تذاكر النفوس والتجنيد الالزامي والتطوع**....

٢ . ١ . ٢ : سياسة التدمير والابادة ومحاولة التبرير لاحقا

تطابقت معلومات المصادر الاربعة حول نزعة الاتراك للقضاء على اللبنانيين فتفننوا بالاساليب من نشر الجاسوسية الى **المصادرات** على انواعها (من اديرة ومدارس ومستشفيات الارساليات الاجنبية الى حيوانات الجر والركوب) الى اعمال **الاحتكار** والتجويع بكل اشكاله والتي تسبب بالمجاعة وموت المعوزين على الطرقات الى **الاحكام العرفية** بالسجن والنفي والشنق... ومحاولة **التبرير امام الرأي العام الدولي** جأت من خلال نشر مضبطة الاتهام الملفقة بحق الشهداء والمنفيين...

حملت ردة الفعل على **الاعدام الجماعي** جمال باشا على تبرير الاحكام امام الرأي العام المحلي والدولي، فلجأ الى المجلس العرفي لنشر الوثائق والاعترافات «المزورة والمحرقّة» ونشرها باللغات الاجنبية للدلالة على تجرد دولته ونزاهتها وتطبيقها للقوانين بدقة وصرامة ولكن من دون ظلامة او تعسف

او استنساب. كما جاءت خطوته هذه لردع اللبنانيين وتخويفهم وبخاصة ان احكام الاعدام نفذت على مرأى من ابناء الشهداء وامهاتهم ومواطنيهم مما زاد من الشعور بالكراهية والحقد على الاتراك وأبتدأ التكاتف الجدي بين زعماء اللبنانيين من كل الطوائف على المقاومة بكل الاشكال.

٢ . ١ . ٣ : ردات الفعل المحلية المتفاوتة

توزعت ردات فعل اللبنانيين بين **التسليم بالامر الواقع**: من منشور مطرانية بيروت، الى لجنة «تسليم المدينة» (بيروت)، الى نصيحة نجيب ملحمة للبطريرك لقيام وفد من المطارنة ومن ثم هو بزيارة جمال باشا (زاره البطريرك مرتين)، الى صمت بكركي على اتهام الخوري يوسف الحايك وشنقه، الى القبول على مضض بطلب الفرمان، الى الاستسلام لقرار اقالة مطران بيروت للموارنة (شبلي) وعزل بطريرك الروم الارثوذكس وبين **تعاون قلة**: عن حسن نية او لاغراض خاصة لابعاد شبح الجوع، الى **اضطرار آخرين للتطوع** بالفرق العسكرية **وانخراط قلة** للتجسس والوشاية.

٢. ٢: المحور الثاني، الاجتماعي.

يعتبر المحور الاجتماعي كغيره من المحاور اللاحقة ترجمة فعلية لسياسة تجويع اللبنانيين وقتل كل مقومات الصمود وامكانيات استقبال الفرنسيين ومساعدتهم بهدف الانفصال عن السلطنة. يتناول تحديدا الحالة المأسوية التي عاناها اللبنانيون وطالتهم جميعا ولكن بدرجات متفاوتة تفاوت قدرة كل منهم على الاحتمال والصبر بما لديه من امكانات وتوزعت عناوينه بين **المجاعة، الامراض، الجراد والمساعدات او الاعانات**. حل الخوري يمين في طليعة المؤلفين الاربعة اذ قدم عرضا حيّا للمآسي التي عاشها اللبنانيون من ساعة دخول الجيش التركي الى لبنان ومآثره من مصادرات واحتكارات وضرائب واعمال سخرة ووقف للاستيراد فضلا عن الحصار البري والبحري والتسبب

بالمجاعة وهلاك كثيرين وجاءت مشاهد موت الفقراء من الاطفال والشيوخ والنساء تفتت القلوب ومن لم يهلك جوعا اكملت عليه الامراض والاوبئة.

اما المصادر الثلاثة الباقية فتفاوتت اهتماماتها بالشأن الاجتماعي فتعرض له بشكل عابر اميل حبشي في معرض سرده لبعض الاحداث في القسم الاول من مؤلفه، في حين افرد له ابراهيم كنعان مقاطع تحمل عناوين ازمة الطحين واكلة لحوم الاولاد وصور ضحايا الجوع والجراد وامراض الملاريا والتيفوس. اما بالنسبة لبشارة البواري، فصورة الاجتماعي عنده مشوشة نطالعها من خلال رسائل الخوري بولس عقل (ثلاثون تقريبا) واخرين.

٢. ٢. ١: المجاعة.

مثلت السياسة التركية الدور الاكبر في تجويع اهل بيروت ولبنان وساعدتها سؤ الاحوال الطبيعية والحشود العسكرية وذهب ضحيتها اكثر من ماية وثلاثين الفا من اللبنانيين. ففي ربيع ١٩١٥ توقف شحن الحبوب الى لبنان وحجزت القطارات لنقل الجنود والعتاد بين بيروت دمشق وبيروت حلب، كما تمت مصادرة المنتوجات الزراعية من داخل البلاد لخزنها احتياطا لحاجة جنودها فارتفعت اسعار المواد الغذائية ولاسيما الحنطة... يرد المؤلفون الاربعة اسباب المجاعة الى **الاحتكار** من خلال جشع بعض التجار وتواطئ كثيرين منهم مع الاتراك، الى وقف **الاستيراد ومصادرة** كل وسائل النقل من بغال ودواب، الى **الحصار** بشقيه البحري والبري، الى **تدني القيمة الشرائية للعملة الورقية الى الجراد** الذي توّج صورة المآسي التي سببتها **المجاعة**.

أكتملت فصول المجاعة مع الجراد الذي أطلق عليه حبشي «غضب الله»؛ هذه الآفة المخيفة المنتشرة بشكل متفاوت في البلدان المجاورة، حجبت الشمس من سماء لبنان وأتت على المزروعات كافة كما انها جرّدت الاشجار الحرجية من اوراقها فبدت هياكل حزينة وحاولت السلطات

بالاشتراك مع الاهالي محاربته وحرق اطنان البيوض التي تحولت الى سماد اعطى نتيجة ايجابية في المواسم اللاحقة[١].

٢. ٢. ٢: الامراض

وجه آخر من وجوه القضية الاجتماعية تجلى بالامراض التي فتكت بالشعب نتيجة للاحوال السيئة التي عمت البلاد بعد المجاعة وفقدان الادوية وضعف المناعة عند السكان، فتراوحت سلة الامراض من القمل والجدري والهواء الاصفر والحمى الملوثة والملاريا والتيفوس والكوليرا... لقد خصص الكتّاب الثلاثة لكل من هذه الامراض باباً خاصاً يشرح فيه صورة المسأة التي حلّت باللبنانيين واخطرها «الحمى الملونة» او «التيفوس».

* «الحمى الملوثة» او «التيفوس» هي الوباء الذي اثار الذعر ودخلت بيوت بيروت وطالت الميسورين كما الفقراء على السواء؛ هذه الحمى لم تكن معروفة في البلاد رغم ظهورها سابقا في بيروت سنة ١٩١٨ بعد تسربها من بنغازي في ليبيا بواسطة المهاجرين ولكنها انتشرت بشكل هائل مع بداية الحرب الاولى ودعيت بالحمى العسكرية ولكنها كانت غير معروفة في سنتها الاولى. لقد ثبت للاطباء ان انتقال الداء الى الاصحاء تمّ عبر القمل وقد تمت العدوى من العساكر الاتراك[٢] الذين حملوا هذا الداء ونقلوه الى

(١) وصف الخوري يمين الاحوال الطبيعية التي سبقت ورافقت وصول مواكب الجراد الى البلاد بالتالي: «Un terrible vent chaud qui dura environ 20 jours consécutifs... ce vent avait facilité la route aux bandes innombrables des sauterelles qui nous envahirent dans la matinée du 9 avril 1915. Une semaine entière, nous fumes enveloppés par les nuées de ce flot ravageur.. Le pays en était plein, depuis la cote jusqu'aux frontières. Ces insectes pénétraient dans les maisons et l'on ne pouvait nullement les chasser...». Yammine, op.cit. p. 28.

(٢) وصف الخوري يمين «الحمى» وصفاً دقيقاً كما اعطى صورة عن طبيعة هذه الاوبئة المنتشرة قائلاً: A cette époque, les maladies et les épidémies faisaient rage dans les rangs des soldats turcs. Ils mourraient par dizaines, du cholera, de la petite vérole, du typhus et d'autres fléaux. Les pauvres libanais qui fréquentaient ces soldats pour les servir moyennant un petit pain noir par jour, étaient vite contaminés... Yammine, op.cit. p. 42.

اللبنانيين الذين أضطروا للعمل مع الجنود فانتشر بشكل واسع في كل البلاد[1]. يفيدنا ايضا الخوري يمين ان اول ظهور علني لهذه الحمى كانت في ٢٦ اذار ١٩١٦ وانتشرت بشكل واسع خلال شهر ايار واصبحت مخيفة ومميتة خلال تشرين الثاني وبلغ عدد ضحايا هذه الحمى بحدود السبعين الف نسمة[2]. يفيدنا ايضا اميل حبشي ان الطبيب حسني محي الدين بك رئيس ادارة الصحة الاخير في جبل لبنان اخترع آلة بخارية لتطهير الثياب والفراش وارسل ثلاثين آلة الى الاقضية لتخفيف اثار التيفوس على الاهالي[3]. لم تكن هذه الحمى وحدها فتاكة باللبنانيين انما هناك مثيلاتها من الحمى الراجعة والتفوئيد والتهاب سحايا الدماغ والجدري...

* المـلاريا، بلغت ضحايا هذا الوباء بالالآف لانعدام الوسائل الصحية والادوية الكافية لاسيما اقراص الكينا وحينما وصل من المانيا مقدار من هذه الادوية سنة ١٩١٧ خفت وطأة الوباء وانصرف الاهتمام لمعالجة اعراض الجوع المتصاعد بدون توقف.

* الهواء الاصفر. ظهر هذا الوباء في تموز ١٩١٦ مهددا مدن الساحل وبخاصة بيروت بفاجعة لكن «العناية الالهية شفعت بالاهالي» وبقي محصورا في لبنان في حين تفشى بشكل واسع في دمشق وحيفا ويافا

(١) «فتكت هذه الحمى بالاغنياء اكثر منه بالفقراء لان اجسام هؤلاء أضحت نحيلة لقلة التغذية الى حد انهم صاروا اصحاب امزجة غريبة ولم يبق في اجسامهم فضلات قابلة للتعفن خلافاً لاجسام الاغنياء التي يجد فيها الميكروب مرعىً خصيباً فيعمل فيها عمله. حبشي، المرجع السابق، ص. ١١٢.

(٢) «Nous, nous en souviendrons toujours, le nombre des victimes contraignant les autorités locales a permettre l'inhumation hors des cimetières. On évalue le nombre des individus morts du typhus, à Beyrouth et dans le Liban à près de soixante dix mille personnes». Yammine, op. cit. p.48.

(٣) – بعد الغاء نظام لبنان الخاص كلف منيف علي بك الطبيب سامح فاخوري بادارة الصحة ثم خلفه ضيا فؤاد ثم فؤاد حمدي ثم محي الدين الذي اخترع آلة التطهير. اميل حبشي، المرجع السابق، ص. ١١٣.

وحلب[1]. اما الجدري فقد ظهر في بعض احياء بيروت وانتقل منها في اوائل تشرين الثاني الى ارجاء متعددة من لبنان ففتك بالناس بعد ان انتشر في اواسط الفقراء الذين يتجولون بين الاوساخ للارتزاق والتفتيش عن بعض الفضلات فلجأت السلطات الى التطعيم وفرضت ضريبة جديدة مقابل كل طعم او زيارة مستوصف.

٢ . ٢ . ٣: الاعانات والمساعدات

المشهد الاخير الذي خفف من الآم اللبنانيين ومصائبهم كانت الاعانات والمساعدات وتعدد مصادرها التي حدّت من المجاعة وابقت القسم الاكبر من الاحياء على قيد الحياة. لقد تشارك الكتّاب الاربعة في امور عديدة مشتركة وتناقضت معلوماتهم حول بعضها. أختلفت روايتهم مثلا حول «البابور الاسباني»: يقول كنعان انه لم يصل ابداً الى بيروت وكانت السفارة الاميركية في الاستانة ترغب بارسال المواد الغذائية للمحتاجين بشرط ان تتولى قنصليتها في بيروت توزيعها ولكن الاتراك رفضوا الطلب ووضعوا شروطهم التي لم تلتزم بها السفارة فبقي البابور في البوسفور[2]. بالمقابل يشير حبشي الى رغبة الملك الاسباني ارسال بابور من المؤون الى «سوريا المحتضرة والمعرّضة ان تصبح بلداً قفاراً وشعبها مهدد بالزوال، فارسل اليها باخرة تحمل زهاء الف قنطار من مختلف اصناف المواد الغذائية متجاوزا لعبة التوزيع والانحرافات»[3].

بالمناسبة نشير الى الاحسانات الاميركية لبيروت والجبل وقد اوكلتها

(١) حبشي، المرجع السابق، ص ٩٧. يشير كنعان الى ان موظفي الصحية في بلدية بيروت حاصروا الوباء ضمن نطاق ضيق فلم يتمكن من الفتك باكثر من سبعة ضحايا وقد ساعدهم نقل المصابين الى الكرنتينا ومنع الاختلاط بهم. كنعان، المرجع السابق، ص. ٨١، و٣٦٥.

(٢) كنعان، المرجع السابق، ص. ١٨٢.

(٣) حبشي، المرجع السابق، ص. ١٠٣.

القنصلية الى السيدة مارش للاشراف عليها وتوزيعها على المحتاجين من عائلات بيروت وجبل لبنان بمساعدة سيدات اميركية ولبنانية كما وزعت الاشغال اليدوية من حياكة وتطريز على سيدات ملمة بهذه الانواع من الاعمال كما كلفت الرجال بحراسة منشآت الجامعة وعهدت الى آخرين تنظيف الشوارع والطرقات كما وعهدت للتقنيين والفنيين شؤون الطباعة وصف الاحرف ودرّبت سيدات عديدات على الاعمال الفنية واليدوية لجني بعض المداخيل. . . كل ذلك بهدف الحد من مآسي البؤس والعوز والجوع. بهذه المناسبة أورد حبشي واقعة تبرّع حكومة الاستانة للجبل باربع عشرة الف ليرة عثمانية معاشاً شهرياً يوزع على فقرائه واوكل الى اسماعيل حقي، حاكم الجبل الجديد بالمهمة فحملها في محفظته رزمة كبيرة تسرّب معظمها الى جيوب مئة من المحظوظين وقد شرح حبشي آلية توزيعها: «ان المتصرف ينعم على القضاء بمبلغ معّين فينفرد حاكمه بحصته منه ثم يحسن بالباقي الى المدراء في المناطق والنواحي وهؤلاء الى مشايخ القرى فيستولي كل منهم على نصيبه. .٥. فلا يصل قرش واحد الى الفقراء والمحتاجين والمعوزين». نشير بالمناسبة ان هذه الهبة الموعودة شهريا الى الاهالي بقيت وعداً نظريا لم ينفذ ولم تتكرر الاعانة ثانية بالرغم من سؤ استعمالها وتوزيعها.

اذا اردنا ان نتوسع في مجال المعونات والمساعدات لا بد ان نذكر لائحة بالمصادر التي وردت منها الاعانات الى اللبنانيين وهي كثيرة وتفوق الثمانية عشرة شخصية ومؤسسة مانحة وقد ذكر بعضها المؤلفون الاربعة فسمى حبشي هذه المؤسسات والشخصيات[١] وعرض البواري لائحة مفصّلة

(١) ذكر الكاتب اميل حبشي المصادر التي وردت منها المساعدات على الشكل التالي:- لجنة اعانة منكوبي سوريا ولبنان في نيويورك، -الحكومة الفرنسية بواسطة القومندان ترابو حاكم لبنان، - الامة الفرنساوية بواسطة الحاكم المشار اليه وغيره، - بابا روما ودولة ايطاليا بواسطة القاصد الرسولي، - المطران يوسف دريان من مصر، - المطران يوسف الخازن، - جريدة الهدى في نيويورك، - بطركخانة الموارنة في بور سعيد، - المونسنيور خيرالله اسطفان في=

بالمانحين والممنوحين مع ذكر حجم المبالغ التي ارسلت وقد سلمها الى وسطاء وبعضها الى اصحابها مباشرة[١].

اما الخوري يمين فقد استعرض مساعدات المغتربين في اميركا والتي تمت بواسطة المرسلين الاميركيين في بيروت الذين تولوا توزيعها الى مستحقيها مباشرة بداية ١٩١٥ ولكن اجراءات الحكومة التركية حدّت من التوزيع وألزمتهم ايداع هذه الاموال في المصرف العثماني ليتولى توزيعها على المستفيدين منها بعد سنة من تاريخ الايداع وبالعملة الورقية التركية وبدفعات اسبوعية[٢]؛ لا يغفل الخوري يمين تبيان اسماء الاشخاص الذين منحهم المطران دريان معونات مالية نقدية[٣].

= نيويورك، - المونسنيور يوسف يزبك في اميركا، - الخوري فرنسيس واكيم في اميركا، - الجمعيات اللبنانية في باريس، - لجنة منكوبي المجاعة السورية في مصر، - جمعية المساعي الخيرية المارونية في مصر، - جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة في بونس ايريس، - جمعية اعمال الرحمة وجمعية السوق الخيرية في بونس ايريس، - سوق الفتة في باريس بواسطة المونسنيور عمانوئيل فارس، - جمعيات الصليب الاحمر. حبشي، المرجع السابق، ص. ١١٥- ١١٦.

(١) يذكر البواري عشرات الهيئات وعلى عشرات الصفحات وهذه نماذج منها: - مساعدة شخصية للخوري بولس عقل، ص. ١٨٦. الاب سارلوت رئيس معهد عينطورة، موزع الاعاشة الفرنسية، ص. ١٨٨، - لائحة باسماء اللبنانيين الذين حظوا بدعم مادي فرنسي ص. ٢٠٥، مبالغ من الاموال الى البطريرك بواسطة الخوري بولس عقل،ص. ٢٠٥. - الكلام الذي لا نهاية له عن قرض المليون فرنك ذهب فرنسي الذي لم يسلم يوماً للبطريرك، ص. ٢٥٢. - لائحة طويلة باسماء العديد من الذين ارسل اليهم مبالغ نقدية ص. ٢٨٠ و ٢٩٤. يختم البواري بالكلام عن حجم المبالغ الى اللبنانيين وهو بحدود ٣٢ الف ليرة ذهب خلال الحرب، ص. ٣٠٠.

(٢) البواري، المرجع السابق، ص. ٣٠٠.

(٣) ينشر الخوري يمين اسماء الاشخاص الذين ارسل اليهم المطران دريان مساعدات نقدية وحجم المبلغ الذي تسلمه سيادته من المؤسسات والجمعيات الخيرية التي جهدت لمساعدة اللبنانيين في محنتهم. لقد اشار يمين الى مبلغ مليوني فرنك فرنسي ذهب ارسلتها الجمعيات الى المطران دريان الذي تولى بدوره توزيعها وارسالها الى لبنان عبر الكومندان ترابو المقيم في ارواد وقد سلمها بدوره الى وسطاء لبنانيين كالبواري وكرم وغيرهما ليتم تسليمها للبطريرك الحويك او لمستحقيها. يمين، المرجع السابق، ص. ١٨٣.

٢. ٣: المحور الاقتصاعي.

يرتبط المحور الاقتصادي ارتباطا عضوياً بالاجتماعي والى حد ما بالسياسي والعسكري، والكلام عنه يعني الاستفاضة بابرز المؤشرات الاجتماعية المتلازمة وأثر الاحتكار والضيق الاقتصادي وما استتبعه من تواطؤ حكومي وجشع لتجار لم يرف لهم جفن امام المأساة التي تسببوا ببعض نتائجها بفعل عمالتهم لبعض حكام الترك الطغاة وتواطئهم مع وكلائهم وعملائهم من المحليين وقد تفننوا بالاثراء غير المشروع والمتاجرة بكل شيء وصولا الى قطع لقمة العيش من فم الشعب الفقير الاعزل. لا نرى ضرورة باستعادة مشاهد البؤس والعوز الناجمة عن سؤ الاحوال الاقتصادية مكتفين ببندين اثنين في هذا المضمار وما لازمهما من نتائج وآثار سلبية. يتناول البند الاول موضوع اسعار العملة الورقية التركية وتبدلاتها الحادة بعد استبدال العملة الذهبية بالورقية مستندين الى وثيقة هي عبارة عن جدول عام يبين تطور اسعار العملات الورقية التركية بين اذار ١٩١٦ واخر تشرين الول ١٩١٨؛ بالمقابل ربط البند الثاني العلاقة المباشرة وغير المباشرة بين تدني العملة الورقية الشرائية وتطور ارتفاع اسعار الحاجيات والمواد الاستهلاكية الاساسية من حبوب على انواعها وابرزها القمح.

٢. ٣. ١: تطور اسعر صرف العملة التركية.

البداية مع قرار توحيد العملة الورقية التركية اذ كانت الليرة العثمانية الذهبية وتوابعها من نصف وربع ليرة ذهبا ومن العملة الفضية كالمجيدي ونصف المجيدي وربعه ومن القطع المعدنية الممزوجة فضة كالزهراوي والبشلك ونصفه والبرغوت ثم المتليك والغرش مما كان يشكل فوضى مالية متشعبة تختلف باختلاف النواحي والمناطق والولايات داخل اراضي السلطنة العثمانية[١] مما اهاب بالحكومة على توحيد العملة بموجب قرار وزاري جرى

(١) «كانت الاربعة ارباع المجيدي لا تساوي المجيديات القطعة الواحدة وكذلك البشلكان =

تعميمه في ١٣ كانون الاول ١٩١٥[١]. لم تتقيد كافة المناطق والنواحي في ارجاء السلطنة وبخاصة نواحي حوران وجبل الدروز بهذا التدبير القسري فاقتصت السلطات التركية من اهالي لبنان ومن البيروتيين وهددتهم بالوسائل الجذرية في حال المخالفة فاضطر الاهالي الى استبدال جنى العمر من ليراتهم الذهبية بعملة ورقية لا قيمة لها. هذا الاجراء يكشف حاجة السلطات التركية الى العملة الذهبية لتغطية نفقاتها المتعاظمة وتصحيح ميزانها التجاري ومدفوعاتها الخارجية[٢].

فقدت هذه العملة الورقية اكثر من ٩٠٪ من قيمتها واصبحت سنة ١٩١٨ تساوي ستة غروش فعلية بدل المئة غرش الرسمية مما تسبب بارتفاع جنوني للاسعار وبخاصة المواد الغذائية وفي مقدمتها الحبوب على انواعها فانتشر الجوع بين الاهالي مما أدى الى وفاة المئات لا بل الالآف[٣]. بالمناسبة، نشير الى محاولة الاهالي بتعويض التدني بقيمة العملة الورقية بوسيلتين: اللجؤ الى مقتنياتهم وذخائرهم من الايام الخوالي وهي بالذهب وقد حافظت على قيمة شرائية عالية رغم مخاطر اقتنائها والتنقل بها فضلا عن طرحها في سوق التبادل التجاري وكلها عمليات تتم في الخفاء بعيدا عن اعين الاتراك

= (بشلك عدد ٢) لا يوازيان الزهراوي ونصفا البشلك لا يعتبران بشلكا كما ان السعر الحكومي لليرة التركية هو مابة غرش صاغ وهو في التداول ١٢٤ غرشا ونصف الغرش وخمس بارات». حبشي، المرجع السابق، ص. ١٨٤.

(١) تنص المادة الاولى من القرار على الاتي: «ان نظارة المالية مأذونة باصدار اوراق نقدية بقيمة ستة ملايين وخمساية وثلاث وثمانين ألفا واربع وتسعين ليرة عثمانية (٦٥٨٣٠٩٤) مقابلة الى مابة وخمسين مليون (١٥٠) فرنك ذهباً. المادة الثانية: «ان مداولة هذه الاوراق النقدية اجباري مثل النقدية تماما والمخالفون يدفعون جزاءً نقدياً». حبشي، المرجع السابق، ص. ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) اعتبر قرار ١٣ كانون الاول ان الليرة العثمانية تساوي مابة وثمانية غروش والمجيدي عشرين غرشاً والبشلك بغرشين ونصف، حبشي، المرجع السابق، ص. ١٨٦.

(٣) «تراجع سعر الورق النقدي كثيرا واصبح سعر الليرة اربعين غرشا وتارة ثلاثين وكلما تراجعت اسعار العملة الورقية تصاعدت اسعار الحاجيات فاضحى القمح بمابة وخمسين غرشا وباقي الحبوب بمابة». حبشي، المرجع السابق، ص. ١١٤.

واعوانهم وعيونهم الذين اصدروا تعاميم تحرّم التعامل بالذهب تحت طائلة الحبس والنفي. اما الثانية فهي اموال المهاجرين التي تدخل البلاد خلسة بمؤازرة الفرنسيين في جزيرة ارواد كما رأينا سابقاً.

يفيدنا حبشي الى جدول تطور اسعار العملة الورقية التركية من سنة ١٩١٦ الى ١٩١٨ من اعداد يوسف زخيا وانه تحقق من ارقامها لدى مقارنتها بغيرها من اللوائح فازدادت قناعته بدقتها وبالتالي تعتبر من أكمل الاوراق حول هذا الموضوع. اهميتها انها تقدم مقارنة يومية لاكثر من ثلاث سنوات متتالية لكل يوم وشهر. نسوق مثالاً واحداً عن تدهور اسعار صرف الليرة التركية: ففي الاول من اذار ١٩١٦ كان سعر صرف الليرة التركية ١٠١ غرش وهبط الى ٢٧ غرشا في اذار ١٩١٧ ووصل الى حدود ثمانية غروش خلال اذار ١٩١٨.

ايام	ايار ١٩١٦	حزيران ١٩١٦	ايار ١٩١٧	حزيران ١٩١٧	ايار ١٩١٨	حزيران ١٩١٨
	غروش	غروش	غروش	غروش	غروش	غروش
١	٩٢	٦٩	٢٩	٢٨	٢١	١٩
٧	٨٨	٦٨	٣٦	٢٥	٢٦	١٩
١٦	٧٩	٦٤	٣٠	٣٥	٢٢	١٨

٢. ٣. ٢: تطور اسعار المواد الاستهلاكية وبخاصة المواد الغذائية وفي المقدمة الحبوب.

لم يقدم المؤلفون الاربعة اية معلومات دقيقة ولا اشارات بحثية محددة عن تطور اسعار المواد الاستهلاكية بالتفصيل ولكنهم دللوا على ارتفاع الاسعار من باب الاثار السلبية على الاهالي وانعكاساتها المأسوية وما تسبب من ضيق وعوز اديا الى مجاعة وهلاك كثيرين. نشير الى تناقض واضح بين

الاربعة حول تحديد اسعار بعض الحاجيات لا بل ان هناك بعض التباين بين فصل وآخر وفترة وأخرى لدى المؤلف الواحد فكيف بين المؤلفين الاخرين. لهذه الاسباب نلتزم جانب التحفظ الشديد حول هذه الارقام والجداول. ينفرد كنعان دون الاخرين باعطاء اسعار الحاجيات بالفرنك الذهب ويقول ان كيلو الصابون بثلاث فرنكات ذهب والزيت بفرنكين ذهب ونصف والسكر بثلاث فرنكات ونصف وليتر الكاز باربعة فرنكات ونصف ذهب[1]. هذه الارقام غير دقيقة بالرغم ان كنعان انفرد بالتسعير بالكيلوغرام في حين ان الاخرين ذكروا الوزن بالرطل[2] وهذا المقياس هو الاقرب الى الواقع في ذلك الزمن.

اما يمين فيورد اسعار بعض المواد الغذائية ايضا بالكيلوغرام مقابل الغروش ويكتفي بعينة واحدة عن شهر آب ١٩١٧ ويجوز بالتالي مقارنتها مع ارقام حبشي ولكن معتمدا وحدة القياس «الرطل»[3]. ان حبشي الاكثر دقة كونه يورد اسعار المواد الاستهلاكية من بداية ١٩١٦ حتى اواخر ١٩١٧ وفقاً للجدول التالي[4]:

(١) كنعان، المرجع السابق، ص. ٣٥٨.
(٢) «الرطل يساوي وقيتين، اي ما يعادل ٢ كيلوغرام ونصف».
(٣) يقول حبشي ان الاسعار هي على الشكل التالي خلال شهر آب ١٩١٧: كلغ الخبز، ٤٥ غرشاً، الارز: ٦٠ غرشاً، اللحم : ١٣٥ غرشاً، الفاصوليا: ١٣٥ غرشاً، السكر: ١١٢ غرشاً، القهوة ٢٢٥ غرشاً، الشاي ٢٤٠ غرشاً، ليتر زيت الزيتون ١١٢ غرشاً، كلغ الزبدة ١٤٥ غرشاً، ليتر النفط ١١٢ غرشاً. حبشي، المرجع السابق، ص. ١٧١.
(٤) هذا الجدول مركب من عشرات الصفحات عند المؤلف حبشي، واذا اردنا التحديد نقول ان معطيات اشهر نيسان ١٩١٦ تعود للصفحة ٦٤، ايار، ص. ٩٢؛ تموز ص. ٩٧؛ آب ص. ٩٩؛ ت١ ص. ١٠١؛ اما سنة ١٩١٧ : ك٢ ص. ١٠٧؛ شباط ص. ١٠٩؛ حزيران ص. ١١٧؛ آب ص. ١٢٠؛ ك١ ص. ١١٦.

مواد استهلاكية (رطل)	نيسان ١٩١٦ غروش	ايار ١٩١٦ غروش	تموز ١٩١٦ غروش	آب ١٩١٦ غروش	ت١ ١٩١٦ غروش	ك٢ ١٩١٧ غروش	حزيران ١٩١٧ غروش	آب ١٩١٧ غروش	ك١ ١٩١٧ غروش
قمح	١٠		٣٠	٣٥	٤٠	١١٠	١٨٠		٢٥٠
ارز	٣٠	٣٠						٢٣٠	٢٥٠
سكر	٣٠	٨٥					٤٨٠	٥٠٠	
برغل		٢٠							
ملح					٢٥				
عدس						٧٠			
صابون		٣٢						١٦٠	
بن		١٧٠					٩٥٠	١٠٠٠	
زيت						١٠٠		١٦٥	
سمن							٣٢٠	٣٣٠	
حمص						٩٠			
فول						٧٠			
حذاء				٣٠٠					
ثوب				٨٠٠					
طربوش				٨٠					

يفيدنا هذا الجدول وغيره من الارقام المقارنة ان الاسعار آخذة بالارتفاع بدون توقف وخاصة اسعار المواد الاساسية كالحنطة وسائر الحبوب مما أدى الى مجاعة دفع اللبنانيون اثمانها مئات الآف الضحايا من الفقراء والمعوزين في المدن والارياف.

٢. ٤: المحور العسكري

لم يشهد لبنان معارك عسكرية فعلية في الحرب العالمية الاولى، فدخل الجيش العثماني الى لبنان بدون اية مواجهة او حتى اعتراض علني خوفاً من ردات الفعل الانتقامية؛ على العكس، نرى اعيان بيروت يشكلون لجنة من عشرين وجيها ومن كل الطوائف لتسليم المدينة. يستحوذ هذا المحور ثلاثة عناوين رئيسية: الاول جيش الاحتلال العثماني والبلاغات التي عممها ودخوله الى زحلة ثم الى الجبل عن طريق ترشيش-صنين وفي عز الشتاء والدعم اللاحق سنة ١٩١٦ وخوف الكثيرين من بيروت هربا الى الجبال ولنا نماذج عديدة على ذلك. الثاني يتمثل بجيش المتطوعين - المحليين بقيادة الامير شكيب ارسلان وكيف تمّ تجنيد المتطوعين وآلية استخدامهم وتوزعهم على طول الساحل لمراقبة الشواطئ وحفر الخنادق واقامة الحواجز الليلية لمنع التجول الى الدوريات ومراقبة المارة والمنازل وتطبيق قرار منع الاضاءة ليلاً. الثالث، يتناول العمليات العسكرية ومعظمها في عرض البحر وتبدأ بالحصار وتنتهي بنزول الحلفاء اواخر الحرب. الاول بين المؤلفين الاربعة والاكثر الماما بالموضوع هو بشارة البواري بصفته يتعامل مع الجيش الفرنسي وهنا يدور الكلام عن الحصار البحري وارتياد الاساطيل الغربية للمرافئ اللبنانية وتوجيه الانذارات واصفة قصف تجمعات الجنود والكزخانات على الشاطئ من شكا الى صيدا وكيفية رد الاتراك بزرع الالغاء وتكثيف الدوريات على الشاطئ وفي القرى والمدن الساحلية كما يحدثنا البواري عن حجز المراكب واغراق الممتنعين عن الانصياع للاوامر الفرنسية ومطاردة البوارج والطرادات والمراكب الحربية في عرض البحر.

٢. ٤. ١: بلاغات جيش الاحتلال ومآثره.

تعددت البلاغات العسكرية وابرزها:

* بلاغ قيادة الجيش التركي الرابع في ٤ كانون الاول ١٩١٤ ومركزه دمشق. (النص الكامل والمكوّن من اربعة بنود عند كنعان)

* منشور جمال باشا قائد الفيلق الرابع في الشرق (١١ كانون الاول ١٩١٤). تضمن: «الاعفاء من الخدمة العسكرية لاهالي الجبل، التطوع تحت العلم العثماني، تهديد المتعاونين ومصادرة جميع المكاتب والمؤسسات التابعة للدول العدوة (فرنسا، بريطانيا وروسيا).

* الاحتلال العسكري وتبريره: بعد وقوع الاحتلال الفعلي للبنان كان لا بدّ من تبرير الاحتلال المباشر فقال العثمانيون انهم أحبطوا انزالاً عسكرياً بحرياً فرنسياً - انكليزياً يواكبه تحرك شعبي منتفض يساعد على مهاجمة الاتراك والالتفاف عليهم. احتجت ايطاليا التي كانت لا تزال على الحياد على احتلال العثمانيين لمناطق لبنانية فأجاب قائد الجيش الرابع بأنه يحفظ للبنان استقلاله الذاتي وامتيازاته التاريخية السابقة وانه سيتم سحب هذه الفرقة في وقت قريب[١]. على اثر هذا الاحتلال المباشر، أعلن الحكم العسكري في الجبل وكان قد أعلن من قبل في سائر ولايات البلاد وأتخذت عاليه مقراً للمجلس العرفي.

* ازاء هذا الوضع المستجد، أوعز العثمانيون الى حكومة جبل لبنان بتوزيع «تذكرة نفوس» للاهالي من جميع الاعمار تبعد عنهم التجنيد الالزامي الذي فرضته السلطات للتمييز بين سكان الجبل وسكان الولايات[٢]. يهدف هذا الفصل بين السكان لالزام اهالي الولايات

(١) «Craignant un soulèvement du Liban, en cas d'un débarquement des alliés sur la cote syrienne, Djamel Pacha jugea opportune d'occuper ce petit mont sans aucun délai. Il envoya d'abord un détachement à Aley. L'Italie, jusqu'alors neutre protesta contre cette conduite transgressive. On se contenta de lui répondre qu'on garderait au Liban ses privilèges administratifs et qu'on en retirerait bientôt que détachement d'occupation. Yammine. Op. cit. p. 9.

(٢) «L'autorité militaire donne alors ordre au gouvernement du Liban de fournir à tout Libanais, sans distinction d'âge et de sexe, un livret individuel qu'il était tenu de présenter à toute réquisition des autorités militaires, judiciaires ou civiles.» Yammine. Op. cit. p.13-14.

بالتجنيد الالزامي او دفع البدل وقدرها اربع واربعين ليرة عثمانية ذهب[١]. عندها دبّ الذعر في نفوس الاهالي وشهدنا عملية فرار واسعة من الولايات وبخاصة من بيروت باتجاه قرى جبل لبنان النائية وجباله[٢].

٢ . ٤ . ٢: جيش المتطوعين المحليين.

طلبت قومندية بيروت في شباط ١٩١٥ من اهالي هذه المدينة ومن الجبل التطوع الاختياري بعد غارات العدو المحتملة على السواحل عند اللزوم بتشكيل قوة مسلحة من متطوعي الاقضية[٣] يحرسون الساحل المواجه لقضائهم بأمرة المير شكيب ارسلان. أولى مآثر جيش المتطوعين تمثل بحفر الخنادق واقامة الحواجز الليلية وحراسة الشاطئ ومراقبة تحركات المواطنين ومنع الاضاءة ليلاً في المنازل[٤].

٢ . ٤ . ٣: العمليات العسكرية.

لن نتوسع في هذا الموضوع لانه سبق واشرنا انه لا أثر لعمليات

(١) يقول حبشي ان البدل هو عشرون ليرة ذهباً. حبشي، المرجع السابق، ص. ٦٤.

(٢) D'après le programme politique du comité du parti Union et Progrès: de 1908. Le service militaire obligatoire était entendu en Turquie aux éléments Non-musulmans. Ainsi, sur l'ordre de Djemal Pacha, un certain Hassan Husni bey, Président du bureau d'enrôlement à Beyrouth, invita à se ranger sous les drapeaux impériaux tous les citoyens valides du vilayet, ages de 20 ans à 50 ans, sans distinction de race ou de religion...» Yammine. Op. cit. p.13.

(٣) جاء ترتيب المتطوعين على الشكل التالي: «متطوعو الكورة يعملون بين ساحل طرابلس الشام الى البترون؛ متطوعو البترون، من البترون الى جسر المدفون؛ متطوعو كسروان، من جسر المدفون الى نهر الكلب؛ متطوعو المتن ، من نهر الكلب حتى نهر الغدير قرب الاوزاعي؛ متطوعو الشوف من الاوزاعي حتى النبي يونس؛ متطوعو جزين من النبي يونس الى صيدا». كنعان، المرجع السابق، ص. ١٥٩.

(٤) اعتبر اللبنانيون انهم اكياس رمل للدفاع عن العثمانيين في البلاد وكتب حبشي يوضح: «يحاولون ان يجعلوا صدور اللبنانيين هدفا لقنابل المدافع ولبنان طعاما للنار. . . لقد ادعوا انهم يريدون ان ندافع عن بلادنا انما ارادوا ان ندافع عنهم مستترين بحجاب التطوّع». حبشي، المرجع السابق، ص. ٤٠.

عسكرية فعلية على الاراضي اللبنانية ولكن تحركات سميت بالعسكرية ومنها:

* الحصار البحري الذي اشار اليه المؤلفون الاربعة وارتياد الاساطيل الغربية لمياه بيروت الاقليمية وانذار الطراد الفرنسي دستوري الى حاكم صور وظهور الغواصات الغربية في عرض البحر ورسوها احيانا على الشواطئ اللبنانية وفي مرفأ بيروت وتوجيهها الانذارات وفرض الحصار.

* قصف تجمعات الجنود العثمانيين المتطوعين بالمدافع من البوارج البحرية والقاء القنابل من الطائرات على كزخانات النفط في شكا وجونية وزرع المرافئ اللبنانية بالالغام وأسر مراكب عدوة هاربة في عرض البحر واغراقها، فضلاً عن مطاردات بحرية قبالة الشاطئ بين سفن مختلفة وتجمع لبواخر وطرادات فرنسية في ضبية (٢٢ آب ١٩١٥) اضافة الى غرق بواخر فرنسية في المتوسط وصور حيّة عمّا حلّ بركابها.

٢. ٥: المحور الخامس: الشخصيات

تحت هذا المحور نسلط الضؤ على اربع فئات من الشخصيات تناولها المؤلفون الاربعة في مؤلفاتهم:

* الوجهاء والاعيان من سياسيين وتجار ورجال دين واعمال وهنا يبرز دور الكاتب حبشي في هذا التقويم وعرض ما لديه من معلومات كصحافي.

* شهادات لبنانيين اعدموا او نفوا او سجنوا وقد تمّ نقل آخر ما تلفظوا به من عبارات وشعارات وكلمات او شهادات ورسائل وجهت الى عائلاتهم واقاربهم وهنا يحتل الخوري يمين المقام الاول.

* المراسلات بين شخصيات اغترابية ومحلية وهنا يتبوأ البواري مرتبة الصدارة في نقل هذه الرسائل ونشرها بخط اصحابها وكأنه على اطلاع بكل ما يجري بين المهاجرين والمقيمين.

* المتعاونون من اللبنانيين مع الحلفاء او مع الاتراك وهنا يتنافس المؤلفون الاربعة فيما بينهم وكان ابرزهم البواري الذي شغل منصب ضابط مخابرات في الجيش الفرنسي وكانت مهمته كما سبق واشرنا همزة وصل بين فرنسا والمتعاونين معها.

٢. ٥. ١: الوجهاء والاعيان.

بلغ عدد هولاء ماية وخمسين شخصية موزعين بين لبنانيين (١٣١): ٩٤ اهل سياسة، ١٦ رجال دين، ٨ شهداء، ١٣ مهاجر؛ وعشرة فرنسيين من مدنيين وعسكريين وتسعة اتراك. ابرز اللبنانيين من اهل السياسة: ميشال سرسق، المير شكيب ارسلان، نجيب الاصفر، عمر الداعوق، رشيد طليع، حبيب باشا السعد، المير عادل ارسلان، داوود عمون، احمد مختار بيهم، الشيخ كسروان الخازن، المير حارس شهاب، ابراهيم بك الاسود، المير توفيق ارسلان، اسعد بك لحود، سعيد بك البستاني، المير امين ارسلان، الشيخ يوسف الخازن، جورج تابت، المير فايز شهاب، المير فائق شهاب، رشيد بك نخلة، سعدالله الحويك، سليمان كنعان، انطوان عرب، يوسف الزين واخرون...

سمّى حبشي ابرز رجال الاكليروس الموارنة وحلّ البطريرك الياس الحويك على رأس القائمة تلاه الاساقفة: بولس عواد، عبدالله الخوري، بولس عقل، يوسف دريان، يوسف الخازن، اغناطيوس مبارك، بطرس شبلي، اغوسطينوس البستاني، بطرس الفغالي، مخايل الاخرس، انطون عريضة، بشارة الشمالي، والاباء العامون: اغسطينوس التنوري رئيس عام الرهبنة اللبنانية، جبرائيل عشقوتي رئيس عام الرهبنة الحلبية (الأنطونية)، والمونسنيور مخائيل حويس.

اما الشهداء فقد خص حبشي بعضهم زوايا في مذكراته ومنهم: فيليب وفريد الخازن، احمد طبارة، سعيد فاضل عقل، يوسف الهاني، عبد الغني العريسي، عبد المجيد الزهراوي وبترو باولي.

لم يغفل حبشي ذكر بعض المهاجرين من الادباء والمجاهدين في سبيل القضية اللبنانية فكان على رأس القائمة نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى في نيويورك، تبعه شكري خوري، صاحب جريدة الهوى في ساوبولو، عباس بجاني رئيس الجمعية اللبنانية في باريس، داوود بركات من نزلاء مصر، شكري غانم في باريس، انطون الجميل ويوسف السودا في مصر، الطبيب الفرد خوري في باريس، سليمان داوود جبارة في الارجنتين، يوسف الاشقر في شيكاغو في الولايات المتحدة الاميركية، يوسف مراد الخوري صاحب جريدة الشعب في نيويورك، يوسف ايوب حتي، صاحب جريدة ارزة لبنان في ريو دي جنيرو، يوسف ناصيف ضاهر، صاحب جريدة البريد في ريو دي جنيرو ايضاً.

اما الفرنسيون الذين تعرّف عليهم حبشي من قريب او بعيد، فدوّن انطباعاته وملاحظاته حول بعضهم وانتقينا بعض الاسماء ومنها: الجنرال غورو اول مفوض سام على لبنان وسوريا، روبير دي كاي، شغل منصب سكرتير المفوضية العليا لبعض الوقت، السيد مارسيه، رئيس الغرفة السياسية في المفوضية، القومندان ترابو، حاكم جزيرة ارواد خلال الحرب، القومندان دوازله، حاكم بيروت العسكري، الليتنان كولونيل كوبان مفتشا عاما، الكولونيل نيجر حاكما لاراضي العلويين، القومندان لابرو حاكم اداري للبنان الصغير،السيد شينياك مستشار المفوضية، الكبتن سوله معاون اداري.

الفصل الاخير من باب الوجهاء احتله الاتراك وفي مقدمتهم «السفاح» جمال باشا، محمد رضا باشا قومندان جبل لبنان، علي منيف بك اول متصرف مسلم على جبل لبنان، اسماعيل حقي بك، المتصرف الثاني المسلم على جبل لبنان، بكر سامي بك والي بيروت السابق، عزمي بك والي بيروت، ممتاز بك المتصرف التركي الاخير على لبنان، محي الدين بك مدير بوليس بيروت، حسن حسنى رئيس شعبة أخذ العسكر (العديد).

٢ . ٥ . ٢ : شهادات لبعض اللبنانيين.

جاءت هذه الشهادات كاصدق تعبير عما خالج نفوس هولاء المنفيين او السجناء او الشهداء الذين علقوا على حبال المشانق، ابرها:

* شهادة الموقوف السوري رفيق فايز سلوم وقد وردت شهادته في سياق مذكرات يروي مآثر الاتراك مع رفاقه ومعه.
* الكلمات الاخيرة لواحد وعشرين شهيد علقوا على حبل المشانق: سبعة في ساحة المرج في الشام واربعة عشر في ساحة البرج في بيروت مع ذكر الاسماء ووصف دقيق للساعات الاخيرة.
* رسالة الشيخ فريد الخازن الى زوجته هند قبل ساعات من شنقه وقد دونّها بقلم (رصاص) بدون تاريخ ولا توقيع. لم يغفل الخوري يمين ايضا وصية الشيخين فريد وفيليب الخازن بعد التأكد من قرار اعدامهما بقبل اسبوع من شنقهما في عاليه.
* شهادة احد العيان يصف صور التعذيب التي تعرض لها نخلة المطران في الشام.
* معاناة عزيز فيقاني ترجمان القنصلية الروسية في بيروت خلال المحاكمة والنفي.
* مذكرات بيروتي خدم في الجيش التركي.
* مذكرات ميشال جوزاف صالح المتطوع في الجيش التركي.
* ابرزالمهمات التي نفذها بشارة البواري من جونية بين الحلفاء في جزيرة ارواد وبورسعيد ولبنان منذ الاول من كانون الثاني ١٩١٥ حتى نهاية الحرب والادوار التي قام بها والعلاقات التي نسجها مع العديد من اللبنانيين كما جاء على ذكر حنا البواري وادواره المزعومة وميشال دحروج والمطران جوزاف دريان.

٢ . ٥ . ٣: المراسلات الشخصية.

تولى الخوري يمين وبشارة البواري نشر بعض المراسلات بين شخصيات اغترابية وأخرى محلية موزعة بين اكليريكية ومدنية وكان البواري متفوقا بهذا المجال/ نذكر منها:

* رسائل بين الفرنسيين والمطران مسرّة.
* رسائل بين البواري والخوري بولس عقل (الاسقف لاحقاً) ويربو عددها على الثمانية والاربعين رسالة موزعة كالآتي: ٢٨ من الخوري عقل الى البواري و٢٠ من البواري الى الخوري عقل.
* رسائل من نعوم باخوس الى البواري.
* رسائل من ميشال جبر الى البواري.
* ثماني عشرة رسالة من المطران دريان الى البواري.
* رسائل من يوسف كرم، احد المتعاونين مع الفرنسيين، الى البواري.

٢ . ٥ . ٤: المتعاونون مع الحلفاء.

اشترك المؤلفون الثلاثة يمين، حبشي والبواري بعرض اسماء وادوار الشخصيات المتعاونة مع الحلفاء مباشرة او مع احد وكلائهم في لبنان. غالبا ما نقرأ نفس الاسماء والادوار تتقاطع بين يمين والبواري باعتبار ان الاثنين خارج لبنان ويتوليان امر التنسيق مع الداخل اللبناني؛ في حين يركز حبشي، المقيم في لبنان، على الاشخاص المتعاونين مع الاتراك والذين ساهموا برأيه ومن خلال الوشايات والتجسس الى دفع الكثيرين من مواطنيهم الى حبل المشنقة او النفي او الابعاد او السجن. يهمنا في هذا السياق الاشارة الى الاسماء التي ذكرها الخوري يمين من بشارة البواري وعلاقاته بالكثيرين، من ابرزهم الخوري بولس عقل في لبنان، المطران جوزاف دريان في مصر، جوزاف لحود من عمشيت، نجيب روحانا من الكفور، يوسف كرم من

جونية، ميشال دحروج وعلاقاته بجوزاف نعيم، الخوري جوزاف الراعي؛ يحدد المؤلف اعداد المجندين بواسطة ميشال دحروج وجورج نعيّم والتي بلغت ثلاثة وعشرين عنصرا تعاونوا مع الفرنسيين لخدمة مصالح بلادهم واستقلاله عن الاتراك كما يذكر ادوار انطوان اده وايوب سباط وعبد الملك وغيرهم. . . .

لقد عرض البواري الاسماء والادوار بالتفصيل بسبب موقعه كهمزة وصل بين الحلفاء من جهة والمتعاونين من جهة مقابلة، من اشهر هولاء شقيقه حنا وابن شقيقه حبيب وسمعان الراعي ونسيبه نعوم من العقيبة ويعقوب بطيش وحنا جرمانوس من البوار ويوسف حريق من حارة صخر وانطوان اده وقد تطوع في الجيش الفرنسي برتبة قوميسير ومسعود الهليل ويوسف كرم وميشال دحروج والخوري بطرس الخويري وابراهيم شهوان من جبيل. اطلعنا ايضا البواري على اعداد المتطوعين معه وقد زاد عددهم عن المائة خلال الحرب. اما حبشي فقد اقتصرت معلوماته حول هذا الموضوع ببعض المتعاونين الذين تعرف عليهم وكانوا ينفذون عمليات لهذا الغرض ومنهم البحارة الذين التحقوا بالفرنسيين كما يذكر اسماءهم ويروي بعض مآثرهم وتصرفاتهم زمنبين هزلاء عبد الوهاب وشقيقه عادل من طرابلس كما يستفيض برواية «الجاسوس» حسن حمود من ارواد.

٣: القسم الثالث، اهمية المصادر اللبنانية في كتابة تاريخ لبنان الحديث.

ارتبطت بعض كتابات تاريخ لبنان الحديث بجزء وافر مما تيسّر من التقارير الديبلوماسية ومفكرات القناصل والمراسلات القنصلية وغيرها والتي تسلط الاضواء على موضوعات محددة تهتم بها قنصليات الدول وتعتبرها مادة دسمة مفيدة لديبلوماسيتها من اجل رسم معالم تحركها وصون مصالحها

وتوطيد دعائم نفوذها والنيل من اخصامها من بلديين وخارجيين. تعبر هذه التقارير في بعض الاحيان عن وجهات نظر خاصة ومطالعات شخصية تقرأ وتفسر الوقائع وتتحرك ضمن دائرة معلوماتية محددة ونادرا ما تكون قراءة موضوعية شاملة، لا لنقص في المقدرة على القراءة والتحليل بل لانتفاء المبررات والاسباب فتأتي الرسائل ترجمة لامنيات او سعياً وراء هدف محدد مع رسم الاليات الهادفة لتحقيق هذه المرامي. نادراً ما تتقاطع تقارير الديبلوماسيين بين دولة وأخرى لأن لكل منها اهداف وغايات فتختار بين الوقائع والشخصيات ما يخدم هذه الرؤى الخاصة كما يشكلوا من خلال مراسلاتهم ادوات ضغط على سياسة بلدانهم تجاه بعضها البعض من جهة ونهج محدد تجاه البلد او الموضوع الذي هم بصدده. هذا النوع من الكتابات مفيد كونه يعبر عن وجهة نظر حول موضوع وزمان محددين وتمتحن جديته وموضوعيته بتقاطعه مع وقائع وقراءات من مصادر اخرى مختلفة الانتماءات والاهداف.

بالمقابل تشكل مصادرنا المحلية خروجا عن هذه القاعدة «الذهبية» في هذه الايام كونها مصادر مباشرة لا يدّعي اصحابها وسع الافاق وتنوع شبكة المعلومات ورسم السياسات وتحديد المصائر بل هي شهادات حيّة كون بعض اصحابها عايشوا الحدث مباشرة والبعض الاخر سمعه من اقاربه واهله ومعارفه دون وسيط وهذه نقلة مهمة في كتابة التاريخ كونها تشرك الضحية بكتابة تاريخ محيطها وبلادها. تحت هذا العنوان، نقدم اربعة نماذج من الذاكرة الشعبية حول تاريخ لبنان الحديث موضحين انهم ينتمون الى بيئة اجتماعية واحدة لا تخفي مفاضلتها للغرب عامة ولفرنسا خاصة وكرهها للاتراك بسبب ما اختزنوا في ذاكراتهم من مآسي وظلم وما خبروه بأشخاصهم من تجارب مرّة وما شاهدوه من مظالم وموت.

٣.١: النموذج المغامر والمتعاون: بشارة البواري.

انه ابن جونية الذي التحق بالفرنسيين كترجمان بداية الامر، ثم تحوّل الى قسم المعلومات في الجيش والبعض يقول انه اصبح ضابطاً. تولى فرع المعلومات المتعلقة بالاتراك وحلفائهم وعملائهم بين اللبنانيين بالاضافة الى مهمات تجنيد البحارة وبناء شبكة معلومات مع البلديين ترصد حركة الاتراك كما تولى ايضا حلقة الربط والتنقل الميداني المباشر بين لبنان والخارج عن طريق البحر فتحوّل نقطة الارتكاز بين الداخل والخارج لنقل الاخبار المحلية والرسائل والصحف والمجلات على قلتها واحيانا مهمات الاستدراج الى الشاطئ والخطف والنقل الى عرض البحر الى المراكب الفرنسية بالمقابل تولى نقل الرسائل والمساعدات وبخاصة الاموال من الخارج، من فرنسا ومصر والاميركيتين الى اللبنانيين عبر الرحلات الاسبوعية التي يقوم بها الى الشاطئ اللبناني ليلاً.

هذا المصدر هو النموذج عن المذكرات الشخصيات يروي من خلالها ما له وما عليه في علاقاته ومهماته وادواره خلال فترة الحرب العالمية الاولى. يخبرنا في مساحات واسعة عن علاقته المتأرجحة مع الفرنسيين بالاسماء والادوار والمواقف كما يدوّن ما سمعه او رآه عن الغواصات والطرادات والمراكب الفرنسية وغيرها من نشاطات ومهمات في البحر المتوسط وبخاصة بين جزيرة ارواد حيث مقر القيادة العسكرية الفرنسية الملتحق بها وبين الشاطئ اللبناني. تكمن خصوصية وفرادة البواري بامور ثلاث:

* اولاً: مجموعة الرسائل المتبادلة مع الخوري بولس عقل، (لاحقاً الاسقف) والمطران جوزاف دريان في مصر وأخرين وهذا ما اشرنا اليه مطولاً في محور الشخصيات.

* ثانياً: لائحة مفصلّة باسماء المتعاونين معه ودور كل منهم والمهام الموكلة اليه واليهم وما نفذ منها وما لم ينفّذ.

* ثالثاً: اسماء الافراد والجهات والمؤسسات المانحة في الخارج واسماء المستفيدين في الداخل وقيمة هذه المساعدات التي وزعها للافراد وللمقامات الدينية.

٣. ٢: النموذج الصحفي الملتزم: اميل حبشي.

انه ابن بيت شباب، فرنسي الميل والهوى، لم يخف انحيازه لفرنسا وقال «انه من أحب فرنسا أحب لبنان وليس العكس ويعتبرها اول دولة غربية عطفت علينا ومن اصدق الدول معنا» وثبت هذا الميل الواضح قلمه وتقويمه للسياسيين وللاتجاهات السياسية السائدة. تعاطى حبشي والاحداث من زاوية الصحافي الخبير بالشوؤن العامة ومن موقع الكاتب الملتزم، فجاء الخبر قصيرا مقابل التعليق الطويل، لذلك ضاقت دائرة الموضوعات والاخبار وتكررت فاستحال على المؤلف الاستفاضة فلجأ الى باب جديد هو باب التقويم للوجهاء والنافذين من موظفين واصحاب الحل والربط من الذين لعبوا ادواراً مباشرة وهامة في الاحداث ولم يستثن من هذه القاعدة رجل دين او دنيا، بلدي ام اجنبي، صديق ام عدو، فباتوا جميعا تحت سقف قلمه. انه الباب الهام الذي انفرد فيه دون الاخرين لذلك نعتبر تقويمه تقويماً شخصياً لا يبنى عليه قبل التحقق من صحته من جهة ومقارنته بغيره من الاقلام العديدة التي وضعت هولاء تحت مجهر الرأي العام، مع ذلك نسوق بعض النماذج والامثلة والعينات امثال: ميشال سرسق، «صديق جمال باشا الخاص ومستودع اسراره، لا يخلّد له التاريخ فضلاً على بلاده»[(١)]، المير شكيب ارسلان، «القادر ان يعدّل الاحكام من سجن وابعاد واعدام». لقد اورد المؤلف حبشي رسالة بعث بها جمال باشا من القدس الى محمد رضا حاكم الجبل يقول:

(١) «لم يكن يفارق جمال باشا الا نادرا، وبالرغم مما كان عليه من المنزلة العالية والادلال على الحكومة ورئيسها... ولو لم يكن احتكر القمح زماناً، والاحتكار لا يجيزه العدل، لكان له شأن في صداقته وعلاقته بجمال باشا...» حبشي، ص. ١٨٨ ـ ١٨٩.

«قل للامير شكيب انه يستطيع ان يعيد من المنفى اخصامه ومريديه...»[(١)]. نجيب الاصفر، «يوسف مصر المسلط على الارض... باع اللبنانيين كل ما يقال له طعام»[(٢)]. عمر بك الداعوق، «اكبر المحسنين»[(٣)]. رشيد طليع،

(١) «لا تختلف الاقلام في ان هذا الرجل كان قادرا لو اراد ان يعدل احكام السجن والابعاد حتى احكام الاعدام التي كتبها جمال باشا نظرا الى صحبة الاثنين وادلال الود على القائد السفاح. ويثبت اكثر الذين اصيبوا ان نفس الامير ترتاح الى الاحكام الظالمة على مواطنيه، وهذا اذا صح منتهى اللؤم... وكلما انتحل له اصحابه عذرا، انتفضت الاقلام تورد الحجة اثر الحجة على بغضه لبلاد وانتقامه من بعض خصومه وايثاره مصلحته الخاصة على مصلحة وطنه... ان مبدأ المير انه يكره الفرنساويين والانكليز والعرب ولا يفضل امة على امة الترك لانها في عرفه اصلح شعب ولعله اكثر تعصبا للترك من الترك انفسهم...» حبشي، ص. ١٨٩.

(٢) «...لما جاع الشعب، صرخ الى فرعون لاجل الخبز، فقال فرعون للمصريين، انطلقوا الى يوسف فما يقله لكم اصنعوه، وقال علي منيف (والي الجبل) لكل اللبنانيين، انطلقوا الى نجيب، فقد خزن من البر ما يعادل رمل البحر...» كان نجيب هو المسلط على الارض، فجاء اخوته والمتنفذون والمحتكرون وبعض الاغنياء ليبتاعوا طعاما بل ليتجروا على ظهور المساكين، فلم يتنكر لهم وكم يكلمهم بجفاء عملا بارادة فرعون، ولم يقل لهم انتم لصوص انما جئتم لتقضوا على ابناء لبنان من طعام هو لكم وللشعوب من بعدكم...» حبشي، ص. ١٩٠- ١٩١.

(٣) «ان بين اخواننا المسلمين في بيروت رجالا اذا ذكر الاحسان عدوا من اكبر المحسنين وفي مقدمتهم اوجههم واحبهم الى الناس عمر بك الداعوق. صنعته تاجر، غني وصادق، يعرفه المسيحيون والمسلمون، يدير تجارته بحكمة ... تعّف الى عزمي بك ووثق به فعهد اليه فتح مطعم للفقراء ففعل بكثير من النزاهة والاستقامة فاستطاع عمر بفضل هذه الصفات ان يفتتح اثني عشر مطعما وستة مآوي...كما تولى فتح دور للصناعة عملن فيها ارامل ونساء فقيرات وعّين رئيسا لبلدية بيروت فرفض المنصب مرارا ولكنه قبل في النهاية وكان عادلا وحازما فاستطاع ان يحفظ مال ابناء بيروت الذين خسروا محالهم بسبب هدم بعض اسواق المدينة ورفض وثائق الدين لاصحابها واصّر على دفع التعويض بالليرة الذهبية وبلغ مجموع ما دفع من المصرف التركي زهاء مليون وثمانماية الف ليرة ذهبت الى مستحقيها. يسجل لعمر الداعوق رفضه شراء حرير لبنان بثلاثماية ليرة ورقا للبالة الواحدة لانه اقل من قيمته الحقيقية واعتذر من جمال باشا فاضطر هذا الاخير الى مصادرة الحرير ولم يؤخذ باعتراضه ولكنه استطاع افلات المئات من المجندين اللبنانيين. يذكر دائما بالخير لانه استحصل من السلطات التركية على ماية وثمانين قنطارا من القمح باعها بسبع وثلاثين قرشا للرطل مقابل ماية وخمسين مع المحتكرين والتجار فوردت عليه رسائل الثناء والشكر من رؤساء الطوائف ووجوهها...» حبشي، ص. ١٩١- ١٩٣.

«أبتكر فكرة النفي واوحى بها الى الى الوالي بكر سامي»، لم يكن له غير السعاية والنميمة على خصومه وخصوم مريديه»[1]. حبيب باشا السعد، «لم يسمع له صوت في بلادنا»[2] كان في المنفى. المير عادل ارسلان، شقيق شكيب «يعبد نفسه ولا فضل له في شيء»[3]. داوود عمون، «صادق اللبنانية»[4]. احمد مختار بيهم، «صاحب وجدان وضمير طيب»[5]. الشيخ

(١) متصرف طرابلس خلال الحرب «ابتكر النفي اللبناني الاولى الى بكر سامي على اثر اجتماع في بيت من آل العجم في طرابلس، فانتشرت الفكرة في البلاد فتواردت التقارير وانخرط في سلك الجواسيس الواشين كل نذل من اللبنانيين وجيرانهم...» حبشي، ص. ١٩٧.

(٢) نفاه جمال الى الاناضول ويروي قصة نفي حبيب باشا وملخصها ان جاء جمال باشا الى بيروت وكان عازما على ابعاده فتوسط له بكر سامي اولا ثم طلبه ثانية ووعده بان يكون مبعوثا عن لبنان فاعتذر، فاصّر السفاح وهدده علي منيف في منزل جورج بك تابت بسؤ العاقبة اذا بقي مصرا على الرفض، فنصح له اصحابه المسلمون والمسيحيون بالقبول فلم يرض، فابعده جمال باشا الى الاناضول وعاد من منفاه قبل نهاية الاحتلال بزمن قصير». حبشي، ص. ١٩٨ - ١٩٩.

(٣) «شقيق المير شكيب ونائب في البرلمان العثماني اثناء الحرب، أحب الترك لمصلحته ابان عزهم وأحب فيصلا والشريفيين لمصلحته إبّان عزهم، فهو يعبد نفسه ولا فضل له في شيء من الاشياء... يبغض فرنسا بغضا غريبا على ما ظهر من سياسته، ويتظاهر انه انكليزي المبدأ ولعله صادق. انه احد ابطال القمح المجربين الذين تشهد صوفر وعاليه على احتكارهم...» ولما وضعت الحرب اوزارها، لجأ الى الشريف فيصل وأخذ مع رفاقه الشريفيين يزينون لفيصل انه امير البلاد بحق الارث وان سوريا تترامى على اقدامه، وان فرنسا لا تستطيع عملا بدونه...» حبشي، ص. ٢٠١- ٢٠٢.

(٤) داوود عمون، صادق اللبنانية، فرنساوي الميل وفي نظرنا ان اللبناني يجب ان يكون فرنساويا لان مصلحة بلاده تقوم بهذا الاندماج، فمن أحب فرنسا أحب لبنان...» يعتبره حبشي «نابغة من نوابغ الحقوق والشعر، عصبي المزاج، متوقد الذهن، من اذكى اللبنانيين حتى لا نقول انه شعلة ذكاء، حكم عليه مجلس الترك بالاعدام لانه درس ماضيه فرآه ماضيا مجاهدا». حبشي، ص. ٢٠٢- ٢٠٣.

(٥) كان صاحب وجدان وضمير طيب، حاد الطبع، يتمسك برأيه، تولى رئاسة البلدية وأحد المطاعم فلم تتناول الوظيفتان عرضه بعيب، كان بين المسلمين شيخا جليلا يقول هذا معظم الذين خبروا اطواره واخلاقه وضميره ... وابناء قومه بعد موته يقولون: «رحمه الله». حبشي، ص. ٢٠٣.

كسروان، «كلامه نعم نعم او لا لا»[1]. المير حارث شهاب، «أخلص الخدمة للحكام الاتراك اكثر من سواه»[2]. نعوم اللبكي، «كاتب حساس ومفكر ثائر وصحافي نهّاض، جعل جريدته «المناظر» نشرة تورد عيوب الاتراك وتناهض سياستهم...»[3]. يشكل هولاء عينة من مئات العينات التي تناولها حبشي في مذكراته حول الحرب.

٣. ٣: النموذج الانساني الرسالولي: الخوري انطوان يمين.

طغت صفة الاب، الكاهن، الراعي، عالم الاجتماع، الانسان الممتلئ بالمشاعر والاحاسيس، المؤمن باحقية حقوق مواطنيه اللبنانيين؛ لم يعايش الاحداث مباشرة على الارض طيلة السنوات الاربع كاميل حبشي، بل عايش بعض فصولها مباشرة وبعضها الاخر غير مباشرة عندما أضطر للانتقال الى مصر والاقامة فيها مع رعيل واسع من الوطنيين والاستقلاليين. لقد جاءت نظرة يمين شاملة تجمع البعد الوطني بالوجع اللانساني فأغنى الموقع الاول

(١) «لبناني، فرنساوي لا غش فيه، يقل بيننا من هو أغير على الناس واكثر نشاطا منه... كان في كل ادوار حياته كبيراً في مرؤته، كبيراً في نفسه، لا يبخر ولا يميل الى الشر، معظم كلامه نعم نعم ولا لا ... رصين في مجلسه ومتماسك في حديثه، صاحب نظر في كل الامور، يحبه كل من عرفه حبا صحيحا مجرداً لانه في المنزلة الكبيرة من ادب الاخلاق... كان حاكما لقضاء البترون،ثم لقضاء المتن، الى ان اصبح متصرف لواء لبنان مع الفرنسيين، المكّون من المتن والشوف ودير القمر وكسروان ومركزه بعبدا...» حبشي، ص. ٢٠٤.

(٢) من نواب لبنان في مجلس الدولة العثمانية...اجلسوه هذا المجلس ولا نعرف اذا كان له من الكفاءة ما يخوله الجلوس في مثل هذا المجلس المسوؤل الذي يسن الشرائع ويعّدل الانظمة...» ولكنه استدرك «لم يكن انتخاب المبعوثين تحقيقا لرغبات الشعب بل هي مظهر من مظاهر عطف الاتراك...اما اسباب العطف فهي انه اخلص الخدمة لحكامنا الاتراك اكثر من سواه». حبشي، ص. ٢٠٥.

(٣) «طارده الاتراك، فلف رأسه بالكوفية، وشدّه بالعقال، وارسل لحيته وحمل بندقيته ولجأ الى كهوف الجبل ومغاوره، واكواخه واديرته متحجباً ومتوارياً... بقي ان نتوثق، اذا كان نعوم يحسن الرمي مثلما يجيد الانشاء لنشهد له بصحة الاستبدال بين البندقية والقلم». حبشي، ص. ٢١٨- ٢١٩.

بالحالات الانسانية المأسوية ببعديها الاجتماعي الاقتصادي اي الحياتي. كتب كثيرا عن مآسي اللبنانيين ومظالمهم، أولى الشأن الاجتماعي مرتبة الريادة فصوّر الحالة التعسة التي عاشها ابناء البلاد من جراء المجاعة الناجمة عن الاحتكار والحصار والمصادرة فضلاً عن نتائج الامراض والاوبئة والجراد والهواء الاصفر... تميز بصدق المشاعر وعمق المعاناة فرسم لوحات المآسي والظلم في بيروت والجبل. أنفرد الخوري يمين بنشر اجزاء واسعة من شهادته لما سمي نظام الرعب ونقل شهادات حية للمساجين والشهداء والمنفيين، كما تولى نشر رسائلهم الى ذويهم كما سهر على تدوين كلماتهم الاخيرة ووصاياهم وهم في طريقهم الى حبل المشنقة.

بنشر ما عرف بـ«نظام الرعب»، ينفرد الخوري يمين بذكر اسماء الذين حوكموا في الديوان العرفي في عاليه واسباب محكوميتهم؛ فقد توزع هولاء على مرحلتين:

* الاولى على دفعتين، تضم الدفعة الاولى اسم الخوري يوسف الحايك ومعاناة الايام الاخيرة قبل شنقه وطبيعة الاتهامات التي وّجهت اليه[1]. اما الدفعة الثانية فضمت اسماء احد عشر شهيداً حوكموا دفعة واحدة ودوّن كلماتهم وهم في طريقهم الى المشنقة ومنهم: عبد الكريم الخليل، صالح حيدر، محمد ومحمود المحمصاني، عبد القادر الحصري، نور الدين القاضي، مسلم عابدين، سليم عبد الهادي، محمود العجم ونايف تللو[2].

* الثانية ضمّت عمر مصطفى، محمد حسن الشنطي، عبد الغني منعم

(١) Yammine, op. cit. p.167.

(٢) ibid. p. 102. لقد اشترك ابرهيم كنعان بنشر هذه اللائحة من الدفعة الاولى دون ذكر اية معلومة عن الشهداء او اقوالهم الاخيرة او انفعالاتهم وحواراتهم مع بعضهم ومع جلاديهم كما الخوري يمين. كنعان، ص. ١١٩.

العريسي، عارف محمد سعيد الشهابي، توفيق احمد البساط، سيف الدين ابي النصر الخطيب، الشيخ احمد حسن طبارة، سعيد فاضل عقل، بترو باولي، جرجس موسى الحداد، سليم محمد سعيد الجزائري، علي محمد الحاج عمر، امين لطفي حافظ وجلال سليم البخاري.

أضاف الى هاتين اللائحتين، اسماء شهداء آخرين وملفات خاصة ببعض ممن شنق في بيروت او في الشام. نذكر ببعضها على سبيل المثال لا الحصر:

* اتهام وشنق يوسف بشارة الهاني الذي اوقف بسبب وشاية كاذبة وصلت الى آذان عزمي بك بانه عضو في جمعية الاصلاح وانه عنصر نشط يعمل للاستقلال واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان فتم احتجازه واكراهه على الاعتراف والتوقيع على ما نسب اليه من تهم تسهل محاكمته امام المجلس العرفي وتجيز الحكم عليه بالشنق.

* التوقيفات التي فاقت المئة بين ٢١ آب ١٩١٥ وبداية سنة ١٩١٦ ونشر مذكرات السجين رفيق رزق سلوم في ٣ نيسان ١٩١٦ وما تعرض له مع رفاقه من مظالم واضطهاد وعذابات واوجاع[1].

* اسماء الشهداء الذين علقوا في ساحة المرج في دمشق في السادس من ايار ١٩١٦ بالتزامن مع زملائهم في ساحة البرج في بيروت وقد خطبوا في المجتمعين امام حبل المشنقة بحماسة وهم عبد الحميد الزهراوي اول من نفذ بحقهم حكم الشنق، تلاه شفيق المحيّد، رشدي شمعة، شكري عسلي، عبد الوهاب الانكليزي، الامير عمر الجزائري ورفيق رزق سلوم.

(١) انها ايضا مذكرات تفصيلية بكل ما جرى مع رفاقه ومعه منذ التوقيف حتى صدور الاحكام من نفي وسجن وشنق، المرجع السابق ١١٣ ـ ١٣٣.

لم يغفل الخوري يمين قضية الشهيدين فيليب وفريد الخازن فأفرد لهما صفحات من كتابه مع مذكراتهما ورسائلهما الى الاهل والزوجة، كذلك رسم درب الجلجلة التي سار عليها نخلة مطران وما تعرض له من اهانات وعذابات واوجاع. ينهي هذه الصفحات المؤلمة بمذكرات خاصة لمتطوع بيروتي في الجيش التركي وما قاساه اثناء خدمته من مظالم وسؤ معاملة واحتقار.

ضمن اطار ما سماه «نظام الرعب» استعرض الخوري يمين حقيقة موقفه من «المسألة السورية»، فيتطرق الى تاريخ الحقبة الممتدة بين تموز ١٩٠٨ وبداية الحرب الكبرى والترويكا العثمانية: «أنور ـ طلعت ـ جمال» ومخططها التدميري لسوريا ولبنان بالقضاء على العنصر العربي جوعا ونفيا واضطهاداً واعداماً من خلال نظام حديدي يلغي كل المعارضين والانفصاليين والاستقلاليين. لقد نجح مخطط هولاء الجهنمي بتحويل هذه القرى العامرة سابقا الى بقاع ينبت فيها الموت ويعشعش البوم فأمتلأت الساحات والازقة بالجثث النتنة والاشباح المتضورة جوعا تعبث فيها الفئران والقطط والكلاب. نجح جمال باشا عبر عملائه وجواسيسه من الوصول الى بعض الوثائق الرسمية في القنصلية الفرنسية في بيروت فعين لهذه الغاية مجلسا عرفيا للمحكمات في عاليه محولا الاخصام السياسيين الى المشانق والمنفى والسجون، فهرب كثيرون الى الخارج تاركين عائلاتهم معرضة لكل اشكال الاخطار. انهى الخوري يمين كتابه بصفحات طويلة عما اسماه جمال باشا بـ«الكتاب الابيض» الذي وضعه لتبرير مجازره امام الرأي العام الاوروبي معتمدا الى ما اسماه الديوان العرفي «اعترافات المتهمين» وقد انتزعت منهم بالقوة والتهديد لا بل وضعت من قبل الجواسيس والعملاء فتبناها التحقيق واجبر المتهمين بالاقرار بها مزيلينها بتواقيعهم وهي بعيدة كل البعد عن الواقع والحقيقة[1].

(١) تحت عنوان الحقيقة حول المسألة السورية التي تولت القيادة في الجيش الرابع التركي بأمرة=

يعتبر ايضا كتاب الخوري يمين من اهم الوثائق العلنية المكشوفة امام المؤرخين والباحثين والطلاب للاطلاع على سجل العلاقات بين اللبنانيين والحلفاء عبر ما سمي «بالمتعاونين» خلال سني الحرب الاولى، مبينا ادوارهم ومهامهم في الداخل والخارج، ابرز هولاء: بشارة البواري (أحد مراجع بحثنا) مشيرا الى مذكراته التي نشرها في جريدة الهدى في نيويورك بعد نهاية الحرب مباشرة؛ حنا البواري شقيق بشارة، سمعان الراعي من العقيبة، جوزاف الياس كرم من الكفور، حبيب جوزاف البواري من جونية، فيليب ووديع الرجي، الخوري بولس عقل، ابراهيم كرم شقيق جوزاف، جوزاف لحود من عمشيت، نجيب روحانا سركيس من الكفور، المحامي نعوم باخوس، الياس روكز من طبرجا، فردينان وشقيقه شارل مسك، جان بيجاني، المطران جوزاف دريان، ابراهيم شهوان صفير، ميشال دحروج، جورج جوزاف نعيم، انطوان اده وايوب شباط.

= جمال باشا ونشرها في اسطنبول سنة ١٩١٦ والتي تبرر امام الرأي العام المحلي والتركي والعربي والعالمي اعمال الشنق والسجن والنفي لمئات الاشخاص بموجب احكام صدرت عن المجلس العرفي (العسكري) في عاليه الذي انشأ خصيصا لهذه المسألة ثم تولى سائر الحالات المشابهة. اورد الخوري يمين اهم العناوين التي تضمنها ما يعرف بالكتاب الابيض: المقدمة، المدخل، نبذة عن تاريخ هذه الجمعيات مرتبة كآلاتي: الاخاء العربي، المنتدى الادبي، الجمعية القحطانية، جمعية العهد، الجمعية الثورية العربية، النهضة اللبنانية، الاصلاحيون والجمعية الاصلاحية، اللامركزية، مداخلات الفرنسيين وبعض الانكليز. اما بحث اللامركزية فقد قسم الى: التأسيس، الاشتراك مع المخالفين، حول مؤتمر باريس، الاجتماع في بيت اسكندر عمون، التشكيلات، المناسبة مع مشايخ العشائر ورؤسائها، اللامركزية والاستقلال، التشبث بالمؤتمر اللبناني، الروابط الاخرى، التشبث بالاحتلال. يمين، ص. ٨١ ـ ١٥٧. (بالفرنسية). كما يشترك ابراهيم كنعان مع الخوري يمين بنشر هذا المنشور الذي اذاعه جمال باشا تحت عنوان «ايضاحات عن المسائل السياسية» التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل في عاليه وقد طبعت باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانكليزية. كنعان، ص. ٢٠٣ ـ ٣٣٨.

٤. النموذج التوثيقي الاولي: ابراهيم كنعان

انه الموثق المثقف اكثر منه المؤرخ او عالم الاجتماع او الصحافي او الكاتب. اهمية المرجع متدنية قياسا بالمراجع الثلاثة الاخرى كونه لم ينشر الا بعد مرور اكثر من خمسين سنة على الحرب الكبرى ولكن المؤلف يعتبر ان تدوين تلك الاحداث المتسلسلة متممة للتاريخ اللبناني طيلة مدة الحرب الكبرى مما دعاه الى اطلاق روايته سندا للوثائق والمستندات فضلا عن المقالات وبعض المنشورات في صحف تلك الايام مفسحا في المجال امام القراء لتقدير اهميتها وحرية تفسيرها وقبول ورفض ما يشاوؤن.

تكمن اهمية هذا المؤلف بانه انفرد بنشر النصوص الكاملة دون تعليق او تحريف متناولا كل الموضوعات المرتبطة بالحرب اكثر من المؤلفين الاخرين. نشر النصوص الممهدة للحرب والقرارات المباشرة التي اتخذتها السلطات العثمانية الى نقل مشاعر واحاسيس اللبنانيين ومعاناتهم وطريقة تصرفهم ازاء المستجدات من خلال القرارات والاجراءات الميدانية. ان ابرز ما قدمه كنعان هو مادة توثيقية هامة في مرجع واحد سبق ونشر في اكثر من صحيفة او منشور كما حال الايضاحات التي اذاعها جمال باشا وطالت الشهداء موثقا كل ما نشر سابقا تحت اسم «مضبطة الاتهام» التي اذاعها فريق جمال باشا لتبرير حكم الاعدام والنفي بحق الوطنيين اللبنانيين وقد تطرّق عبرهم الى ابرز الجمعيات الاستقلالية من لبنانية وعربية مقدما موجزاً عن تاريخها مع قراءة تركية خاصة لادانة مؤسسيها والمنضوين تحت لوائها والمؤيدين لطروحاتها وافكارها مع نشر كامل محاضر الاستجواب والشهادات...

بالمحصلة، ان اهمية لبنان في الحرب الكبرى لابراهيم كنعان مقبولة كمادة توثيقية جامعة، لبعضها اهمية متقدمة على البعض الاخر، فما سبق اندلاع الحرب او ما سمي بالتمهيد لها ووصول اول مفرزة عسكرية تركية الى

لبنان بحدود السبعين موضوعا وماية وثلاثين صفحة يعتبر كمقدمة ممهدة لوضع اليد على البلاد بهدف الاحتلال العسكري...اما القسم الثاني المهم من الوثائق وهي بحدود الاربعين موضوعا (من ٧١ الى ١٠٧) وما بين ١٣٠ ـ ٢٠٠ صفحة؛ فيها يورد اخبارا عسكرية وينشر اعمالا ادارية ويرسم صور المجاعة والبؤس والامراض وآفاتها واسماء الشهداء واوامر الاعدام. اما القسم الثالث والاخير وهو القسم التوثيقي بامتياز كونه ينشر وثائق علنية منشورة من آخرين ولكنه وضعها في اطار علمي وتفصيلي وتتناول ايضاحات حول المسائل السياسية ومزاعم جمال باشا لاعدام اللبنانيين والسوريين ضمن عشرين موضوعا تقريبا (١٠٨ ـ ١٢٥) ومن صفحة ٢٠٠ الى ٣٣٨. تناول القسم الاخير موضوعات متنوعة (١٢٦ ـ ١٨٣) ومن صفحة ٣٣٨ الى ٣٨٩ وتتوزع بين الاجارية والاقتصادية والاجتماعية الى المظالم وتعليق حبل المشانق وتضاعف حركات النفي والعلاقة المتوترة بين البطريرك الماروني وجمال باشا الى هزيمة الاتراك ودخول قوات الحلفاء الى لبنان وبداية عهد الانتداب الفرنسي.

خاتمة. اثر المآسي والويلات على مستقبل اللبنانيين وبخاصة مواقفهم من استحقاق اعلان «لبنان الكبير»

انتهت الحرب العالمية الاولى وبقيت مآسيها عالقة في اذهان اللبنانيين وعقولهم فكان لها الاثر الاول والاكبر في المرحلة اللاحقة. لقد اشتبكت اراء المواطنين بين لبنان صغير لا يتجاوز حدود المتصرفية وآخر كبير بحدوده التاريخية وفقا لخريطة البعثة الفرنسية لعام ١٨٦٠ وثالث لا يعطي اهمية لحجم لبنان وحدوده بل لطبيعة نظامه فيقول بالاتحادي او الكونفدرالي مع محيطه المباشر وبين استقلال ذاتي او استقلال ناجز تام وبين وصاية خارجية قريبة او بعيدة...هذه الاتجاهات المتباينة كانت موضع نقاش وتباين وشد

حبال وتقديم حجج وتوفير ادلة وبيانات وتوقيع عرائض مؤيدة او معارضة وحشد الطاقات لانجاح مشروع وافشال أخر. . .جرى ذلك بين نهاية الحرب وتشريع الانتداب واعلان لبنان الكبير في الاول من ايلول ١٩٢٠. كان للتيار الذي يقوده البطريرك الماروني الياس الحويك الكلمة الراجحة والاكثر فعالية وقد انطلقت من صور المآسي التي تسببت بها الحرب وبخاصة من ضيق المجال الجغرافي الطبيعي ومخلفات الحصار وفعاليته.

جزين في الحرب العالمية الأولى: الجراد والمجاعة والضائقة الحياتية

أ.د. الياس القطّار

تعالج هذه المداخلة موضوعي الجراد والمجاعة في منطقة جزين من خلال شهود عيان ووثائق محليّة عايشت هذه المرحلة وكانت في خضمّ هذه المأساة التي عرفها، خاصة الجبل اللبناني، من ضمن مجموعة مآسي عصفت بلبنان إبان الحرب العالمية الأولى في ظلّ حكم جمال باشا الملقب بـ «السفاح».

في سنة ١٩١٥ دخل جزين مفرزة عسكرية من الجيش العثماني، أكثر أنفارها من حمص وحماه، بقيادة الضابط مرسل بك. وبقيت في جزين بسراي الحكومة وفي أقبية كنيسة مار يوسف مدة طويلة. وكلّ مدة وجودها كان الأهالي راضين عنها نظراً لحسن سلوك أفرادها[١]. وبذات الوقت في ١٩١٥، زار جمال باشا جزين ومعه رضا باشا والأمير شكيب أرسلان، وتناولوا الغداء في دار داود رحيّم، لأن زوجته خولا كانت مديرة جمعية الهلال الأحمر بقضاء جزين في الحرب[٢].

وحلّ جمال باشا ضيفا في بلدة بكاسين، في قضاء جزين على الوجيهين الأخوين ملحم بك الخوري مارون وأخيه إسكندر. وفرش المذكوران للباشا

(١) سعيد رزق، **تاريخ جزين وأسرها**، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٥٣، ص ٥٢.
(٢) رزق، جزين، ص ٥٢.

السجاد مسافة خمسين متراً خارج دارتهما الكائنة بمحلة الضهر في بكاسين. وعندما علم الأهالي بوصوله حاول أحد «الطايحين» ويدعى راشد أبي راشد من بلدة نيحا في قضاء الشوف اغتياله، فأجهضت المحاولة زوجة ملحم[1].

كما زار جزين المتصرف إسماعيل حقي في أواخر شهر تموز ١٩١٧، فأقام القومسيون البلدي على شرفه مأدبة عشاء، وأقام له الزينات. وبلغت تكاليف ذلك ١٠٩٩ قرشاً[2]. أي عشرين مرة ما سينفقه على الهاربين من الجوع إلى سهل البقاع، كما سنذكر.

وتحفظ لنا سجلات التلغراف تهنئة من القومسيون لدولة جمال باشا أرسلها في ٤ آذار سنة ١٩١٨، ولكنه لم يذكر السبب، الذي من المرجّح أن يكون الصلح بين روسيا والدولة العثمانية، بعد انسحاب الأولى من الحرب، وقد جرت، في اليوم التالي، حفلة بالمناسبة من قبل القومسيون[3].

ويذكر سعيد رزق، من جزين، في كتابه عنها، أن القائمقام في جزين كان يدعى بشير بك السعداوي الذي عرف بحسن أعماله لأنه جعل في جزين سوقاً لبيع الغلال ومستودعاً للحبوب[4]. وهذا الكلام ينقضه الشاعر بولس سلامه كما سنرى.

أولاً ـ الجراد:

كان الشاعر والأديب بولس سلامه، ابن بتدين اللقش، وهي بلدة في قضاء جزين، بعمر الثانية عشرة عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في

(١) فريد حنينه، **بكاسين**، دار كتابات، بيروت ١٩٩٩، ص ٢٠٣.
(٢) غسان رحّال، **بلدية جزين في عهد المتصرفية (١٨٨٠ ـ ١٩١٩)** رسالة ماجيستير بإشراف د. إلياس القطّار، الجامعة اللبنانيّة ـ كلية الآداب، الفنار ١٩٨٣، ص ١٤١، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ١٤٦، ص ٣٤ وعدد ١٥٥، ص ٣٦.
(٣) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٤٠، سجل رقم ٤، عدد ٤، ص ٤٤ وعدد ٥ و٦، ص ٤٤.
(٤) رزق، المرجع المذكور، ص ٥٤.

١٩١٤. وهو يصف ما عاشه وخبره في كتاب مذكراته الذي يحمل عنوان: «حكاية عمر»، وفي كتاب آخر له هو «تحت السنديانة»[1].

يخبر بولس سلامه أن مدرسة «الأخوة المريميين» في صيدا أقفلت قبل بدء العام الدراسي في خريف ١٩١٤. وما إن أقبل الربيع في ١٩١٥، حتى أقبلت معه أرتال الجراد الذي رعى مزروعات أهل القرية، بتدين اللقش، ولم تنفع محاولاتهم بالقضاء عليه بالوسائل البدائية: جمع البذار، الحرق وتغطية الخضار. ولم ينج منه سوى أشجار الصنوبر والزنزلخت والدفلى[2].

دخل الجراد إلى بتدين اللقش في أول ربيع ١٩١٥. وكانت مكافحته تتم بقرع الصواني النحاسية وإحراق وطمر ما تجمّع منه. قشر الأشجار حتى اللحاء، وعادت الغياض الخمائل والكروم والبساتين التوت عارية، وكأنها في مناحة. ويتذكر بولس سلامه أنه في يوم شامس من أوائل أيار، وقع الجراد على الأرض فغطاها بمقدار شبر، فران على الحجر والمدر جميعاً، وأنتنت منه الينابيع والسواقي، وتكاثفت أرجاله في الجو فإين منها قطع الغمام. وأشهد أنه كسف الشمس كسوفاً جزئياً في مدى ساعتين، واستحال الشعاع على أغبر قاتم. ولو اكتفى ذلك الضيف الثقيل بالعبور لهانت الكارثة، فلقد استطاب المناخ وغرز في الأرض وباض وفرّخ[3].

وحاول الشاعر وأترابه إحصاء بيض الأنثى، وهو في اجتماعه وتلاصقه أشبه شيء بعرناس الذرة، فوجدوا المعدل المتوسط لنتاج الإناث الغوارز يراوح بين الثمانين والمئة. ونقف البيض في مستهل الصيف وانفرج عن الدبى (أصغر الجراد والواحدة دباة). ويكون الدبى أصفر اللون عند خروجه إلى النور، ثمّ يخبّر، فإذا شبّ نبت جناحاه وغدا أحمراً لامعاً، فإذا اكتمل أصبح أصفر ذهبياً، وكانت الأرض التي لحس الجراد نباتها فمحاه، تتبدّل

(١) بولس سلامه، **المجموعة الكاملة**، **حكاية عمر**، بيروت ١٩٨٩؛ **تحت السنديانة**، ١٩٨٩.
(٢) سلامه، حكاية عمر، ص ٣٧.
(٣) سلامه، حكاية عمر، ص ٣٧ ـ ٣٨. تحت السنديانة، ص ١٣٢.

ألوانها تبعاً لهذه البسط الجرادية المورّارة. والدبى أول ما يطلع يكون زحافا، فلا يعترضه حاجز إلاّ الماء العباب.

وكانت أول ما انفتحت عليه قريحة بولس سلامه في النظم بضع محاولات زجلية في الشكوى من الجراد، وله من العمر ثلاثة عشر حولا غير كاملة[1].

وقد نظم بوتامر يوسف خليل عقل، كشاهد عيان، إثر فاجعة الجراد، قصيدة جميلة تصف هذه الآفة الكارثية، كانت ذائعة الصيت في إقليم جزين فيما مضى، وهي تعطي وصفاً حيّاً للجراد صاغه الناظم بطريقة حوارية وفكاهية حسنة[2]، نقتطف منها بعض المقاطع يقول فيها:

وصف وصول الجراد:

بأول هلّة نوار[3]   أجانا جراد الطيار
لو أول ما لو تاني   بحر وما نعرفلو قرار
لو أولما لو تاني   من قبلي جايي شمالي
الساحل والجبل تالي   من يافا لبلاد عكار
من بلاد عكا ليافا   زروع اللقيسي[4] هافا
وخمس سنين تاني خمسة عشر   أجانا جراد من نجد العيديي
وصل للقدس وحول صوب يافا   وعاد امتد صوب القاسميي
بست أيام طاف الأرض كلّها   من حوران لحدّ اللادقيي

(١) سلامه، حكاية عمر، ص ٣٨. تحت السنديانة، ص ١٣٢.
(٢) القصيدة (من ٩ صفحات بخط اليد) محفوظة في منزل أحفاد المذكور، وقد أطلعني عليها، مشكوراً، الأستاذ عبدالله عقل.
(٣) أيار.
(٤) الزروع المتأخرة.

وصف حلول الجراد على الأرض وتفقيسه:

وإذا حطّ على الأرض ملاها   وإذا طار كسف المضيي
أصفر اللون من الشوفي وعبني   وزلمو زغار ولكن حربجيي
أرض الوافقتهو غرزها   بس تكون عا المشلول طريي
بس تكون عا المشلول سرحه   مكّوم عا الأرض مفلوش طرحا
قلنا راح وعملنا فرحا   حاطط ودع بدل الطاق ميي
حاطط ودعنا بالأراضي   قلنا راح وصار البال فاضي
وتاري بعدها ضربة القاضي   وبالزحاف بتكون الأذيي
وبالزحاف بتكون المصيبي   وأكل رزقنا يا ناس غصيبي
فقس بالرميلي والقصيبي   وكدّ وجدّ بسهل الغزيي[1]
وعا بساتين صيدا مال ليلي   وخلّى شجارها كلّها عريي
على عا شجارها ومرشق ورقها   وليل نهار ما عاود فارقها
جردها منسوب أرض اللي مرقها   وما خلّى ولا عشبي طريي

وصف مكافحة الجراد في بلدة بتدين اللقش

قرادي

لا تقولوا ما نشيناش   ونحن قللنا مروي
ثمانمائة حملي عملنا قشاش   وجاهدنا فوق القوي
الفين أقه جراد حواش   دبيناهم بالهوّي
قال الضابط ما برضاش   جبلي علم من المختار

(١) الرميله والقصيبي قرى من الشوف. والغزيي لربما بلدة الغازية.

من الشيخ روح جبلي ختومي ... تا علملك عا الورقه
يما مشوّ عا الحكومي ... أما برسل الفرقا
أهل الضيعا ملزومي ... بالحواش وبالتنسق
هيدي عليكم مكرومي ... تحرقوا الزحاف بالنار
تحرقوا الزحاف بوقيد ... أما فتحولوا خلجان
ناس منكم تنزل عا تعيد[1] ... وناس تقشلوا بلان
مش راح بخلي خضورا ... بديرة عرب بستان
لا ملولي ولا حورا ... غير الخروبي والغار
أكل الغار وأكل الخروب ... ها مش مأكولي يا فلان
بكره طعمتهم منوب ... الزنزلختي والريحان
وبعشرين تموز مطلوب ... وراحل من عرب بستان
ما بخليش تمار منوب ... غير كروز الصنوبر

وصف مكافحة الجراد في بلدة جزين وغزوه للسرايا الحكومي:

لاقوا الزحاف للمعبور ... الطالع من أرض بكاسين
كانوا مجتمعين طابور ... ثمانماية وخمسة وتسعين
بقيوا ينشوّا للفطور ... حتى كلّوا كبار وصغار
كبار وصغار حتى كلّوا ... يردوا الزحاف عا الوادي
بأربع ساعات انحلوا ... وما عاد لهم جلادي
ساعتها الشباب فلّوا ... بحيث ما معهم زوادي

(١) بلدة في قضاء جزين في أسفل بلدة بتدين اللقش.

والشيخ راح لبيك ... قلّوا الزحاف وصل للديار
الزحاف وصل للشالوف[1] ... بعد أن كحّل الوادي
خلالهن وجهم مكسوف ... وطلع كعم الارادي
بقي ماشي صفوف ألوف ... ودخل دار السعادي[2]
بجراعه من دون خوف ... زنرها داير مندار
طلع عا راس السروي ... وقرقش اذنين البواب
تعمشق بزيال الفروي ... للمير حارس ابن شهاب
لا يخاف من صاحب ثروة ... ومن مير وسلطان يهاب
الزحاف طلع عا جزين ... قصدو حتى يأذيها
أكل العريش والتين ... وما خلاّ أخضر فيها
أنحس من سنة الستين[3] ... أو تعبت أهاليها
يا مساكين يا فلاحين ... ما استعوضوش البذار

الجراد لا يفرق بين غني وبين فقير:

قطع عا عمرة داود[4] ... وقال ها العمره منظومي
واستحسن فيها يقعد ... وخمنها دار حكومي
بالشام مثلها مش موجود ... وأعلى من برج التومي[5]
قبابيط الزحاف قرود ... فاتو من تحت السيار

(١) الشالوف هو المصطلح المعتمد في جزين للدلالة على الشلال.
(٢) سراي الحكومة.
(٣) ١٨٦٠ التي جرت فيها مذابح دامية.
(٤) عمارة داود رحيّم، وكانت ولا تزال من العماير الجميلة في جزين وصاحبها من كبار المرابين الأغنياء.
(٥) تومات جزين.

داود ركض لبشاره   قلو أعطيني الشمسيات
الزحاف وصل للحارة   وراح بياكلي التوتات
قلو بشاره ركوض غاره   ودير بالك للزريعات
لا تخاف من الخساره   بحيث المصريات كتار
اشترى ثلاثماية شمسيه   وحق الشمسيه عشرين
صرخ اركضوا ليي   اسعفوني يا أهل جزين
استكرى ميي غربيي   وثلاثين من بتدين
تسعه من الكراميه   وعشره من بيت القطّار[1]
قلو يخرب عمرك يا زحاف   ما عمري خمنتك هيك
لا بتفزع ولا بتخاف   لا من آغا ولا من بيك
قلو يا رحيم وقاف   معست الزحاف بجريك
أنفقد مني ثمان آلاف   خمسه كبار وتلاتي صغار

أنتشار الجراد في جبل لبنان:

الزحاف كان فاقس قسمين   وناس بيقولوا تلاتي
تالي الوادي عا الجنبين   من باتر لبنواتي[2]
صارع العالم شهرين   مثل كون الزناتي[3]
من المتين لوادي التيم   كانه نبع وفوار

(١) بتدين يعني بتدين اللقش. والكراميه يعني عائلة كرم. والعائلة الثانية من آل القطّار.
(٢) باتر هي أول قرية من جهة الشوف. وبنواتي قرية بعد بكاسين.
(٣) كون الزناتي، هي القصة الشعبية عن حروب عائلة الزناتي في تغريبة بني هلال.

أكل الساحل والجرد   وما خلا للعالم قوت
بعزق الغلي بالقرد   وتلتين العالم بتموت

مساعدة فورد الأميركي للمحتاجين:

قالولي الخواجا فورد   جاب مصاري لبيروت
شياب وشباب ومرد   بيدعولو بطول الأعمار

جزين بعيد الجراد:

بتمرق على إقليم جزين   باول الصيفيي
كأنه شهر كوانين   بين شهور الفيضي
مرشق العريش والتين   وريحة الميي جيي
لا في كوسا ولا لقطين   ولا في لوبي ولا في خيار

مساعدة دير مشموشة للمحتاجين:

ولا ننسى دير مشموشي[1]   الفرق وقت الحرب حسان
لصباح ومشموشي   لبتدين والحرف وللميدان
من جزين لمغدوشي   يطعموا كلّ مين جيعان
دوم ها الصالو مفروشي   ناس تدخل وناس تضهر

المؤلف يعرّف بنفسه:

القابل يوسف بونادر   لا بيكتب ولا بيقرا
حاكي متل ما صاير   وصنعتوا فلاح نشّار

(١) دير سيدة مشموشه.

صنعتو نشار فلاح — وقاطن بارض بتدين

قاعد ببيتو مرتاح — ببتدين بقليم جزين

القابل ها القرادي — يوسف بن خليل مخول

من عيلة العقلية[1] — حاكيها على الأصول

ثانياً ـ المجاعة والضائقة المادية والأمراض:

طغت موجة الإرهاب، ولفحت ريح الموت فما نجا من ضحاياها دسكرة ولا حاضرة، وأعرض الناس عن كلّ شيء سوى الأكل والاهتمام بمدافعة شبح الجوع، وما يرافقه من الأوبئة وانتشار الحشرات ناقلات الجراثيم كالقمل وما شاكله، ولم يبقَ للناس من حديث سوى الخبز والسعي وراء الرغيف[2].

كان يوسف الجرو سلامه، والد الشاعر، إلى جانب ما كان يتمتع به من قوة بدنية شبه أسطورية، تاجراً لبزر الحرير والفيالج، وشخصاً متميزاً ببُعد النظر، فتراءى له أن الحرب طويلة فتشاءم وكان يبصر أهل القرية بالمستقبل المظلم ويقول اقتصدوا في النفقة، واحتفظوا بأحذيتكم وثيابكم العتيقة، فربما أتى عليكم يوم تحتاجون فيه إلى السمال التي تطرحونها اليوم. وقد تنبّأ بأنّ الحبوب ستندر في لبنان وسيقبل الناس على إلتقاطها من روث الحيوان بعد أن ينافسوا البهائم في رعاية العشب، فأدخر من الحنطة والذرة مقداراً كبيراً، فكان ينصح الأهالي بإدخار الثياب والأحذية والأرز والسكر والكاز وكلّ ما يأتي من الغرب لأن البحر سيقفل. والتزم سواد غابات الصنوبر في قضاء

(١) عائلة عقل.
(٢) سلامه، حكاية عمر، ص ٤١.

جزين، على أن يجني ثمارها ويدفع للعمّال والعاملات في مقابل أجورهم حبوباً يختارونها من أسهل الطُرق[1].

كانت القرية زاهرة بفضل المغتربين يمدّون أهلهم بالمال، فضلاً عن غلّة موسم القزّ والكروم والبقول. فلا فقير مدقع ولا غني مترف[2].

وكان في القرية شيخ أمي لا يعرف شؤون السياسة والحكومة إلاّ الدركي يأتي بين الفينة والفينة. وكان له نسيب في الولايات المتحدة بعث إليه برسالة طعن فيها بالحكومة الهمايونية المهترئة فسيق المُرسل إليه إلى الديوان العرفي بعاليه وحكم عليه بالسجن سنة[3].

وفي جملة الضرائب التي فرضها على الأهلين جمال باشا أكياس القنب والتنك الفارغ، فسألنا عن وجه الحكمة من تلك الشحادة، فقيل إنها للحملة على قناة السويس، فتملأ الأكياس والتنك بالرمل وتقوم حصوناً ومتاريس بوجه الإنكليز. فقال شيخ الصلح[4] إنّ هذه الدولة الرملية التنكية مشرفة على الموت. قالها بمسمع الدركيين اللبنانيين، وهما مِن ضواحينا، فلا خوف من المجلس العرفي ولا من المشنقة[5].

وبسبب إنهماك أوروبا في الحرب كان معظم بزر الحرير يستخرج في لبنان. فلقد كان اللبنانيون يستحصلون في السابق على البزر الفرنسي الصادر عن جبال «الفار» Var المفحوص على طريقة باستور، ولقد استغنى اللبناني عن البزر الأجنبي متبعاً في الفحص طريقة باستور، فنشأ في بعض القُرى الكسروانية والمتنية مبازر. ولما فقد البزر الأوروبي في أثناء الحرب الكونية،

(١) سلامه، **حكاية عمر**، بيروت ١٩٦١، ص ٤٢. تحت السنديانة، ص ١٢٤ ـ ١٣٨.
(٢) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٢٤.
(٣) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٢٥.
(٤) الشيخ حبيب حنا القطّار جد الشاعر لأمه وجدّ والدي لأمه أيضاً وأمي لأبيها.
(٥) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٢٩.

استطاعت المبازر اللبنانية سدّ الفراغ، وأنشأ والد الشاعر واحداً في قبو المنزل، وكانت تجارته تمتد من ساحل صيدا إلى جبل عاملة إلى البقاع فالشوف[1]. وقد ساعد هذا الواقع والد الشاعر في إدخار ثروة كبيرة من الليرات الذهبية سمحت له بشراء مساحات كبيرة من القرية بتدين اللقش ونصف قرية صيدون وأحراشاً في حيداب وسنيا[2].

واشتدّ الضنك على أهل القرية فهجرها نصف سكانها، وكانوا يلتمسون الرزق حيث تكثر الحبوب فيقصدون حوران والبقاع حيث مات منهم عدد غير يسير. ومنهم من كانوا يعودون من حوران، أي يجتازون ثلاثمائة كلم، حاملين على ظهورهم بضعة أرطال من قمح أو شعير، أو ذرة فيتصدّى لهم الخفراء ويسلبونهم إياها في الطريق إنفاذاً لنظام منع التصدير إلى لبنان، ومن النساء من كانت تحمل على رأسها جراباً، أو كيس حبوب، من منطقة الحولة في فلسطين إلى هذه القرية، فينفد بعد أيام. ومنهم من كانوا يحملون على ظهورهم قشر الصنوبر أو الأرز إلى الدبّاغات في مشغرة فيعودون في المساء، أو يكسرون الليل إلى اليوم التالي ويرجعون حاملين قليلاً من الطحين أو القطاني ليسدّوا بها غائلة الجوع[3].

ولقد ذاق كثير من البيوت اللبنانية الثرية خبز الشعير ولو أنكروا ذلك بدليل أنهم أكلوا ولم ينهقوا. أما العجزة فكانوا يطوفون في ضواحي هذه القرية فيأكلون العشب نيئاً أو يجتلبون الهندباء والقرصعنة أو البلوط فيسلقون ويشوون، ولكن الخبز، أين الخبز؟ فلا تمرّ عليهم بضعة أيام حتى تتورم أجسامهم ثم يموتون، وغصّت مقبرة القرية بالجثث فتحول الأهالي عنها إلى جبانة قديمة، فلما إكتظت هذه أيضاً صاروا يدفنون كيفما اتفق[4].

(١) سلامه، حكاية عمر، ص ٤٧. تحت السنديانة، ص ٧٣.
(٢) المعلومات مستقاة من والدي داود القطار الذي وُلِد في عام ١٩١٥.
(٣) سلامه، تحت السنديانة، بيروت ١٩٦٨، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٤) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٣٩.

في أوائل سنة ١٩١٧ تفاقمت العوادي، فأظلمت القلوب والبيوت لانقطاع زيت الكاز فاستعيض عنه بزيت الزيتون. ثم عدل عنه إلى اللقش وهو ميسور في ضواحي البلدة فكان الأهالي يستنيرون به ولو اسودت الجدران والسقوف فغطتها طبقة من السناخ صفيقة[1].

ولقد سدّت النعال المشغرانية فراغاً كبيراً، بيد أنه لم يكن بمقدور الفقراء شراؤها، لذلك فتقت الحاجة الحيلة، وعمد الناس إلى الخشب يقتطعونه وينتعلونه، وخيره خشب الدلب. أما العراة فمنهم من كان يلتف بجلد غنم يستر به عورته، ومنهم من كان يكتسي بلحاف عتيق[2].

ورأت الحكومة أن تعمد إلى التقنين فأولت القائمقام، الإشراف على توزيع الحنطة. وكان في هذه الكورة وجيه لم يدّخر في استرضاء القائمقام وسيلة من وسائل الزلفى مهما قذرت، فاستحكمت بينهما أواصر الصداقة فاستغله أقبح استغلال، فكان الرمل يجلب في الليالي الدوامس، فتسرق الحنطة ويحلّ الرمل محلّ المسروق. ولقد أثرى ذلك الوجيه من مال الفقراء، ولكنّ ثروته زالت بعد حين كما زال الجاه وصاحبه. ولقد إلتف حول هذا القائمقام بطانة من المتملقين طمعاً بالقمح. فمنهم العازف بالعود وكان القائمقام يهتزّ للطرب، ومنهم الذي ينشد بين يديه الشعر فيجزل له العطاء لسببين: أولهما أن الناظم يجهل الشعر وثانيهما أن الممدوح لا يفهمه[3].

كما أصيب الناس بحمى التيفوئيد المؤذية جداً. وقد استفاد الأهالي من بيع ثمار الصنوبر، عمالاً أو بائعين لمواسمهم، لدرء حاجتهم للمال... ومع أنّ الحرب قد فتكت بأعداد كبيرة في بتدين، فلا تشهد على ذلك سجلات

(١) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٣٩.
(٢) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٣) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٤٠.

العماد والوفيات العائدة للبلدة. لأن غالبية من رحل بحثاً عن لقمة العيش، قضى على ما يبدو، حيث رحل، ويُقال أنّ شخصان فقط قضيا بسبب الجوع، أما الباقون الذين يتحدث عنهم بولس سلامه، فنرجح أنهم ماتوا بالحمى وبفقدان المناعة الغذائية.

كانت سنة الجراد هي الأقسى على ما يبدو، إذ قد استفاد بعض الذين يقيمون حسابات في حياتهم من إدخار القمح، حتى إذا ما ولّى الجراد، تاركاً وراءه سماداً غنياً جداً، عمدوا إلى زرع القمح الذي جاء موسمه أكبر بكثير من التوقعات، وبذلك تمكنوا من الاستمرار في الحياة مع أولادهم برغم بكلّ ما أتينا على ذكره[1].

وأثناء حكم السفاح جاء خيالان إلى منزل شيخ الصلح فأطلقا جواديهما في الجنينة يدوسان البقول ويقضمان البراعم. ثم دخلا البيت وانطرحا على الدشك كما ينطرح الثيران في الحظيرة. وتناول أحدهما ـ وكان برتبة أونباشي ـ الإبريق وأطبق شفتيه على البلبلة وطفق يمصّ ويمجّ... وبعد ما تمطّى غير قليل فرض العشاء ديكين مقليين وطنجرة كشك بقورمه[2]. ولقد عوضا على الشيخ في الصباح بأن أقطعاه ما لا يحصى من القمل الأبيض المذنّب، وكان القمل عهدئذ أسرع الطُرق لنقل حمى التيفوس التي تفتك ولا ترحم.

وبقيت المجاعة وذكر الحرب الأولى وجمال باشا في ذاكرة الشاعر بولس سلامه فعبّر عنها لاحقاً في ملحمته الشعرية «عيد الغدير» نستقي منها هذه الأبيات عن الجوع:

(١) المعلومات مستقاة من جدي، جرجس داود القطّار الذي خبر هذه المأساة وكان من رواة الأخبار الجيدين.
(٢) سلامه، تحت السنديانة، ص ١٣٠.

حاكم الظلم، يسلب القوت منا   ليغذي بخبزنا (الإلمان)
الطواحين أصفرت من حبوب   فعلى نفسها تدور رحانا
وعلى نفسها تدور عيون   هائمات تطارد الرغفانا
ناتئات تكاد، من شدة الجوع   المآقي تفارق الأجفانا
زائغات، وما أصابت مداما   ما أصابت إلاّ حشالا زؤانا
حيثما تكثر المزابل تلقى   جائعات تدافع الغرثانا
تجلب الجوع القمامة،   كالأجياف في القفر، تجذب الغربانا

بسبب العجز الذي أصيب به الناس كان للقومسيون البلدي في مدينة جزين دور لا يستهان في حلّ بعض الحالات. فقد قدّم القومسيون لأحدهم بدل تعطيل دكانه وخانه بسبب وقوع الكوليرا، بنفس الخان، مما حمل الحكومة على فرض الحجر الصحي عليه، فصرف القومسيون ١٥٠ قرشاً لمساعدته[1].

ومن طرائف الأمور أن بعض الناس لجأوا إلى السجن وفضلوه على منزلهم علّهم يرتزقون فيه من لقمة عيش، وهذا ما حد بالقومسيون البلدي في جزين لصرف ٤٠ قرشاً ثمن رطل خبز لرجل فقير وجد في الحبس من دون معين فدفع المبلغ إلى مأمور السجن وأخذ أمين الصندوق وصلا بذلك في ١٢ تموز سنة ٣٣٣[2].

لجأ العديد من فقراء منطقة جزين إلى جزين بعدما تعرضت محاصيلهم من القمح للقحط. ونظراً لأن التلال والجبال المحيطة بها تقاوم جفاف الصيف أكثر لذلك كان الموسم إلى حد ما أفضل، فقرر القومسيون أن لا يلجأ الناس إلى السجن، بل وضع بتصرفهم منزلاً يبعد عن المنازل التي

(١) رحّال، ص ١٣٦ نقلاً من سجلات بلدية جزين، سجل رقم ٤، عدد ٦٠، ص ١٣.
(٢) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٣٦، سجل رقم ٤، عدد ١٤٣، ص ٣٤.

كانت عرضة للأمراض. وعندما تبيّن لهؤلاء أن وضع أهل جزين لم يكن أفضل، قصد النساء والأولاد سهل البقاع للعمل في الحصاد، فعمد القومسيون إلى تأمين مبلغ من المال بلغ ٦٧٥ قرشاً لسدّ عوز المنتقلين إلى البقاع، كثمن خبز، كما صرف لكل منهم مبلغ خمسة قروش تكون له ذخراً في الحالات الصعبة[١].

قدّم القومسيون حتى مساعدات للعثمانيين، للهلال الأحمر ٢٠٠٠ قرش وللأسطول العثماني ٨٠٠٠ قرش وإعانات للجنود العثمانيين ثمن مأكل ومشرب لهم ولخيلهم أثناء إقامتهم في البلدة لإصلاح الهاتف[٢]. كما ساهم القومسيون بمساعدة الجنود المصابين الذين كانوا ينقلون من جزين إلى عماطور[٣].

وقبل أربعة أيام من رحيل الجيوش العثمانية عن لبنان حضرت إلى جزين في ٢٦ أيلول مفرزة عسكرية قدّم لها القومسيون المعيشة[٤].

وداود رحيم المذكور، الذي خصته القصيدة الزجلية بأبيات منها، كان من كبار الأثرياء في جزين إلى درجة أنّه كان يتندر أمام زوجته والناس أنه لو طحن أمواله دقيقاً لما جاع هو وعائلته مطلقاً. وأثناء الحرب كثر شحّ المال في يد أهالي جزين فعمدوا إلى الإستدانة منه، فهبطت القيمة الشرائية للعملة التركية إلى درجة كارثية، كما نعرف، وكان ما استرجعه لا يكفي لسدّ رمقه، فافتقر كما افتقر العديد من اللبنانيين بسبب فرق سعر صرف الليرة.

---

(١) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٣٧، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ١٢٤، ص ٩٨.
(٢) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٣٧، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ٤٧، ص ٣٥ وعدد ٨٥، ص ١٨.
(٣) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٣٧، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ٢٢، ص ٥.
(٤) رحّال، رحّال، المرجع نفسه، ص ١٤٣.

عمل القومسيون في الحرب على منع الاحتكار فتقرر منع بيع الحنطة قطعياً إلى الغرباء عن البلدة وإلى محتكري الحبوب. وحذّر البائعين من المخالفة وإلاّ غرّم بليرة عثمانية جزاء نقدياً. أمّا الغريب الذي كان يمسك معه مواد مهربة فقد كانت تضبط عليه وتُباع بمعرفة القومسيون[١]. ولكي يمنع المحتكرين أقدم القومسيون على خطوة جريئة هي التالية:

«ضجّ الشعب وسيما الفقير من محتكري الحنطة وسائر الحبوب حيث كلما ورد حمل حنطة أو شعير إلى ساحة القصبة تتهافت عليه المحتكرين للمشتري لتحجيره وتبيعه بأسعار فاحشة فرحمة بالإنسانية تقرر باتفاق هذا القومسيون منع قطعي بيع المحتكرين في ساحة السوق أو ضمن القصبة على الإطلاق حتى يتمكن الفقير من أخذ عوزه بأسعار معتدلة والذي يفيض على أهل القصبة من الحنطة وسائر الحبوب تشتريه البلدية لحسابها وتبيعه بمثل ما اشترته لكل حسب لزومه من المحتاجين والحالة هذه من يتقدم لمشترى الحبوب المذكورة بالقصبة نفسها من المحتكرين سواء تمّ البيع أو لم يتم يغرم على الأقل بليرة عثمانية جزاء نقدياً وإشعاراً بذلك أعلن تحريراً في ٢٠ تموز سنة ١٣٣١[٢] الموافقة ١٩١٥.

ارتفعت أسعار الحاجيات خلال الحرب بشكل جنوني. فمثلاً فرض القومسيون سعر الخبز في ٤ شباط ١٩٠٨ بسعر ٤ قروش واضطر ١٢ تموز ١٩١٧ لشرائه بـ ٤٠ قرشاً[٣].

وتعطي القصيدة الزجلية الواردة سابقاً، وصفاً للحالة المذكورة أعلاه فتقول:

---

(١) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٤٩، سجل ٤، عدد ١، ص ١ وعدد ١١، ص ٣.
(٢) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٥٠، سجل ٢، عدد ١٢، ص ٣.
(٣) رحّال، المرجع نفسه، سجل ٣، عدد ١٨٨، ص ٤٦، وسجل رقم ٤، عدد ١٤٣، ص ٣٤.

العالم محروق سلاّفها   من العازي وهمّ العسكر
شو ها السنة الردية   طلعت عا العالم مرّه
ها من كتر الخطيي   تزعزعت أهل الكره
دول الأجنبيي قطعوا   الردّ بمرّه
تنكة الكاز بثلاثميي   وبثمانين رطل السكر
تا نرجع للدقيات مثل الفلفل   والكمون والبنات والرزيات
مقطوع عنّا واردهم انشاللّه يكتروا   القمحات هللي عيشتنا منهن
ما رخص غير السمنات   والرطل بعشرين دينار
شو ها السني الملعوني   طلعت عا الناس خساره
لا تيني ولا زيتوني   ولا بصلي ولا خياره
كلّ أشجار المسكوني   ما عاد فيها عرق أخضر

كانت السلطات العثمانية تسعى للتضيق على منطقة جزين بعدم تسهيل مرور الحبوب إليها من أقضية مرجعيون وحاصبيا، كما رأينا ذلك في رواية بولس سلامه، لذلك تشكّى القومسيون من هذا الواقع ورفع عريضة للمتصرف علي منيف بواسطة قائمقام جزين «بعدم معارضة واردات الحبوب من قِبل قائمقامي مرجعيون وحاصبيا على جسر برغس ملافاة لتصاعد الأسعار ورفقاً بالفقير تحريراً في ٢٩ كانون الأول ٣٣٢»[1].

تخبر إحدى الرسائل المُرسلة من المكسيك في ١٩١٩/١/٣٠ إلى أحد أبناء بكاسين من نسيب له عن نواح مما آلت إليه أوضاع منطقة جزين فتقول: «أخبار من الوطن (بكاسين) رأساً لم تردني ولكن الخواجا يوسف حرفوش تناول كتاباً من أخيه نعيم يقول له به إنه مات (في بكاسين) ٤٠٦ أشخاص

(١) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٥٢، سجل رقم ٤، عدد ٧٩، ص ١٧.

وإن الجوع شديداً والحاجة ماسة لكل شيء لأن الأتراك كانوا يدخلون البيوت قسراً ويأخذون كل ما تقع عليه عيونهم، فلم يبقوا فرشاً ولا أسرة ولا كراسي ولا شيء. أمّا البهائم الداجنة فقد فنيت وليس من حيوان يدبّ في تلك الجهات، والمزارع المجاورة خلت من سكانها فأقفرت، أما قيتولي فقد توفي من سكانها ٢٤٠ شخصاً... فتأمّل»[1].

وعلى صعيد المدارس، طبق العثمانيون على التعليم النظام الذي كان معمولاً به في الولايات وذلك بجعل المدارس الحكومية سلطانية تشمل الإناث أيضاً كما تشير إلى ذلك الوثيقة الآتية: «قرّر هذا القومسيون استئجار بيت موسى حنا عبد الله لزوم مدرسة الحكومية السنية للبنات ببدل وقدره عن كلّ شهرماية قرش تدفع سلفاً تحريراً في ٨ أيلول سنة ٣٣٢»[2].

واستمرّ القومسيون على سياسة شراء الفحم وتقديمه للمدرسة الحكومية لتدفئة الأولاد[3]. كما جهّز المدرسة بخمس طاولات وسبعة بنوك في ٢٩ كانون الثاني ١٩١٦[4]. وعُيِّن بالإضافة إلى المعلمين خدماً لمدرستي الذكور والإناث ودفع أجورهما وثمن قرطاسيتهما[5]. فبلغت شهرياً ٣٠٠ قرشاً. كما دفع أجرة دحل سطح مدرسة الإناث[6].

ورصد القومسيون موازنة خاصة لنفقات المدارس الابتدائية وضعها في موازنته فجاءت في عام ١٩١٨ على الشكل الآتي:

(١) رسالة من بديع خليل الخوري في المكسيك إلى ابن عمه يوسف في ١٩١٩/١/٣٠، منشورة في حنينة، المرجع المذكور، ص ٢٠٧.
(٢) رحّال، المرجع نفسه، ص ١٣٣ ـ ١٣٤، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ٤٢، ص ٩.
(٣) رحّال، المرجع نفسه، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ٧٧، ص ١٦ .
(٤) رحّال، المرجع نفسه، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ٨٩، ص ١٩.
(٥) رحّال، المرجع نفسه، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ١٧٨، ص ٤١ وعدد ١١، ص ٤٦.
(٦) رحّال، المرجع نفسه، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ٥، ص ٤٤.

٢٠٠٠ قرشاً أجرة محل مكتب الأثاث.

٤٥٠ قرطاسية مكتب الأثاث.

٤٥٠ أجرة خادمة الأثاث.

٩٠٠ قرطاسية مكتب الذكور.

٩٠٠ أجرة خادمة مكتب الذكور[1].

ملحق قصيدة شاهد عيان في الجراد:

من نظم بوتامر يوسف خليل عقل من بلدة بتدين اللقش.

بأول هلّة نوّار … إجانا جراد الطيّار
لو أول مالو تاني … بحر وما نعرفلوا قرار
لو أول مالو تاني … من قبلي جايي شمالي
الساحل والجبل تالي … من يافا لبلاد عكار
من بلاد عكا ليافا … زروع اللقيسي هافا
العالم محروق سلاّفها … من العازي وهمّ العسكر
شو ها السنة الردية … طلعت عا العالم مرّه
ها من كتر الخطيي … تزعزعت أهل السكره
دول الأجنبي قطعوا … الردّ بمرّه
تنكة الكاز بثلاثميي … وبثمانين رطل السكر
تا نرجع للدقيات مثل الفلفل … والكمون والبنات والرزيات

(١) رحّال، المرجع نفسه، نقلاً عن سجلات بلدية جزين، سجل ٤، عدد ١٧٨، ص ٤١ وعدد ١١، ص ٤٦.

مقطوع عنّا واردهم انشالله يكتروا … القمحات هللي عيشتنا منهن
ما رخص غير السمنات … والرطل بعشرين دينار
شو ها السني الملعوني … طلعت عا الناس خساره
كلّ العالم محزوني دروز … واسلام ونصارى
لا تيني ولا زيتوني … ولا بصلي ولا خياره
كلّ أشجار المسكوني … ما عاد فيها عرق أخضر

قصيد

سنة الألف عنا وتسعميي … كثر الفسق بالناس والخطيي
وعشر سنين ضيفون فوق تسعه … صارت الشايبي متل الصبيي
وخمس سنين تاني خمسة عشر … إجانا جراد من نجد العنيديي
وصل للقدس وحول صوب يافا … وعاد امتد صوب القاسميي
بست أيام طاف الأرض كلّها … من حوران لحدّ اللادقيي
مرق عالشام وقال الشام جني … ونصب ميرالاي بالصالحيي
بجيشا كراد كلّتها أشابه … لكلّ خيال عيّنلوا مهيي
عرب بستان صارت تحت أمره … لكلّ بلاد بيعتلا شليي
ملوك الأرض ما بيخس لقاها … ملك جبار لو سطوي قويي
عندو قوم ما فحص عددها … متل الرمل عا شطّ المويي
وإذا حطّ على الأرض ملاها … وإذا طار كسف المضيي
أصلو من الحبش اسمو بوجهو … وقائد جيشه من اليابنيي
أصفر اللون من الشوفي وعبني … وزلمو زغار ولكن حربجيي
لكل بلاد بيعتلا عوزها … وخلا الناس كلتها سويي

لكل بلاد بيعتلا عوزها   والذكران للأنثى جوزها

أرض الوافقتهو غرزها   بس تكون عا المشلول طريي

بس تكون عا المشلول سرحه   مكّوم عا الأرض مفلوش طرحا

قلنا راح وعملنا فرحا   حاطط ودع بدل الطاق ميي

حاطط ودعنا بالأراضي   قلنا راح وصار البال فاضي

وتاري بعدها ضربة القاضي   وبالزحاف بتكون الأذيي

وبالزحاف بتكون المصيبي   وأكل رزقنا يا ناس غصيبي

فقس بالرميلي وبالقصيبي   وكدّ وجدّ بسهل الغزيي

كدّ وجدّ لقرية حميلي   وكلّ الزرع ما عشّهش ليلي

وعا بساتين صيدا مال ليلي   وخلّى شجارها كلّها عريي

علّى عا شجارها ومرشق ورقها   وليل نهار ما عاود فارقها

جردها منسوب أرض اللي مرقها   وما خلّى ولا عشبي طريي

منو قسم فقّس بأرض بسري   ومثل النمل فوق الأرض يسري

طلع عا تعيد واقال الدرب عسري   وعا بتدين وجّه برايي

قرادي

لا تقولوا ما نشيناش   ونحن قلنا مروي

ثمانمائة حملي عملنا قشاش   وجاهدنا فوق القوي

الفين أقه جراد حواش   دبيناهم بالهوّي

قال الضابط ما برضاش   جبلي علم من المختار

من الشيخ روح جبلي ختومي   تا علملك عا الورقه

يما مشوّ عا الحكومي   اما برسل الفرقا

أهل الضيعا ملزومي   بالحواش وبالتنسق

هيدي عليكم مكرومي   تحرقوا الزحاف بالنار

تحرقوا الزحاف بوقيد   أما فتحولوا خلجان

ناس منكم تنزل عا تعيد   وناس تقشلوا بلان

الناطور عيطلوا لعيد   اندهلي عا فلان وفلان

عا نادر رزوق وشديد   وعشاكر حنا الغوار

الزحاف وصل للبقروق   لتينات حبيب حنا

ما خلاش غير العروق   وعاود بالجرو تنّا

نقل لنادر رزوق   وهونيك المنجل سنّا

خلا كرم التين ممشوق   وطرد الزيتون مقشّر

وصل لنقبات شديد   هليّ بكعب الخليّ

قلو شديد يا معود حيد   وخلي البصل تنقلّي

جاوبو البفكرك بعيد   أخضر مش راح بيخلي

لك سويي باهل تعيد   لا بصل ولا قنّار

لا بصل ولا قلقاس   ولا شتلة بندوره

راح بساويك لها الناس   لقيتولي وحيطوره

لزحلي ولقب الياس   للكوره والناقوره

للبصّة ولدير ميماس   لجباع وضهر الأحمر

قلو خليلي شورا   وهالشتلات الباتنجان

جاوبوا بيحصلي ضروره   من الحرف وأهل الميدان

مش راح بخلي خضورا   بديرة عرب بستان

لا ملولي ولا حورا   غير الخروبي والغار

أكل الغار وأكل الخروب   ها مش مأكولي يا فلان
بكره طعمتهم منوب   الزنزلختي والريحان
وبعشرين تموز مطلوب   وراحل من عرب بستان
ما بخليش تمار منوب   غير كروز الصنوبر
قطع لصوب الغبيط   قاصد رزقات بوجبور
طرفا صاحت يا عفريت   جلّي بباب المعبور
غطت البصل بالشيت   بالجنفيص وبالمقصور
قالت ثلاثميي حطيت   ودهنت وجا بشحار
وصل لجل عطيي   وعبر ببصلتو
صرخ اركضوا ليي   وصار يضرب بعصاتو
ابنو قال يا مره خيي   الحصر والقياس هاتوا
أكلهم من بين ديي   اركضي عا فرد مشوار
رشّت على راسا رماد   ونهرا يخبط عركابو
ياما عيون بكّاهن جراد   وياما قلوب ناسات ذابو
ريتا عمرا ما تنعاد   روس الطغات شابوا
بنّا منعملاً مجلد   حتى العالم تتذكر
طلع عدير مشموشي   وقاصد تيزور الرهبان
تاري النيي مغشوشي   وبقلبو تنعشر شيطان
لقي الحملات مغشوشي   ومستحضر أخا يونان
ما خلا ولا شوشي   حتى شعوطها بالنار
والوكيل بونا ارسانيوس   والريس من بيت الكك
قلنّ دقوا بالناقوس   بلكي ها الغضب بيفك

ولا تخلوش بالكرم يدوس   ولا حدا منكم يلك
توجه عخرايب صباح   وميّل عاتينات لطوف
بوشكري بالعالي صاح   ومن خوفو بيقي يرجف
قلو يا فلان ارتاح   كوز تين مش راح تشوف
قلو وسعنا المسطاح   جاوبوا عقلاتك زغار
نزل عا أرض بكاسين   الساعه ثلاثه يوم الحدّ
أكل الزيتون والتين   وعن الأخضر ما بيرتد
قطع عا أرض بحنين   وقدرة الله ما بتنحد
عاود عا وادي جزين   الساعه تسعه بفرد نهار
خبّرنا مرعي ومنصور   عن نخوة أهل جزين
لاقوا الزحاف للمعبور   الطالع من أرض بكاسين
كانوا مجتمعين طابور   ثمانماية وخمسة وتسعين
بقيوا ينشوّا للفطور   حتى كلّوا كبار وصغار
كبار وصغار حتى كلّوا   يردوا الزحاف عا الوادي
بأربع ساعات انحلوا   وما عاد لهم جلادي
ساعتها الشباب فلّوا   بحيث ما معهم زوادي
والشيخ راح للبيك   قلّوا الزحاف وصل للديار
الزحاف وصل للشالوف   بعد أن كحّل الوادي
خلالهن وجهم مكسوف   وطلع كعم الأرادي
بقي ماشي صفوف ألوف   ودخل دار السعادي
بجراعه من دون خوف   زنرها داير مندار
طلع عا راس السروي   وقرقش اذنين البواب

تعمشق بزيال الفروي   للمير حارس ابن شهاب
لا يخاف من صاحب ثروة   ومن مير وسلطان يهاب
عسكره كتير وبيروي   ملك جبار وقهّار
الزحاف طلع عا جزين   قصدو حتى يأذيها
أكل العريش والتين   وما خلاّ أخضر فيها
أنحس من سنة الستين   أو تعبت أهاليها
يا مساكين يا فلاحين   ما استعوضوش البذار
قطع عا عمرة داود   وقال ها العمره منظومي
واستحسن فيها يقعد   وخمنها دار حكومي
بالشام مثلها مش موجود   وأعلى من برج التومي
قبابيط الزحاف قرود   فاتوا من تحت السيار
داود ركض لبشاره   قلو أعطيني الشمسيات
الزحاف وصل للحارة   وراح بياكلي التوتات
قلو بشاره ركوض غاره   ودير بالك للزريعات
لا تخاف من الخساره   بحيث المصريات كتار
اشترى ثلاثماية شمسيه   وحق الشمسيه عشرين
صرخ اركضوا ليي   اسعفوني يا أهل جزين
استكرى ميي غربيي   وثلاثين من بتدين
تسعه من الكراميه   وعشره من بيت القطار
قلو يخرب عمرك يا زحاف   ما عمري خمنتك هيك
لا بتفزع ولا بتخاف   لا من آغا ولا من بيك
قلو يا رحيم وقاف   معست الزحاف بجريك

انفقد مني ثمان آلاف   خمسه كبار وتلاتي صغار
الزحاف كان فاقس قسمين   وناس بيقولوا تلاتي
تالي الوادي عا الجنبين   من باتر لبنواتي
صارع العالم شهرين   متل كون الزناتي
من المتين لوادي التيم   كانه نبع وفوار
أكل الساحل والجرد   وما خلا للعالم قوت
بعزق الغلي بالقرد   وتلتين العالم بتموت
قالولي الخواجا فورد   جاب مصاري لبيروت
شياب وشباب ومرد   بيدعولو بطول الأعمار
بتمرق على إقليم جزين   بأول الصيفيي
كأنه شهر كوانين   بين شهور الفيضي
مرشق العريش والتين   وريحة الميي جيي
لا في كوسا ولا لقطين   ولا في لوبي ولا في خيار
وصل على دار البيك   وهناك دار الوسيعا
لا من هيك ولا من هيك   وطلع نشو الطبيعا
ساد عليّ وساد عليك   وفاز بفن الشريعا
لا من علي ولا من ذويك   من الفهم وحسن الدبار
اللّه رسل ها الافي   حتى تجي وتأذينا
يا عبّد اللّه خافي   وكلّو قليل علينا
لا غفلان ولا غافي   وعنيتنا بيعطينا
والبيكون قلبو صافي   عند اللّه ذنبو بيغفر
عند اللّه ذنبو مغفور   بس أنو يرجع ويتوب

لا يزني ولا يشهد زور   لا يقتل ولا يشلب
اللّه وملايكة النور   خطايا الناس بتكتب
متل أيوب عا البلوى صبور   وهذا من اللّه مقدّر
أصغر خلق اللّه قبوط   هذا اللاكل رزقتنا
دوّخنا وجينا تخوت   وكفرنا بديانتنا
بطركنا الياس المغبوط   يصلي على نيتنا
يفتش بكتاب اللاهوت   انكان خطيتنا بتغفر
بحكي عن دير العامر   هاللي حد المحتقره
الرئيس بالدير مقامر   يعطوا حسانات للفقرا
القابل يوسف بونادر   لا بيكتب ولا بيقرا
حاكي متل ما صاير   وصنعتو فلاح نشّار
صنعتو نشار فلاح   وقاطن بأرض بتدين
قاعد ببيتو مرتاح   ببتدين بقليم جزين
نوح فجّر للفلك لواح   وها بيت الدنيا والدين
أبونا آدم فلاّح   كان يحرس ويرشّ بذار
القابل ها القرادي   يوسف بن خليل مخول
من عيلة العقلية   حاكيها على الأصول
إسلام ومسيحي   ترحم اللي قالا تقول
إن كان علينا خطيي   بدعا الكل بتغفر
هيدي بيوت المنقالي   ترحموا عا ألبانيها
بفرضها عا القوالي   تصلح غلط اللفيها
بالأول وبالتاني   نفسي ما بمدح فيها

بطلب من رب العالي   ينجينا من عذاب النار
ولا ننسى دير مشموشي   الفرق وقت الحرب حسان
لصباح ومشموشي   لبتدين والحرف وللميدان
من جزين لمغدوشي   يطعموا كلّ مين جيعان
دوم ها الصالو مفروشي   ناس تدخل وناس تضهر

تأثير الحرب العالمية الأولى على قطاع الحرير

أ ـ د. بطرس لبكي

كان قطاع الحرير يشكّل مورد الدخل الأساسي للبنانيين إضافة إلى عائدات الهجرة قبل الحرب العالمية الأولى[1]:

- فالأراضي المزروعة بالتوت وهي الشجرة التي تتغذى من ورقها دودة القز المنتجة لخيط الحرير، هذه الأراضي كانت تشكل ٤٠٪ من الأراضي المزروعة في المتصرفية.

- ومداخيل أنتاج الشرانق وحلها في الكراخين. وتسويقها تشكل أيضاً حوالي ٣٦٪ من مداخيل سكان المتصرفية و٧٢,٥٪ من إنتاج السلع في هذه المتصرفية.

- وكذلك كانت صادرات الحرير والشرانق تشكل ٦٢٪ من صادرات المتصرفية و٣٣٪ من مداخيلها الخارجية (صادرات السلع والخدمات وعائدات الهجرة).

ضف إلى ذلك:

كان هذا الإنتاج شرانقاً وخيوط حرير يصدر ٨٣,٥٪ منه[2]. ذلك لأن

---

(١) إسماعيل حقي بك، «لبنان مباحث علمية واجتماعية» ـ منشورات الجامعة اللبنانية ـ (١٩١٨) ـ أعيد طبعه عام ١٩٦٩، ص ٤٥٧ ـ ٤٥٩ ـ ٤٧٢/٤٧٣.

(٢) Boutros Labaki: «Introduction à l'histoire économique du Liban; Sériciculture et commerce intérieur en fin de période ottomane- 1840-1914» - Publication de l'Université Libanaise 1984, P. 139-165-144.

النسيج المحلي كان قد ضرب بشكل شبه كامل أثناء القرن التاسع عشر مع توسع الصناعة الأوروبية والآسيوية في أسواقنا وخاصة بعد معاهدة بلطا ليمان في ١٨٣٨. وكانت حصة فرنسا من هذه الصادرات تتراوح بين ٩٠٪ و٩٣٪[١].

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ضرب حصار على الموانئ البحرية في بيروت وطرابلس وصيدا. فسدت منافذ التصدير بما يعني انسداد نوافذ تصريف إنتاج الحرير اللبناني بشكل شبه كامل. نتيجة لذلك انهارت مداخيل أصحاب بساتين التوت والشركاء فيها. كذلك انهارت مداخيل مربي دودة القز، وأصحاب معامل غزل الحرير وعمالها وعائلاتها ومداخيل تجار الحرير وممولي هذا القطاع.

فانهار هذا القطاع الأحادي خاصة في المتصرفية. أدى ذلك إلى حرمان السكان (خاصة المزراعين والعمال) من القسم الأهم من مداخيلهم. ضف إلى ذلك انقطاع المصادر الأخرى للدخل: قسم كبير من عائدات المهاجرين وعائدات الاصطياف والفنادق والنقل.

فماذا كان انعكاس هذا الوضع على قطاع الحرير؟

أولاً: انهيار صناعة غزل شرانق الحرير

فحسب تقديرات فاستون ديكوسو ـ الملحق في القنصلية الفرنسية في بيروت لشؤون الحرير، كانت ـ الأراضي اللبنانية تضم قبيل الحرب العالمية الأولى الطاقات الصناعية التالية لغزل الحرير[٢]:

(١) Boutros Labaki: op. cit., P. 22 et P. 48.

(٢) Gaston Ducousso: «L'industrie de la soie en Syrie et au Liban Beyrouth - Imprimerie Catholique - Paris, Librairie Maritime et Coloniale, 1913.

ـ عدد الدواليب العاملة في المتصرفية:	٨٦٦٩	دولاب
ـ عدد الدواليب العاملة في أراضي ولاية بيروت	٤٦٥	دولاب
ـ عدد الدواليب العاملة في أراضي ولاية دمشق	—	دولاب
ـ مجموع عدد الدواليب العاملة:	٩١٣٤	دولاب
ـ عدد الدواليب المتوقفة في أراضي المتصرفية والولاية:	١٥٢٩	دولاب
ـ مجموع الطاقة الإنتاجية للمغازل	١٠٦٦٣	دولاب

أما بعد الحرب الأولى فقد قدر «بيريل» المستشار لدى المفوضية العليا لفرنسا في سوريا ولبنان لشؤون الحرير عدد الدواليب العاملة عام ١٩٢٢ بما لا يزيد عن ١٣٨٠ في دولة لبنان الكبير من أصل ١٥٠٠ في منطقة الإنتداب الفرنسي. حيث كانت طاقة الغزل في لبنان الكبير تشكل ٩٢٪ من مجمل طاقة الغزل في منطقة الإنتداب الفرنسي[١]. ويعني ذلك أن الحرب العالمية الأولى قد أوقفت أكثر من ٨٧٪ من الطاقة الإنتاجية لصناعة الغزل الموجودة في دولة لبنان الكبير[٢].

ويعني ذلك رمي حوالي ١٢١٨٠ عاملاً (وأكثرهم عاملات) خارج سوق

(١) Gaston Ducousso: op. cit., P. 230-231.

Beriel: «La séricilulture au Liban», Paris, Délégation du Haut Commissariat de la République Française du Syrie et au Liban - Paris - 1922, Conférence au Cercle de l'Union Française à Beyrouth le 7/6/1922 en présrnce du Général Gouraud - Haut Commissaier Français (Extrait des Documents économiques, politiques et scientifiques - publiés par l'ASIE FRANCAISE), P. 2.

(٢) Arthur Ruppin: «Syrien als Wirshafts gébeit», Berlin - Koloniale Wirschaftlichs Komittee. E.S. Mıttler und Sohn»- 1917, P. 173.

وأرثور روبين كان مدير معهد الدراسات في الوكالة اليهودية في يافا، واحد قيادي الحركة الصهيونية. فوضع هذه الدراسة عن اقتصاديات بر الشام لصالح لجنة اقتصاد المستعمرات في الجمعية الاستعمارية الإلمانية ـ وأهداه ـ لجمال باشا الذي كان آنذاك وزير البحرية العثماني وحاكم بر الشام.

العمل[1]. من خلال إيقاف ١٦٠ «كرخانة»[2] للغزل. مما عطّل رأسمال ثابت وتشغيلي يقدر بـ ٣٩١,٥٠٠ ليرة تركية ذهبية أو ٧,٨ مليون فرنك فرنسي. ضف إلى ذلك امتناع تجار ليون عن تمويل مغازل لبنان. علماً أن هؤلاء التجار كانوا يمولون نصف مشتريات الشرانق لصالح المغازل اللبنانية.

كما أن سعر الوقود ارتفع إلى /١٠٠٠/ فرنك للطن الواحد.

وقد صادرت السلطات العثمانية بالات الحرير في بعض المغازل كمغزل يورتاليس في بتاتر[3].

ويشير الملحق ب ـ إلى هذه الظاهرة بشكل تفصيلي بين عامي ١٩١٢/ ١٩١٣ وعام ١٩٢٥ ـ إذ يشير إلى الطاقة الإنتاجية لكل كرخانة عام ١٩١٢/ ١٩١٣ وعام ١٩٢٥.

ثانياً: انهيار إنتاج شرانق الحرير

نتيجة لإغلاق معمل الغزل إغلاقاً شبه تام ولتوقف عمليات تصدير الشرانق المجففة إلى فرنسا بسبب انقطاع المواصلات البحرية، توقفت تربية دودة القز المنتجة للشرانق. وانهار إنتاج الشرانق من ٦ ملايين كيلو غرام قبل الحرب إلى ٥٠٠,٠٠٠ كيلو غرام عام ١٩١٩. وقد ساهم انقطاع التزود ببذور القز من فرنسا إلى استعمال بذور محلية منتجة بشروط أقل جودة[4].

---

(١) Boutros Labaki, op. cit., P. 120.

(٢) Gaston Ducousso, op. cit., P. 220-230-231-232.

(٣) Boutros Labaki, op. cit., P. 154, Beriel, op. cit., P. 2.

(٤) الشيخ يوسف الجميل: «تجارة الحرير في لبنان ـ مداخلة في المؤتمر الأول للحرير» ـ إصدار اللجنة التنفيذية للمؤتمر اللبناني الأول للحرير اللبناني ـ المنعقدة في بيروت ـ في شباط ١٩٣٠، مطبعة المعرض.

ـ إسكندر نقاش «الحرير ولبنان» ـ منشورات اللجنة التنفيذة للمؤتمر اللبناني للحرير ـ شباط ١٩٣٢، مطبعة الجليل، بيروت، ص ٧.

Beriel, op. cit., P. 1 et 2.

يشير إلى هذه الظاهرة الرسم البياني الذي أعده الأستاذ إيلي تابت ـ من بحمدون ـ (ملحق ب) إلى تفصيل التطور السنوي لإنتاج الحرير. منذ ١٨٦٠ وحتى ١٩٣٠. وقد نشر هذا الرسم البياني ضمن دراسة الشيخ يوسف الجميل المشار إليها في الحاشية رقم ١٠.

كما يشير الجدول رقم ١ إلى انهيار إنتاج الشرانق في أراضي المتصرفية قرية قرية بين ١٩٠٦ و١٩٢٥ (طبعاً هذه الأرقام لا تعني تأثيرات الحرب العالمية الأولى بشكل دقيق لأنها تغطي فترة ٢٠ عاماً (من ١٩٠٦ إلى ١٩٢٥) أي بين احصائين عثماني (١٩٠٦) وفرنسي ١٩٢٥ ومن ضمنها فترة الحرب العالمية الأولى.

الجدول رقم (١)

إنتاج الشرانق في سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩٢٥ (بالأقة)، قضاء البترون، مديرية البترون

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
البترون	١٦٠٠	١٩٢٠	٪١٢٠
كفر عبيدا	٢٥٠٠	١٢٠٠	٪٤٨
تحوم	٣٠٠٠	٤٨٠	٪١٦
راشانا	١٥٠٠	٤٠٠	٪٢٦
اسمار جبيل	٣٠٠٠	٨٠٠	٪٢٦
مراح شديد ودير شواح	١٥٠٠	١٦٠	٪١١
غوما وترحمانا	٣٠٠٠	٤٨٠	٪١٦
مراح الزيات	٣٠٠٠	١١٢	٪٤
صغار وشويت	٤٠٠٠	٣٠٤	٪٨
جربتا	٣٠٠٠	٣٣٦	٪١١
عبدللي	٥٠٠٠	٨٠٠	٪١٦
تولا	٤٠٠٠	٦٤٠	٪١٦
دريا	١٥٠٠	١٦٠	٪١٠
شبطين	٦٠٠٠	١٢٨٠	٪٢١
زان	٣٠٠	٢٤٠	٪٨٠
كفرحتنا	٢٠٠٠	٢٤٠	٪١٢
كور الجندي	٢٠٠٠	٤٠٠	٪٢٠

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
الفتيحات وعرطز	١٢٠٠	٥٦٠	٪٤٦
صورات وراشكده	٤٠٠٠	٢٤٠	٪٦
حلتا وكفرشليمان	٤٠٠٠	٧٢٠	٪١٨
جبلا	١٥٠٠	٢٤٠	٪١٦
بقسميا	٤٠٠٠	١١٢٠	٪٢٨
كفرحي	٣٥٠٠	٥٦٠	٪١٦
بجدرفل	٣٠٠٠	١٤٤٠	٪٤٨
عبرين	٦٠٠٠	٢٠٠٠	٪٣٣
اجدبرا وبسبينا	٣٥٠٠	٥٤٤	٪١٥
كفيفان	٣٠٠٠	١٢٠٠	٪٤٠
جران	٥٠٠٠	١٢٠٠	٪٢٤
رشكيدا	١٠٠٠	٢٤٠	٪٢٤
اده	٣٠٠٠	٩٦٠	٪٣٢
كبا	٦٠٠٠	٣٢٠٠	٪٥٣
سلعاتا	٢٥٠٠	٦٤٠	٪٢٥
المجموع	**١٠٠٨٠٠**	**٢٣٦١٦**	**٪٢٣,٥**

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦٦٧.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ١٣.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)
إنتاج الشرانق في سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩٢٥ (بالأقة)، قضاء البترون، مديرية تنورين

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
تنورين	٣٠٠٠		
وطاحوب	٩٠٠	١٢٠	٪١٣
شاتين	٥٠٠	٨٨	٪١٧
تنورين التحتا	٣٠٠٠		
كفور العربة	٢٣٠٠	٦٠٠	٪٢٦
كفرحلدا	٣٠٠٠		
حردين بيت كساب	٢٠٠٠	٤٠٠	٪٢٠
بيت شلالا	٢٠٠٠		
دوما	٨٠٠٠	٣٢٠٠	٪٤٠
بشعله	٣٠٠٠		
بشتودار	٥٠٠	١٢٨	٪٢٥
ياريتا	٢٠٠		
داعل	١٠٠٠		
اسيا	٣٠٠٠		
العلالي	١٥٠٠	٤٠٠	٪٢٦
محمرش	١٥٠	٧٢٠	٪٤٨
مراح الحاج	٨٠٠		

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
راشا	١٥٠٠		
مسرح	١٥٠٠		
الدوق	٥٠٠		
مزرعة مارماما	٥٠٠		
حدتون	٣٠٠٠		
رام	١٥٠٠	١١٢	٪٧
المجموع	٤٣٣٥٠		

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦٧٣.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ١٣.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)
قضاء الكورة

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
أميون	٣٠٠٠	٢٤٠٠	٨٪
كفر حزير	٢٧٠٠	٦٤٠	٢٣٪
دار شمزين	١٥٠	٣٢٠	٢٪
دار بعشتار	١٢٠٠	١٩٢٠	١٪
بزيزا	٤٠٠	٣٦٠	٩٪
شكا	٥٠٠٠	١٢٠٠	٢٤٪
الهري	٤٠٠	٢١١	٥٢٪
بشمزين	٢٠٠٠	١٦٠٠	٨٪
عفصديق	٤٠٠	٢٤٠	٦٪
قلحات	١٠٠٠	٣٢٠	٣٢٪
أنفه	١٥٠٠	١٢٠٠	٨٪
فيع	١٠٠٠	٣٢٠	٣٢٪
ذكرون	٩٥٠	١٦٠	١٦٪
بطرام	١٠٠٠	٤٨٠	٤٨٪
بدبا	٢٠٠	١٦٠	٨٪
بترومين	٧٠٠	٦٤٠	٩٪
كوسبا	٢٠٠٠	٢٠٠	١٪
كفر عقا	٢٠٠٠	٨٠٠	٤٪
عابا	٢٠٠	١٧٦	٨٨٪
دده	٢٠٠٠	٦٤٠	٣٢٪
كفر قاهل	٥٠٠	١٧٧	٣٥٪
بتوراتيج	٤٠٠	٢٤	٦٪
برسا	٣٠٠	٤٤٠	٤٧٪
حامات	١٥٠٠٠	٤٨٠٠	٣٢٪
راسنحاش	٤٠٠	١٤٤	٣٦٪
وجه الحجر	٥٠٠٠	١٦٠٠	٣٢٪
كفرحاتا	١٥٠٠	٢٤٠	١٦٪
بتعبوره	١٥٠٠	٣٢٠	٢١٪
كفريا	٨٠٠	٢٢٠	٢٧٪
بدنايل	١٠٠	٤٠	٤٪
أجدعبرين	٥٠٠	٢٠٠	٤٪
المجموع	**٥٣٨٠٠**	**٢٢١٩٢**	٤١٪

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦٨٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ١٥.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء الشوف، مديرية عاليه

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
عاليه	١٢٥٠٠	١٦٠٠	٪١٢
عيتات	٣٠٠٠	٤٠٠	٪١٣
عيناب	٢٠٠٠	٤٠٠	٪٢
كيفون	٦٠٠	٣٢٠	٪٥٣
بيصور	١١٠٠٠	١٢٠٠	٪١٠
الغابون	١٨٥٠		
مجدليا	٥٠٠٠	٨٠٠	١٦
مجد البعنا	١٩٠٠٠	٥٦٨٠	٪٢٩
بدغان			
شارون			
المشرفة			
الرملية			
بتاتر			
معصريته			
سوق الغرب	١٥٠٠	١٠٤٠	٪٦٩
حارة سالم	٢٠٠		
بدادون	١٠٠٠	١٠٤٠	٪١,٠٤
بخشتيه	٣٠٠٠		

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بحواره	٢٠٠٠		
الكحالة	٦٠٠	٤٨٠	٪٨
بسوس	١٠٠٠		
رمحالا	٤٠٠٠	٤٠٠٠	
عين الجديدة	٢٠٠		
حومال	١٠٠٠		
شملان	١٠٠٠	٢٠٠	٪٢
القماطيه	٣٠٠٠	٩٦٠	٪٣٢
دفون	٣٠٠٠	١٢٠٠	٪٤
عين الرمانة وبمكين	٥٠٠٠	٦٠٠	٪١٢
كفرنيس	٤٠٠٠	١٠٤٠	٪٢٦
المجموع	٨٤٤٥٠		

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء الشوف، مديرية بعقلين

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
دير بابا	٢٣٠٠٠	١٤٤٠٠	٪٦٢
كفرحيم			
دميت			
وادي بنحليه			
بنديتي			
الجاهلية			
كفرفاقود			
بشتفين			
دير كوشه			
الكنيسه			
كفرقطره			
المجموع	٢٣٠٠٠	١٤٤٠٠	٪٦٢

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء الشوف، مديرية المختارة

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
نيحا، باتر، حارة جندل، عماطور، عين قنية، المختارة، بطمه، المعاصر، الخريبة، بعذران، مرستي، الجديدة، السمقانية، جباع، عترين، عنبال، غريفه، المزرعة، الكحلونية	١١٠٠٠٠	٩٣٥٠	٪٨,٥
المجموع	١١٠٠٠٠	٩٣٥٠	٪٨,٥

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)، قضاء الشوف، مديرية عين زحلتا

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
عين زحلتا	١٠٠٠	٣٢٠٠	٪٣٢
كفر نبرخ	١٢٠٠٠	٣٢٠٠	٪٢٦
بريح ومطيله	٧٠٠	١٦٠٠	٪٢٢
الفواره	٩٠٠٠	٦٨٠	٪٧
بتلون	٤٧٠٠	٨٨٠	٪١٨
الباروك	١٨٠٠٠	٢٠٠٠	٪١١
الفريديس	٨٠٠٠	٤٨٠	٪٦
أغميد	٢٠٠٠	١٤٤٠	٪٧٢
الورهانية	٣٠٠٠	٢٠٠	٪٦
بمهري	٨٠٠	٢٤٠	٪٣
مرستي			
القلعة			
عين وزين	١٢٠٠	٥٦٠	٪٤٦
البيدا			
عين دارا	١٠٠٠٠	١٦٠٠	٪١٦
العزونيه	٨٠٠	٢٤٠	٪٣
المجموع			

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)
قضاء الشوف، مديرية عين رشمايا

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
الغابون	١٨٥٠		
البيرة	١٠٠٠٠	١٠٤	٪١
مجد المعوش	٢٠٠٠٠	٤٦٤٠	٪٢٣
وادي الست	٨٠٠٠		
عين الحلذون	٧٢٠٠	١٥٠١٦	٪٢٠
بسرين			
مزرعة النهر			
شتوريت			
عين تراز			
شرتون			
كفر عميه			
الدوير			
رويسة النعمان			
بحمدون			
رشمايا			
المجموع	١١١٨٥٠		

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء الشوف، مديرية الشويفات

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بسابا	٢٠٠٠		
الشويفات	٣٠٠٠٠	١٣٦٠	٪٤,٥
عين كسور	٢٤٠٠٠	٢٣٦٠	٪٩,٨
بشامون وسرحمون			
دير قوبل			
عين عنوب			
الفساقين			
وادي الدلب			
مريجات			
عين درافيل			
البنية	٢٠٠٠	٦٤٠	٪٣٢
عبيه	٤٠٠٠	٩٦٠	٪٢٤
البوم	٢٠٠	٨٠	٪٤
دقون	٤٠٠٠		
الناعمة	٢٢٠٠٠	١٠٤٠٠	٪٤٧
دير نعمة			
كليلا			
كفرمتى	٨٠٠٠	٢٤٠٠	٪٣

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بعورتا			
جل البحر			
بوار الدين			
الدامور	١٢٠٠٠٠	٦٨٠٠٠	٪٥٦
المجموع			

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء الشوف، مديرية شحيم

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
شحيم	١٠٠٠	٣٦٠٠	٪٣٦٠
الجيه	٣٦٠٠		
برجا	١٦٠٠	١٨٤٠	٪١١٥
علمان	١٥٠	١٦٠	٪١٠٦
دارايا	١٠٠٠		
الوردانية	٤٠٠		
جون	٤٣٠٠	٩٦٠	٪٢٢
المحتقرة	٥٨٠		
الجليلية	١٥٠٠		
الزعرورية	١٠٠٠	١٠٤	٪١٠
الدبية	٥٠٠٠		
البرجين	٨٠٠	٩٦٠	٪١٢٠
عانوت	٤٥٠٠	٢٠٠٠	٪٤٤
حصروت			٧٠٠
سبلين	٣٠٠	١٦٠	٪٥٣
مزبود	١٣٠٠		
الرميلة	٢٥٠٠	١٧٦	٪٧
بعاصير	٤٠٠	٤٨٠	٪١٢٠

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
مجدلونا	٧٦		
المعنية	٦٠٠		
المجموع	٣١٣٠٦		

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٣٩.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣٨.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء المتن، مديرية بسكنتا

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بسكنتا	٤٤٠٠٠	٥٦٠٠	٪١٣
كفرتي		١٠٤٠	٪٢
زبوغه		٢٠٠٠	٪٤
كفار عقاب		١٨٤٠	٪٤
المشرع		٣٢٠	٪١
عين القبو		٤٠٠	٪١
وادي الكرم		٧٢٠	٪٢
المجموع	٤٤٠٠	١١٩٢٠	٪٢٧

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٧٤.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٧.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء المتن، مديرية بكفيا

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بحر صاف وسافية المسك	١٢٠٠٠٠	٦٢٨٠	٪٥
بكفيا		٩٦٠	٪٠,٨
حملايا		١٤٤٠	٪١,٢
شويا		٥٦٠	٪٠,٤٦
زكريت		٢٥٦	٪٠,٢
المياسة		٦٤٠	٪٠,٥
وادي شاهين		٢١٢	٪٠,١
بيت شباب		٤٠٠٠	٪٣,٣
الشاوية والقنيطرة		٧٢٠	٪٠,٦
عين الخروبه		٦٠٠	٪٠,٥
ذوق الخراب		١٨٠	٪٠,٢
ضبيه		٦٤٠	٪٠,٥
انطلياس		٣٢٠٠	٪٢,٦
بيت الشعار		٧٢٠	٪٠,٦
العطشانة		٢٤٠	٪٠,٢
بيت الككو		٢٠٠	٪٠,١
المطيلب		٢٤٠	٪٠,٢
أبو ميزان		٤٠٠	٪٠,٣

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
عين العلق	١٢٠٠٠٠	٤٠٠	٠,٣٪
مزرعة يشوع		٩٦٠	٠,٨٪
ديك المحدي		٣٦٠	٠,٣٪
المجموع	١٢٠٠٠٠	١٨٦٤٨	١٥,٥٤٪

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٧٤.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٧.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)
قضاء المتن، مديرية بحنس

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بعبدات والسفيلة	١١٠٠٠	١٣٦٠	١٢٪
بقنايا وجل الديب	١٢٠٠٠	١٦٠٠	١٣٪
بياقوت	١٠٠٠	٨٠	٨٪
عمارة شلهوب والزلقا	١٠٠٠٠	٢٣٢٠	٢٣٪
القبارية	١٠٠٠	٢٤٠	٢٤٪
القنابة	٨٠٠	٢٤٠	٣٪
بحنس	٥٠٠٠	٨٠٠	١٦٪
بيت مري	١٣٠٠٠	٣٢٠٠	٢٤٪
برمانا	٦٠٠٠	١٦٠٠	٢٦٪
المنصورية والديشونية	٢٠٠٠	٨٠٠	٤٪
جورة البلوط	٤٠٠٠	١٦٠٠	٤٪
قنابة برمانا	٣٠٠٠	٢٤٠	٨٪
المكلس	٢٠٠٠	١٢٠	٦٪
المسقى والغابة	٤٠٠٠	٧٢٠	١٨٪
رومية	١٠٠٠٠	١٦٠٠	١٦٪
نابيه	٤٠٠٠	١٢٨٠	٣٢٪
بصاليم	٢٠٠٠	١٢٠	٦٪

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
العيون	٣٠٠٠	٢٤٠	٨٪
مار شعيا والمزكة		٦٠٨	
المجموع			

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٧٤.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٧.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)
قضاء المتن، مديرية حمانا

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
حمانا	٢٥٠٠٠	٨٠٠	٣٢٪
الكنيسة	١٥٠٠	٣٦٠	٢٤٪
عقبية			
أرصون	٣٥٠٠	٨٠٠	٢٢٪
الشبانية	٥٠٠٠	٣٢٠	٦٪
القلعة	٦٠٠		
الشميسة			
الخريبة	١٥٠٠	١٤٤	٩٪
الدلبية	٦٠٠	٢٠٠	٣٣٪
بتبيات	٢٥٠٠		
بمريم	١٦٠٠	٢٨٠	١٧٪
بزبدين	٤٠٠٠	٨٠٠	٢٪
بتخنيه	٢٠٠٠	٨٠٠	٤٪
جوار الحوز	٢٠٠٠	٣٦٠	١٨٪
حاصبيا	١٠٠٠	٤٠٠	٤٪
دير خونة والتليلة	١٥٠٠	٢٤٠	١٦٪
دير الحرف	١١٠٠	٢٤٠	٢١٪

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
زندوقه وقرطاضه	٧٥٠	٢٤٠	٪٣٢
العربانية	١٥٠٠	٥٤٠	٪٣٦
عين موفق	٤٠٠		
قبيع	٣٥٠٠	٦٤٠	٪١٨
فالوغا	٧٠٠٠	٢٤٠٠	٪٣٤
جورة أرصون	٦٠٠	٣٢٠	٪٥٣
قرنايل	٤٠٠٠	٢٠٠٠	٪٥
شويت	٢٠٠٠		
كفرسلوان	٤٠٠٠	٤٠٠	٪١
معاصري			
راس المتن	٦٠٠٠	٨٠٠	٪١٣
راس الحرف	٢٠٠٠	٣٦٠	٪١٨
صاليما	٥٠٠٠	٩٣٦	٪١٨
بعلشميه	١٥٠٠	١٦٠	٪١٠
العبادية	١٢٠٠٠	٤٠٠٠	٪٣٣
الهلالية	١٠٠٠	٣٦٠	٪٣٦
ترشيش	٢٠٠٠	٨٠	٪٤
قتالة	٨٠٠	٢٤٠	٪٣
القرية	١٠٠٠	٣٦٠	٪٣٦

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
القصيبة	١٥٠٠	٥٦٠	٪٣٧
عاريا	٢٠٠٠	١٤٤٠	٪٧٢
المجموع			

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٧٤.

ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٧.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)
قضاء جزين

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
جزين	١٠٠٠٠	٢٤٠٠	٪٢٤
بكاسين	٦٠٠٠	١٦٠٠٠	٪٢٦٠
قيتولة	٤٠٠٠	١٤٤٠	٪٣٦
روم	٣٥٠٠	٨٠٠	٪٢٣
سنيه	٤٠٠		
عازور	٢٠٠٠	٣٢٠	٪١٦
قتالة	٪٧٠٠		
مراح المكنونية	١٥٠٠	٢٤٠	٪١٦
بتدين اللقش	٢٥٠٠	٤٨٠	٪١٩
كفرحونة	٣٠٠٠	٩٦٠	٪٣٢
قطين	٢٠٠	٤٠٠	٪٢٠٠
بنواتي	١١٠٠	٤٠٠	٪٣٦
مليخ	٢٠٠	٨٤	٪٤٢
الميدان	١٢٠٠	٤٠٠	٪٣٣
بحنين	٦٠٠٠	٨٠٠	٪١٣
عاريه	٦٠٠٠	١٢٠٠	٪٢٠
وادي جزين	٣٠٠٠	٧٢٠	٪٢٤
حيطورة	٤٠٠	١٦٠	٪٤٠

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
بسري	١٥٠٠	١٦٠	٪١٠
الحمصية	١٠٠٠	٢٤٠	٪٢٤
الريحان	٣٥٠٠	١٩٢	٪٥,٥
كفار فالوس والإسطبل (عين المي)	٢٠٠	٩٦	٪٤٨
لبعة	٢٠٠	٢٠٨	٪١٠٤
المجموع	٥٨١٠٠		

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦١٤.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٥٧.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء كسروان، مديرية جونية

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
غزير	٢٥٠٠٠	٤٤٠٠	١٧,٦٪
جديدة غزير	٥٠٠٠	٤٨٠	٩,٦٪
معراب	١٥٠٠	٦٤٠	٤٢٪
حاريصا	١٣٠٠	١٨٠	١٣,٨٪
داريا	١٠٠٠	٢٨٠	٢٨٪
ذوق مصبح	١٠٠٠	٢٨٠	٢٨٪
سهيلة	٤٥٠٠	١١٢٠	٢٤٪
بلونة	١٥٠٠	٤٠٠	٢٦,٦٪
جعيتا	٨٠٠٠	٩٦٠	١٢٪
بزمار		٦٤	
شننعير	٢٠٠٠	٤٨٠	٢٤٪
ساحل علما	١٥٠٠	٤٠٠	٢٦,٦٪
حارة صخر	٢٥٠٠	٤٨٠	١٩,٢٪
غادير		١٦٠	
عنطورة		٩٦٠	
غوسطا	٨٠٠٠	١٩٢٠	٢٤٪
صربا	٣٠٠٠	٨٠٠	٢٦,٦٪
عرامون	٥٠٠٠	٨٠٠	١٦٪

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
عين الريحانة	٨٠٠	٦٨٠	٨٥٪
زوق مكايل	٧٠٠٠	٨٠٠	١١,٤٢٪
بطحا	٣٠٠٠	٢٠٠	٦,٦٪
المجموع			

تابع الجدول رقم (١)

قضاء كسروان، مديرية قرطبا

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
قرطبا	١١٠٠٠	٤٨٠٠	٪٤٣
المغيرة	٣٠٠٠	٤٠٠٠	٪١٣٣
قمهز	٢٠٠٠	٣٢٠	٪١٦
لاسا	١٥٠٠	٣٢٠	٪٢١
قرقريا	٤٠٠	١١٢	٪٢٨
أفقا	٣٠٠	٣٢٠	٪١٠٦
عين غويا	٦٠٠	٩٦	٪١٦
سرحيتا		٩٦	
علمات	٤٠٠٠	٢٠٠٠	٪٥٠
اهمج	١٢٠٠٠	٣٢٠٠	٪٢٦
فرحت	٢٠٠٠	٥٦٠	٪٢٨
عين الدلبة	١٠٠٠	٤٨٠	٪٤٨
مشان	١٥٠٠	١٦٠	٪١٠,٦
حميري وعسور			
مزرعة السياد	٣٠٠٠	٦٤٠	٪٢١
العاقورة	٧٠٠	٢٤٠٠	٪٣٤٢
المجدل	١٢٠٠	٤٠٠	٪٣٣
مار سركيس		٤٨٠	

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
هوينة	٤٠٠	٤٨٠	٪١٢٠
المجموع			

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦٢٧.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٣١.

ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)

قضاء كسروان، مديرية كفور

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
الكفور	٣٠٠٠	٩٠٠	٣٠٪
دلبتا	٩٠٠٠	٢٤٠٠	٣٧٪
الغينة ـ هرهريا والقطين	١٠٦٠٠	١١٢٠	١٠٪
المعيصرة	٦٠٠٠	٣٢٠	٥٪
الزعيترة	٢٥٠٠	٢٨٠	١١٪
يحشوش وشوان	٤٠٠٠	٣٧٦٠	٩٤٪
جورة بدران	٢٥٠٠	٢٨٠	١١,٢٪
بزحل	٣٠٠٠	٤٠٠	١٣,٣٪
طبرجا	٩٠٠	٢٨٠	٣١٪
الصفرا	١٥٠	٣٢٠	٢١٣٪
العقيبة	٢٠٠	٤٠٠	٢٠٠٪
البوار	١٠٠٠	١٦٠	١٦٪
شحتول	٤٠٠٠	٧٢٠	١٨٪
كفرحباب	٢٥٠٠	٣٦٠	١٤,٤٪
حياطة	٢٠٠٠	٤٠٠	٢٠٪
العذرة والعذر	٢١٠٠	٨٠٠	٣٨٪
زيتون	١٥٠٠	٥٦٠	٣٧٪
غدراس	٢٧٥٠	٤٨٠	١٧٪

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
أدما والدفنة	٤٠٠	٥٢	١٣٪
غبالة	٣٠٠٠	١٦٠٠	٥٣٪
فتقا	٣٥٠٠	٤٨٠	١٤٪
المجموع	٦٤٦٠٠	١٦٠٧٢	٢٥٪

تابع الجدول رقم (١)، قضاء كسروان، مديرية ريفون

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
ريفون	٤٠٠٠	١٦٠٠	٪٤٠
فاريا	٣٠٠٠	٩٦٠	٪٣٢
عشقوت	٨٠٠٠	٨٠٠	٪١٠
بقعاتة كنعان وكفرتي	٣٠٠٠	٤٣٢٠	٪١٤٤
فيطرون	٢٠٠٠	١٠٤٠	٪٥٢
بقعتوتة	٣٠٠٠	١٦٠	٪٥٣
ميروبا	٣٠٠٠	٦٠٠	٪٢٠
القليعات	٥٠٠٠	١٧٦٠	٪٣٥
مزرعة كفرذبيان	٤٠٠٠٠	١٢٠٠٠	٪٣٠
رعشين	١٠٠٠	٤٨٠	٪٤٨
حراجل	٣٥٠٠	٧٢٠	٪٢٠
اغبه	١٠٠٠	١٠٠	٪١٠
عجلتون	٤٠٠٠	٣٢٠٠	٪٨٠
وطا الجوز	١٣٠٠	٣٢٠	٪٢٤
عين الدلبه	١٠٠٠	٨٠	٪٨
درعون	٩٠٠٠	١٢٠٠	٪١٣
بقعاتة عشقوت		٧٢٠	

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦٢٧.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢١.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

تابع الجدول رقم (١)، قضاء كسروان، مديرية جبيل

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
جبيل			
عمشيت	٨٠٠٠	٩٦٠	٪١٢
جدايل	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٪١٠٠
ميفوق	٥٠٠٠	١٦٠٠	٪٣٢
حصرايل	١٥٠٠	٢٨٠	٪١٨
حبالين	٣٠٠٠	٢٨٠	٪٩
بشتليدة	٦٠٠	٨٠	٪١٣
الحصون	١٩٠٠	٦٤٠	٪٣٣
معاد	٥٠٠٠	١٢٠٠	٪٢٤
عين كفاع	٢٥٠٠	٤٠٠	٪١٦
دير القطارة		٤٠٠	
فغال	٢٥٠٠	٤٨٠	٪١٩
سقي رشميا		٢٨٠	
فتري	١٠٠٠	١٦٠٠	٪١٦٠
جاج	٧٠٠٠	١٦٠٠	٪٢٢
بخعاز	١٠٠٠	٢٤٠	٪٢٤
بنتاعل	٥٠٠	٤٠٠	٪٨٠
كفركدة	١٥٠٠	٢٠٠	٪١٣

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
شموت	١٠٠٠	٨٠	٪٨
عبيدات	٦٠٠٠	١٩٢٠	٪٣٢
شامات	١٠٠٠	٢٤٠	٪٢٤
غرزوز	٥٠٠٠	٦٤٠	٪١٢,٨
الراموط	١٠٠٠	٣٢٠	٪٣٢
شيخان	١٠٠٠	٣٦٠	٪٣٦
المنصف	٥٠٠٠	١٢٠٠	٪٢٤
طورزيا	٥٠٠	١٢٠	٪٢٤
الكفر حجولا	٨٠٠	٥٦٠	٪٧٠
هابيل	٨٠٠	٤٨	٪٦
زبدين	١٦٠٠	٤٠٠	٪٢٥
لحفد	٣٠٠٠	١٢٠٠	٪٤٠
بجه	١٣٠٠	١٣٦٠	٪١٠٤
البربارة	٢٠٠٠	٤٤٠	٪٢٢
حجولا	٨٠٠	٤٠٠	٪٥٠
ترتج	٥٠٠٠	١٨٤٠	٪٣٦
اده	٢٠٠	٨٠٠	٪٤٠٠
بحديدات	٥٠٠	٨٠	٪١٦
حالات	١٥٠٠	٥٦٠	٪٣٧
كفون	١٠٠٠	٤٠٠	٪٤٠

المدينة	إنتاج الشرانق سنة ١٩٠٦ (أقة)	إنتاج الشرانق سنة ١٩٢٥ (أقة)	نسبتها المئوية لسنة ١٩٠٦
مشمش	٧٠٠٠	١٦٨٠	٪٢٤
كفرمسحون		١١٢	
غلبون	٢٦٠٠	٤٠٠	٪١٥
المجموع			

المصدر: ـ «دليل لبنان»، إبراهيم بك الأسود، المطبعة العثماني، بعبدا، ١٩٠٦، ص ٦٢٧.
ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢١.
ملاحظة: الأقة تساوي حوالي ١٢٥٠ غرام (أي نصف رطل أو ست أوقيات).

ثالثاً: اقتلاع أشجار التوت:

كانت هذه النتيجة الثالثة للحرب العالمية الأولى على قطاع الحرير في لبنان. وتتدرج منطقياً بعد إغلاق المغازل وانهيار تربية دود القز وإنتاج الشرانق. لأن زراعة أشجار التوت لم تعد مجدية إذ إن أوراق التوت هي مأكل دودة القز. وقد استعملت أيضاً لعلف الغنم، لكن بمردود جد متدني وفي موسم الخريف. جرت عدة تقديرات لهذه الظاهرة:

- يقول بيريل مستشار في المفوضية السامية الفرنسية في ١٩٢٢/٦/٧، (الحاشية رقم ٥، ص ٥) وبعد جولات في مناطق الإنتاج في لبنان واتصالات بالمنتجين «إن زراعة التوت وتربية دودة القز وصناعة وتجارة الشرانق» قد اختفت تقريباً في البقاع بسبب وجود زراعات أكثر ربحية وكذلك الأمر في السواحل، حيث أبدلت بزراعة الليمون (باستثناء سهل الدامور). كما اختفت في منطقة النبطية بسبب قلّة اليد العاملة ومردود زراعة الحبوب. أما في جبل لبنان فقد رافق اندلاع الحرب إهمال لزراعة التوت وزرع القمح والخضار بين أشجار التوت. أما في منطقة زغرتا فقد حوفظ على بساتين التوت.

- أما جان بيلوس وهو خبير وأستاذ مادة إنتاج الحرير في معهد في ليون - فقد أرسل ضمن البعثة الفرنسية للدراسات الاقتصادية في المشرق في أيلول وتشرين الأول ١٩٢٢. وأصدر نتيجة لذلك «تقريراً» عن إنتاج الحرير في سوريا نشرته غرفة تجارة ليون عام ١٩٢٣، فتقديراته هي تقريبية:

- إن ثلث أشجار التوت قد اقتلعت، عدى إهمال العديد من البساتين. يرجع سبب هذا الاقتلاع إلى حاجات التدفئة بحطب التوت واستعماله كوقود لقاطرات سكك الحديد، واستبدالها بمزروعات تعتبر من الضروريات كالقمح. وقد كان الاقتلاع كثيفاً قرب طرق المواصلات. وكان شبه كامل في بعض مناطق البقاع. يقول بيلوس أن ثلثاً آخراً في عدد أشجار التوت قد أهمل كثيراً نظراً إلى النقص في القوى العاملة[1].

كما قدر إسكندر النقاش عام ١٩٣٢، مساحة بساتين التوت المقتلعة بـ /٧٠٠/ دونم أثناء الحرب العالمية الأولى[2].

أما المصدر الوحيد الذي وجدناه والنابع مباشرة من تحقيق ميداني فهو تقرير «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥» باللغة الفرنسية وهو مصدر يشتمل على نتائج مسح إحصائي في قطاع الحرير أجراه المهندس الزراعي انطوان بطرس لبكي وهو مفتش مساعد في نظارة الزراعة في دولة لبنان الكبير ومساعد لمدير مختبر تربية دود الحرير في لبنان. وقد وجدنا مخطوطة هذا التقرير في غرفة مهجورة من الطابق الأرضي لمنزلنا العائلي في بعبدات - ونشرناها بمناسبة الذكرى الثلاثون لوفاة واضح التقرير أي عام ١٩٩٢.

(١) Jean Pelosse: «Rapport sur la sériciculture en Syrie» - (Présenté à la suite de la première Mission Française d'Etudes Economiques en Orient), Septembre-Octobre 1922, publié par la Chambre de Commerce de Lyon-Lyon, 1922,.P. 3-4.

(٢) إسكندر نقاش، مصدر سابق، ص ٧.

وفي الموضوع الذي يهمنا في هذا البحث استخرجنا المعلومات المتعلقة باقتلاع أشجار التوت أثناء الحرب العالمية الأولى في كل قرية من قُرى دولة لبنان الكبير. وجمعنا هذه المعلومات على أساس الناحية (أو المديرية) وهي الوحدة الإدارية الأولى في المحافظة والتي تضم عدد من القُرى والبلدات.

وتفرض نتائج هذه العملية في الجدول رقم ٣ حيث نبرز عدد الأشجار المقتلعة في كل مديرية ونسبة هذا العدد إلى مجموع الأشجار الموجودة عام ١٩١٤. فنجد ما يلي[1]:

- النسب الأعلى للاقتلاع هي في البقاع: (طليا ٩٠٪، راس بعلبك ٨٥٪، زحلة ٨٥٪)، يليها الجنوب: (مرجعيون ٧٥٪)، ثم ساحل كسروان ٦٥٪، جبيل ٦٠٪. وهذه المناطق هي إما على طول سكك الحديد: زحلة - بعلبك - حمص - وإما ساحلية: جونيه وجبيل وفرص الزراعات الأجدى متوفرة.

- النسب الأدنى للاقتلاع كانت: سير ٣٥٪، بسكنتا ٣٣٪، عين زحلتا ٢٢٪، دير الأحمر ٣٠٪. وهذه المناطق مناطق جردية ذات ارتفاع عالي عن سطح البحر وبعيدة عن السواحل وطرق المواصلات. (للتفاصيل راجع الجدول رقم ٢).

(١) Antoine Boutros Labaki: «Statistique Séricicole 1925», Edité par Janine Ghosn et Boutros Labaki - C.E.R.D.- Beyrouth, 1992.

الجدول رقم ٢

عدد أشجار التوت المقتلعة سنة ١٩٢٥ ونسبتها لسنة ١٩١٤

المحافظة : طرابلس

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
طرابلس	—	ـ ٥٠٪
سير	٣٠	ـ ٣٥٪
القبيات	—	ـ ٥٠٪
زغرتا	٣٢٠٠	ـ ٤٥٪
حلبا	—	—
المجموع	٣٢٣٠	

المحافظة : البترون

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
بشري	٢٠٠	
دوما	٥٠٠	
أميون	٣١٥٠	
البترون	١٠٥٠	
المجموع	٤٩٠٠	

المحافظة : كسروان

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
جونية	٢١٠٠	ـ ٦٠٪
جبيل	—	ـ ٦٠٪
قرطبا	٢٢٠٠	ـ ٣٥٪
كفور	٢٦٠٠	ـ ٥٥٪
ريفون	٣٢٥٠	ـ ٥٠٪
المجموع	١٠١٥٠	ـ ٥٢٪

المحافظة : المتن

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
بحنس	٣٢٠٠	ـ ٥٠٪
بكفيا	٤٥٠	ـ ٥٥٪
بسكنتا	١٠٠	ـ ٣٣٪
حمانا	٢٠٠٠	ـ ٤٠٪
المجموع	٥٧٥٠	ـ ٤٥٪

محافظة بيروت: عدد أشجار التوت المقتلعة ١٥٠٠ (سنة ١٩٢٥).

المحافظة : الشوف

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
عين زحلتا	٠٠٠	ـ ٢٢٪
الشويفات	٣٥٠	ـ ٤٠٪
شحيم	٠٠٠	
رشميا	٠٠٠	
المختارة	١٢٠٠	
بعقلين	٠٠٠	
عاليه	٠٠٠	
المجموع	١٥٥٠	

المحافظة : دير القمر

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
دير القمر	١١٥٠٠	

المحافظة : صيدا

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
صيدا	٠٠٠	
عدلون	٠٠٠	
نبطية	٠٠٠	
جزين	٥٠	
المجموع	٣٢٣٠	

المحافظة : صور ـ عدد أشجار التوت المقتلعة سنة ١٩٢٥ هي ٢٠٠٠ شجرة ونسبتها لسنة ١٩١٤ متدنية .

المحافظة : مرجعيون

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
مرجعيون	—	ـ ٨٥٪
حاصبيا	—	ـ ٤٠٪
المجموع	—	ـ ٦٠٪

المحافظة : بعلبك

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
بعلبك	—	—
طليا	—	ـ ٩٠٪
دير الأحمر	—	ـ ٣٠٪
الهرمل	—	ـ ٥٠٪
راس بعلبك	—	ـ ٨٥٪
المجموع	—	ـ ٨٠٪

المحافظة: زحلة

المديريات	عدد أشجار التوت المقتلعة	نسبتها لسنة ١٩١٤
زحلة	—	ـ ٨٥٪
صغبين	٢٠٠	ـ ٤٥٪
قب الياس	—	ـ ٤٠٪
راشيا	—	ـ ٥٥٪
المجموع	٢٠٠	ـ ٥٦٪

المصدر: «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، بيروت ١٩٩٢، ص: ٥ ـ ٧٣.

ماذا نستنتج؟

إن متصرفية جبل لبنان بشكل خاص ولبنان بشكل عام كان قد خضعا في القرن التاسع عشر لعملية تخصيص في إنتاج أحادي هو إنتاج شرانق وخيط الحرير لتصديره بشكل متصاعد إلى عاصمة صناعة الحرير الفرنسية إلى مدينة ليون. وذلك بعد ارتفاع أسعار إنتاج الشرانق والحرير في فرنسا نتيجة لارتفاع مستوى المعيشة فيها الناتج عن الثورة الصناعية الأولى والتحركات العمالية (انتفاضة عمال نسيج الحرير عام ١٨٣٦) في ليون.

فضل صناعيو وتجار الحرير الفرنسيين تخصيص مناطق خارج فرنسا لهذا الإنتاج حيث الكلفة أقل بسبب مستوى المعيشة الأدنى. وكان لبنان من هذه المناطق.

كما جرى تدمير صناعة وحرف نسيج الحرير في لبنان وبر الشام بعد معاهدة بلطا ليمان ونتيجة لمنافسة المنسوجات الغربية والصينية واليابانية التي أدخلها الغربيون إلى بلادنا بعد افتتاح قناة الشويس عام ١٨٦٩ وانخفاض أسعار النقل بسبب انتشار الملاحة البخارية.

فأصبحت المتصرفية مزرعة كبرى لإنتاج الحرير والشرانق لليون.

وعندما انقطعت هذه الصلة مع بدء الحرب العالمية الأولى، ضرب هذا القطاع التابع فقط للقطب الليوني ولم يستطع التكيف مع الوضع الجديد. وقد أثرت ظروف الحرب الأخرى على هذا الخراب، كما أن هذا الخراب قد أثر سلباً على مستوى المعيشة وساهم بالإفقار والمجاعة والهجرة.

ملحق ـ أ ـ: معامل الغزل قبل وبعد الحرب العالمية الأولى

البلدة	المالك	المستثمر	عدد الخلاقين (المراجل)	
			١٩١٢/١٩١٣	١٩٢٥
محافظة بيروت				
الحدث	بستاني	بستاني	٤٠	٤٤
سيبني	أسعد خليل	أسعد خليل		٤٠
برج البراجنة	رزق الله شقال/ يوسف بيضون	رزق الله شقال/ يوسف بيضون	٤١	٤٤
كفارشيما	ميشال كلارجي	ميشال كلارجي	٦١	٦٢
شياح	فارس غصن	فارس غصن		١٠
حارة حريك	دكاش	دكاش	٤٤	٦٠
العصفورية	طنوس حلو/عبد القادر غندور	طنوس حلو/عبد القادر غندور	٨٠	٥٥
الحازمية	بطرس صدق	بطرس صادق	٥٠	٥٤
وادي شحرور	توقف منذ الحرب			
سن الفيل	إسكندر أبي عكر	إسكندر أبي عكر	٥٠	٦٠
محافظة طرابلس				
القبيات	د. كاسيني	د. كاسيني	٥٥	٥٥
	فرعون	فرعون	٦٠	٣٠
محافظة زحلة				
المريجات	محمد مسعود	محمد مسعود		١٢
محافظة دير القمر				
معاصر بيت الدين	صالح نعمه وأولاده	صالح نعمه وأولاده	٧٠	٥٠
بنويتي	أولاد سليمان خطار	أولاد سليمان خطار		٤٠
محافظة صيدا ـ توقف منذ الحرب				
محافظة الشوف	بطرس هيكل	بطرس هيكل	١٠٤	١٠٤

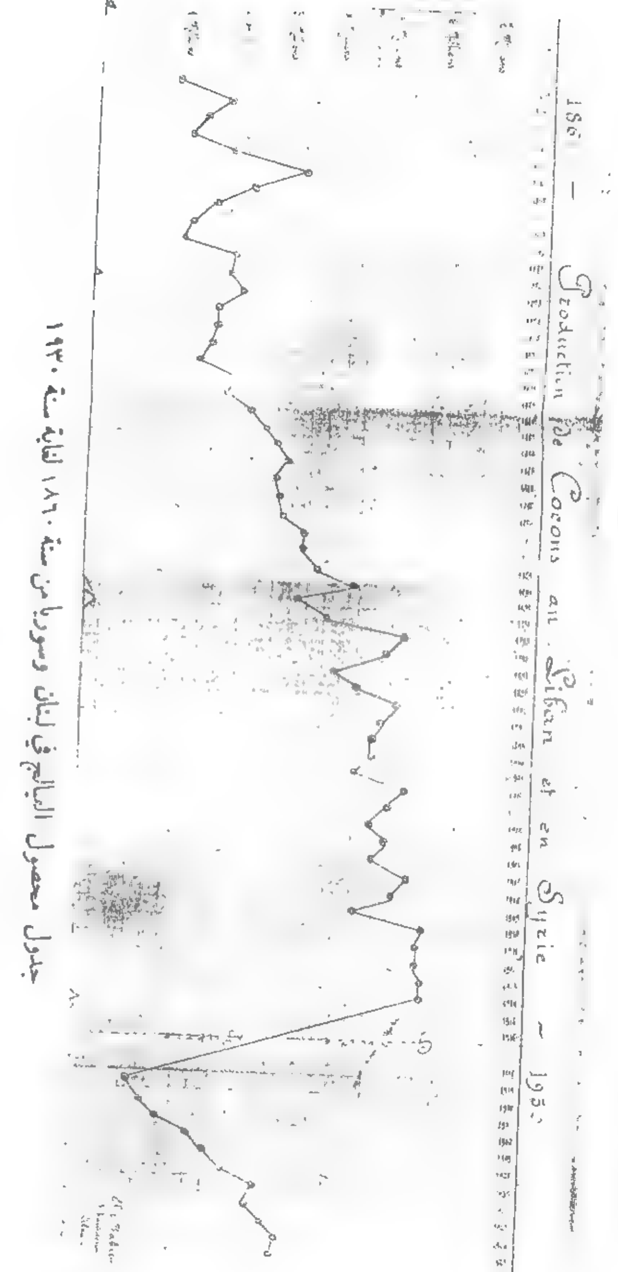
البلدة	المالك	المستثمر	عدد الخلاقين (المراجل)	
			١٩١٢/١٩١٣	١٩٢٥
الدامور	الياس صباغ	الياس صباغ	٥٢	٧٠
	دير الناعمة	نعيم عون/ أسعد طوبيا	١٠٤	١٠٠
بعقلين	سعيد أبو إسماعيل/ قاسم إبراهيم	سعيد أبو إسماعيل/ قاسم إبراهيم	٣٠	٤
رشميا	الشيخ الخوري	الشيخ الخوري	٦٠	٦٠
مغوايا	صالح نعمه وأولاده	صالح نعمه وأولاده	٨٠	٧٧
عين تراز	عائلة السعد	عائلة أسعد	١٢٠	٦٠
بحمدون	بدورة	بدورة	٢٥	٩٠
دوير الرمان	إبراهيم رباط وأولاده/ طنوس الخوري وأولاده	إبراهيم رباط وأولاده/ طنوس الخوري وأولاده	٤٠	٤٤
كفر عمي	أمين عساف	أمين عساف	٦٠	٦٠
محافظة المتن				
بحنس	سليم راشد	سليم راشد	١٠	١٢
بعبدات السفيلة	الياس لحود وأولاده	الياس لحود وأولاده	١٤٦	١٨٠
الزلقا	هادي ملحم إبراهيم	هادي ملحم إبراهيم	٢٥ (توقف ١٩١٤)	٢٥
بيت مري	الشيخ أسعد محمود نجار	الشيخ أسعد محمود نجار	٥٠ (توقف ١٩١٤)	٥٠
برمانا	خليل الأشقر	خليل الأشقر	١٢٠	١٢٠
جورة البلوط	عبدو مارون	عبدو مارون	٢١٥	٦٠
المسقى	سمعان غصن	سمعان غصن	٤٧	٤٤
رومية	نجم كنعان	نجم كنعان	٥٠	٥٠
بيت شباب	الشيخ أسعد طوبيا	الشيخ أسعد طوبيا	١٠٠	٨٠
جل الديب	زلزل	زلزل	٥٢	٥٢

البلدة	المالك	المستثمر	عدد الخلاقين (المراجل)	
			١٩١٣/١٩١٢	١٩٢٥
بيت الككو	فارس	فارس	٤٠	٤٠
عين علق	إسكندر الحايك	إسكندر الحايك	٤٠	٥٠
عين عار	الشيخ الياس يوسف مكرزل	الشيخ إلياس يوسف مكرزل/ يوسف حليم	٩٠	٤٠
انطلياس	طعمة	طعمة	١٠٠	١٠٠
بسكنتا	إسكندر هراوي ويزبك ضو	إسكندر هراوي ويزبك ضو	٢٠٢	١٩٦
زبوغة	أسعد طوبيا/ روفايل خوري مارون	أسعد طوبيا/ روفايل خوري مارون	٧٨	٣٨
عين القبو	عقل بو طراد	عقل بو طراد	٥٠	٥٠
شوير	صابر الحلبي	صابر الحلبي	٥٠	٥٠
المتين	أقفل المعمل			
بتغرين	صليبا	صليبا	٢٧	توقف
الخنشارة	رياشي وسماحة	رياشي وسماحة	٩٠	توقف
القعقور	مطرانية قبرص المارونية	قاسم شاهين	٥٠	٥٠
حمانا	حبيب طنوس شديد	حبيب طنوس شديد	١٩٠	١٠٥
جويكات (حمانا)	حبيب زغزغي	حبيب زغزغي	٦٠	٦٠
الكنيسة	الشيخ عبد الله الخوري	الشيخ عبد الله الخوري	٦٠	٦٠
أرصون	أيوب منصور	أيوب منصور	٤٠	٤٠
عين حمادة	مورغ دالغ	مورغ دالغ	١٧١	١٧١
شبانية	ملحم صباغ	ملحم صباغ	٢٠	٢٠
بزبدين	حبيب زياده	حبيب زياده	٢١٤	١٣٦
حاصبيا	نصار إلياس	نصار إلياس	٩	٤٠

البلدة	المالك	المستثمر	عدد الخلاقين (المراجل)	
			١٩١٣/١٩١٢	١٩٢٥
دير الحرف	نجيب نعوم بو جوده/ عبود رزق الله	نجيب نعوم بو جودة/ عبود رزق الله	٤٥	٤٥
راس المتن	خليل الخوري	خليل الخوري	٩٥	٧٠
راس الحرف	كرم سليمان رامح	كرم سليمان رامح	٥٩	٥٩
صاليما	طانيوس بشور ـ محمد محمود المصري	طانيوس بشور ـ محمد محمود المصري	٢٦٥	٢٧٠
العبادية	أولاد ضاهر نجم	أولاد ضاهر نجم	٤٠	٤٠
القرية	أرملة غيران وأولادها	أرملة غيران وأولادها	٥٥٨	١٥٦
محافظة البترون				
شكا	الخوري يوسف المكّش	الخوري يوسف المكّش	٤٠	٤٠
بطرام	إبراهيم صقر	إبراهيم صقر	١٠٠	٤٠
كفرحزير	حبيب وإبراهيم المعلم	حبيب وإبراهيم المعلم	٤٨	٤٠
بشمزين	إسكندر الحايك	إسكندر الحايك	٢٧٠	٢٨٠
المجموع			٥١٥١	٤٠١٨

المصدر: ـ «ستاتستيك الحرير ١٩٢٥»، انطوان بطرس لبكي، تحرير جانين غصن وبطرس لبكي ـ منشورات مركز الدراسات والمشاريع الإنمائية (CERD) ـ بيروت ١٩٩٢، ص: ٣ ـ ٤.
ـ «مدخل إلى تاريخ لبنان الاقتصادي: الحرير والتجارة الخارجية في آخر العهد العثماني ١٨٤٠ ـ ١٩١٤»، بطرس لبكي، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨٤، ص: ٣٩٢.

ملحق رقم - ب -



جدول محصول البالج في لبنان وسوريا من سنة ١٨٦٠ لغاية سنة ١٩٣٠

محاولات المقاومة المسلحة في متصرفية جبل لبنان في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ضد السلطنة العثمانية

الدكتور جوزيف أنطون لبكي

مدخل

قال المؤرّخ يوسف مزهر: «مع كل ما نزل في اللبنانيين من البلايا والمصائب، لم يحرّكوا ساكناً، ولم تبدر منهم بادرة للثورة والمقاومة في الحرب العالمية الأولى، فمتى كان اللبنانيون ينامون هكذا على الضيَم ويستسلمون للقدر»[1].

ورسخ هذا الاعتقاد في ذهن الباحثين والعامّة، واعتبروا أنّ اللبنانيين لم يُظهروا أية محاولة عسكرية أو رغبة مسلّحة ضد الوجود العثماني في متصرفيتهم في فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) رغم ما عانوه من ويلات ومجاعة واضطهاد وتعدٍ وقتل ومصادرة للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من دون أن يدرس هؤلاء الظروف والأحوال التي حالت دون القيام بذلك في حين أن بعض المهاجرين تطوع إلى جانب الفرنسيين والإنكليز المعادين للسلطنة العثمانية.

لكن هذا الاعتقاد ليس دقيقاً ولا مطلقاً، إذ تبيّن بعد البحث والتقصّي بأن اللبنانيين، بطريركاً وقادة رأي وشعباً، حاولوا الوقوف في بداية الأمر مع

(١) يوسف مزهر، تاريخ لبنان العام، الجزء الثاني، لا تاريخ ولا ذكر للمطبعة، ص ٨٥٤.

الفرنسيين أولاً لسماعدتهم، ثم الوقوف فيما بعد، في وجه السلطنة عسكرياً قدر ما سمحت لهم ظروف الحرب الأولى وواقعها.

وظهر ذلك بالرغبة في التطوع لدى الموارنة، في الجيش الفرنسي بعد اندلاع الحرب الأولى في حزيران العام ١٩١٤ بين ألمانيا والنمسا من جهة وفرنسا وإنكلترا وروسيا من جهة أخرى، وقبل دخول السلطنة العثمانية الحرب بجانب الألمان، فهزّت الحمية اللبنانيين، وهم يذكرون لفرنسا أياديها البيضاء في لبنان، وأمّت وفود مسيحية شعبية[١] منهم دار القنصلية الفرنسية في بيروت، وفي طليعتها الزغرتاويون، وقابلوا قنصل فرنسا العام جورج بيكو وقدّموا له عريضة دبجَها المؤرّخ جواد بولس ووقّعها الخوري مخايل المكاري وبطرس بشاره كرم وقبلان فرنجيه وميشال معوض وأسعد الدويهي وأسعد بولس وغيرهم من وجوه زغرتا وأعيانها، تُعرب عن استعدادهم للتطوع في الجيش الفرنسي.

فشكر بيكو للزغرتاويين حمّيتهم واستمهلهم لمخاطبة حكومته ثم أجابهم بأن ظروف الساعة غير مؤاتية لقبول التطوّع مع تقدير الحكومة الفرنسية لنخوتهم[٢].

ولم يقتصر الأمر على هذا العرض بل وسّع الوفد غايته وطالب بأسلحة (٣٠ ألف بندقية) لمقاومة أيّ تعدٍّ تركي يمكن أن يحصل على أرض متصرفية جبل لبنان[٣].

---

(١) يعود عطف الموارنة نحو فرنسا إلى عاملين أساسيين: الأول يكمن في علاقتهم التقليدية بها واعتبارها صديقة ومحامية ومنقذة لهم لا سيّما من مذابح العام ١٨٦٠، والثاني تخوّفهم من دخول الجيش التركي جبل لبنان والإطاحة بنظام المتصرفية الذي اعتبروه انتصاراً لمبدأ اللامركزية وضمانة لهم.

(٢) يوسف السودا، في سبيل الاستقلال، الجزء الأول، في وادي النيل ١٩٠٦ ـ ١٩٢٢، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان ١٩٦٧، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) FRANCE M.A.E., Guerre 1914-1918, Turquie, Vol 867. «Lettre de Defrance au Caire du 5 Novembre 1914 aux Affaires étrangères en se basant sur le télégramme de Picot», P. 26.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى حاول بعض الموارنة والأرثوذكس اللبنانيين الاتصال بحكومة اليونان بواسطة قنصلها في بيروت وطلبوا أسلحة منها بهدف:

- مقاومة الأتراك.
- تسهيل نزول الحلفاء أيّ الفرنسيين والإنكليز، إذ ما رغبوا، على الشاطئ اللبناني[١].

وما لجوء هؤلاء ولا سيّما الأرثوذكس للاتصال بالحكومة اليونانية إلاّ من قبيل العطف اليوناني الديني على الأرثوذكس في لبنان وعدائهم التاريخي للسلطنة العثمانية.

وما إن دخلت تركيا الحرب ضد فرنسا وإنكلترا حتّى بلّغ القنصل الفرنسي بيكو في لبنان قنصل اليونان، التي كانت دولته محايدة حتّى تلك الأونة، والذي كان لا يزال قنصلها في بيروت، بأن الفرنسيين سيسلّمونه السلاح ليزود بها المنتفضين من اللبنانيين في حال قرّرت فرنسا القيام بعملية عسكرية في لبنان. لكن الحكومة الفرنسية خالفت رأي قنصلها ولم توافق على تسليح المسيحيّين في لبنان[٢].

هذا ونشطت حركة تطوّع اللبنانيين مع الفرنسيين في القطر المصري

---

(١) FRANCE M.A.E., Guerre 1914-1918, Turquie, Vol 867. «Lettre de l'Ambassadeur de France à Athène» du 3 décembre 1914, aux Affaires étrangères, P. 82.

(٢) كان القنصل جورج بيكو، الذي أصبح فيما بعد أوّل مفوّض سام على لبنان وسورية من ٩ نيسان ١٩١٨ حتى ٨ تشرين الأول ١٩١٩، منذ اندلاع الحرب في أوروبا يرغّب الحكومة الفرنسية في اغتنام الفرصة واحتلال سورية بحجّة حماية المسيحيين في لبنان الذين طالبوا بتسليحهم. وقد أوحت أجواء بيكو للبنانيين المغتربين بعد رحيله من بيروت في أواخر العام ١٩١٤ وتوقفه في الإسكندرية في طريقه إلى فرنسا، بأنّ الجنود الفرنسيين سينزلون قريباً في لبنان. وبالفعل، أرسلت فرنسا جيشاً بقيادة الجنرال دامار ونزل في الإسكندرية على أهبة الزحف إلى سوريا ولبنان، إلاّ أن القيادة البريطانية في مصر عطّلت مهمّة هذا الجيش لأسباب سياسية، راجع يوسف السودا، في سبيل الاستقلال، ص٦٧.

للقتال معهم في ساحات الحرب منذ بدايتها[١] حتى أن بعض المتطوعين اللبنانيين قتلوا في معركة الدردنيل[٢] عام ١٩١٥.

تركيا ولبنان: حذر وشك وإتهامات متبادلة

كانت تركيا تخاف من تمرّد مسيحيي جبل لبنان ومن غزو حليف للساحل اللبناني في غياب أسطولها، فيتمكّن الحلفاء عندها من أن يقطعوا طريق الإمدادات من الشمال لمساندة قوّات جمال باشا. وزاد من هذا التخوّف ما ذكرته جريدة «Le matin» الفرنسية، الصادرة في باريس، خبراً لمراسلها يتلخّص «في كون البطريرك الماروني قد أكّد له استعداد ستة آلاف ماروني مسلّح للعمل يداً واحدة مع الجند الفرنسي فور احتلاله الساحل اللبناني»، فطلب الصدر الأعظم إلى متصرف جبل لبنان أوهانس باشا التحقيق والجواب. فما كان من المتصرّف إلاّ أن عَهِد إلى أحد قادة الجند اللبناني فؤاد شقير القيام بالتحقيق سرّاً، فقام بمهمّته، وتوجّه إلى المقرّ البطريركي في بكركي، فلم يظفر بما يُحتمل معه تصديق الخبر، فأفاد المتصرف الصدارة العظمى بأن «الخبر الذي نشرته جريدة «Le matin» الفرنسية غير صحيح، وأن اللبنانيين وعلى رأسهم البطريرك مقتنعون باستقلالهم الإداري في ظل العلم العثماني، وهم لا يرتضون عنه بديلاً، أما عواطفهم نحو فرنسا فهي من قبيل الإقرار بالجميل الذي كانت تسديه إليهم بمدارسها ومستشفياتها، فإذا شملتهم الدولة العليّة في الظرف الراهن بعطفها الأبوي قطعوا كل صلة لهم بأيّة دولة أجنبية[٣].

(١) جريدة دير القمر، عدد ١٢١، في ٢ أيلول ١٩١٤، وقد ذكرت بأن هناك ثلاثين لبنانياً يقيمون في مصر تطوّعوا مع الفرنسيين.
(٢) مجلة صوت الرعية، تصدر عن بيت الشباب ـ بعبدات، عدد ٢٥، نيسان ١٩٨٠، ص ١٠، وتذكر بأن نعيم شبل ناصيف صالح الشرباتي قد توفي في معركة الدردنيل.
(٣) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، الطبعة الثانية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

وكتب أوهانس باشا إلى البطريرك يخبره بكتاب الصدارة العظمى راجياً منه الإفادة. فما كان من البطريرك الياس الحويك إلاّ أن أجابه برسالة في ٧ تشرين الأول ١٩١٤ يستغرب فيها رواية جريدة «Le matin» الفرنسية ونسبتها تلك الأخبار إليه «والجريدة أجنبية عنا لا علاقة لنا معها، ولا صلة لها بنا، ولا رأينا مُخبرها في بيروت، ولا نعلم من هو، ولم نطّلع على الرواية المنوّه بها، وأن نسبتها إلينا هي غير صحيحة، وعليه، «لم نكن نتوقّع من رجال دولتنا العظام أن يصدّقوا ما روته تلك الجريدة»... وأَمِل من المتصرف إيصال الحقيقة إلى الصدارة العظمى، ويُظهِر البطريرك الولاء والإخلاص[١]...

وممّا زاد الشك لدى العثمانيين في موقف اللبنانيين، بعد دخولهم الحرب الأولى إلى جانب ألمانيا، كثرة عدد المتطوّعين[٢] منهم في المهجر مع الجيش الفرنسي، والعثور على رسائل من المهاجرين إلى ذويهم في جبل لبنان مليئة بالطعن على تركيا، وتتضمن معلومات سياسية وتُبشّر بقرب اللقاء، فضلاً عن فرار فريق من اللبنانيين من التجنيد في الجيش العثماني وهروبه إلى

(١) يوسف مزهر، تاريخ لبنان العام، الجزء الثاني، ص ٨٥٥.
(٢) Jamal PASHA, La Vérité, P.P. 124-5 and FO 141/526, n° 11056, report on Lebanon 10 January 1915.
Upon the outbreak of the war, Maronite emigrants in Egypt attempted to organise a force of volunters, but they Were discouraged by the British. They also sent representatives to Greece and obtained the agreement of the greek government to sell arms and ammunition and to ship them to Lebanon provided that safe conduct throught the british Blockade was assured. See Tibawi, A.L., A modern History of Syria, London, 1969, P. 213-214.
جمال باشا، الحقيقة، ص ١٢٤ ـ ١٢٥؛ وزارة الخارجية البريطانية ٥٢٦/١٤١، رقم ١١٠٥٦، أنباء لبنان، ١٠ ك٢ ١٩١٥. خلال استعار نار اندلاع الحرب، حاول اللبنانيون المهاجرون إلى مصر تنظيم قوة من المتطوعين، لكن بريطانيا لم تشجعهم على ذلك، كما بعثوا بممثلين عنهم إلى اليونان وحصلوا على موافقة الحكومة اليونانية بأن تبيعهم أسلحة وذخائر وإرسالها إلى لبنان وتأمين طريقها عبر الحصار البريطاني انظر تيباوي، أ.ل.، تاريخ سوريا الحديث، لندن ١٩٦٩، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

الجبال اللبنانية. ومما عزّز الريبة لدى العثمانيين مشاهدة اللبنانيين دارعة حربية روسية، مرّت بسرعة، في ثغر بيروت، ورؤية سفن في عرض البحر من دون أن تقترب من الساحل، فظنّ الأهلون أن مجيئها مقدّمة لتحقيق وعد قنصل فرنسا بيكو قبيل مغادرة بيروت في بداية الحرب، بأن نزول الجيوش الفرنسية إلى البر السوري واللبناني بات وشيكاً، ما أقلق رجال السلطة العسكرية فأقامت الدولة العثمانية استعداداتها واستحكاماتها لصد الأعداء[1].

وعبّر جمال باشا في مذكراته عن هذا الجو قائلاً «في هذا الوقت انتشرت أفكار في عموم سوريا وبيروت مفادها أن مسيحيي لبنان سيتمردون في المستقبل القريب. وقد نَصَحَتْ أطرافٌ عديدة (السلطنة) بإلغاء الحقوق المتميّزة للبنان والطلب إلى الأهالي أن يُسلّموا أسلحتهم. وقد قِيل أنه يوجد ٥٠ ألف بندقية حديثة في لبنان»[2].

وفي مكان آخر، ادّعى جمال باشا أنّه قبل الحرب، اتصل عدد من أعضاء المقاومة اللبنانية، وأعضاء من الجمعية اللامركزية، بممثلي فرنسا في مصر طالبين المساعدة في تنظيم ثورة في لبنان، وأنهم وُعدوا بعشرين ألف بندقية ومساعدات مالية وبدعم الأسطول الفرنسي لهم[3]، ونتيجة لهذا التخوف، تلقّى حاكم جبل لبنان برقية من قائد الفيلق الرابع زكي الفاروقي المقيم في دمشق تتضمن «وجوب إرسال الأسلحة المحفوظة في مستودع دير القمر إلى دمشق مع الإيعاز إلى الشيخ خليل الخازن، الرئيس في الجند اللبناني قائد موقع عاليه لمقابلته»[4] فأجابه المتصرف: «إن الأسلحة التي

(١) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٥٩ ـ ١٦٠، ومجلة الحرب العظمى، المجموعة التاريخية المصوّرة، مجلة أسبوعية مصوّرة، المجلد الأول، جزء ١٥، ص ٢٩.

(٢) جمال باشا، مذكرات، ص ٢٠٢.

(٣) Jamal Pacha, la Vérité, P.P. 124-125.

(٤) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ هذا وجرت مداهمات إثر دخول تركيا الحرب.

تأمرون بإرسالها إلى دمشق غير صالحة للاستعمال نظراً لقدمها وهي محفوظة بمستودعها في دير القمر كآثار عتيقة وأرى من الواجب عليّ لفت نظر دولتكم أن نقلها من محلها في الظروف الراهنة يثير شكوك الأهلين ويعيد إلى ذاكرتهم حوادث العام ١٨٦٠ الأليمة من دون أن يكون في نقلها أيّة مصلحة للدولة. أما الرئيس الشيخ خليل الخازن فسيسافر غداً امتثالاً لأمركم، وأرجو أن تأمروه بالعودة إلى مقر وظيفته»[1].

صحيح أن زكي باشا صرف النظر عن الأسلحة المطلوبة وأعاد الضابط اللبناني إلى مركز عمله، غير أن الشكوك كانت تراود اللبنانيين فيما يمكن أن تقوم به الحكومة العثمانية من قضاء على امتيازهم الخاص، وجاءت برقية تفصح عن نوايا الدولة العثمانية إلى المتصرف جاء فيها: «أصبح الأمن في جبل لبنان مختلاً ولا سبيل لضمان الراحة العامة فيه إلاّ بأن تطلبوا قوة كافية من الجيش فتدبّروا الأمر بما إمكن من السرعة»[2]. وكان الهدف من وراء ذلك احتلال جبل لبنان عسكرياً وتبديل الوضع السياسي تبعاً للوضع الحربي ومنعاً لظهور مقاومة لبنانية.

احتلال تركيا للبنان وردة الفعل العسكرية

لمنع التمرّد في الجبل، ومخافة من قيام ثورة، وللدفاع عنه ضد أي غزو محتمل من قِبل الحلفاء، تقرّر احتلال جبل لبنان، فدخل في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ إلى جبل لبنان، ١٦ ألف تركي عن طريق دمشق ـ زحلة ـ ضهور الشوير، متخذين لهم مواقع في كل أنحائه. واتبع جمال باشا الذي خلف زكي الفاروقي في القيادة العامة، سياسة متشددة تجعل قيام أية زعامة معادية له مستحيلة، فكان هدفه الأساسي إخضاع مجلس الإدارة الكبير والكنيسة المارونية الأكثر شعبية وتأثيراً في الجبل والأقوى معارضة. وبدأ في

(١) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٢) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٤٤.

مطلع العام ١٩١٥، بتقليص سلطة مجلس الإدارة، واعتقل، بعد ذلك بقليل، بعض أعضائه، ومنهم حبيب باشا السعد، ثم، حلّ مجلس الإدارة بأكمله، وعيّن مجلساً جديداً، ثمّ حلّه فيما بعد، وضغط على المتصرف أوهانس باشا في حزيران ١٩١٥ حتى استقال وعُيِّن حاكماً مسلماً مكانه يدعى علي منيف، وألغي الحكم الذاتي في جبل لبنان وحلّت مكانه إدارة عثمانية مباشرة مناقضاً في ذلك نظام البروتوكول الدولي المرفوع لمتصرفية جبل لبنان العام ١٨٦٤[1].

وشكل الديوان العرفي في عاليه، ونفى عدداً كبيراً من اللبنانيين، كما أعدم فريقاً منهم في بيروت ودمشق في شهري أيار وآب من العام ١٩١٦، وفرض الحصار البَرّي على جبل لبنان، ومنعَ سُكّانه من إرتياد مناطق البقاع وعكّار والجنوب[2]، التي كانت تخضع للسلطنة العثمانية، لشراء المواد الغذائية، وحرّم دخول الحبوب إلى الجبل، وصادر الأبنية العامّة وأديرة الإرساليات الأجنبية وحوّلها إلى ثكنٍ وقلاع، وصادر وسائل النقل، وطبّق التجنيد الإجباري (السّوقيات)، والتعامل بالنقد الورقي «بنكنوت»، الذي حلّ مكان الليرة الذهبيّة العثمانيّة فهبطت أسعار العملة التركية، فتردى الوضع الاقتصادي وانتشرت المجاعة وازداد عدد الموتى بشكل مخيف، وصودرت المؤن في الداخل، مع أن ألوف الأطنان من الحنطة مخزونة في دمشق وحلب وحوران[3]، والغاية من ذلك كلّه إضعاف إمكانية اللبنانيين الوطنية،

---

(١) مجلة الحرب العظمى، المجلد الأول، جزء ١٥، ص ٢٩ و٣٠ و٣١ مقالة بعنوان «سورية وبيروت ولبنان في الحرب العامة»، وجزء ١٦، ص ٥ و١٢.

(٢) مقابلة مع نائب صور كاظم الخليل في تلفزيون لبنان بتاريخ ١٩٩٠.

(٣) يوسف السودا، المرجع السابق صفحة ٧٩ للتفصيل حول ما عاناه اللبنانيون في فترة الحرب الأولى، راجع القسم الثاني من كتاب يوسف الحكيم، «بيروت ولبنان في عهد آل عثمان»، من ص ١٢٣ إلى ٣١١، et Edmond Rabbath «La formation historique du Liban politique et constitutionnel», Librairie orientale, Beyrouth 1986, P. 257-274. وأبحاث أخرى ودراسات منها المحاضرات التي أُلقيت في مؤتمر قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني بتاريخ ٢٩ و٣٠ آذار ٢٠٠٦ حول لبنان في الحرب العالمية =

وشل قدرتهم على المقاومة ومحاربة السلطنة وإجلاء الفئة الموالية لفرنسا عن لبنان، وذلك دفعة واحدة، وترحيل المسيحيين اللبنانيين إسوة بالأرمن من الأناضول، وقد نقل عن أنور باشا قوله: «أفنينا الأرمن بالسيف ونفني اللبنانيين بالجوع»[1]. وقام الأب الفرنسي كونري Koneri سنة ١٩١٦ بجولة استطلاعية في جبل لبنان، وركّز على تقصّي الحالة المعيشية، وزار البطريرك الذي سأله عن وضع الفرنسيين العسكري، وعن موعد مجيئهم إلى هذه البلاد معلّقاً «أيريدون أن يأتوا ليكفّنوا الموتى، أم ليحموا مَن بقيَ حيّاً؟، نحن نعرف أن العدو عندهم ولكنّنا نموت هنا شهداء حبّنا لفرنسا، هذا ذنبنا الوحيد». ورسم البطريرك الماروني أبلغ صورة عن المجاعة التي اجتاحت البلاد بقوله «إن بطريرك لبنان يتغذى من خبز الشعير»[2].

لكن اللبنانيين، رغم وضعهم الاقتصادي التاعس، وظروفهم السياسية الصعبة، لم يقفوا لا في الداخل ولا في الخارج، مكتوفي الأيدي، بل قاموا بمحاولات لوضع خطط عسكرية مسلحة بهدف مقاومة السلطنة ومنها:

١ ـ خطة البطريركية المارونية: إنقاذ لبنان من الجوع

أمام هذه الحالة التي لا تُطاق من انتقام الأتراك، كان لا بدّ من أن يتحرك الموارنة وعلى رأسهم بطريركهم إلياس الحويك الذي بقي مخلصاً لفرنسا، حتى إنه رفض طلب مساعدة النمسا حليفة تركيا، رغم طلب البعض إليه، وأجرت البطريركية إحصاء، بين شهري آب وأيلول من العام ١٩١٦،

= الأولى، ويمكن الاستفادة من بيبليوغرافيا الحرب العالمية الأولى في لبنان التي وضعها الدكتور ميشال أبي أبي فاضل.

(١) محمد جميل بيهم، العهد المخضرم في سورية ولبنان، ١٩١٨ ـ ١٩٢٥، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٨، ص ١٩٦.

(٢) FRANCE, M.A.E., Guerre 1914-1918, Turquie, Vol. 873, «Lettre du ministre de la Marine du 9 Juin 1916, aux Affaires étrangères, P. 58.

عن عدد الشباب الموارنة القادرين على حمل السلاح. وجرت اتصالات بين البطريرك، عبر أمين سرّه الخوري بولس عقل (مطران فيما بعد) بحاكم جزيرة أرواد الفرنسي Albert Trabaud حول تسليح اللبنانيين لمساعدة فرنسا في احتلال الساحل إذا ما قررت ذلك لإنقاذ لبنان من الجوع، فسلمته تقريراً خطياً جاء فيه حرفياً:

«Ce qui est maintenant disponible en fait de combattants et d'armes à Zghorta et ses environs deux mille combattants vigoureux, deux cents fusils mozer, trois cents fusils martine, cinq cents fusils grecs, vingt à vingt deux mille cartouches.

A Bcharré et ses environs: Mille combattants, actuellement présents au village, mille combattants dispersés dans la région de Baalbeck et ailleurs et qui, en vingt-quatre heures se réuniraient au village. Cinq cents combattants des environs, deux cents fusils mozer, cinq cents fusils grecs et autres, vingt mille cartouches»(١).

ومعناه بالعربية:

«ما هو حاضر بالواقع من محاربين وأسلحة: في زغرتا وجوارها ألفا محارب أقوياء، ومئتا بندقية Mozer وثلاثمية بندقية Martine وخمسماية بندقية يونانية، ومن عشرين ألفاً إلى اثنين وعشرين ألف خرطوشة ذخيرة. وفي بشري وجوارها، هنالك ألف محارب في البلدة، وألف آخرون متفرقون في منطقة بعلبك وغيرها يمكن تجميعهم بأقل من ٢٤ ساعة في بشري، وخمسماية محارب من جوارها مع مئتي بندقية Mozer وخمسماية بندقية يونانية وغيرها وعشرون ألف خرطوشة ذخيرة»(٢).

(١) France M.A.E. Guerre 1914-1918, Turquie, vol. 875. Etude d'un ravitaillement armé du Liban Présentée par Albert Trabaud, gouverneur de Rouad (Aroaud) à M. le vice-amiral, chef d'état-major général, Paris le 3 décembre 1916, P. 10.

(٢) الأب بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، الجزء الخامس، ص ٢٨٨.

ورفع ترابو إلى قيادة الأركان في فرنسا في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٦، الخطة التي قضت بأن تحتلَّ القوات الفرنسية طرابلس، لأنّها تشكّل ثغرة في التواجد العسكري التركي المتوزّع على منطقتين بين كيليكيا شمالاً وقناة السويس جنوباً، ويمكّن موارنة بشرّي وزغرتا وإهدن الإسراع إلى نجدتها بحوالي ٨٢٠٠ رجل(١).

والحقيقة أن البطريركية المارونية إذا ما شاءت هذه الحملة العسكرية فلأنها أرادت إنقاذ لبنان من الجوع، إذ كان هذا الأمر هدفها الأول، وإن أدّت هذه الخطة إلى تواجد عسكري فرنسي في سوريا ولبنان، والدليل على ذلك أن البطريرك الماروني لم يكتفِ بهذا العرض العسكري على الحكومة الفرنسية بل عرض عليها مشروعاً آخر يقضي برهن أراضي الأديار والكنيسة المارونية للحكومة الفرنسية مقابل مليون فرنك فرنسي ذهباً كي يُطعم الجياع، ولكنَّ الحكومة الفرنسية لم توافق على ذلك لأنّ الأمر برأيها لن يبقى سريّاً، ولأنّها كحكومة لا يمكن أن تتعامل كالشركات التجارية ترهن أو تبيع أو تشتري، واكتفت الحكومة فقط بإرسال إعانات ماديّة متقطّعة للبطريرك، كي يطعم الجائعين ويوزّعها على المحتاجين وينقذ من يمكن إنقاذه من الموت المحتم.

ولم يشأ الفرنسيون بالرغم من أن هدفهم تعزيز تواجد قواهم العسكرية في سوريا، أن يُرسلوا حملة عسكرية إلى لبنان لإنقاذه، لتخوّفهم من عدم نجاحها، ولكي لا يعرّضوا نفوذهم وحلفاءهم الموارنة للخطر، فحاذروا الأمر بسبب وضعهم العسكري القلق في حربهم ضد الألمان(٢)، بحيث كانت

(١) France M.E.A. Guerre 1914-1918 Turquie vol 875, Ibid, P. 13 et 15.

(٢) محاضرة الدكتور انطوان حكيم بعنوان «لبنان في الأرشيف الفرنسي»، ألقيت في الجامعة اللبنانية ـ الأميركية في بيروت بتاريخ ١٠ كانون الثاني ٢٠٠٥.

تجري أشد المعارك وأقساها على أراضيهم، إذ استقطبت الجبهة الغربية كل الطاقات الفرنسية والدعم الفرنسي، حتى إن مساهمة فرنسا في الحملة على فلسطين وسوريا والعراق ولبنان، كانت وضيعة جداً في بداية الأمر، واقتصرت على حوالي ألفي جندي بقيادة دو بيابابPiépape ، كلّفت بحراسة الأماكن المقدّسة في فلسطين، ثم عزّزت هذه القوات في أواخر سنة ١٩١٧، في حين خصّصت إنكلترا لمعركة فلسطين أكثر من ٥٠٠ ألف رجل[١]، تخوّفت فرنسا من أن تلحق بهم خسارة، كالتي مُنوا بها في حربهم ضد الأتراك في معركة الدردنيل سنة ١٩١٥ وهي تدرك صعوبة مقاومة اللبنانيين بسبب الجوع والضيق في عيشهم، إذ كان قد توفي منهم حتى العام ١٩١٦، حسب ترابو، ٤٥ ألف شخص في جبل لبنان، لأسباب كثيرة منها سياسة الحصار العثماني الهائل الذي تمثّل بمنع سكانه من شراء المواد الغذائية التي كانوا بأمسّ الحاجة إليها من البقاع والجنوب وعكار وبيروت التي كانت تخضع مباشرة للحكم العثماني، ومع ذلك، لم تسقط فرنسا من حسابها، رغبتها الدائمة في احتلال الشاطئ الشرقي للمتوسط.

٢ ـ التطوّع في الوطن والمهجر

رأت فرنسا، بعد إحجامها عن تنفيذ الحملة المطلوبة، وكبديل لها، أن تشرك السوريين واللبنانيين فعلياً في تحرير بلادهم، فأنشأت لهم «فرقة الشرق» التي تألفت من ألوف المتطوعين الراغبين في تحرير بلادهم من الأتراك والقتال إلى جانب الحلفاء بقيادة فرنسية، وضمت الفرقة ألوف

(١) Gustave Gautherot, La France en Syrie et en Silicie, Paris, Librairie indépendante, 1920, P. 25, et France, M.A.E., Guerre 1914-1918, Turquie, Vol. 876, «Lettre de M. Ribot, président du conseil et ministre des Affaires étrangères, le 2 Avril 1917, au commissaire français en Syrie et en Palestine M.G.F. Picot, P. 133 et verso.

المتطوعين من مصر والمهاجر[١].

وذهب لبنانيون إلى جزيرتي أرواد وقبرص ومنها إلى مصر حيث شكّلوا فرقة خاصّة حاربت بجانب الحلفاء واتخذت علماً أبيض عليه رسم جبل لبنان والأرزة وشمس الحرية ساطعة فوقها، واشتركت بشجاعة في معارك عديدة، ومكثت في الخدمة حتى حُلّت في العام ١٩٢٠. في موازاة ذلك التحق فريق آخر من اللبنانيين بجيش الشريف حسين ملك الحجاز لمقاتلة الأتراك حتى أن بعضهم وقعوا في الأسر وهم يقاتلون في صفوف الجيش العربي[٢].

وكانت غاية الفريقين، سواء أقاتلوا في صفوف الجيش الفرنسي أم في الجيش العربي، الإسهام في تحرير بلادهم، من دون أن يعلموا ما سوف تؤول إليه حالته السياسية، وما يخبّئ له المستقبل[٣]، في حين أنَّ فريقاً ثالثاً بقي متخوّفاً من انتقام الأتراك من أهلهم اللبنانيين، إذا ما شاركوا في القتال، قبل وصول الحلفاء فعلياً إلى لبنان، ورفض القتال مع الحلفاء أو مع العرب لأنه يرفض الحماية الفرنسية أو ضمّ لبنان إلى سوريا أو إلى الوحدة العربية لأنه يريد القتال لأجل تحرير لبنان واستقلاله الكامل من دون وصاية فرنسية أو عربية[٤]. وكانت جمعية الاتحاد اللبناني في مصر ولا سيّما المفكّر يوسف السودا في طليعة الداعين إلى تبنّي هذا النهج الاستقلالي الحرّ.

(١) France M.E.A., 6n 197, Fonds Clémenceau, Levant 1917-1921, Lettre du ministre de la guerre M. Painlève du 9 sept. 1917, à Chekri Ganem, dossier Levant (1917-1921).

وكان شكري غانم قد اقترح في ١٢ آب ١٩١٧، في رسالة وجهها إلى وزير الحربية الفرنسية، إنشاء وحدة عسكرية (سورية ولبنانية) بقيادة فرنسية، فردّ الوزير بأن ترجم له اقتراحه عملياً بإنشاء فرقة الشرق.

(٢) يوسف السودا، في سبيل الاستقلال، الجزء الأول ١٩٠٦ ـ ١٩٢٢، ص ٨٧.

(٣) بشاره الخوري، حقائق لبنانية، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، ١٩٨٣، جزء أوّل، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) يوسد السودا، في سبيل الاستقلال، ص ٧١ ـ ٧٣.

٣ ـ حكومة ثورية سرّية مسلّحة

في أوائل كانون الأول من العام ١٩١٤، وعلى أثر دخول تركيا الحرب بجانب الدول الوسطى ضد الحلفاء أي فرنسا وبريطانيا وروسيا، اجتمعت بعض الشخصيات من مديرية بسكنتا في المتن[١]، وبشكل سرّي بعد منتصف الليل، في بيت فضّول حرب في بسكنتا، بناءً على دعوة مدير ناحيتها، نعوم لبكي، وأقسمت الإيمان «المغلّظة» (المعظّمة) على الإنجيل، أن لا تبوح بسرّ الاجتماع ولا بمذاكرته، وبعد مباحثة طويلة، أجمع رأي المجتمعين على تشكيل حكومة ثورية سرّية هدفها:

- رفض أو إنكار كل سلطة تخلف السلطة المضمونة من البروتوكول الدولي ما لم تكن وطنية.
- إعلان الثورة على حكومة الأتراك، لا للخروج من سلطانهم فقط، بل لتحرير الشرق من سوء إدارتهم، وتأييد الفريق الذي يرَونه أَوْلى بالتأييد من الفريقين المتحاربين.
- أن تكون حكومة الثورة هي حكومة لبنان حتّى تصل إلى هدفها.

وقرّرت هذه الحكومة إعلام الحلفاء بضرورة توفير الاتصال بين الثوّار التابعين لها والبحر[٢] الذي كانت تجول فيه البواخر الإنكليزية والفرنسية محاصرة لبنان، مانعة دخول المؤن إليه. وكان البحر، ولا يزال، يشكّل مفتاح لبنان الاقتصادي، وهو ضرورة ساسية لتزويد الثوّار بما يلزمهم من أسلحة وأعتدة ومؤن، إذ لا تكفي لنجاح الثورة، البسالة وكثرة الحصون

(١) كانت مديرية بسكنتا تتبع في عهد المتصرفية قضاء المتن وتضمّ القرى الآتية: بسكنتا وعين القبو وزبوغا وكفر عقاب وكفرتيه ـ المتن ووادي الكرم والمشرع، راجع الخور أسقف بطرس حبيقه، تاريخ بسكنتا وأسرها، ص ٦٤.

(٢) جريدة البرق، العدد ١١١٦، ٢٦ ت١ ١٩٢٠، مقالة لنعوم لبكي بعنوان «مطوي يحين نشره»، ويعتبر أنه يُعلن «واحدة من خفايا كثيرة لم يحن بعد إعلانها».

الطبيعية، بل يجب أن تكون ثورة مرتّبة ومنظّمة ومدروسة بكامل تفاصيلها العسكرية والتموينية والاقتصادية والسياسية من دون أن تشوبها رعونة وخفّة.

وبقيت فكرة الثورة طيّ الكتمان، حتى دخل جمال باشا، وعَسكَرَ في جبل لبنان، ودعا أبناءه للالتحاق بالجيش التركي، وحلّ مجلس إدارته، وعيَّن مجلساً أكثر طواعية، وضرب امتيازات لبنان ونظامه، وأصدر أحكاماً بالنفي والعزل والحبس والإعدام على قيادات وشخصيات وطنية.

ومن الذين طالتهم الأحكام نعوم كسروان لبكي، الذي كان مديراً لناحية بسكنتا إذ طلبته حكومة رضا باشا[١]، فهرب في الجبال مختبئاً في الوهاد والأديار[٢] متنكراً بثياب الرهبان، حتى إنه كان يوقّع رسائله باسم نعمة الله الحرديني أو أيوب صابر أو بحرف م مخافة افتضاح أمره[٣].

وعندما رأت الحكومة السرية إجراءات جمال باشا القمعية، اعتبرت أن ظروف الثورة قد تهيأت وأنه أصبح واجباً عليها أن تهبّ للمقاومة، فاجتمع قياديوها برئاسة نعوم لبكي والطبيب طانيوس أبو ناضر وقيصر الهراوي وغيرهم، في أحد أديرة كسروان ورفعوا شعارهم «إمّا أن ننتصر وإما أن نموت»[٤]. وبدأ العمل لتنظيم ثورة مسلّحة. وتمّ السعي لتدبير مئة بندقية، وبلغ عدد المقاتلين في صفوفهم ثلاثماية رجل، وتوقّعوا ارتفاع العدد إلى ثلاثة آلاف خلال أسبوع، وعوّلوا على انضمام فرقة جنود لبنانية فرَّت من

(١) هند الخازن، مفكرات هند، المطبعة البولسية، حريصا ـ لبنان، ١٩٢٤، ص أ.

(٢) إميل يوسف حبشي، جهاد لبنان واستشهاده، مطبعة طبّاره، بيروت ١٩٢٠، ص ٣٢، والخور أسقف بطرس حبيقة، تاريخ بسكنتا وأسرها، ص ١١٩ و١٩٦.

(٣) الأب فيليب السمراني، الوثائق التاريخية المتعلقة بحضرة العلاّمة الأب بولس عبّود، مطبعة المرسلين اللبنانيين ـ جونيه، لبنان، ١٩٣٩، ص ١٩٣ ـ ١٩٤، وللتفاصيل حول نعوم كسروان لبكي راجع أطروحة يوسف انطون لبكي بعنوان «نعوم كسروان لبكي، ١٨٧٥ ـ ١٩٢٤»، دكتوراه فئة أولى جامعة القديس يوسف، بيروت ١٩٨٤.

(٤) طانيوس أبو ناضر، الطبيب الطريد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٠، ص ٥٦.

الجيش العثماني، وأبدت استعدادها للقيام بحركة ثورية تبدأ بحرب عصابات صغيرة متفرّقة في أنحاء الجبل، وتقلق راحة الحكومة العثمانية، لعلّ اللبنانيين يحصلون بسبب هذا الموقف على حقوقهم المهضومة، وينجون من المجاعة[1].

وتكرّرت اجتماعات الثوّار في أماكن متفرقة، وقد ضمّت جنوداً وأخصّاء وأصدقاء للتباحث في تأمين ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ قنطار من دقيق القمح، لتُصنع كعكاً، وتخزَّن إلى وقت الحاجة[2].

واعتبر المجتمعون:

- أن الحكومة التركية العسكرية بدأت تلغي حكومة لبنان الشرعية.
- أن الحكم التركي «دمَّل في جسم الإنسانية يجب أن يُستأصَلَ من أصله».
- إن كل إنسان مدعو للتجنيد في صفوف الثوّار لمُقاتلة الأتراك الذين قضوا على الحكومة اللبنانية[3].

وتوقّعوا التعاون مع الأصدقاء والحماة الذين تجمعهم بهم مصلحة من الدول الأوروبية، باستثناء النمسا وألمانيا اللتين لم تحترما كيان لبنان السياسي، ولم تتمكّنا من إيقاف الأتراك من التعدّي على البروتوكول والاحتجاج على عدوانهم.

وأعلن رئيس الحكومة الثورية نعوم لبكي، رسمياً منشور الثورة، كتبه بخط يده، وعلى نسخ متعدّدة، وزّعها على زعماء البلاد، في كل ناحية،

(١) المصدر السابق، ٥٦.
(٢) طانيوس أبو ناضر، الطبيب الطريد، ص ٦٩.
(٣) إعلان ثورة. منشور حكومة لبنان الثورية إلى الأمة اللبنانية الكريمة بتوقيع رئيس الحكومة الثورية نعوم لبكي في ٦ أيلول ١٩١٥.

داعياً الجميع إلى «قومة عامة في يوم واحد وساعة واحدة»[1]، واعتبر أن حكومته حكومة لبنان الثورية، وأن اللبنانيين سُلاَّف أبطال آثروا الموت على العبودية، واستهانوا التضحيات كلّها في سبيل الحرية والاستقلال، جعلت الحكومة الثورية مركزها في قلعة الجَرِيْدْ في جبل صنّين وهي عبارة عن منطقة صخرية محصّنة طبيعياً.

أمّا أهداف الثورة فقد حدّدها المنشور:

- بالسعي لأخذ الاستقلال، وهو أقصى أماني الجماعات الراقية، والرغبة في إثبات شخصية لبنان.
- مشاركة الدولة التي اعتنت بلبنان، والتي تلتقي مع مصلحته، في الحرب الأولى.
- إسقاط الحكومة العثمانية التي أفسدت الشرق وعطّلت أخصب بقاع العالم، واعتبار ذلك عملاً إنسانياً عظيماً، على أن تبقى حكومة الثورة مستمرّة حتّى تتّفق مع دول الاتفاق الرباعي (فرنسا - بريطانيا - إيطاليا - روسيا) على حكومة تخلفها.
- اعتبار كل أعمال الحكومة، بعد اعتزال المتصرّف أوهانس باشا، لا شرعية ومرفوضة ولا قيمة لها بعد منشور الثورة.
- رفض أوامر الحكومة التي عيّنها جمال باشا في متصرفية جبل لبنان، وعدم دفع الضريبة لها والعمل على عرقلة أمورها[2].

واعتبرت أن همّها الأساسي وشغلها الشاغل قتال العدو، لذلك، فهي لن تنظر في المشاكل الشخصية، ودعت لتحاشي هذه المشاكل، وحثّت

(١) المصدر السابق.
(٢) إعلان ثورة. منشور حكومة لبنان الثورية إلى الأمة اللبنانية الكريمة بتوقيع رئيس الحكومة الثورية نعوم لبكي ٦ أيلول ١٩١٥.

المواطنين أن يُصرِّفوا أمورهم بأنفسهم، على أنّها وعدت بمعاقبة من يفترض الفوضى والعدوان.

وأكّدت أنّ الثورة تتحاشى قتال الإخوان العرب ما أمكن. لأنهم لا يقاتلون بأمرة الأتراك إلاّ مكرهين، وطلبت مساعدة من يتيسّر له الفرار من معسكرات العدو والانضمام إلى صفوف الثوار أو الانصراف إلى بيوتهم. وجعلت التجنيد في الثورة اختيارياً، وعند كل من يرى في نفسه حميّة وطنية، ولم تضع أي شرط للانضمام إلى الثورة إلاّ الإخلاص[1].

وكان هدف الثورة المحافظة على استقلال متصرفية جبل لبنان الذي دفع الجدود ثمنه دماً، والدفاع عن كيانها ونظامها، ومنع إهلاك اللبنانيين جوعاً، كما أرادت السلطنة العثمانية، ومراعاة فرنسا التي دافعت عن اللبنانيين وحافظت على حقوقهم.

نتائج الثورة

كانت ردّة الفعل على هذا المنشور الثوري أن رحّب به فريق، وتحفّظ آخر حول تلبية هذه الدعوة الخطيرة في «شعب خاملٍ مسكين»[2] قد لا ينهض منه رجال مُستبْسِلون يقومون بهذا العمل، في جوّ تزلّف للسلطة طلباً للمنافع الشخصية عند الكثيرين، حتى أنّ أعضاء في قيادة الثورة كقيصر الهراوي والطبيب طانيوس أبو ناضر وغيرهما، تردّدوا وتحفّظوا حول إمكانية نجاحها، مستندين إلى إخباريات ورَدَتْهم بأنّ تركيا تطاردهم وتعلم بمكان اجتماعاتهم، حتى إنّها تعلم مسبقاً باجتماعهم المزمع عقده في دير راهبات سيّدة النّياح للروم الكاثوليك في قرية بقعتوته من أعمال قضاء كسروان،

(١) المصدر السابق.

(٢) طانيوس أبو ناضر، الطبيب الطريد، ص ٧٠.

وأنّهم يهتّمون بإنشاء «عصابة سرّية يسمّونها شركة نجاة الفقير، غرضها الثورة على الحكومة»[1].

أمّا الذين أيّدوا الثورة وشاركوها في الرأي فقد بلغوا نحو خمسة وسبعين رجلاً من «أوجه البلاد»[2]، وأنّه تمّ الرأي بأن يجتموا في أوّل أسبوع من كل شهر.

وعندما رأى المجتمعون أن أمرهم سيُفضح، وأنّه «من المستحيل عمل شيء في جبل لبنان مع الظروف الحاضرة، فإنّ الراعي مضروب والرعية مبدّدة، والعوز أبو المصائب»[3]، عدل المجتمعون عن مقصدهم، وفكّروا في ما سيكون من أمر الحكومة العرفية بعد إبلاغها ومعرفتها بأفكار الثورة، وانفضّ الاجتماع. وتأكد لهم مطاردة تركيا، بإرسالها مئة جندي لمطاردتهم، فاستخفى نعوم لبكي في ضواحي كسروان وبقي طريداً هائماً.

ولم تستطع الثورة أن تظهر بشكل علني للاعتبارات التالية:

- انحجاب المساعدات الخارجية المادية لها بسبب إقفال البحر.
- عدم انضمام الجنود الفارّين من التجنيد الإجباري في صفوف الجيش العثماني، والالتزام بها، كما وَعدوا، مفضّلين حماية رؤوسهم على الموت بدل انخراط في ثورة، أشبه ما تكون، بقفزة في المجهول.
- مطاردة تركيا لقواد الثورة، ممّا جعل هؤلاء يخافون وينحصرون، ويتردّد الأهلون في حماية الثوار وإيوائهم.
- عدم التنسيق العملي والعسكري والفعلي مع الفرنسيين، إذ كان هؤلاء مشغولين في الدفاع عن أراضيهم والتي دفعوا ثمنها غالياً.

(١) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٢) طانيوس أبو ناضر، الطبيب الطريد، ص ٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٠.

- ارتفاع عدد الموتى وانتشار المجاعة، وسط حصار برّي فرضه الأتراك، إذ زنّروا حدود متصرفية جبل لبنان بحواجز عسكرية ومخافر لمنع سكّان الجبل من استجلاب بعض المواد الغذائية من مناطق البقاع والجنوب وعكار التي كانت تخضع مباشرة للسلطنة العثمانية.

لكن نعوم لبكي لم ييأس من إحباط سعيه الثوري، بل تابع نضاله عبر توجيه رسائل، إذ خطّ رسالة إلى جمال باشا، بعد أن اشتدّ جزَع اللبنانيين على الشيخين فيليب وفريد الخازن، يدعوه فيها للنظر في مستقبل الدولة العثمانية، وينبّه إلى أخطاء الحكم التركي كعدم الحكم بالعدل والمساواة، واختلال حبل الأمن وعدم توفير العمران، واعتماد القومية الطورانية، واتّباع سياسة الإرهاب والتخويف، والتعدّي على حقوق اللبنانيين الطبيعية والسياسية[1]. ولم يكتفِ نعوم لبكي بهذا التحرّك، بل وجّه رسالة إلى وجهاء قرى المتن العام ١٩١٧، طالباً إليهم أن يرفعوا إلى متصرفية جبل لبنان، نصّاً كتبه لهم، وخلاصته:

«أن أهل البلاد يرجون الفرج من ضائقتهم المعيشية ونهاية للحرب، فإذا بالألمان يشترون الحبوب بأثمان رخيصة، ممّا أدّى إلى غلاء في ثمن الحبوب. وهذا معناه أن الأزمة ستقضي على البقية اليسيرة من هذه الأمة المعذّبة، وأن البلاد ستصبح مقبرة لأهاليها». وحضّهم على «أنّه لا يجوز أن نقبل بفنائنا لمحض أن رجال الدولة يتحزّبون للألمان ولن نقبل أن نموت كلّياً بالحرب والمجاعة والأوبئة لأجل أشخاص يريدون تسليم البلاد خراباً»[2].

وممّا لا شك فيه أن محاولة الثورة، بالرغم من ضيق جغرافية انتشارها، تبقى شاهداً حيّاً وواضحاً على روح المقاومة لدى أبناء «الأمة اللبنانية

(1) رسالة نعوم لبكي إلى جمال باشا في آذار ١٩١٦، باسم منتحل «أيّوب صابر».
(2) رسالة نعوم لبكي إلى وجهاء قرى المتن العام ١٩١٧.

الكريمة»، وعلى أن للبنان خصائص ومميزات ينبغي العمل للمحافظة عليها والتوسع فيها.

وهمدت الثورة فعلياً حتى أوائل تشرين الأول العام ١٩١٨، إثر دخول الأمير محمّد سعيد الجزائري إلى لبنان، باسم الحكومة العربية الهاشمية، ودعوته المجالس البلدية لتشكيل حكومة مؤقّتة، فما كان من مجالس البلديات القريبة في الشوف والمتن وكسروان إلا أن أرسلت الوفود إلى مركز الحكومة في بعبدا، بانتباه أو بغير انتباه[1]، وقرّرت أن تكون المجالس البلدية مراكز حكومة في النواحي، وأن يكون الأميران مالك شهاب وعادل أرسلان رأس الحكومة اللبنانية. وهذا العمل اعتراف صريح بسيادة الحكومة الحجازية على لبنان.

عندئذٍ، دعا نعوم لبكي الشخصيات التي كان قد تعاون وإيّاها في إعلان الثورة، وذاكَرهم في الأمر، وقال لهم: «نحن أوّلى من سائر اللبنانيين أن نُرسل إلى الأمير سعيد، كتاباً نقول فيه، إننا ننكر عليه صورة الإيعاز في خطابه التي استعملها، وإننا لا نعترف بحكومة تخلف حكومتنا الشرعية، التي سقطت مع استقالة المتصرف أوهانس باشا في حزيران ١٩١٥، إلا بالحكومة التي نحدثها، نحن، «لجنة الثورة» بالاتفاق مع دول الحلفاء[2].

وفيما هم يتداولون في هذا الرأي، «طرأ طارئ أسوأ من الأول»، وهو أن شكري الأيوبي دخل مركز الحكومة في بعبدا باسم الحكومة العربية، وأقام عليها حاكماً هو حبيب باشا السعد باسم هذه الحكومة، فأنكر نعوم لبكي السلطة الجديدة رغم إغراءاتها له[3]. وشكّل «عصابة» تُعلن على الناس أنها

(1) جريدة البرق، العدد ١١١٦، ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٠.
(2) جريدة البرق، المصدر السابق.
(3) رسالة سرّية موجّهة إلى السلطات الفرنسية من دون تاريخ ولا توقيع، جاء فيها أن اللبكي رفض قبض مبلغ مالي من الحكم العربي ليماشيه في لبنان.

هي «الحكومة الشرعية بمحض عصيانها على سلطة غير شرعية»[١] وفي خضمّ هذه الأحداث الحُبلى بالتطورات السياسية والعسكرية، استدعاه الشيخ كسروان الخازن ونعوم باخوس للاجتماع به، بعد أن كان قد سافر باخوس إلى جزيرة أرواد، وتحادث مع القائد الفرنسي ترابو Trabaud، وعاد ليقول للمجتمعين: «قُضي الأمر الذي به تستفيان»[٢]، أي أن فرنسا ستدخل لبنان وتحل محل الحكومة العربية. فخضع الجميع للواقع الجديد وبدأ البحث عن مستقبل لبنان السياسي بقيادة مجلس الإدارة[٣].

أمّا أهالي بسكنتا الذين كانوا بجانب نعوم لبكي، فقد رفعوا معروضاً إلى مؤتمر الصلح، يطالبون به ما سيُطالب به البطريرك الماروني فيما بعد.

٤ ـ رشيد نخلة و«عصابة الوفاء» في وجه الدولة العثمانية

بعد أن اشتعلت الحرب العالمية الأولى بإعلان ألمانيا الحرب على فرنسا وروسيا في آب من العام ١٩١٤، سادت المخاوف اللبنانيين، وانتشرت الشائعات عن احتمال دخول الدولة العثمانية الحرب، وإلغاء الامتيازات الأجنبية التي تؤدي إلى قطع الصلات بين لبنان والدولة الضامنة لنظامه[٤]. فرأى المطلعون على دقائق الأمور أن يتشبث لبنان، وسط تلك المخاوف، بشيء يشبه الحياد الدولي، بمعنى انعزاله أو ابتعاده عن الحركة العثمانية،

---

(١) جريدة البرق، العدد ١١١٦، ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٢) جريدة البرق، العدد ١١١٦، ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٣) يُشار إلى أنّ أهالي بسكنتا ومعظمهم من أركان «الثورة» قدّموا معروضاً بتاريخ ٢١ كانون الأول ١٩١٨، إلى مؤتمر الصلح موقع من محفوظ عبدو غانم والدكتور قيصر الهراوي وسمعان منصور وفضول حرب وخطّار الحدثي وطانيوس بطرس غانم ومنصور حنا ضو وقزحيا الخوري حنّا، وقد طالبوا بما سيطالب به البطريرك الماروني فيما بعد؛ ويُظنّ أن هؤلاء هم من الذين شكّلوا قيادة الثورة برئاسة نعوم لبكي.

(٤) رشيد نخله، كتاب المنفى، المكتبة العصرية للطبع والنشر، بيروت، ومطبعة دار الكتب، بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٦، ص ١٢٧.

فيتمسّك بنظامه الممتاز تمسّكاً يجعله بعيداً عن اعتباره جزءاً من أجزاء الدولة وبذلك يتخلّص من تَبِعات الحرب. وكان مدير ناحية دير القمر رشيد نخلة أبرز الساعين إلى هذه السياسة. وكان نخلة قد دعا النائب في مجلس النواب الفرنسي موريس باريّس وقنصل فرنسا في بيروت جورج بيكو، قبيل دخول تركيا الحرب، إلى غداء أقامه على شرفهما على نهر الصفا في الشوف، جرى خلاله تظاهرة بالسلاح قام بها، على دويّ البارود، أكثر من عشرة آلاف لبناني. وصرّح بيكو في تلك الحفلة بأن فرنسا تنظر إلى الشعب اللبناني نظرتها إلى شعب يُجمع على المطالبة بامتياز أكبر وحدود أوسع، كما وعد باريّس أن ينقل أماني اللبنانيين إلى المجلس النيابي الفرنسي في التوسّع والمحافظة على امتيازهم وصون كيانهم المستقل في الشرق[١].

جاء هذا المهرجان على عتبة دخول تركيا الحرب الأولى، وفي ظل انشغال الدول الست الكبرى الكافلة لنظام لبنان عن الاهتمام به.

وسط هذه الأجواء، نقل مجلس الإدارة الحكومة من مركزها الصيفي في بيت الدين إلى مركزها الشتوي في بعبدا بسبب الخوف الشديد الذي سيطر على جماعة كبيرة من الموظفين، مع العلم أن بعبدا ليست أكثر أماناً من بيت الدين؛ غير أن هذا الإجراء لم يتم من دون اعتراض إذ قام رشيد نخله وأهالي دير القمر بتظاهرات معاكسة لقرار مجلس الإدارة، وقابل كل من رشيد نخله وداود عمّون المتصرف لمحاولة إقناعه بالعودة عن نقل المركز، لكن المتصرف أوهانس باشا رفض ذلك وذكر لنخله بأن صدور الأتراك تتأجج حقداً على اللبنانيين «وأنتم في لبنان لا تستطيعون الثورة، فالثورة ينبغي لها وحدة في الصفوف ووفرة في العدّة وأصحابكم في أوروبا مشغولون اليوم من إمدادكم بالمعونة»[٢]. ونصحه بالسكون واتقاء العاقبة.

---

(١) رشيد نخله، كتاب المنفى، المكتبة العصرية للطبع والنشر، بيروت، ومطبعة دار الكتب، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٥٦، ص ١٢٨ ـ ١٣٣.

(٢) رشيد نخله، المصدر السابق، ص ١٣٩.

نخله يسعى للحياد

عندما أدرك رشيد نخله الأجواء السياسية العامة، وما يمكن أن تؤثر في لبنان، رأى أن يطرح فكرة الحياد وأرسل إلى المتصرف، بواسطة أمين سره يوسف الحكيم، كتاباً خاصاً قال فيه:

«إنه من الرأي أن يرفع مجلس الإدارة إلى سفارات الدول الست في الآستانة قراراً هذا نصّه:

إن مجلس إدارة جبل لبنان المنتخب على أساس البروتوكول الدولي المعروف، قد أقر في جلسته المنعقدة في يوم كذا، وذلك بإرادة ٥٠ ألف لبناني متقاطرين إليه بالسلاح من مختلف جهات الجبل مجتمعين الآن في جوار دار الحكومة، أن يُشعر سفراء الدولة الست الكافلة النظام اللبناني أن الجبل يرى في مصلحته تجنّب أي تدخل يكون من ورائه الوقوع في حالة حربية، ولذلك يلتمس المجلس من حكومات الدول الحامية أن تستمر في إظهار عطفها على الجبل، واحترامها لحياده، ومحافظتها على حمايته، وبالرغم من كون بعضها الآن في حرب مع الآخر. إذ إن الجبل لا ينظر إلى هذه الحالة الطارئة إلاّ نظر المحايد الذي يتمنّى أن يحل السلم محل الحرب إشفاقاً على الإنسانية والحضارة وحقناً للدماء في دول كريمة لها علينا حق الولاء وعرفان الجميل. وأن اللبنانيين سيقفون صفاً واحداً في وجه من سيحاول خرق نظامهم وامتهان حيادهم، ولا يرضون بأن تُجعل بلادهم طريقاً إلى اجتياح الولايات المجاورة لها، مخافة أن يحسب رضاؤهم هذا بمثابة تدخل في حالة حربية، أما جماهير اللبنانيين الغفيرة، المجتمعة الآن بالسلاح حول دار الحكومة، فهي لم تنفرط، ولم ترجع إلى السكينة إلاّ بعد أن تعهّد لها هذا المجلس برفع أمنياتها ومطاليبها إلى ممثلي الدول الست الكريمة التي لا يشك المجلس في شرف عهودها وجميل وفائها»[١].

---

(١) رشيد نخله، كتاب المنفى، ص ١٤١ ـ ١٤٣.

ولم يكتفِ نخله بهذه الرسالة، بل أبدى رأياً آخر للمتصرف مفاده أن يرفع مجلس الإدارة إلى الصدارة العثمانية قراراً جديداً هذا نصّه: «إنّ الشعب اللبناني لا يحسب نظامه الممتاز إلاّ منحة من منح الدولة العلية له، فهي التي قدّرت قدر إخلاصه، ونظرت إلى موقع بلاده، وضيق نطاقها وفقر أرضها، فأخذها الحدب عليه حتى حملت دولاً ستاً من أعظم دول أوروبا على مشاركتها في حماية نظامه، بحيث أقرّتْ إعفاءَه من الخدمة العسكرية، وتحديد أمواله على قدر طاقته، إلى غير ذلك من الامتيازات المعروفة التي نعدّها في باب المراحم. ولقد أصبح الجبل بقوة ذلك النظام، على كونه من أخلص الولايات العثمانية، وهو كأنه مستقل عنها. فلمناسبة إعلان الحرب بين دولتي فرنسا وألمانيا، واحتمال إعلانها بين دول أخرى، هرع اليوم ألوف من اللبنانيين إلى دار الحكومة في بعبدا وخاطبوا هذا المجلس في لزوم رفع البيان المُرفق إلى سفراء الدول الست الحامية فنزل المجلس عند إرادة الشعب. وهو باسم الشعب يلتجئ الآن على يد فخامتكم إلى الدولة العلية لتنظر بعين الأم الشفيقة إلى مطالب أبنائها اللبنانيين المخلصين في مسألة الحياد المعروضة، فتُعدّ الجبل، حين تشترك في الحرب القائمة محايداً حياداً مسلحاً بحيث يُصان بذلك الحياد كيانه، وتسلم به من ويلات الحرب قطعة عثمانية مخلصة. فاللبنانيون يحسبون أن هذه المطاليب تقع في مصلحة الدولة العلية إذ أن وقوف جبل لبنان على الحياد وتمسّكه بامتيازه يجعلان شواطئه في مأمن من الاعتداء البحري. وبذلك يكون الجبل، كما ترون فخامتكم ولا ريب قد أدّى للدولة نفسها، في هذا الموقف الدقيق خدمة جليلة...»[١].

وشرح نخله كيف يجب أن تُقام التظاهرات في بعبدا، وطريقة الإشارة إلى القائمقامين والزعماء للمشاركة يوم ينعقد المجلس لتصديق هذين القرارين، وأكد على ضرورة رفعهما إلى سفراء الدول الحامية وإلى الصدارة العثمانية قبل أن تعلن الدولة العثمانية الحرب.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

هذه الطروحات دفعت بمستشار المتصرف يوسف الحكيم أن يُظهر لنخله عدم السير في هذه المسألة بسبب الظروف وصعوبة تبنّي هذين القرارين[1]. هذا قبل انضمام تركيا إلى الحرب؛ وما إن انضمت الدولة العثمانية إلى جانب الدول المركزية في الحرب حتّى دخلت في ٢٢ ت٢ ١٩١٤ فرقة من الجيش العثماني الأرض اللبنانية من جهات زحلة وعاليه وبكفيا وبحنّس وبرمانا وبيت مري، فأرسل رشيد نخله بصفته موظفاً مسؤولاً في حكومة لبنان كمدير لناحية دير القمر إلى المتصرف احتجاجاً على دخول الجيش العثماني واحتلاله للأراضي اللبنانية الممتازة. فردّ عليه المتصرف أوهانس باشا رسمياً بجواب محنّك يقول فيه «إن دخول تلك الشراذم من الجيش لا يُعدُّ من قبيل الاحتلال بل هو للاستكشاف العسكري لا غير. وأنهم لا يقيمون وسط القُرى بل على رؤوس الجبال، ولا يكلفون خزانة الجبل»[2].

في ٢٨ ت٢ ١٣٣٠ (مارتيه) أي العام ١٩١٤م، أذاع جمال باشا بلاغاً إلى اللبنانيين دعاهم فيه للالتفاف حول العرش العثماني والمدافعة عن الوطن المهدّد بخطر غارات العدو الأجنبي، وذكر بأنه أرسل عسكره للدفاع عن لبنان عند الحاجة ضد غارات العدو الخارجي، ودعا أهل لبنان للانضواء تحت العلم الممثّل للجيش الهميوني وللوقوف في وجه أية محاولة للعدو يقوم بها ضد سواحل لبنان وبيروت، وهدّد كل من يحاول من اللبنانيين الإخلال بسلام السلطنة والأمن العام ومن يُبدي أقل مظهر من مظاهر العطف والمحبّة نحو الفرنسيين والإنكليز والروس بمحاكمته فوراً أمام ديوان حرب عرفي ليلقى جزاء عقابه[3].

(١) رشيد نخله، كتاب المنفى، ص ١٤٥.
(٢) رشيد نخله، كتاب المنفى، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٣) مجلة الحرب العظمى المجلد الأول، الجزء ١٥، ص ٢٩٠ من مقالة بعنوان «سوريا وبيروت ولبنان في الحرب العامة».

وقال بأن الحكومة المحلية ستحتل جميع المؤسسات والمكاتب التابعة للدول المعادية لنا في جبل لبنان وأن آمر المفرزة العسكرية رضا بك سيعين أنواع الأعمال والحركات التي تمسّ بسلامة السلطنة[1].

وفي ٣١ كانون الأول من العام ١٩١٤، دعا المتصرف أوهانس باشا بإيعاز من آمر المفرزة العسكرية في جبل لبنان محمد رضا بك إلى اجتماع عام في بعبدا ألقى فيه رضا بك خطبة مفادها أن من واجب اللبنانيين الإخلاص للدولة العلية، وأن امتياز جبلهم هو منحة منها، ومحض تفضُّل، لم تُرغم على منحه، كما يحسب بعضهم، وأن على اللبنانيين أن يتطوّعوا تحت لواء الدولة في وجه الأعداء يوم تخوّلهم نفسهم باحتلال الساحل اللبناني، فردّ رشيد نخله عليه باسم بعض اللبنانيين بحكمة ومرونة وذكاء[2].

وسط هذه الأجواء، دُعي كل من رشيد نخله والأمير فائق شهاب رئيس القلم الأجنبي، ومصطفى عماد من الباروك، رئيس دائرة الجزاء، ونعوم باخوس، وإبراهيم عقل، وفريد شهاب، وبان الخازن، ومحمّد زين الدين، لمقابلة جمال باشا في دمشق في فندق فيكتوريا، وذلك قبل إعدام الوطنيين، ونفاهم إلى القدس، ووضعهم تحت المراقبة لمدّة ثمانية أشهر يعيشون بين الخوف من المشنقة والحذر من الجواسيس والشوق إلى الوطن[3]. فيما كان قد تقرر نفي رشيد نخله إلى الأناضول بسبب خطبته الفيّاضة بعواطف اللبنانيين الّتي كان قد ارتجلها أمام النائب الفرنسي موريس باريس، حين زاره في قصره في قرية الفريديس في الشوف قبل الحرب الأولى[4].

(١) المصدر السابق، ص ١٤٩.
(٢) رشيد نخله، كتاب المنفى، ص ١٥١ـ١٥٢.
(٣) رشيد نخله، كتاب المنفى، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٦٢ ـ ١٨٧ ـ ١٨٤.
(٤) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٦٨. ويذكر بأن رشيد نخله كان زعيماً شعبياً كبيراً وأميراً للشعر الزجلي.

ثم عُفي عنه، فعاد إلى قرية المطيله ومعه نجيب حيدر[1] ثم عاد وطلبه جمال باشا مجدّداً، لكن هذه المرّة إلى الديوان العرفي في عاليه، غير أن اعتلال صحته وتدخّل بعض الأصدقاء، جعلا جمال باشا يعفو عنه مرة أخرى[2].

وكان يزوره في المطيله عدد من الأوفياء فيتباحثون معه في ويلات الحرب وما يجب فعله، وكان أن عقد اجتماعاً مع الأمير أمين مصطفى أرسلان في آب من العام ١٩١٦ في رأس جبل الباروك، وعلى نبعه. وتفاوض معه بشأن الثورة على الأتراك في لبنان، وقبل الأمير الفكرة، وفكرا معاً في عصب الثورة أي المال، وأوفد نخله الخوري أغناطيوس مبارك (مطران بيروت الماروني فيما بعد) إلى الديمان، ومعه سندات ملكية تعود لنخله، لمفاوضة البطريرك الحويك في الأمر وتقديم السندات له على أن يرسل إليه بمبلغ من المال «ننفقه على الثورة»، غير أن غبطته خاف على حياة نخله، ونصحه بألاّ يحرّك ساكناً[3] لأسباب كثيرة إذ لم يكن وضع البطريركية أحسن حالاً في وقت كانت تتخابر فيه مع فرنسا المترددة في مساعدة البطريرك فكيف برشيد نخله؟.

ولم تطل المدة حتى صدر أمر جمال باشا سنة ١٩١٦ بنفيه إلى الأناضول غير أنه تسلّح وتخفّى في بطون الأودية وشعاف الجبال بين قُرى العرقوب من بلاد الشوف، ومعه «عصابة الوفاء» وهي جماعة مسلحة تألفت من الخوري يوسف أبو سمرا من عين زحلتا، ونجيب شهوان من وادي الست، وضاهر ملكون من مجدل المعوش، والشيخ خطار الدويك من كفرنبرخ، ويوسف منصور ثابت من دير القمر، وسليمان صالح نعمه من

(١) رشيد نخله، كتاب المنفى، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٦ و٢٣٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

معاصر بيت الدين، الذين كثيراً ما رافقوه متسلّحين إلى جانب رجال نخوة تحمسوا للثورة معه، ومنهم الأمير حسيب شهاب، والخوري جرجس الخوري من مجدل المعوش، والشيخ بهاء الدين كرباج، والشيخ شاهين حلاوي من الباروك، إضافة إلى فريق كبير من فتيان الحمية في الباروك والفريديس، وبريح والفوّارة وكفرنبرخ والورهانية وعين زحلتا وبتلون ومعاصر الشوف ومعاصر بيت الدين ومجدل المعوش والبيره وكفرنيس وشوريت ووادي الست وإغميد وبمهريه والعزونية وشارون وعينداره، من قُرى الشوف، وعانا وتل ذنوب من قُرى البقاع (الغربي).

وواصل نخله حركته بالتعاون مع عدد من الكهنة والرهبان كالقس طوبيا مبارك رئيس المعاملة في الرهبانية البلدية، والقسس: ارسانيوس مطر البكاسيني والياس بكيفا رئيس دير مار مارون في بثرسنين في مجدل المعوش، وطوبيا البكاسيني رئيس دير الناعمة في الدامور وأوغسطين حرفوش البكاسيني وعبد الأحد الحيطوري والأخ زكريا البكاسيني والخوري بطرس ياغي من مجدل المعوش، والخوري يوسف نمر صفير، والخوري جرجس سلوان من البيره والخوري يوسف الخوري من بريح والخوري داود مقصود من وادي الست والخوري يوحنا مارون من كفرنيس وغيرهم[1].

غير أن حركة رشيد نخله «وعصابة وفائه» لم تتحوّل إلى مقاومة عسكرية فاعلة، بل بقيت محدودة الانتشار وقفت عند حدود العمل السياسي، والرغبة الواضحة في إبعاد شبح المجاعة الذي كان يفترس لبنان في الحرب الأولى. ولم تستطع هذه الحركة الداخلية المقتصرة على بعض النخب الشوفية من أعيان ورؤساء أديار وكهنة ورهبان موارنة ومشايخ من الموحِّدين الدروز، أن تنفّذ أهدافها بسبب الظروف العامة التي كانت تسيطر على لبنان فانتهت من

(١) رشيد نخله، المنفى، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

دون نتيجة كما انتهت حكومة لبنان الثورية. وعاد رشيد نخله إلى تأسيس حركة الفدائيين اللبنانيين في خريف ١٩١٨، ليشكل حركة سياسية في أثناء انتقال لبنان من الحكم العثماني إلى الحكم الفرنسي بعد هزيمة السلطنة العثمانية وانسحابها من الشرق.

تقويم

والخلاصة أن محاولتي نعوم لبكي ورشيد نخله الثوريتين قد فشلتا، ولكنهما ترمزان إلى روح انتفاضية ورغبة في المقاومة، في فترة من أحلك أيام لبنان السوداء ولا يعني فشلهما لأسباب خارجة عن إرادة راغبيها انتقاصاً من طموحاتهما وحماسهما، بل بقي لهيب الثورتين في نفوس بعض الذين اختبأوا في المغاور والكهوف في الجبال اللبنانية، وشكّلوا قوات شعبية في الداخل والساحل، ترقبت الساعة التي ينقضون بها على الجنود العثمانيين المهزومين والإجهاز عليهم في أثناء انسحابهم[١].

ومهما يكن من أمر محاولات المقاومة، وإن لم تفعل فعلها، فهي تدل على أن اللبنانيين، كانوا كلّما تعرّضوا للقهر والإفناء ومحاولة القضاء على وجودهم وحرّيتهم، هبّ فريق منهم بجرأة لمواجهة الطغيان والموت، كما جرى في الحرب العالمية الأولى. غير أن النضال العسكري قد تحوّل إلى نضال سياسي تحقّق في تأمين مطالب الثوار وقادتهم بإنشاء دولة مستقلّة لهم في أوّل أيلول العام ١٩٢٠، باسم دولة لبنان الكبير. والعبرة التي يجب أخذها هي أن على كل لبناني ولبنانية الإدارك بأنه لا يفيدنا الاتكال إلاّ على أنفسنا، وأنه يجب أن نكون دوماً جنوداً وعمّالاً ورسلاً للمحافظة على بقاء لبنان واحة حرّة مستقلّة في هذا الشرق، كي لا تتكرّر مآسي الماضي وغباره، وكي لا نُحرم من المجد.

(١) إبراهيم نعوم كنعان، بيروت في التاريخ، مطبعة عون - بيروت ١٩٦٣، ٢٢٥.

إعلان ثورة

منشور حكومة لبنان الثورية

إلى الأمة اللبنانية الكريمة

أيّها المواطنون؛

إن كنا وإياكم لم نُهب بعضنا ببعض حتى الآن أن ننتفض على هذه الحكومة التركية العسكرية الغشوم التي عبثت بحقوقنا السياسية وأرهقتنا مما نشعر من نفوسنا بالثورة عليها، فليس معنى هذه السكينة منّا أننا خنعنا وخزينا وخمد فينا روح الاستقلال. فما نحن إلاّ سُلاّف الأبطال الذين آثروا الموت على العبودية واستهانوا بكل الضحايا في سبيل حريتهم واستقلالهم وخلّفوهما لنا تراثاً مقدساً، والسماء والهواء والماء وسائر العناصر والطبائع التي كوّنت عواطفهم وأخلاقهم من الشمم والإباء والسناء والمضاء في هذا الجبل التاريخي هي نفسها التي عملت في تكوين عواطفنا وأخلاقنا، بل نحن نفضّلهم بما نمت العقول واتسعت المعارف.

وإنما نحن كظمنا ثورة نفوسنا لما رأينا أن بسالتنا وحصوننا الطبيعية ليست هي كل عدّة الانتفاض، بل الثورة لا بدّ لنا فيها من نصير ومنفذ من جهة البحر أو يكون انتفاضنا على القوة التي عدت علينا غضباً محضاً لا ثورة مرتّبة وناهيك به من رعونة.

أيّها المواطنون! إن الحكومة الثوريّة تخاطبكم بهذا المنشور قد تكوّنت في أوائل الشتاء الأخير لمّا حقّت لنا بل وجبت علينا الثورة أي لمّا أخذت الحكومة التركية العسكرية تلاشي حكومتنا الشرعيّة. وإننا منذ ذاك نتوقع في الحرب الأوروبية الطور الذي تصبح فيه ثورتنا ميسورة أي الطور الذي يتيسر فيه التعاون بيننا وبين أصدقائنا وحماتنا الذين تجمعنا بهم المصلحة من الدول الأوروبية. وكان ينبغي أن تكون ثورتنا مبنية على مجرّد على ما شهرت تركية

عداءها على الإنكليز والفرنسيس والروس لا على عدوانها على كياننا السياسي الشرعي. فإن حكومة الأتراك دمّل في جسم الإنسانية لا صحة لها ما لم يُبتر من أصله. وكل إنسان ينبغي له بل يجب عليه أن يتخذ في صفوف من يقاتلونهم لملاشاة حكومتهم. ولكن المروءة قضت علينا أن نحترم النمسه وألمانية واشتراكهما في العهد الدولي الذي هو أساس كياننا السياسي فلم يُمكّنا أن نجاري عواطفنا على الثورة حتى همّ الأتراك بالبروتوكول أن ينسخوه وسكت لهم النمساويون والألمان لا يحتجّون على عدوانهم، أو لا ترى أنهم لم يجهزوا عليه حتى دخلت إيطاليا في الحرب عليهم.

أيّها المواطنون! إن الثورة التي أنشأنا لها حكومتها هذه في أوائل الشتاء على أن نعلنها في الفرصة المناسبة قد حان وقتها واستقامت الأسباب التي كانت تعوزنا لها وتمّت لنا عدتها. فنحن لأجل الاستقلال الذي هو أقصى أمانيّ الجماعات إذا ارتقت حتى تشعر بشخصيتها ولمشاركة الدول التي اختصتنا بعنايتها وجمعتنا بها المصلحة من الحرب الحاضرة وللاشتراك في العمل الإنساني العظيم أي ملاشاة الحكومة التي أفسدت الشرق وعطّلت أخصب بقاع العالم لأجل هذه الواجبات الثلاثة وبعد استجارة الله تعالى والاعتماد على بطولتكم نعلن الثورة على حكومة الأتراك.

أيّها المواطنون! إن حكومة الثورة تستمر حتى تتفق هي ودول الاتفاق الرباعي على حكومة تخلفها.

إن حكومة الثورة لها من الهم لقتال العدو أكبر شاغل حتى لا قِبَل لها بالنظر في المشاكل الشخصيّة. فأنتم ينبغي لكم أن تتحاشوا جهدكم هذه المشاكل، فإن وقعت فتولوا صرفها بأنفسكم. على أنّه لا يشغلنا شاغل عن معاقبت من يفترض الفوضى للعدوان.

كل أعمال الحكومة اللاّشرعية التي تألّفت بعد اعتزال أوخانس (أوهانس) باشا الحاكم الشرعي اعتزاله الاضطراري لا يكون لها من قيمة بعد هذا

المنشور. فاحترسوا أن تأتمروا لها أمراً أو تؤدوا إليها ضريبة. ومهما استطعتم فصادروها.

إننا في أعمالنا الحربية نتحاشى قتال إخواننا العرب ما أمكننا أن نتحاشاه. فهم لا يقاتلون بأمرة الأتراك إلاّ مكرهين. فإن تيسّر لهم أن يبرحوا معسكرات العدو للانضمام إلينا أو للانصراف إلى بيوتهم فمن أكبر واجبكم أن تساعدوهم كما ساعدتم حتّى الآن من مرّوا بكم منهم منصرفين إلى بيوتهم.

إن التجّنيد للثورة اختياري. فكل من تكون له الحميّة الوطنية أن يقاتل معنا فشرط التحاقه بنا أن يحقق لنا إخلاصه.

أيّها المواطنون!

إننا قائمون بواجب مقدّس تصغر في سبيله الضحايا، ولنا إتكال على الله مالئ نفوسنا وثقة بكم مالئة قلوبنا. والاتكال على الله والثقة بكم في سبيل واجب مقدّس مصدر كافٍ لكل بطولة. فإن مُتنا فَقد مُتنا عنكم موتاً شريفاً، وإن حيينا فقد حيينا وإيّاكم أحراراً، ونحن وإيّاكم في الحالين تاركون إن شاء الله لورثتنا من أصلابنا في هذه الأرض تراثاً مقدساً من العزية والحرية والاستقلال.

رئيس الحكومة الثورية.

نعوم لبكي

٦ أيلول ١٩١٥

محاولة نفي البطريرك الياس الحويك

(١٩١٥ ـ ١٩١٧)

الدكتور عبدالله الملاح[*]

تمهيد

لبّت السلطنة العثمانية نداء ألمانيا في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٤ ودخلت معها غمار الحرب العالمية الأولى[١]، وسرعان ما استغلت أجواء الحرب لتعيّن وزير البحريّة أحمد جمال باشا[٢] قائداً للفيلق الرابع، وحاكماً عسكريّاً عامّاً على لبنان وسوريا وفلسطين، من دون أن يتخلّى عن منصبه الوزاري في الحكومة العثمانية[٣]. وإلى جانب هذه الخطوة استصدرت الحكومة العثمانية

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٤٩.

(٢) وُلِد في ٦ أيار ١٨٧٢ في Lesbos (Midili) اليونانية، وتخرّج من المدرسة الحربية في استانبول سنة ١٨٩٣. انخرط برتبة ضابط في الجيش العثماني. ثم تقلّب في الرتب والمراتب المختلفة، وتأثر بالاتحاديين وانتسب إلى جمعيتهم، وأضحى في العام ١٩٠٨ من الضباط البارزين فيها. ظهر على المسرح السياسي سنة ١٩١٣، وتولّى وزارة الأشغال، ثم وزارة البحرية. بعد ذلك عينته حكومته قائداً عاماً للبنان وسوريا وفلسطين. اغتيل في تفليس (Tbilissi) ـ جورجيا، بتاريخ ٢٥ تموز ١٩٢٢. عبد الله الملاح: «هيمنة جمال باشا على جبل لبنان (١٩١٤ ـ ١٩١٧)»، في المسرة، عدد ٨٥٨، تموز ـ آب، ٢٠٠٢، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٣) مجلة الأسرار، العدد ٣، تاريخ ٢٠ نيسان ١٩٣٨.

إرادة سنيّة ألغت بموجبها الامتيازات الأجنبيّة (Les Capitulations)[1] ابتداء من ١ تشرين الأول ١٩١٤، وعمدت إلى إخراج قناصل الحلفاء من بيروت[2].

وبموازاة هذه الإجراءات احتلّ جمال باشا جبل لبنان عسكريّاً، ونقض نظامه[3]، وحمّل رجال الدين المسيحيين تبعات السياسة الفرنسيّة في هذا الجبل، فانتقم من بعضهم واتّخذ بحقهم العقوبات التالية:

- نفي مطران أبرشية بيروت المارونية السيد بطرس شبلي[4].
- إجبار مطران بيروت للروم الأرثوذكس السيد جراسيموس مسرّة[5] على

(١) جريدة لبنان الرسمية، عدد ٧٥٣، تاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٩١٤؛ و.
Mgr Basile Homsy: Les Capitulations et la protection des chrétiens au Proche Orient, aux XVIe, XVII et XVIIIe Siècles. Imprimerie St Paul, Harissa (Liban), 1956.

(٢) غادر قنصل إنكلترا وقنصل فرنسا بيروت في ٢ تشرين الثاني ١٩١٤، أما قنصل روسيا فقد منعته السلطات العثمانية من السفر. وقد كان هذا المنع رداً على تصرف روسيا وعملاً بالمثل. ميشال شبلي: ترجمة المطران بطرس شبلي، رئيس أساقفة بيروت الماروني، ١٨٧١ ـ ١٩١٧، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٩، ص ١٧٥.

(٣) بدأ منذ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤ يتردد أن السعي متواصل لنزع امتيازات جبل لبنان وعزل المتصرف أوهانس باشا، وتعيين متصرف جديد بدون مراجعة القوى العظمى أو تدخّلها. إلاّ أن التنفيذ العملي قد تأخّر حتى ٢١ حزيران ١٩١٥، تاريخ استحصال أوهانس باشا على «إجازة خاصة» وقسرية من الصدر الأعظم ومغادرته جبل لبنان نهائيّاً في ٧ أيلول ١٩١٥ باتجاه العاصمة العثمانية. وبهذا الخروج قضت الحكومة العثمانية على استقلال متصرفيّة جبل لبنان الذاتي، وعيّنت علي منيف بك متصرفاً عثمانياً على نحو مناقض لمندرجات النظام الأساسي. ميشال شبلي، المرجع السابق، ص ١٧٧؛ و Ohannès Pacha Kouyoumdjian: Le Liban à la veille et au début de la Grande Guerre, Mémoires d'un gouverneur, 1913 - 1915, Edition du centre d'histoire, Paris, 2003, p. 151.

(٤) وُلِد في دفون في ١٩ كانون الأول ١٨٧٠. سيم كاهناً بتاريخ ١٤ تموز ١٨٩٧، وأسقفا في ٧ شباط ١٩٠٨. أجبر على الاستعفاء ونفّذ أمر النفي في ٧ نيسان ١٩١٦. توفي في ٢٠ آذار ١٩١٧. ميشال شبلي، المرجع السابق، ص ١٩ ـ ٢٤٠.

(٥) أبصر النور في ١٨ أيار ١٨٥٩ في مدينة اللاذقية. لبس الأسكيم الكهنوتي في ١٥ كانون الأول ١٨٧٣. تخرج من المدرسة اللاهوتية التابعة للبطريركية المسكونية في القسطنطينية =

مغادرة المدينة والاعتكاف في دير من الأديار[1].

- ملاحقة العديد من مطارنة الروم الملكيين وإصدار أحكام بحق بعضهم راوحت بين الإعدام والنفي وفق التالي:
  * تعيين مطران حلب ديمتريوس قاضي[2] قائمقاماً بطريركيّاً على طائفة الروم الملكيين الكاثوليك.
  * الحكم بالإعدام غيابياً على المطران غريغوريوس حجار[3] مطران عكا.
  * نفي المطران أغابيوس معلوف[4] رئيس أساقفة بعلبك إلى أورفا (الرُّها).

= سنة ١٨٨٢، وعاد إلى خدمة الكنيسة في اللاذقية مدة سنتين. التحق في ١٥ آب ١٨٨٤ بالبطريرك الأنطاكي في دمشق لإدارة القلم اليوناني. بعد ذلك انتقل إلى مصر لخدمة الشعب الإسكندري والكنيسة الأرثوذكسية. انتخب مطراناً في ١٠ نيسان ١٩٠٢ على أبرشية بيروت، فانتقل إليها وحمل فيها أعباء الخدمة الروحية ثلث قرن. توفي في ٢١ شباط ١٩٣٦. فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج٢، بيروت، ١٩١٣، ص ١٤٢ ـ ١٥٠؛ ومجلة المعرض، العدد ٤٦، شباط ـ نيسان ١٩٣٦، ص ٤١؛ وكتاب روض المسرة في تهانئ سيادة العلامة السيد جراسيموس مسره، طبع بالمطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٣، ص ٧ـ١٥.

(١) المقطم، عدد ٧٩٤٤، تاريخ ١٩١٥/٥/٨.

(٢) هو يوسف بن يوسف قاضي. وُلِد في دمشق في ١٨ كانون الثاني ١٨٦١. سيم كاهناً سنة ١٨٨٨ ومطراناً على حلب (١٩٠٣ ـ ١٩١٦). إثر وفاة البطريرك كيرلس جحا (١٩٠٢ ـ ١٩١٦)، عينته السلطة السياسية قائمقاماً بطريركياً (١٩١٦ـ ١٩١٩)، وفي العام ١٩١٩ انتخب بطريركاً أصيلاً على طائفة الروم الكاثوليك. توفي في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٥. وسام كبكب: جمعية المرسلين البولسيين، تأسيسها، تنظيمها، دورها الرسولي، منشورات المكتبة البولسية، ١٩٨٧، ص ١٦٦.

(٣) وُلِد في روم (جزين) في ٢٠ آذار ١٨٧٥. دخل الرهبنة المخلصية وسيم كاهناً في ٤ كانون الثاني ١٨٩٧. انتخب أسقفاً على أبرشية عكا في ١٤ آذار ١٩٠١. تُوفي في ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٠. الأب إلياس كويتر المخلصي: هؤلاء هم آباؤنا المخلصيون، منشورات الرهبانية المخلصية في يوبيلها المئوي الثالث، ١٩٨٣، ص ٢٠١ ـ ٢٤٠.

(٤) نفي من ٢٤ نيسان ١٩١٥ إلى ٢٤ حزيران ١٩١٨. توفي في ١٢ شباط ١٩٢٢. وسام كبكب، المرجع السابق، ص ٨٥ و٢١٣.

* نفي المطران يوسف الدوماني[1] رئيس أساقفة طرابلس إلى سيواس في تركيا.
* نفي مطران حوران السيد نيقولاوس قاضي[2] إلى حلب.

- ونجم أيضاً عن سياسة الضغط والترهيب شنق الخوري يوسف الحايك، من سن الفيل في دمشق[3]، ومحاكمة الخوري موسى ميلان من بحنّس[4] ومثول الخوري جبرايل زيدان[5] والقس لويس شلالا الغزيري[6] أمام المجلس العرفي في عاليه.
- كما حُوّل دير مار الياس شويّا، ودير مار يوسف بحرصاف، ودير مار يوسف البرج، ودير الناعمة، ودير راهبات المحبة في بحنّس، ودير مار أشعيا[7]، ودير مار يوحنا القلعة ـ بيت مري، إلى قلاع عسكرية. وأطلق على دير مار أشعيا اسم قلعة جمال، وعلى دير مار يوحنا اسم قلعة رشاد[8]. «أما كلية اليسوعيين (في بيروت) فقد أصبحت مدرسة طبية عثمانيّة»[9]. واحتفل والي بيروت بتحويل مدرسة «الفرير بحي الجميزة» إلى «قشلق للجندرمة» وكنيسة المدرسة إلى جامع. وطلب في

(١) وُلِد في دمشق سنة ١٨٥٠. انضمّ إلى الرهبانية المخلصية سنة ١٨٦٩. سيم كاهناً سنة ١٨٧٦، وانتخب أسقفاً على أبرشية طرابلس سنة ١٨٩٧. توفي سنة ١٩٢٢. وسام كبكب، المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) المُرسل، عدد ٢٣٩، تاريخ ١٤ آذار ١٩١٧؛ ووسام كبكب: المرجع السابق، ص ٢١٣.

(٣) الخوري انطون يمين: لبنان في الحرب، ١٩١٤ ـ ١٩١٩، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٩، ص ٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) الأب إبراهيم حرفوش: ماجريات، دفتر رقم ٤، ص ٣١.

(٦) عبد الله الملاح: «الديوان العرفي والرعب والموت في ظل الهيمنة العثمانية على جبل لبنان»، مجلة المسرة، العدد ٨٥٩، ٢٠٠٢، ص ٦٩١ ـ ٦٩٢.

(٧) المُرسل، عدد ٢١٠، تاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩١٦؛ وعدد ٢٦٠، تاريخ ٢ حزيران ١٩١٧.

(٨) فيليب حتى: لبنان في التاريخ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩، ص ٥٨٨.

(٩) المُرسل، عدد ٢٩٥، تاريخ ١٠ تشرين الأول ١٩١٧.

خطابه «أن يصير في كل سنة احتفال تذكاري لهذا التدشين»[1]، وبالتالي تذكير الناس بالاستبداد والتعسف التركيين.

هذا، وعلى الرغم من ضراوة هذه الإجراءات التي طالت العديد من كبار رجال الدين المسيحيين بنوع خاص، فإن محاولة إبعاد[2] البطريرك الماروني الياس الحويك[3] عن مقرّه الرسمي تبقى أبرز المحاولات التي أراد جمال باشا تنفيذها في غفلة من الزمن. فهزّت هذه البادرة الأوساط اللبنانية والضمير العالمي، وشغلت الرأي العام الكاثوليكي، واستقطبت المؤازرين والمناوئين وسط ضجة إعلامية وصحافية كبيرة. فما طبيعة هذه المحاولة؟ وما أبعادها؟ ومن عمل على إفشالها؟

أولاً: الاستدعاءات ـ الزيارات

لقد رصدنا، في سياق معالجة الاتصالات بين البطريرك الحويك وجمال باشا، وبغية الإجابة عن التساؤلات السابقة، عدة محطات تدرّجت من اللقاءات الودية والمجاملات السطحية حتى عتبة النفي والإذلال. وقد اتسمت هذه المحطات بالقلق اليومي والاضطراب المستمر، وزاد من حماوتها مَكْر جمال باشا وخداعه وغطرسته، وتعنيفه شيخاً جليلاً دأب على استدعائه بين الفينة والفينة.

(١) ميشال شبلي، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) الخوري انطون يمين، المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) هو الياس ابن الخوري بطرس الحويك. وُلِد في حلتا ـ البترون في أواخر كانون الأول ١٨٤٣. أرسله البطريرك بولس مسعد (١٨٥٤ ـ ١٨٩٠) إلى روما حيث أتمّ علومه وسيم كاهناً. عاد إلى لبنان سنة ١٨٧٠ ورقاه البطريرك مسعد في ١٤ كانون الأول ١٨٨٩ إلى درجة الأسقفية. انتخب بطريركياً على الطائفة المارونية في ٦ كانون الثاني ١٨٩٩، وتوفي في ٢٥ كانون الأول ١٩٣١. الأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلي منار الطائفة المارونية، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه، ١٩٣٥، ص ١٤ وما بعد.

١ ـ الاستقبال البروتوكولي

وصل جمال باشا إلى دمشق في ٥ كانون الأوّل ١٩١٤، ووجد المدينة مزدانة بالأعلام والرياحين احتفاء بقدومه، والناس يتراكضون لاستقباله في المحطة، مأخوذين بتصاريحه، مقدّمين الأضاحي، ناثرين الورود والقصائد[١]. وفور استقراره في «أوتيل دماسكوس بالاس» تقاطرت إليه الشخصيات الاجتماعية والسياسية البارزة للترحيب به في دمشق. وكان في عداد هؤلاء المير شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦)[٢] والوزير السابق نجيب باشا ملحمة (١٨٥٠ ـ ١٩٢٦)[٣].

ولما اختلى المير شكيب[٤] بجمال باشا، كشف هذا الأخير عن رغبته في استدعاء البطريرك الماروني إلى الشام. علم نجيب باشا ملحمة بهذا

---

(١) الجنرال التركي علي فؤاد: كيف غزونا مصر، نقله إلى العربية نجيب الأرمنازي، منشورات دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢، ص ٥٢.

(٢) صحافي وخبير بالشؤون السياسية وداهية محنك، كان من بين اللبنانيين الأوائل الذين تبوأوا منصب الوزارة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩). حضر إلى الشام بمعية شكيب أرسلان للسلام على جمال باشا واستعطاف خاطره. الأمير شكيب أرسلان: سيرة ذاتية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٣٥.

(٣) ولد في الشويفات في ٥ كانون الأول ١٨٦٩. عمل في الصحافة والإدارة، سافر سنة ١٨٨٩ إلى القاهرة ومن بعدها إلى الأستانة فباريس وجنيف ولندن. منحته هذه الرحلة أبعاداً جديدة في الفكر والثقافة وجعلته يتعرّف إلى الكثير من الشخصيات. عاد إلى بيروت في أواخر العام ١٨٩٢، وقام بدور بارز في إدارة قضاء الشوف، تخلله خلافات ومواقف حادة تجاه المتصرفين. كان على علاقة وثيقة بأعضاء جمعية الاتحاد والترقي. انتخب نائباً عن حوران سنة ١٩١٣ وظلّ في منصبه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وكان مقرباً كثيراً من جمال باشا. بعد انهيار السلطنة العثمانية تنقل بين برلين وجنيف وموسكو ومرسين... وقف ضد الانتداب، وشارك في عدة مؤتمرات وأصدر مجلة عملت على خدمة مصالح العرب. سمح له بالعودة إلى لبنان سنة ١٩٣٦ لكنه عاد إلى جنيف سنة ١٩٣٧ تحت ضغط فرنسي. توفي في ٩ كانون الأول ١٩٤٦.
سيمون جبور: دور النخب الأرسلانية في تاريخ لبنان والعالم العربي السياسي المعاصر (١٩٠٨ ـ ١٩٨٣)، أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٧، ص ١٤ ـ ٢٣.

(٤) مجلد المعرض (١ ـ ٢٤)، العدد ٦، كانون الثاني ـ نيسان ١٩٢٣، ص ١٢؛ والأمير شكيب أرسلان: سيرة ذاتية، ص ١٣٦ ـ ١٣٨؛ ونجيب البعيني: ذكريات الأمير شكيب أرسلان =

المشروع، فأعلم غبطته بالأمر سراً، إلا أن البطريرك اعتذر عن القيام بهذه الخطوة متذرعاً بشيخوخته، مبيّناً أن تقدمه في السن يحول دون سفره واجتياز جبال لبنان الصعبة في هذا الفصل[١]. قبل جمال باشا الاعتذار شرط أن يتولى غبطته «إرسال اثنين من سادات المطارنة للسلام عليه في الشام حالاً وتعجيل حضور الوفد العمومي» إليه، وتمنى على غبطته أن يريح «البال مع المواظبة على الدعا بتأييد الدولة العلية»[٢].

شكّل البطريرك وفداً ضمّ المطارنة عبد الله خوري[٣] وبطرس شبلي وبولس عوّاد[٤] والخوري بشاره الشمالي[٥]، و٢٥ وجيهاً من وجهاء

= عن الحرب الكونية الأولى وعن المجاعة في سوريا ولبنان، منشورات نوفل، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٤٤ ـ ١٤٦.

(١) المطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا إبّان الحرب»، في مجلة المشرق، مجلد السنة ٢٢، ١٩٢٤، ص ١٦٢؛ والأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصمدانية، ص ٥٢٧.

(٢) محفوظات بكركي، برقية من نجيب ملحمة إلى البطريرك الحويك في٢٤ تشرين الثاني ١٣٣٠/ ١٩١٤.

(٣) هو عبد الله شهدان خوري. وُلِد في بكاسين في ١٣ كانون الأول ١٨٧٢. ارتسم كاهناً في ٤ حزيران ١٨٩٨، وانتخب مطراناً ونائباً بطريركياً في ١١ شباط ١٩١١. توفي في ٥ شباط ١٩٤٩. سامي سلامه: مفكرة المطران عبد الله خوري، منشورات جامعة سيدة اللويزة ـ لبنان، ٢٠٠١، ص ١٢ ـ ١٣.

(٤) أبصر النور في حصرون في ٩ شباط ١٨٥٥. ارتقى إلى درجة الكهنوت في ٢٩ نيسان ١٨٧٧. سيم أسقفاً بتاريخ ٢٤ أيلول ١٨٩٦، وفي ١٠ شباط ١٩١١ انتخب رئيساً لأساقفة أبرشية قبرس المارونية. اعتزل الخدمة الرعوية سنة ١٩٤٠ وانتقل إلى بكركي وأقام فيها حتى وفاته في ٢٧ حزيران ١٩٤٤. محفوظات بكركي، تاريخ حياة المطران بولس عوّاد، بدون تاريخ؛ والخور أسقف يوسف الحايك: «ترجمة حياة سيادة الحبر العلامة بولس عوّاد رئيس أساقفة قبرس السامي الاحترام»، في كتاب العقد الجميل في تهاني اليوبيل، المطبعة العلمية، صادر، بيروت، ١٩٢٧، ص ١٩ ـ ٢٨.

(٥) وُلِد في ١٥ آذار ١٨٧٧ في قرية سهيلة ـ كسروان. درس في مدرسة الآباء الإكليريكيين في بيروت. سيم كاهناً في ٢٣ أيار ١٩٠٠ وأسقفاً على أبرشية دمشق في ٢٣ أيار ١٩٢٠. توفي في ٢٤ كانون الأول ١٩٢٧. المطران يوحنا الحاج: المطران بشاره الشمالي رئيس أساقفة دمشق الماروني، ١٩٢٠ ـ ١٩٢٧، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٣ ـ ٩٣ و٢٠١.

المسيحيين. واستحسن مع الأمير شكيب، الذي اختار الوجهاء المسلمين، إرسال وفد مشترك بين المسيحيين والمسلمين[١]، والتلاقي في دمشق. وكان المقصد من ذلك إظهار اتحاد اللبنانيين وتآلفهم وتفاهمهم.

وصل الوفد المدينة السورية في ٩ كانون الأوّل ١٩١٤. وبعد استراحة دامت يومين قابل الجمع جمال باشا، وقدّم إليه اعتذار البطريرك الماروني ورسالته الخاصة التي تضمنت تمنيات غبطته الخيرية وتهانيه الحارة بسلامة الوصول وتعلقه المخلص بالعرش العثماني الأنور.

يبدو أن جسارة جمال باشا قد دفعته إلى تسريب خبر يكشف نواياه القاضية باحتلال لبنان وتشكيل ديوان عُرفي فيه. انقضّ هذا النبأ انقضاض الصاعقة على الحاضرين الذين أدركوا حالاً المصير الأسود الذي ينتظرهم وينتظر استقلالهم الذاتي[٢]. وعلى الرغم من تشنج الحاضرين، ردّ جمال باشا على البطريرك برسالة مجاملة، عبّر فيها عن ارتياحه للمبادرة البطريركية، وأبدى ثناءه العاطر على شخص غبطته، وطلب إليه بذل النصائح والإرشادات «قياماً بواجب الشفقة لوقاية بعض المواطنين» الذين لا يقدّرون النعم السلطانية حق قدرها.

وبعد التمعّن بهذه الاتصالات واللقاءات نتوقف عند الانطباعات التالية:

- كان جمال باشا متخوّفاً من اللبنانيين عموماً.
- إن الروح العدائية والتهديد طافحان من رسالة ظاهرها المجاملة وباطنها التهديد والوعيد.

---

(١) جاء في مذكرات الأمير شكيب أرسلان أن البطريرك الماروني وحبيب باشا السعد (١٨٦٦ ـ ١٩٤٢) اقترحا على المير شكيب أن يذهب أعيان المسيحيين إلى الشام مع وجوه الدروز في وفد واحد، فاستحسن الأمير شكيب هذا الاقتراح، وانتخب أعضاء الوفد المحمدي، وتلاقى الوفدان في دمشق عند جمال باشا. مجلد المعرض، العدد ٦، كانون الثاني ـ نيسان ١٩٢٣، ص ١٢؛ ونجيب البعيني، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢) المطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٣.

- إن الاستعداد لسفك دماء الخارجين على الطاعة العثمانية بادٍ بأجلى ما يكون.
- إن التصميم على استخدام الشدة والاقتصاص من رأس الطائفة المارونية ظاهران بوقاحة.

٢ ـ الاستدعاء الأول

لم يحل اللقاء البروتوكولي ورسائل المجاملات دون هبوب العاصفة، بل كان كل ذلك حافزاً جعل جمال باشا يرقب الفرصة السانحة. فبعد أيام قليلة على زيارة التهنئة، أوعز دولته إلى الحاكم العسكري العام باستدعاء الخوري بشاره الشمالي في ١٢ كانون الأوّل ١٩١٤، ومفاتحته بضرورة حصول البطريرك والأساقفة على الفرمان العثماني «العالي الشان». كما أوعز في خطوة أولى إلى الديوان العرفي باستدعاء الحويك للمثول أمامه. فتلقف هذا المجلس الطلب وسطّر إلى يوسف الحكيم[١] في أواسط سنة ١٩١٥ البرقية التالية:

«أرسلوا حالاً حنة زوجة طنوس من قرية الكفور والياس حويك البطريرك الماروني»[٢].

بهذه العبارات الوقحة، المتضمنة كل معاني الاستخفاف والازدراء، والخالية من أيّ علامة من علامات الاعتبار والاحترام للمقام البطريركي، طلب المجلس العرفي إحضار زعيم الطائفة المارونية في جبل لبنان. ولا ندري أية مصادفة جمعت بين «حنة» والبطريرك، وأية مقاربة غريبة عجيبة ربطت بينهما، ووازت بين شخصيهما. فهذه الصياغة المستهجنة لم تكن تضمر إلا الكراهية والحقد والإذلال والإساءة الرخيصة.

---

(١) رئيس القلم التركي في متصرفية جبل لبنان آنذاك.

(٢) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان، ص ١٧٣.

٣ ـ اللقاء الأول بين البطريرك الحويك وجمال باشا

لم يستجب البطريرك لهلوسات المجلس العرفي، وبالمقابل لم يوفر جمال باشا وسيلة للنيل منه. ففي العاشر من تموز ١٩١٥ طلب «رضى باشا قومندان عاليه، بإيعاز دولتلو جمال باشا، من إبراهيم الأسود زيارة المطران بولس عوّاد وإفهامه بصراحة وجوب حضور البطريرك من الديمان «أي من مسافة نحو ١٥٠ كيلومتراً للسلام» على دولته في صوفر»[1]. نقل المطران عوّاد هذا الطلب ـ الأمر، في ١٣ تموز من العام المذكور إلى الحويك في رسالة مسهبة تشرح الأحداث وخلفياتها، وتقول بكل وضوح:

إن «. . . جمال باشا يطلب جازماً قدوم غبطتكم للسلام عليه في صوفر. . . وهو يقول أنه إذا كان عذر غبطتكم في المرة الماضية في عدم توجهكم إلى الشام لبعد الشقة فهو الآن لا يقبل عذراً في عدم قدومكم صوفر التي هي في لبنان وأنه إذا لم تجيبوا هذه المرة إلى رغبته يعتبر ذلك إهانة لجلالة السلطان الأعظم وللدولة العلية ولشخصه الممثل لهما تمثيلاً مطلقاً ويترتب على ذلك ما يسوء غبطتكم والطائفة، وبعكس ذلك إذا قمتم بهذه الزيارة رأيتم من ورائها ما يسرّكم ويسرّ الطائفة جمعاء، وأنه مستعد أن يرسل إليكم أوتوموبيله الخاص يقلكم قدوماً وإياباً وإنه على أثر ذلك يرد الزيارة لغبطتكم في كرسيكم البطريركي وستكون زيارتكم له وزيارته لكم محفوفتين بجمال التكريم والاعتبار لغبطتكم. . .»[2].

وإلى جانب نقل الطلب لم يجد المطران عوّاد غضاضة في إبداء رأيه وتقديم النصح والقول:

«أما نحن فبعد التروي الكثير والتفكير الطويل في هذا الأمر من جميع

(١) المطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا. . .»، ص ١٦٤.

(٢) محفوظات بكركي، رسالة من المطران بولس عوّاد إلى البطريرك الحويك في ١٣ تموز ١٩١٥.

الوجوه وباعتبار الظروف الحاضرة الأكيدة والظروف المستقبلة المظلمة والتي لا يعلمها إلا الله نرى أن لا بأس من الإجابة إلى رغبة دولته ولو كلّف ذلك غبطتكم بعض المشقة. فحبكم للمصلحة العامة وخير الطائفة حملكم على تضحية أعظم من هذه الزيارة في هذه الظروف الملحة فلا بأس في ما إذا أقدمتم على هذه التضحية أيضاً رفعاً لكل مسؤولية وتلافياً لما قد يترتب على الرفض من العواقب، ولعل هذه الزيارة تكون مدعاة لفوائد طائفية أو لبنانية ولزيادة رفعة شأن المقام البطريركي الجليل تجاه الدولة أو الشعوب المحدقة بنا خصوصاً في هذه الأيام لا سيما لأن جمال باشا يعتبر الآن عند الجميع بمنزلة نائب ملك فعلي في جميع الولايات السورية وفي لبنان أيضاً، فليس في زيارته مهانة أو صغارة للمقام البطريركي الذي اعتاد أن يزور في لبنان وخارجه أيضاً مثل هؤلاء الرجال العظام».

ثم يرسم المطران عوّاد طريق «سفر» البطريرك بالقول:

«أما خطة سفركم فيمكن أن تكون رأساً إلى صوفر حيث تتناولون طعام الغداء على مأدبة دولته، كما علمنا باستعداده لذلك، ثم تعودون إلى بكركي وفي اليوم التالي إلى الديمان أو أنكم تشرفون رأساً أول يوم إلى بكركي بنحو ثلاث ساعات فقط وفي ثاني يوم إلى صوفر ثم إلى بكركي فالديمان».

وفي الحالتين سيكون المطران عوّاد بانتظار غبطته بفارغ الصبر «إزالةً لانشغال البال من هذه المسئلة التي لم تكن بالحسبان والله ولي التوفيق ولغبطتكم الرأي العالي»[1].

لقد استفاض المطران في تبيان مخاطر عدم الاستجابة، وحذّر هذه المرة من عدم تساهل جمال باشا مع البطريرك على الرغم من شيخوخته. فأفهم غبطته أنه في حال التحجج بانحراف الصحة «فدولته مستعد أن يرسل أطباء

(١) محفوظات بكركي، رسالة من المطران بولس عوّاد إلى البطريرك الحويك في ١٣ تموز ١٩١٥.

من قبله» للتحقق من صحة الادعاء، و«أن أقل تردد في إجابة طلب دولته يوجب سوق قوة عسكرية إلى نفس المقام البطريركي بحجة ما»، إذ لا يتعذر عليهم استنباطها. وخشي المطران عوّاد أن يعمد جمال باشا، في حال تقاعس البطريرك، إلى طلب غبطته قسراً «إلى المجلس العرفي في عاليه ثم يطلب مطارين الطائفة الواحد بعد الآخر ويحصل لهم هناك ما لا يُرضى». وأَمِلَ من حكمة البطريرك «تدارك كل ذلك متكلين في هذه الأمور على الله». ومما لا ريب فيه أن «في هذه الزيارة دفعاً لكل محذور ومسؤولية»[1].

اقتنع البطريرك بشروح المطران عوّاد وبوجهة نظره، وأبرق إليه بالإيجاب معلناً تلبية الطلب والقيام بالزيارة المطلوبة، وطيّر إلى سيادته في ١٥ تموز ١٩١٥ البرقية التالية:

«برمانا بكفيا، المطران بولس عوّاد

كنا مستعدين لقضاء الواجب، منتظرين الإفادة التي بلغتنا البارح ليلاً من سعدالله[2] واليوم من تحريركم فأحضروا كما أفدتم.

البطريرك الياس»[3].

ورفع سعدالله الحويك بالتاريخ نفسه برقية أخرى إلى رضا باشا، معلناً فيها استعداد البطريرك للقيام بالزيارة:

(١) المصدر نفسه.
(٢) إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٤٠ ـ ٥٤١.
(٣) هو شقيق البطريرك الياس الحويك. وُلِد في حلتا من أعمال البترون سنة ١٨٥٣. انتخب نائباً في المجلس الإداري بتاريخ ٤ أيار ١٩٠٠، واستمرت نيابته حتى تاريخ نفيه إلى الأناضول في أواخر العام ١٩١٤. تابع عمله السياسي والإداري بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، لكن السلطات الفرنسية نفته مجدداً مع مجموعة من النواب إلى كورسيكا في ١٠ تموز ١٩٢٠. عفي عنه وعاد إلى لبنان في أواخر ١٩٢١. توفي في ١٥ حزيران ١٩٢٨ في حارة صخر ودفن فيها. ماجريات الأب إبراهيم حرفوش: تحقيق الأب أغناطيوس سعاده، ج٢، ص ١٠٦. وفارس سعاده: الموسوعة الانتخابية من حياتنا البرلمانية، خفايا ومواقف، ج١، بيروت، ١٩٩٤، ص ٣٦٩ ـ ٣٧١.

«عاليه ـ سعادتلو القومندان رضا باشا

وصلنا البارح ليلاً وجدنا غبطته مستعداً لقضاء الواجب

سعدالله الحويك»[1].

وصلَ الخبر بسرعة مذهلة إلى جمال باشا، واطلع عليه أيضاً المير شكيب أرسلان الذي كان حاضراً عنده... وعندما تلقى المطران عوّاد النبأ عينه، توجه نحو بيروت ليقوم بالاتصالات اللازمة بغية تأمين انتقال البطريرك براحة وأمان. ولكنه وجد «أن الأوتوموبيلات... غير صالحة للذهاب إلى الديمان بسبب قلّة آلاتها الهوائية الضرورية للمسافات الطويلة».

وبعد أخذ وردّ طويلين بقي جمال باشا مصراً على حضور غبطته «بأية طريقة كانت»، ممّا جعل رضا باشا يكتشف «عند نخله سرسق أوتوموبيلاً يصل إلى البترون فقط وليس معه من الأدوات إلاما يكفي لتوجه» غبطته إلى صوفر ورجوعه إلى البترون. وأنه لا بدَّ إذ ذاك «من الحضور بالعربية (السيارة) إلى البترون» بحيث يسافر غبطته «من الديمان بعد قداس العيد[2] واستقبال المهنئين»، ويكون في البترون الثلاثاء مساء، «ويوم الأربعاء ينتظر دولته غبطته للغدا على مائدته في صوفر».

وقد صدر أمر جمال باشا أيضاً للمطران عوّاد بالحضور «بنفس الأوتوموبيل إلى البترون». وإذ خشي المطران عوّاد ألا يكون عند البطريرك وسيلة تقله في طريق النزول، فقد وجّه إليه عربة تنقله والمطران يوسف صقر[3] وحدهما لأن «الأوتوموبيل» لا يسع إلا ثلاثة أشخاص. وهكذا رافق

(١) إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٤٠ ـ ٥٤١.
(٢) أي عيد مار الياس شفيع البطريرك الحويك الواقع في ٢٠ تموز من كل سنة.
(٣) هو من معلقة زحلة. درس في إكليريكية الآباء اليسوعيين في بيروت. عينه البطريرك الحويك في رئاسة مدرسة مار يوحنا مارون ـ كفرحي، في ٥ آب ١٩٠٩. سيم أسقفاً على حماه ونائباً بطريركياً في ١٩١١/٢/١١. توفي في الديمان في ٢٠ نيسان ١٩١٧. جان تخول: =

المطران صقر والمطران عوّاد البطريرك الحويك، بينما انتظر المطران شبلي قرب صوفر.

حقق البطريرك الزيارة «الإكراهية» في ٢١ تموز ١٩١٥، واستقبله جمال باشا أحسن استقبال في بهو «الأوتيل الكبير في صوفر». فجلس دولته في الوسط وجلس الجميع حوله بشكل نصف دائرة، عن يمينه البطريرك ومرافقوه، وعن شماله مجموعة من أمراء العسكرية. ولما استقرّ بهم المقام أخذ الحويك يتحدث عن علاقته مع العائلة الامبراطورية النمساوية، وأفاض في صداقة الطائفة المارونية للسلطنة العثمانية. فقاطعه جمال باشا وردّ بغلاظة عسكرية وتعالٍ قائلاً: ولكن «عندي وثائق تثبت العكس. فاضطرب البطريرك وقال له: هل لدولتك أن تطلعني على هذه الوثائق؟ أجاب جمال جازماً: سأطلعك عليها. وساد على المجلس السكون لا بل الوجوم»[1].

يبدو أن المناسبة قد أتاحت أيضاً انتقاد رجال الدين الموارنة المؤيدين لفرنسا، فأجاب غبطته بصراحة قائلاً: «كانوا أولياء دولتنا لما مدحتهم، وكنا في طاعة دولتنا، ولم يلحقنا سخطها ولم تحل بنا دولتنا نقمتها ولم أكن في ذلك مبتدعاً ولا خلا أحد من نظرائي من مدحهم...»[2].

سكت جمال باشا على مضض، وتدخل المير شكيب أرسلان بالحديث، مؤكداً صداقة البطريرك والطائفة المارونية للدولة العلية. عندها استعاد المجلس هدوءه وبشاشته، وأفضى الحديث إلى الكلام على الغلاء والضيق والجوع الذي بدأ يقض مضاجع الناس. عند هذا الحد دعا جمال

= مدرسة دير مار يوحنا مارون كفرحي، تاريخ ومحفوظات، منشورات معهد التاريخ في جامعة الروح القدس ـ الكسليك، ١٩٩٦، ص ١٥٤ ـ ١٥٥؛ وجان نخول: «رسامات البطريرك الياس الحويك، كهنة وأساقفة، ١٨٩٠ ـ ١٩٢٨»، مجلة المنارة، العدد الأول، ٢٠٠٧، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(١) نجيب البعيني، المرجع السابق، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصمدانية...، ص ٥٤٣.

باشا الجميع إلى مائدته... ولكن كلام الباشا فعل فعله في نفس البطريرك، وأخذ منه كل مأخذ، فظهر الإرهاق عليه وراح يتصبب عرقاً. لاحظ جمال باشا ذلك وقال: «إن بطريق أفندي تعب من السفر والأحسن أن يستريح». فصعد البطريرك إلى غرفته ومعه بعض حاشيته، وأكمل الجمع الطعام[1].

وعندما زالت الوعكة عن البطريرك، عاد غبطته قبيل عصر ذلك النهار إلى بكركي، «وكان معه في الأوتو سيادة عوّاد وصقر وابرهيم عقل»[2]، متكلاً على عناية ربه ورعايته[3]، مظهراً استعداده لتلقي سهام دولته الجارحة، كأنه بكل ذلك يرضخ لأحكام القدر والظروف.

٤ ـ الزيارة الثانية:

خرقت السلطات العثمانية، في شهر آذار من العام ١٩١٦، حرمة القنصلية الفرنسية في بيروت، وضبطت كل الوثائق والمستندات التي اكتشفتها فيها. فرأى جمال باشا في هذه الكتابات خيانة للوطن العثماني، وألقى تبعة ذلك على البطريرك الماروني بخاصة، وعلى العديد من المطارنة. وانتشرت الإشاعات تردد «أن السلطات العسكرية عادت تشدد في طلب بطريرك الموارنة، فهاجت خواطر اللبنانيين، وخشي الجميع سوء العاقبة، كما خاف البطريرك من شيوع ما شاع، ودفعه الاحتياط إلى نقل محفوظات الأرشيف البطريركي إلى دير الكريم ـ غوسطا»[4].

بعد هذه الخضة السياسية، أرسل جمال باشا سرّاً في ٢٩ نيسان ١٩١٦ من يشير على المطران عبد الله خوري بضرورة إقناع البطريرك بوجوب زيارة

(١) نجيب البعيني، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) ميشال شبلي، المرجع السابق، ص٢٠٣.

(٣) قيصر الزغبي: من خلّص البطريرك الحويّك، رد على المطلع، لمحة ثانية، ص ٧.

(٤) إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٤٦؛ وعبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٥.

جمال باشا «المزمع على القدوم إلى بيروت في أواسط الأسبوع الأوّل من شهر أيار ١٩١٦ لقضاء بضعة أيام؛ على أن يشرّف قداسته إلى بكركي أولاً، ثم إلى بيروت حيث يستريح يومين أو ثلاثة لتكرار المقابلة وبذلك تنجو الطائفة من شرور جمة». هذا ما وجب عرضه على المطران خوري ليحتاط الجميع للأمر، وليصار إلى إعداد «المطرانخانه (في بيروت) لتكون صالحة لوطأة قدميه...»[(١)].

استجاب البطريرك ونهض من الديمان إلى بكركي، فبلغها في ٤ أيار ١٩١٦؛ وبعد ثلاثة أيام توجه إلى بيروت لمقابلة القائد العام. وبحكمته المشهورة فنّد كل التأويلات، وردّ كل التهم، ثم عاد مع حاشيته إلى مقره معززاً مكرماً[(٢)].

استغلت السلطة الوقائع وحورتها لمصلحتها ودفعتها إلى الصحف التي تلقفتها، وراحت تتناقلها مظهرة إنسانية جمال باشا وحلمه. وعلى سبيل المثال نقل عن جريدة المُرسل ما حرفيته[(٣)]:

«تفيد الأخبار الواردة من سوريا أن البطريرك الحويك عاد إلى مقره في الديمان في ١٤ مايو (أيار) ١٩١٦ محفوفاً بالإجلال والإكرام من قِبل السلطة العسكرية، فإنها ما اكتفت بأن طيّبت خاطره وأرفقته بشرذمة من الفرسان إجلالاً له بل زوّدته كمية كبيرة من الحنطة ليوزعها على الفقراء الذين عضّهم الجوع بنابه. وقد وعده جمال باشا بأنه يبذل كل ما في وسعه لتخفيف وطأة الجوع عن لبنان إكراماً لغبطته».

---

(١) مخطوطات بكركي، رسالة من الخوري طوبيا الرامي إلى المطران عبد الله خوري في ٢٩ نيسان ١٩١٦.

(٢) إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٤٨.

(٣) المُرسل، عدد ١٧٩، تاريخ ٢ آب ١٩١٦.

٥ ـ على طريق المنفى:

لم تقف فصول الضغط المعنوي والأدبي عند هذا الحد، بل إن مشاعر السخط والغضب أخذت بالتطور والاندفاع، وراحت خيوط المؤامرة التي كان يحيكها جمال باشا تتبلور تدريجياً. فسرت منذ أواسط أيار ١٩١٧، إشاعات تتهم البطريرك بالانحياز إلى الفرنسيين، وتكيل الإتهامات يميناً وشمالاً وتهدد باقتراب يوم الاقتصاص والمحاسبة...

وسط هذه الموجة من الأخبار الملفقة، حاز جمال باشا النيشان العثماني المرصع، فاغتنم البطريرك الفرصة ليبرق إليه مهنئاً في ٩ تموز ١٩١٧، فأجاب دولته مادحاً البطريرك شاكراً تمنياته. ولكن ما كاد يجفّ حبر الرسائل حتى بلغ الديمان، عند ظهيرة الحادي والعشرين من الشهر المذكور، المدعو عبد المجيد، الروسي الأصل، وأحد أركان حرب جمال باشا، حاملاً إلى البطريرك دعوة رسمية لمقابلة دولة الباشا بحجة التشاور والتباحث بمسألة الإعاشة وتوفير سبل الحياة للبنانيين الغارقين في الضيق والجوع والموت[(١)].

استلم البطريرك «الأمر» ظهيرة الحادي والعشرين من الشهر المذكور، وفي ٢٣ منه أناب مكانه المطران انطون عريضه[(٢)] (البطريرك في ما بعد)، وغادر الديمان، معلناً الرضوخ، برفقة المطران عبد الله خوري وكاهن من كتبة أسراره، قاصدين بحمدون. وعند وصولهم إلى أنطلياس انضم إليهم المطران بولس عوّاد، وساروا جميعاً إلى مقر جمال باشا، فوصلوا بحمدون يوم الخميس الواقع فيه ٢٦ تموز ١٩١٧[(٣)]. وقد تزامن هذا الوصول مع

---

(١) عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٥.

(٢) هو سليم عبد الأحد عريضه. وُلِد في ٢ آب ١٨٦٣ في بشري. ارتسم كاهناً في ٢٨ أيلول ١٨٩٠. رقاه البطريرك الحويك إلى الدرجة الأسقفية في ١٨ حزيران ١٩٠٨. انتخب بطريركياً في ٨ كانون الثاني ١٩٣٢، وتوفي في ١٩ أيار ١٩٥٥. الأباتي بطرس فهد: بطاركة الموارنة وأساقفتهم، القرن ٢٠، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ و٢٠٨ و٣٣٨.

(٣) جريدة لبنان الرسمية، العدد ١١٥٨، تاريخ ٨ شوال ٢٨/١٣٣٥ تموز ١٩١٧؛ وحنا الخوري لطوف: «البطريرك الماروني وجمال باشا، حقيقة تُقال لخدمة التاريخ»، في جريدة «الوطن»، نقلاً عن الأب إبراهيم حرفوش، ماجريات سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٥، ص ٢٨.

انتشار خبر الاستدعاء، مما خلق جواً من الاضطراب وجعل الناس يتساءلون «ما عساه أن يكون هذا الاجتماع؟ ألخير البطرك أم لويله»؟[1].

أقام جمال باشا استقبالاً لائقاً بالضيوف الزوار، وأظهر كل ارتياح إلى وجود البطريرك بالقرب منه. وتحدث إليه بشأن الإعاشة، وادعى أن شؤوناً عسكرية مهمة تستوجب انتقاله إلى الشام، وأبدى رغبته في أن ينتظره غبطته قرب سكة الحديد في بحمدون، وذلك في المحل الذي أُعدّ له ولحاشيته، ليجنّبه عناء السفر كلما احتاج إلى التباحث معه. فبهذه الحجة الظاهرة واللياقة المزيفة تطلع جمال باشا إلى «احتجاز» البطريرك وجعله رهينة بانتظار تقرير مصيره النهائي[2]. وبغية التعتيم على الحقيقة وإخفائها، نشر جمال باشا في جريدة لبنان الرسمية خبراً ملفقاً جاء فيه:

«يوم الخميس الواقع في ٢٦ الشهر الحالي (تموز ١٩١٧) وصل غبطة بطريرك الطائفة المارونية من الديمان إلى بحمدون مدعواً من قِبل حضرة صاحب الدولة قائد الجيش الرابع المظفر للمباحثة في أمور تتعلق بالإعاشة، فقابله دولته بما فطر عليه من اللطف والمجاملة، وأمر له بثلاثماية ألف كيلو من الحنطة كي يوزعها غبطته بمعرفته على الأديار وغيرها من الأماكن التي يراها البطريرك في حاجة ماسة إلى الذخيرة (المونة)، **وكان أن غبطته طلب من دولة القائد الكبير أن يبقى بضعة أيام بين بحمدون وزحله ترويحاً للتنفس وتبديلاً للهواء فأجاب دولته طلبه وقال له إذن عند وصولكم إلى زحله تنزلون ضيفاً عليّ** في القراركاه هناك. فأطال البطريرك لسان الدعاء الحميم بنصر دولتنا العلية الأبدية القرار وتوفيق الجيش العثماني الباسل ونيله الظفر النهائي في هذه الحرب»[3].

---

(١) الخوري انطون يمين، المصدر السابق، ص ١٤٨.
(٢) المطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٥؛ وإبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٦٥.
(٣) جريدة لبنان الرسمية، العدد ١١٥٨، تاريخ ٨ شوال ٢٨/١٣٣٥ تموز ١٩١٧.

ولتمرير الخدعة وتعميمها، حمل موظف حكومي في ولاية بيروت بياناً مطبوعاً في المطبعة الرسمية موقعاً باسم البطريرك، وهو عبارة عن كتاب من البطريرك الماروني إلى جمال باشا بلغة عربية سقيمة، وطلب نشره على صفحات جريدة «جورنال دي بيروت» الصادرة باللغة العربية. لم تنطلِ هذه الخدعة على أرباب الرأي، ففهم المحرر ميشال زكور (١٨٩٦ ـ ١٩٣٧)[1] «الحكاية»، وبدلاً من أن ينشر البلاغ كما هو، أخذه ووضع في أعلاه العبارة التالية: «جاءنا من الولاية ما يأتي».

وما كاد العدد يصدر، وفي أعلى البيان هذه الجملة الفاضحة، حتى قامت قيامة الحكومة، لأنها أدركت فشل خطتها، ودعا «مكتوبجي الولاية» عبد الغني سني بك أصحاب الجرائد وتهددهم باسم الوالي، خاصّاً على كومباشر جورج بك حرفوش صاحب «الجورنال»، معتبراً أن هذا العمل هو من نوع الخيانة. أسرع جورج بك، بعد المقابلة القاسية والساخنة، إلى إدارة جريدته، وبدأ الزعيق قبل أن يدخل الباب موجهاً كلامه إلى المحرر قائلاً: «لقد كدت تخرب لي بيتي وتخرب بيتك أيضاً أيها المجنون. لقد استغنيت يا ابني عن إصدار جريدة عربية توقعني في ورطة قد لا أنجو منها ثانية، فاذهب بسلام وحافظ على نفسك في هذه الأيام». وهكذا كان الطرد بدلاً لموقف ميشال زكور الجريء والوطني[2].

لم تحل هذه الفضيحة دون الاستمرار في المؤامرة التي كان جمال باشا مصراً على تنفيذها؛ فأطلع في غفلة من أمره بعض «أصفيائه على أنه ينوي

---

(١) صحافي وسياسي بارز، تولى مناصب حكومية ووزارية عديدة. أنشأ مع ميشال أبي شهلا مجلة «المعرض» الأسبوعية التي عاشت من ١٩٢١ إلى ١٩٣٦. جميل جبر: معجم أسماء العلم في لبنان، ٢٠٠٣، ص ٧٢؛ ومجلة المعرض، العدد ١٨، كانون الثاني ـ آذار، ١٩٢٧، ص ١٤.
(٢) ميشال زكور: مجلة المعرض، العدد ٦، كانون الثاني ـ نيسان ١٩٢٣، ص ١٥؛ والعدد ١٨، كانون الثاني ـ آذار، ١٩٢٧، ص ١٤.

نفي البطريرك إلى زحلة واشتهر الخبر في طول البلاد وعرضها حتى إنّ «نَزْل قادري المعروف» قد أُعدّ ليكون مقراً للنفي في مرحلة أولى[1]. وأرسل إلى المطران عوّاد ينبئه بعزمه هذا. فهرول المطران المذكور ومعه المطران عبد الله خوري لمقابلة الباشا. وبعد أخذ ورد تمكن عوّاد من إقناع دولته «بأن مصلحته الخاصة ومصلحة الدولة العامة تقضيان عليه بالعدول عن هذا الرأي». وسأله أن يسمح للبطريرك بالبقاء في صوفر ريثما يعود الباشا من رحلته إلى الشام التي قد تستغرق ١٥ يوماً[2].

نَزِل جمال باشا عند رغبة المطران عوّاد، وسمح للبطريرك بالبقاء في صوفر في دار الوجيه جورج تابت، بعد إقامة في بحمدون دامت ثلاثة أيام لا غير[3]. ولتبرير تأخره وتهدئة الخواطر، وجّه البطريرك الحويك التلغراف التالي إلى بكركي:

«بحمدون ـ جمال باشا

نحن والسادة المطارين على ما يرام من الانشراح. فاضت مكارم القائد الكبير أحمد جمال باشا بكمية وافرة من الحنطة تأميناً لمعيشة الإكليروس وبوشر في التسليم. أما الشعب فالاهتمام متواصل بتأمين معيشته. واصلوا الأدعية. البطريرك الياس»[4].

يبدو واضحاً أن البطريرك تحاشى إظهار الحقيقة، وأخفى امتعاضه أو الإيحاء بمكنوناته خوفاً من سوء المعاملة والمصير الأسود. لكن جمال باشا، وبعد وصوله إلى الشام بسبعة أيام، أرسل أمراً تلغرافياً إلى إسماعيل حقي بك

(١) حنا الخوري لطوف: «البطريرك الماروني وجمال باشا، حقيقة تُقال لخدمة التاريخ»، ص ٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) محفوظات بكركي، تلغراف البطريرك الحويك بدون تاريخ.

متصرف جبل لبنان وإلى قائمقامية كسروان يوجب انتقال البطريرك إلى زحلة، ويزعم أن الأمر مبني على إرادة بطريركية، قائلاً:

«... بناءً على طلبه قد أُذن له بتبديل الهواء مدة في جهات زحلة. أعلنوا ذلك في الجريدة الرسمية. أحمد جمال باشا»[1].

إن تذرع جمال باشا بـ «رغبة البطريرك» خدعة جديدة من خدعه العديدة، وأمر لا يمت إلى الحقيقة بصلة، لأن البطريرك لم يكن بوارد طلب إجراء مثل هذا التبديل من أحد، إذ يملك حرية التحرك والانتقال بين بكركي والديمان، وفي المقرين كليهما وفي سائر المراكز المارونية ما يكفي للراحة وتبديل الهواء. هذا بالإضافة إلى أن الرسائل المتبادلة بين الشام والبطريرك تظهر مراوغة جمال باشا ورغبته في تحقيق هذا الإبعاد القسري[2]. وقد سلك دولته هذا السبيل لتضليل الرأي العام وتشويش الأفكار والاختباء وراء أكاذيب واهية.

لقد جاءت هذه الرسالة تؤكد الإشاعة المتداولة منذ شهرين، وتثبت سوء نيّة جمال باشا. وكان على البطريرك الحويك أن يجيب عن هذه الرسالة الطافحة بالخبث والتدجيل برسالة لطيفة العبارة، يظهر فيها اعتذاره عن قبول الدعوة. فكتب في السابع من آب رسالة فرنسية النص يعتذر فيها بلباقته

(١) محفوظات بكركي، تلغراف جمال باشا بدون تاريخ.

(٢) وفي نص الرسالة الموجهة من جمال باشا إلى البطريرك في ٥ آب ١٩١٧ خير دليل على سلوك جمال باشا المخادع:

«J'ai l'honneur d'informer Votre Eminence que les travaux d'aménagement du Grand Hôtel de Zahlé destiné à recevoir le quartier Général étant achevés, ce serait pour moi un très grand plaisir, si Votre Eminence desirait faire un séjour de quelques temps à Zahlé, et voulait me faire l'honneur d'accepter d'être l'hôte de mon quartier...

Le commandant de la IVme armée et ministre de la marine.

A. Djemal».

المعهودة، ويتذرّع بكبر سنه، ويشكر الباشا على مبادرته ودعوته[١].

وعلى الرغم من هذا الفخ الذي نصب لغبطته فقد كتب مجدداً، وبناءً على طلب جمال باشا شخصياً، إلى وزير العدلية العثمانية يشهد بحسن إدارة الباشا. فنشرت جرائد الآستانة شهادة البطريرك الماروني ومجّدت أعمال القائد العام. فردّ جمال باشا في ١١ آب ١٩١٧ شاكراً واعداً بإرسال سيارته إلى البطريرك لتقلّه إلى زحلة[٢]. وفي ما يلي رسالة جمال باشا بالنص الحرفي:

«Eminence

J'ai reçu votre lettre et je me suis empressé d'expédier à destinaion la lettre que vous m'avez fait parvenir pour le ministre de la justice.

Je suis profondément touché des sentiments cordiaux que V. Em. Veut bien me faire l'honneur de m'exprimer, et de mon côté, je prie

---

(١) ومما جاء فيها:

«... La bienveillante invitation que V. Excel. me fait l'honneur de m'adresser dans le cas que je voudrais aller à Zahlé d'être l'hôte de votre Quartier Général redouble, s'il se peut, mes sentiments de reconnaissance pour toutes vos bontés, car c'est un vrai plaisir pour moi de pouvoir passer quelques jours dans votre Quartier Général.

Mon état de santé, ma vieillesse, mon éloignemrnt de ma résidence, l'apparition du choléra à Zahlé et ses environs, les malveillantes interprétations de certains gens, toutes contradictions je les accueille avec joie après les sympathiques et cordiales assurances qu'il vous a plues de me faire au moment où nous sommes quittés à Béhamdoun.

... J'accepte donc de tout cœur votre bienveillante invitation au Quartier Général à Zahlé où J'espère avoir prochainement le plaisir de revoir V. Excel. comme Elle me l'a promis. Dans ce cas, je prierai V. Excel. à moins que dans sa haute sagesse elle ne veuille que ce voyage soit ajourné, de vouloir bien donner ses ordres en vue de me faciliter les moyens d'avoir une automobile....

Elias Pierre Hoyek

Ain Sofar le 7 Août 1917».

(٢) الأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٦٨.

Vot. Em. d'être certaine de pouvoir toujours compter sur la confiance qu'elle a en moi.

Je compte me rendre bientôt au Liban et j'aurai alors le très grand plaisir de mettre mon automobile à votre disposition et vous faciliter ainsi le voyage à Zahlé...

Le com. De la IV armée et min. de la marine

A. Djémal»[١]

استلم البطريرك الماروني هذا الكتاب في ١٣ آب ١٩١٧، ووجد أنه من الضروري إيفاد المطرانين عوّاد وخوري للترحيب بالباشا من قبله والسلام عليه. فسألهما جمال باشا عن صحة البطريرك، وعن إقامته في صوفر، فبادر المطران خوري إلى القول «إن البطريرك لم يألف السكنى خارج كرسيه بين العوام ويأبى التثقيل على مضيفيه الكرام»، واقترح إيابه إلى بكركي. فاستفهم جمال باشا عن موقع بكركي، واستبعدها، لأنها بعيدة جغرافياً عن السكة الحديدية في جونيه، ويتعذّر عليه مقابلته للتشاور في بعض الشؤون باستمرار. تدخل المطران عوّاد واقترح إقامة البطريرك في كرسي أبرشيته في قرنة شهوان، فاستصوب دولته المكان وقال «لا بأس فليذهب»[٢].

وهكذا تمّ الأمر، وتعدل محل الإقامة، وغادر غبطته صوفر بعد إقامة عند آل ثابت دامت من ٢٥ تموز إلى ١٤ آب ١٩١٧.

انتقل البطريرك من صوفر بصحبة جورج ثابت إلى «مطرانخانه» أبرشية قبرس المارونية في قرنة شهوان حيث استقبله كرام القوم مظهرين سرورهم وفرحهم بقدومه. ومكث فيها حتى عودة جمال باشا في ١٤ تشرين الأوّل ١٩١٧ من رحلة شملت حلب والآستانة وبرلين. في هذا التاريخ أوفد غبطته مجدداً المطرانين عوّاد وخوري للسلام على الباشا في بحمدون. ويبدو أن

---

(١) محفوظات بكركي، رسالة من جمال باشا إلى البطريرك الحويك في ١١ آب ١٩١٧.

(٢) الأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٦٩.

اللقاء قد أينع سماحاً للبطريرك بالعودة إلى بكركي، فغادر غبطته قرنة شهوان في ١٨ تشرين الأوّل ١٩١٧ إلى بعبدا لزيارة متصرف جبل لبنان إسماعيل حقي، والتوجه بعد ذلك إلى جونيه فبكركي، بعد إقامة في قرنة شهوان استمرت أكثر من شهرين (من ١٤ آب ١٩١٧ لغاية ١٨ تشرين الأوّل)...

ردّ المتصرف زيارة البطريرك حاملاً معه تحرير جمال باشا المتضمّن مشاعر هذا الأخير وعواطفه إزاء البطريرك. إلاّ أن هذه المشاعر لم تكن لتهدأ وتستكين على وتيرة واحدة، فهي حيناً مضطرمة غيظاً، وحيناً آخر حقداً وكراهية مغلفين بالود والوداد. ومع كل اضطراب وهيجان، كان الحويك يتلقى صفعة جديدة ويدفع باهظاً من كرامته ومكانته وشيخوخته. فبعد استقراره في بكركي بعشرين يوماً، أبلغه سليم تابت استياء جمال باشا منه لاستغاثته بالقاصد الرسولي في الآستانة مع «أنه هو عافٍ عنه»[1]؛ وشجّعه على إرسال برقية إلى الآستانة يمتدح فيها جمال باشا، ويشكره على مآتيه بغية إخماد غضبه وتلافي أسوأ المفاجآت. فنزل البطريرك عند المطلوب، وفي ما يلي نص البرقية الحرفي:

«دار السعادة

إلى جانب نظارة الداخلية البهية»

«... إن بعض ذوي المقامات الرسمية أرادوا عن مجرد إخلاص شخصي بذل المساعي الحبية لدى المراجع العالية في سبيل رجوعي إلى الكرسي البطريركي تأميناً لراحتي وقيامي بواجب وظائفي الروحية وإن كنت لم أراجع قط في هذا الشأن شخصاً أو مقاماً رسمياً لا هنا ولا في دار السعادة. على أنني والحمد لله حائز على ما يرام من الرفاه والراحة في ظل دولتنا العلية المشيّدة الأركان وأني بمجرد فضل مجاملات دولتلو أحمد جمال باشا

(١) الأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٧٣.

القومندان العام لسورية وبلاد العرب وعناياته المتواصلة نحوي ونحو الهيئة الإكليريكية التي أرأسها قد تقرر باختياري وموافقة دولته أولاً إقامتي موقتاً في مطرانخانة أبرشية قبرص المارونية الكائنة في قرنة شهوان من أعمال لبنان ثم أقامتي في دير بكركي مقرّي الشتوي... حيث أنا الآن مقيماً على وظيفة الدعا بطول بقاء الذات الشاهانية وتأييد دولتنا العلية فإظهاراً للواقع ولامتناني من عواطف دولة القائد المشار إليه وسمو تدابير حكمته نحوي وبياناً لإخلاص تابعيتي العثمانية... بادرت إلى رفع برقيتي هذه أفندم.

في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧

الدّاعي

إلياس الحويك

البطريرك الانطاكي الماروني»[1].

تظهر هذه البرقية مدى مسايرة البطريرك لجمال باشا على الرغم مما يزعجه ويكتويه. ولم يكن مجرد الإعلان عن اختيار الإقامة في قرنة شهوان ينم عن حقيقة تاريخية أو عن حقيقة شعور الحويك، لأن البطريرك لم يكن يبتعد عن مقره الرسمي إلا في ما ندر وفي ظروف استثنائية. وهذا خير تعبير عن الجو الضاغط الذي أخذ بالبطريرك وأوجب عليه نكران الخبر اليقين...

٦ ـ الوداع الأخير:

دبّت الخلافات بين جمال باشا والألمان حول أهداف الحملة العثمانية على قناة السويس، وتواترت الإشاعات عن وقوع نفور حاد بين دولته والقيادة الألمانية في القدس. وقد تعزز هذا الخبر بعد انتقال جمال باشا إلى بيروت حيث أبدى رغبة صريحة في مقابلة البطريرك الماروني. فوفد إليه الحويك

(١) محفوظات بكركي، برقية البطريرك الحويك إلى نظارة الداخلية في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧.

يوم الاثنين الواقع فيه ٣ كانون الأوّل ١٩١٧[١].

وبعد المجاملات أخذ جمال باشا الكلام قائلاً «من المعلوم أنّا لم نخض غمار الحرب إلا حبّاً بالتخلص من النير الأجنبي وقد بيّنت لنا الأيام أن النير الفرنسي والإنكليزي هما أخف جداً من النير الألماني». وختم متمنيّاً على البطريرك نشر هذا التصريح بين اللبنانيين[٢].

ثم دعا دولة الباشا الرؤساء الروحيين لتناول طعام العشاء إلى مائدته، فاعتذر الحويك وقفل عائداً أدراجه. وفي خلال المأدبة ألقى جمال باشا خطاب «الوداع» بيّن فيه غاياته الرامية إلى توحيد «العنصر الإسلامي ضد الإنكليز واسترجاع مصر من يدهم»، وأظهر انخداع الشريف حسين وابنه الأمير فيصل و«مروقهما» وممالأتهما للإنكليز...[٣]. كما بيّن استياءه من الألمان وشرح الخلاف الناشب بين وجهتي نظرهما. فالألمان يريدون الزحف على مصر، في حين أن جمالاً رأى تعذر الأمر لأن الجيش العثماني لا يكفي للهجوم. وإذ أصرّ كل فريق على رأيه عرض جمال باشا التنحي وترك القيادة للألمان الذين رحبوا بالاستقالة وبخروج جمال باشا من لبنان[٤].

وهكذا رحل القائد العثماني بعد حكم استمر حوالى الثلاث السنوات (من ٥ كانون الأول ١٩١٤ إلى أواسط كانون الأول ١٩١٧). ومع أفول نجم جمال باشا وابتعاده نهائياً عن المسرح اللبناني، حلّ مكانه، في الأوّل من شباط ١٩١٨، محمد جمال المعروف بجمال باشا الصغير. ومع هذا التغيير طوي أهم فصل من فصول الهيمنة العثمانيّة على جبل لبنان، وأبرز صفحة

(١) ماجريات الأب إبراهيم حرفوش: تواريخ تنير التاريخ، تحقيق الأب أغناطيوس سعاده، منشورات الرسل، ٢٠٠٣، ج٢، ص ٥٠.

(٢) الأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٧٦.

(٣) جريدة الشرق، عدد ٩ كانون الأول ١٩١٧، نقلاً عن ماجريات الأب إبراهيم حرفوش، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤) الخوري انطون يمين، المصدر السابق، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

مشوبة بالحزن والمرارة والفقر والجوع، ليبقى مجرد ذكر اسم جمال باشا مدعاة هلع القلوب وارتعاشها.

راح جمال باشا بعد رحيله يتنقل بين العاصمة العثمانية وبرلين إلى أن استقر في استانبول. وعندما حلّت الهزيمة الكاملة بالعثمانيين في أواخر أيلول ١٩١٨، انتقل إلى بلاد الأفغان ومن ثم إلى موسكو فتفليس حيث اغتالته مجموعة من الشباب الأرمن في ٢٥ تموز ١٩٢٢[١].

ثانياً: إحباط مؤامرة النفي

عندما هدأت رياح الحرب العالمية الأولى، واستكانت النفوس، طرح الرأي العام اللبناني التساؤل الكبير: من خلّص البطريرك الحويك من براثن الظلم والطغيان؟

حمل الأب إبراهيم حرفوش هذا السؤال إلى سيد بكركي. فردّ غبطته يومذاك قائلاً: «إنني أثني على جميع الذين توسطوا في أمر نجاتي وقد استخدمتهم العناية لهذه الغاية، وإنما الفضل لله الذي لم يسمح بإذلالي وإذلال الطائفة ولا أعلم أي وسيلة من وسائل نجاتي كانت أسبق وأفعل»[٢].

لقد أشاد البطريرك على نحو واضح بـ «جميع» الذين أسهموا في نجاته، وهذا يعني أنه لم يحصر أمر إنقاذه بفريق واحد أو فرد واحد، وإنما أراد تأكيد وجود جهات متعددة محلية ودولية، صبّت جميعها في مصلحته، مما جعل جمال باشا يتراجع ويترك البطريرك وشأنه. فهل يجوز لنا، بعد هذا التصريح، أن نحصر هذا الشرف بجهة واحدة أو بفريق واحد؟ فالحدث

(١) اغتيل جمال باشا على يد كل من:
Stéphan Dzaghigian, Bédros Der Boghossian et Ardachès Kévorkian. Ohannès Pacha Kouyoumdjian: Le Liban..., p. 186;

(٢) الأب إبراهيم حرفوش: دلائل العناية الصّمدانية، ص ٥٧٠.

جلل، والظروف الزمانية لم تكن عادية، والحاكم الآمر لا أمان له، ولا قيود لإرادته. كما أنه لم يكن ليستجيب لالتماس أي صديق وطني، لأن مواطنيه متهمون بالخيانة العظمى.

وعلى الرغم من ديبلوماسية البطريرك الحويك الهادئة، وتصرفه الحكيم، فإن المعطيات التاريخية كشفت عن مراجعات حثيثة كان لها شأن في تعطيل ماجريات النفي. فكان الذين وقفوا إلى جانب البطريرك وقاموا بدور أحبط المؤامرة المرة كثيرين، ومنهم:

١ ـ القاصد الرسولي السيد فرديانو جيانيني Ferdiano Giannini

أثنى العديد من الأحبار الروحيين والشخصيات المدنيّة، وفي طليعتهم المطران عبد الله خوري، والمطران يوسف دريان[١]، والدكتور قيصر الزغبي والخوري منصور عوّاد على الدور الحيوي والمؤثر الذي قام به القاصد الرسولي في لبنان وسوريا[٢]؛ فما كان دور القاصد الرسولي في هذه القصة؟

يشير المطران عبد الله خوري[٣] في «مفكراته» عن أيام الحرب العالمية،

---

(١) وُلِد في عشقوت العام ١٨٦١. انخرط في صفوف الرهبنة الحلبية (المريمية). سيم كاهناً في العام ١٨٨٨. رقي إلى الدرجة الأسقفية في العام١٩٠٠، وعيّن نائباً بطريركياً على أبرشية القاهرة. الأباتي بطرس فهد: بطاركة الموارنة وأساقفتهم، القرن ١٩، دار لحد خاطر، ١٩٨٦، ص ٣٩٠.

(٢) المطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٦.
تجدر الإشارة هنا إلى أن جريدة «الوطن» قد ندّدت بتدخل القاصد الرسولي في شؤون الموارنة وفي تسمية الأساقفة في ١٢ أيار ١٩٢٨. ماجريات الأب إبراهيم حرفوش: تحقيق الأب أغناطيوس سعاده، ج٢، ص ١٠٥.

(٣) كان المطران عبد الله خوري من أقرب الناس إلى البطريرك الحويك، فهو نائبه العام والرفيق غير المفارق في الملمات والصعاب، وخادم سره، ووكيله، وشاهد حي مواكب لماجريات الأحداث والحوادث. ومما لا شك فيه أنه كان يسمع ويرى، ويشارك يومياً في صنع الحدث. وقد دفعته عاطفة الإقرار بالجميل إلى إظهار فضل القاصد الرسولي قياماً بواجب الشكر،=

إلى أن القاصد الرسولي هو الذي جهد في تخليص البطريرك من النير العثماني الغاشم. ومما جاء في تفاصيل روايته أن ضابطاً تركيّاً حلّ ضيفاً على إحدى العيال الوجيهة، وقد أسرّ إلى أصحاب البيت بأن جمال باشا أمره بالتوجه إلى الديمان لإحضار البطريرك وحاشيته إلى زحلة. فأفضى صاحب البيت بالسر إلى آخرين، ووصل الخبر إلى المطران شكرالله خوري... تناول المطران الخبر بجدية ونقله صباح العشرين من تموز ١٩١٧ إلى القاصد الرسولي الذي طيّر على الفور، وعن طريق أحد ممثلي الدول المتحالفة مع تركيا[١]، إلى السفارة البابويّة في الآستانة، البرقية التالية:

«أفيدكم أنهم أرسلوا من يستحضر البطريرك الماروني وحاشيته. أرجو أن تخبروا رومة بذلك».

ثم كتب القاصد المذكور إلى السفير البابوي في الآستانة (السيد دولشي) في العشرين من تموز ١٩١٧ يبيِّن له مغزى إبعاد البطريرك عن مقره. وأتبع هذه الكتابات بتقرير رفعه إلى رئيس مجمع نشر الإيمان بسط فيه تفاصيل الماجريات.

وقبل أن يغادر البطريرك الديمان في ١٣ تموز ١٩١٧، كان خبر المكيدة قد بلغ عاصمة الكثلكة[٢]. فتدارك البابا بنيديكتوس الخامس عشر (١٩١٤ ـ ١٩٢٢) الخطر المحدق بالبطريرك بسرعة فائقة وحال دون إبعاده وإذلاله.

واستمر القاصد الرسولي من ٣ آب ١٩١٧ إلى ٢٤ تشرين الأول ١٩١٧ في تزويد الكرسي الرسولي أخبار البطريرك دوريّاً، فاضحاً الطرائق الملتوية

= واستدراراً للأدعية والبركات لشخصه الكريم. وكان قصده من نشر ما نشر إظهار فضل الكرسي الرسولي على الطائفة وعلى عميدها بالذات. قيصر الزغبي: من خلص البطريرك من يد السفاح؟، ص ٢.

(١) تارة عن طريق قنصلية إيطاليا في بيروت، وطوراً عن طريق قنصلية النمسا.

(٢) المطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٨.

التي كان جمال باشا يتوسلها للنيل من غبطته[1]. واستمرت الحال على هذا المنوال حتى فشل جمال باشا في تحقيق مراميه.

وبعد عودة البطريرك إلى بكركي، قضى القاصد الرسولي يومين في ضيافته، سطّر بعد ذلك تفاصيلهما في تقرير جاء فيه أن الحويك بصحة جيدة، و«هو لا يفتأ ينطق بالشكر الجزيل للكرسي الرسولي لاهتمامه به... ويدعو بزيادة إعلاء شأنه»[2].

وبناءً على تدخل قداسة البابا مع أمبراطور النمسا، ومداخلة الأمبراطور وقداسته مع حكومة الآستانة، صدرت الأوامر إلى جمال باشا بوجوب السماح للبطريرك الماروني بالعودة إلى كرسيه. لم يصدع جمال باشا بالأوامر حالاً، وإنما راح يتراجع تدريجياً.

وبهذا الطرح للمطران خوري، فُتح باب الجدال على مصراعيه. وكان في طليعة المستائين المطران بولس عوّاد الذي أدّى هو أيضاً دوراً مميزاً.

٢ ـ المطران بولس عوّاد

لم يكتب المطران عوّاد، رئيس أساقفة أبرشية قبرس المارونية، كتابة مباشرة تشرح دوره في نجاة البطريرك الحويك. كما أن متتبعي هذا الحدث لم يسمعوا «سيادته ينطق بمثل هذا القول بعد رجوع غبطة البطريرك من بحمدون ولا في صدر الاحتلال»[3]. ويبدو أنه كان يقابل المقالات والنشرات التي تتناول موضوع نفي البطريرك بعدم الإكتراث، و«قد طلب إليه كثيرون أن يكتب شيئاً دفاعاً عن الحقيقة فأبى»[4]. وعلى الرغم من هذا

(١) كنشره في جريدة لبنان الرسمية، ٨ شوال ٢٨/١٣٣٥ تموز ١٩١٧، أن البطريرك قد أعرب عن رغبته في الذهاب إلى زحلة.
(٢) المطران عبدالله الخوري، المصدر نفسه.
(٣) قيصر الزغبي: «من خلص البطريرك، لمحة ثانية...»، ص ١٠.
(٤) قيصر الزغبي، المصدر نفسه، ص ٢٤.

الواقع فإننا عثرنا على مقالين[1]:

- الأول في جريدة «الوطن»، وقد حمل العنوان التالي: «البطريرك الماروني وجمال باشا، حقيقة تُقال لخدمة التاريخ»، وقعه حنا الخوري لطوف، وهو «اسم مختلق تستّر وراءه صاحب الرد»[2].

فهل يكون «صاحب الرد» هذا هو المطران عوّاد نفسه، أم أحد المقربين منه؟

- وصدر المقال الثاني، في جريدة «العلم» بعنوان «البطريرك الماروني وجمال باشا، عود على بدء»، وقعه «المطّلع» من «أبناء أبرشية قبرس».

ترى هل قام هذا «المطّلع» الغيور بهذه المبادرة من تلقاء نفسه؟ أم أن وحياً هبط عليه ودفعه إلى الكتابة؟ أم أن سيادة المطران عوّاد قد استكتبه وأملى عليه التفاصيل التي لم يبح بها ولم يُطلع أحداً عليها إلاّ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى[3]؟

ترددت هذه التساؤلات طويلاً، «وبات الجميع ينتظرون تنصّل سيادته من مقال «المطلع»[4]، لأنهم كانوا على يقين بأن المطران عوّاد هو وراء هذه الحملة التي أسفرت عن ارتفاع حدة الجدال بينه وبين نيافة القاصد جيانيني»[5].

ينتسب «المطّلع» «إلى أبرشية قبرس المارونية، وهو من رعايا «راعينا المفضال المطران بولس عوّاد... الذي نفتخر ونفاخر به والمشهورة لدى

(١) حفظ الأب إبراهيم حرفوش بين طيات «ماجرياته»، الدفتر رقم ٥، ١٩٢١ ـ ١٩٥٠، المقالين المذكورين.
(٢) ماجريات الأب إبراهيم حرفوش: دفتر رقم ٥، ١٩٢١ ـ ١٩٢٥، ص ٢٨.
(٣) «البطريرك الماروني وجمال باشا، عود على بدء»، جريدة «العلم»، بدون تاريخ.
(٤) قيصر الزغبي: «من خلص البطريرك، لمحة ثانية...»، ص ٢٤.
(٥) ماجريات الأب إبراهيم حرفوش: دفتر رقم ٦، ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧، ص ٥٣.

العموم حتى في نفس رومية مآثره وأفضاله»[1]. وأعلن «المطّلع» بوضوح تام «إن إنقاذ بطريركنا من النفي كان بمجرد سعي وحكمة سيادة راعينا الجليل»، «الحبر النبيل المطران بولس عوّاد رئيس أساقفة هذه الأبرشية»، و«لا بواسطة الكرسي الرسولي أو غيره»[2]، وأنكر بالتالي جميل البابا وجميل القاصد الرسولي.

يرسم «المطّلع» ملامح شخصيته، ويقول عن نفسه أنه كان مدة الحرب متتبعاً سير الأحداث ولا سيما تلك المتعلقة بمحاولة نفي البطريرك الحويك، ويزعم بالتالي أن كل ما سطّره في مقاله التوضيحي «إنما هو حقيقة» وقف عليها شاهداً عياناً. وفي مراجعة دقيقة لهذا المقال خلصنا إلى تأكيد الآتي:

- يعترف «المطّلع» بأهمية مقالة المطران عبد الله خوري، ويؤكد أنها «جاءت نبذة تاريخية تقضي لواضعها بالشكر، غير أنها لم تسلم من بادرات سهوٍ غير مقصودة طبعاً».

- يؤكد نجاح المطران عوّاد وحده في إقناع جمال باشا والإذن للبطريرك بالإقامة في بكركي «نظراً لحالته الصحية».

- يستشهد بدور سليم أيوب تابت الذي أطلع المطران عوّاد على غيظ جمال باشا من الاستغاثة بالقاصد الرسولي في الآستانة، لهذا عدّل الباشا رأيه وعزم على نفي البطريرك، إلا أن مبادرة عوّاد دفعت البطريرك إلى تسطير رسالة بالعربية ترجمها المطران خوري إلى جمال باشا نفى فيها بالحجة والبرهان هذه الاستغاثة. كما طيّر برقية أخرى إلى وزير الداخلية يقول فيها أن البطريرك «لا يشكو مظلمة نازلة به من جمال باشا»،

---

(١) جريدة العلم، بدون تاريخ.

(٢) مطلع من أبرشية قبرس: «البطريرك الماروني وجمال باشا «عود على بدء»»، جريدة العلم، بدون تاريخ.

ويمدح فيها حسن صنيعه. أرضت هذه اللفتة جمال باشا، فغضّ الطرف عن موضوع النفي نهائياً.

- يدعم موقف المطران عوّاد شهادة للعشي حبيب صقر.

٣ ـ شهادة حبيب صقر

يروي حبيب صقر، عشّي المطران عوّاد، قائلاً: «كنت أمام الكرسي في قرنة شهوان، فحضرت سيارة وكانت عندئذ السيارات نادرة، فوقفت انظر إليها. فنزل منها جندي وسار بعض الخطوات نحوي سائلاً: عوّاد أفندي هنا؟». فأجبته نعم... فقال جمال باشا يريد مواجهته.

صعد حبيب مهرولاً يزف الخبر للمطران. فخرج المطران من غرفته باتجاه الصالون، وكان جمال باشا قد وصل بخطى سريعة، فسلّم عليه بالفرنسية ووضع يده على كتف المطران وقال: «عفارم عفارم عوّاد أفندي»، ودخلا الصالون واختليا معاً. ويتابع حبيب صقر قائلاً أن جمال باشا هنأه لإخلاصه للدولة العلية، وأن سيادته طلب من جمال باشا أموراً كثيرة من جملتها أن يصرف النظر عن إبعاد البطريرك الحويك إلى تركيا، ورجاه أن يرخّص له أن يقيم عنده في قرنة شهوان. وأن جمال باشا قد أجابه على كل طلبه، وخصص إعاشة لأبرشية المطران، وعيّن ضاهر عوّاد رئيساً لتوزيع الإعاشة، وطلب سيادته من الباشا أن لا ينفي أحداً من أبناء أبرشيته لأنهم كلهم مخلصون للدولة العلية.

انتشرت هذه الرواية بين قرنة شهوان وبحرصاف وساقية المسك... وراح الأهالي يتندرون بدور المطران ويمدحون جمال باشا وحسن إدارته وعدله، ويتساءلون: ما ذنب جمال باشا إذا كان أتى الجراد إلى البلاد وأكل الغلال؟ ما ذنب جمال باشا إذا كان الحلفاء قد حاصرونا ومنعوا الغلة أن

تأتينا من البحر؟ وأخذ كل واحد منهم يمدح جمال باشا وسطوته وصيته وعدله ومحافظته على الأمن لجميع أنحاء البلاد...»[١].

٤ ـ المطران نعمة الله أبي كرم

صرف المطران نعمة الله[٢] ردحاً طويلاً من الزمن في روما، وكان على علاقة وطيدة بحاضرة الفاتيكان، كما كان له دور مباشر لدى البابا بنيديكتوس الخامس عشر، تقريراً تضمن «تفاصيل ضافية وبراهين شرعية قانونية معترف بها لدى الدول» التي كفلت نظام جبل لبنان. وشدد على الحجة التالية: «إذا تعذر على بعض الدول القيام بتعهداتها وجب على الدول الأخرى أن تتقيد به». وكان يعني بهذا الكلام أنه على النمسا والمانيا أن تفعلا ذلك من قبيل الإلزام الدولي. «وإذا كان حلفاء تركية يتهمون المسيحيين بحبهم لفرنسا فالدولة التركية كانت هي نفسها تعتبر قنصل فرنسة في سورية وسفيرها في الآستانة مرجعاً يرجع إليه المسيحيون عند الحاجة، وهي كانت تلبي طلب السفراء والقناصل كلما تقدموا إليها يعرضون تمنيات المسيحيين». وقد قدّم البابا نسخة عن هذا التقرير إلى أمبراطور ألمانيا وأخرى إلى أمبراطور النمسا. وكان لمذكرة المطران أبي كرم وقعها و«تأثيرها الحسن في حمل تركيا وألمانيا على التساهل والرفق بالمسيحيين وفي مقدمتهم الموارنة وبطريركهم الجليل»[٣].

(١) إبراهيم عواد: من عهد المتصرفية إلى عهد الاستقلال، مذكرات، بحرصاف، ١٩٨١، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) هو أسعد صعب أبي كرم. وُلد في ١٢ كانون الثاني ١٨٥١ في برمانا. درس في إكليريكية الآباء اليسوعيين في غزير ثم في بيروت. رقاه المطران يوسف جعجع إلى درجة الكهنوت في ١٥ آب ١٨٧٦. أوفده البطريرك الحويك سنة ١٩٠٦ لضبط أحوال المدرسة المارونية في روما. أمر البابا بترقيته إلى درجة الأسقفية، فكانت سيامته في ٢٢ حزيران ١٩١٣. عاد نهائياً إلى لبنان في العام ١٩٣٠، وانتقل إلى جوار ربه في ١١ نيسان ١٩٣١. حياة المثلث الرحمات المطران نعمة الله أبي كرم، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه، ١٩٣١، ص ٥ ـ ٣٤.

(٣) حياة المثلث الرحمات المطران نعمة الله أبي كرم، ص ١٨.

٥ ـ الشيخ محمد الجسر

وإلى جانب المطران أبي كرم، كان للشيخ محمد الجسر[١] أيضاً مداخلة قيّمة أسهمت في إحباط مؤامرة جمال باشا.

وحول التفاصيل، تروي المراجع التاريخية أنه في أثناء وجود الشيخ محمد الجسر عند جمال باشا وقع نظره «على برقية سرّية، أو هكذا تناهى إليه، مرسلة من اسطنبول تتضمن تعليمات بنفي البطريرك الماروني الياس الحويك إلى القامشلي، أو إلى الأناضول، والخلاص منه بطريقة أو بأخرى». قام الشيخ محمد باستدعاء الخوري يوسف الجعيتاوي[٢]، وبعد استحلافه بشرفه الكهنوتي أطلعه على السر الخطير. سرّب الأب المذكور النبأ إلى المراجع المعنيّة، وجرى الاتصال بقنصل النمسا الذي نقل بدوره إلى حكومته خبر المؤامرة. تدخلت النمسا بالموضوع وعملت على صرف حكومة الآستانة النظر عن قرار النفي. «فكان لهذه البادرة أثرها الكبير في الأوساط المسيحية» وبخاصة عند البطريرك الحويك، إذ أدّت إلى نشوء صداقة حميمة وعلاقات مودة متينة ربطت بينه وبين الشيخ المذكور[٣].

(١) هو الشيخ محمد حسين الجسر (١٨٨١ ـ ١٩٣٤) من طرابلس. كاتب وسياسي لبنان بارز. انتخب سنة ١٩١٢ نائباً عن طرابلس في مجلس المبعوثان العثماني. عُيِّنَ وزيراً عدّة مرات ثم تولى رئاسة مجلس الشيوخ اللبناني (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧) وبعدها رئاسة مجلس النواب. قام بدور لافت على الصعيد الوطني. عبد الله سعيد: الشيخ محمد الجسر، من مجلس المبعوثان إلى رئاسات لبنان، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٥.

(٢) هو موسى بن فارس سلوان من جعيتا. وُلِد سنة ١٨٧٦، دُخل الرهبنة الأنطونية واتشح بالاسكيم الرهباني في ٢٢ أيلول ١٨٩١. عند سيامته الكهنوتية سنة ١٨٩٨ حمل اسم يوسف الجعيتاوي وعرف به. أسس المستشفى اللبناني سنة ١٩٢٧، وقدمه وقفاً تُشرف عليه البطريركية المارونية وتديره راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات. توفي في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٣. الأب شربل يوسف البلعة الأنطوني: الرهبان الأنطونيون، ثلاثمائة سنة في خدمة الله والإنسان، ١٧٠٠ ـ ٢٠٠٠، ص ٤١٤ ـ ٤١٥؛ ومقابلة خاصة مع راهبات المستشفى في ٢٧ آب ٢٠٠٨.

(٣) عبد الله سعيد: المرجع السابق، ص ٦٥ ـ ٦٦.

الخاتمة:

لماذا أراد الطاغية التركي جمال باشا إذلال البطريرك الماروني؟ ومن كان وراء دعم البطريرك ومؤازرته في محنته وحال بالتالي دون إبعاده ونفيه؟

حمّل جمال باشا البطريرك الماروني مسؤولية الحملات الصحافية الفرنسية العنيفة[1] التي اتهمت الأتراك، عموماً، بإبادة «الشعب المسيحي جوعاً في لبنان وسورية»، واعتمادهم الإرهاب وسيلة للقضاء عليهم. فأقاموا المجلس العرفي الذي لم يقف عند حد، ونصبوا المشانق وأعدموا الوطنيين والأبرياء. فـ «سئم المسيحيون عموماً والموارنة خصوصاً من تلك الحال وباتوا ينتظرون على جمر الغضا قدوم الإفرنسيين حتى ينضموا إليهم ويطردوا الأتراك ويحوّلوا بلادهم إلى مستعمرة إفرنسية». أقلقت هذه الأقاويل والمقالات جمال باشا ودفعته إلى التشدد والاقتصاص من العديد من اللبنانيين، وفي طليعتهم رجال الدين[2].

ومما لا ريب فيه أن الصداقة التي كانت تشد الموارنة إلى فرنسا قد أزعجت الدولة العثمانية، وأن الإحراج الذي وضع فيه رجال الدين، بعد «غزو» القنصلية الفرنسية في بيروت، ومواقف الصحافة الفرنسية المعادية

(١) أرسل علي منيف، متصرف جبل لبنان، في ١٢ تشرين الأول ١٩١٦، لغبطة البطريرك، «حسب إشارة دولة جمال باشا بعض قطع جرائد من الضرورة اطلاعكم عليها فتفضلوا بقراءتها وإعادتها لنا...». وقام البطريرك بالمهمة وكتب في ١٤ تشرين الأول ١٩١٦ يقول: «بحسب إفادة دولتكم وصل لنا ما أرسلتموه بإشارة دولة جمال باشا من الجرايد... فصرنا نطالعها».

وقد عثرنا على هذه المقالات، وهي:

- مقالة بعنوان: Le délire ottoman، بقلم: Gaston Varlan.
- ومقالة بعنوان: La situation tragique du Liban، وهي بقلم مراسل من القاهرة.
- وثالثة بعنوان: Les Français du Levant، بقلم: Eugène Tavernier.

(٢) المطران عبد الله خوري: «صفحة تاريخية من أيام الحرب»، في المشرق، مجلد السنة ٢٠، ١٩٢٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ والمطران عبد الله خوري: «البطريرك الماروني وجمال باشا...»، ص ١٦٢.

للسياسة العثمانية، جميع هذه المواقف كانت في طليعة الأسباب الموجبة لتصرفات جمال باشا العدائية. فإذا كان كل ذلك قد حبك مؤامرة النفي، **فمن** كان، حقاً، وراء نجاة البطريرك من براثن السفاح؟ وما كان الموجب الذي أفضى إلى استدعائه من أطراف جبل لبنان، وتعريضه في شيخوخته للازعاج؟

كان الموارنة ينعمون بحرية تامة في اختيار مطارنتهم وتنصيب بطاركتهم، بدون الخضوع لنظام الفرمانات المفروض على الرؤساء الروحيين دليل الطاعة والولاء. فضغط دولته عليهم وأجبرهم على طلب الفرمان العثماني.

استجاب البطريرك لأوامر جمال باشا واجتمع به بدون أن يقع بينهما «مناجزة ولا خلاف ولم يكن بينهما وتر، أو عداوة شخصية، كما أنه لم تحصل بينهما منازعات...». وقد بدا غبطته راضخاً لأحكام القدر والظروف، ملقياً اتكاله على العناية الإلهية باستمرار[1]. وعلى الرغم من هذا الإذعان أضحى البطريرك هدفاً لسهام جمال باشا ومرمى أحقاده.

أما عن الموجب الذي كان وراء هذا الفعل، فلا بدَّ من أن جمال باشا ـ أو أحد المقربين منه[2] ـ كان يرغب في استبدال السلطة الكنسية الموالية للغرب، وخصوصاً لفرنسا، بسلطة أخرى خاضعة له، على غرار ما أجرى من تعديلات في السلطة السياسية المتمثلة باستبدال المتصرف وأعضاء المجلس الإداري بمقربين إليه. وكان يرغب أيضاً في سلطة كنسية موالية له على مثال ما فعل مع الروم الملكيين. وبالفعل فقد رددت الإشاعات أن جمال باشا يرغب في إسقاط البطريرك الماروني وإحلال المطران بولس عوّاد مكانه. ونشرت الصحافة المحلية والخارجية هذه الرواية وتناقلتها. والمثال على ذلك ما ورد في «المقطم»:

(١) قيصر الزغبي: من خلص البطريرك، لمحة ثانية...، ص ٧.

(٢) لعله رضا باشا «الذي كان وحده مطلعاً على سر الانقلاب المنوي إحداثه إذ ذاك في الطائفة» المارونية. قيصر الزغبي، المصدر نفسه، ص ٩.

«أشرنا منذ أيام إلى الرواية التي أذاعت عن تعيين الحكومة العثمانيّة لسيادة المطران بولس عوّاد مطران قبرص وكيلاً للبطريركية المارونية وأحجمنا عن الإشارة إلى سائر ما تضمنته تلك الرواية من القبض على البطريرك الحويك ونفيه إلى بادية الشام لظننا أن الاتحاديين لا يقدمون على القبض على رئيس ديني كبير كانوا بالأمس يجلّونه ويحترمونه ويصفّون العساكر على الطريق التي يسير فيها تكريماً وتعظيماً، ويزوره جمال باشا، ويتردّد على كرسيه منيف بك والي لبنان، ويتودّد إليه، ويخصّه أنور باشا بزيارته دون سائر رؤساء الطوائف...»[1].

وأفصح قيصر الزغبي عن اعتقاده القائل أن جمال باشا «لم يقدم على هذا العمل بمجرد إرادته فقط ولكنه أُلجئ إليه بناءً على تقارير الجواسيس الخونة»، وقد عاونهم ذلك الذي أهداه اللبنانيون سيفين من الذهب الخالص، والذي كان مسؤولاً عن سياسة الجبل «وذلك لقاء وعد لم يتم...»[2]...

لقد أعيد طرح موضوع نجاة البطريرك الحويك والتذكير بماجرياته في صيف ١٩٣١، فسأل أصحاب هذا الطرح غبطته عبر نشرة مطبوعة قائلين: «... هل نسيتم يا صاحب الغبطة تلك المكيدة التي كادها لكم (سيادته) إبّان الحرب الكونية، وكيف سعى لدى صديقه السفاح جمال باشا لنفيكم عن ربوع لبنانكم المحبوب وإقصائكم عن أبنائكم الذين يفدونكم بالمهج ليتاح له التسنم إلى السدة البطريركية»؟[3]. بالطبع لم يجب البطريرك وتظاهر بالنسيان...

---

(١) نقلاً عن «المُرسل»، عدد ١٨٤، تاريخ ١٩ آب ١٩١٦.

(٢) قيصر الزغبي، المصدر نفسه، ص ٥.

(٣) نشرة موجهة «إلى غبطة مار الياس بطرس الحويك بطريرك الطائفة المارونية وسائر المشرق الكلي الطوبى»، بتوقيع رئيس وأعضاء لجنة كتاب الرواد، بدون تاريخ، وإنما قد تعود إلى صيف ١٩٣١، ص ٣.

فإن أغفل البطريرك الموضوع فهذا شأنه، وإن تناسى فحقه أيضاً؛ ولكن كان من الأفضل ألا يتمادى المدافعون في دفاعهم، وألا يبالغ المناوئون بردودهم، لأن الاستياء العام ارتفع عالياً والتبرم من حدة الكتابات الجارحة اشتد وقعه؛ الأمر الذي دفع الأب إبراهيم حرفوش إلى توجيه رسالة إلى «سيادة عوّاد» طالباً إليه «أن يضع حداً للخوض في هذا الموضوع، لأننا أصبحنا مضغة لمن مضغ»[1]. ومع هذا الاندفاع تهافت الموضوع، وانطوت صفحات الجدل العقيم وبقيت التفاصيل غير كاملة ومبهمة كما أرادها البطريرك الياس الحويك نفسه.

---

(١) ماجريات الأب إبراهيم حرفوش، دفتر رقم ٥، ١٩٢١ ـ ١٩٢٥، ص ٣٢.

بلاد البترون في الحرب الأولى
الجراد، الغلاء، المجاعة، الوفيات

د. جان نخّول

١ ـ مقدمة

أ ـ لمحة عن بلاد البترون

ابتداءً من ١٦ أيلول سنة ١٨٦٤، تمَّ فصل قضاء البترون عن قضاء كسروان، وتألف القضاء الجديد «جبّة بشري والزاوية وبلاد البترون». وكان يطلق على هذا القضاء اسماً آخر هو قضاء كسروان الشمالي، وعُرف قضاء كسروان باسم قضاء كسروان الجنوبي. أما قضاء البترون فقد قسّمَ إدارياً في عهد المتصرفية إلى ثماني نواح هي التالية: البترون، تنورين، حصرون، قنات، إهدن، بشرّي، الزاوية والهرمل.

وفي بداية سنة ١٩١٤، تمّ استحداث مديرية جديدة في بلاد البترون، عُرفت بمديرية البترون الوسطى، وقد ضمّت هذه المديرية عدداً من قُرى مديريتي البترون وتنورين ومركزها بلدة شبطين.

حديثنا سيتمحور حول قرى بلاد البترون بمديرياته الثلاث: البترون، تنورين وشبطين في فترة الحرب العالمية الأولى، وما عانى سكان هذه المديريات الثلاث من آثار الجراد والغلاء والمجاعة.

ب ـ أثر الحرب على الوقع الإداري في قائممقامية البترون ١٩١٤ ـ ١٩١٨

بدأت الحرب العالمية الأولى بين دول التحالف الثلاثي (ألمانيا، النمسا وإيطاليا) والدولة العثمانية التي دخلت الحرب في ١٨ تشرين الأول سنة ١٩١٤ من جهة وبين الدول الأوروبية فرنسا وبريطانيا وروسيا من جهة أخرى، لتتوسع لاحقاً وتصبح كونية.

تأزم الوضع في الجبل اللبناني بعد دخول الدولة العثمانية الحرب، لأنه يشكل جزءاً منها. وقد انعكس الوضع بصورة خاصة على حياة الناس، بعد تعطيل نظام المتصرفية وما تبعه من إجراءات إدارية تولاها جمال باشا الملقب بالسفاح.

بالنسبة لقضاء البترون، فقد أصدر أوهانس باشا، آخر متصرف على جبل لبنان، أمره بإنهاء خدمة سليم بك ناصيف، قائمقام قضاء البترون، وعيّن جورج بك زوين مكانه، والسبب المعلن هو توالي الشكايات من ضعف إدارة القائمقام السابق، مما أفقده ثقة الشعب[١].

وفي عهد إسماعيل حقي بك (١٩١٦ ـ ١٩١٨) استقال جورج بك زوين، لخلاف بينه وبين متصرف طرابلس رشيد بك طليع، بسبب حوادث نقل الحبوب من طرابلس إلى الزاوية وإلى زغرتا، المركز الشتوي لمديرية إهدن، فخلفه بالوكالة أسعد بك لحود، الوجيه العمشيتي، ثم خلفه بالأصالة قدرة بك العثماني.

وفي الثامن من نيسان سنة ١٩١٨، وصل إلى البترون القائمقام الجديد، يوسف الحكيم، الذي غادرها في ٨ تشرين الأول سنة ١٩١٨، أي بعد ستة أشهر من توليه المسؤولية، أما الجيش العثماني فقد غادر مدينة البترون في

(١) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٢٤.

٣٠ أيلول من السنة عينها، وكان رئيس بلدية البترون آنذاك السيّد يوسف سلهب[١].

مثل قضاء البترون في مجلس إدارة جبل لبنان خلال الحرب كل من سعد الله الحويك وعقل أبي صعب. الأول شقيق البطريرك الماروني، وقد تولى هذا المنصب منذ سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩١٥، حين أصدر جمال باشا في ٢٣ آذار سنة ١٩١٥، بلاغاً إلى حاكم لبنان بحل مجلس الإدارة. وفي الربع الأخير من أيار، من السنة عينها، أصدر أمراً آخر بتأليف مجلس الإدارة اللبناني من أعضاء جدد، محافظاً في تعيينهم على العدد السابق والنسبة الطائفية المرعية. وكان تمثيل قضاء البترون من نصيب عقل نخول أبي صعب (١٨٧٥ ـ ١٩٣٤) الذي سبق له وترشح سنة ١٩١١ ضد سعد الله الحويك ولم يحالفه الحظ. وقد أتهم العضو الجديد بانتمائه إلى الماسونية، ما عرقل الأمور بالنسبة للبطريرك خلال فترة الحرب الحرجة.

ج ـ المنفيون من بلاد البترون

ولإضعاف نفوذ فرنسا والتهويل على اللبنانيين، رأت القيادة العسكرية العثمانية، تقييد نشاط اللبنانيين المؤيدين لهذه الدولة الأوروبية، فبادرت إلى نفي مجموعة منهم إلى القدس أولاً، ثم إلى داخل السلطنة.

كان في عداد الدفعة الأولى من المنفيين، حسب الأوامر الصادرة في الأسبوع الأخير من سنة ١٩١٤، بإيعاز من جمال باشا ومحمد رضا بك قومندان بيروت ولبنان، كل من «إبراهيم بك عقل مدير البترون ويوسف بك فريفر[٢] مدير جونيه»[٣] وهما من بلاد البترون، بالإضافة إلى عديدين غيرهم

(١) يوسف الحكيم، المرجع السابق، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٢) هيام ملاط، المدير يوسف مخايل فريفر ١٨٨٤ ـ ١٩٦٤، دراسات بترونية، العدد ٣، ٢٠٠٥، ص ٧٧ ـ ٨٣.
(٣) اميل يوسف حبشي، جهاد لبنان واستشهاده، مطبعة طباره، بيروت، ١٩٢٠، ص ٢٩.

توجهوا بادئ الأمر إلى الشام، ومن ثم القدس وبرّ الأناضول.

وفي عداد الدفعة الثانية، وصل إلى القدس، العديد من الشخصيات اللبنانية، ومنهم «بطرس بك نجم مدير البترون الوسطى»(١). وهو من بلدة شبطين البترونية، وكان نفيه في آذار من سنة ١٩١٥.

وحول أحداث سنة ١٩١٥، يذكر نسيب شديد، وهو من بلدة اده البترونية، بصفته باشكاتب قلم الأوراق في ادارة المتصرفية، طريقة نفيه الى الشام ومنها الى القدس الشريف مع عشرة من رفاقه، وقد دون أحداث نفيه من خلال قصيدة مؤلفة من ٢٨ بيتاً من الشعر، وهي موجودة لدى حفيده المحامي نسيب شديد ـ اده البترون.

يحدد الأب إبراهيم حرفوش تاريخ ٦ آذار سنة ١٩١٦، موعداً لسفر العديد من اللبنانيين في القطار إلى المنفى، منهم «سعد الله الحويك شقيق البطريرك إلى أنقره»(٢). والذي عاد إلى لبنان من منفاه خلال شهر تموز سنة ١٩١٨ مع غيره بسبب عفو السلطان العثماني الجديد محمد السادس عنهم.

بالإضافة إلى الأسماء الواردة، يذكر أميل حبشي شخصاً سادساً، هو انطون بك الخوري من بلدة تنورين، ولم يدون تاريخ نفيه «وهو من الذين أبعدهم الترك إلى القدس ثم أعادوهم»(٣).

بدا جو الحرب قاسياً على بلاد البترون، فبعد أن ضرب قادته، هدّد البطريرك بالنفي بعد فترة، والأصعب من ذلك كان سوء الحالة المعيشية التي جاء تأزمها مع تراجع المواسم الزراعية لدى أبناء بلاد البترون.

وكانت الضربة المباشرة كارثة زراعية ضربت النباتات، فقد هاجمت أفواج الجراد البلاد وتركت آثارها المدمرة.

---

(١) اميل يوسف حبشي، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٢) الأب إبراهيم حرفوش، دلائل العناية الصمدانية، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه، ١٩٣٤، ص ٥٤٦.

(٣) اميل يوسف حبشي، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

٢ ـ الجراد في بلادنا

أ ـ مقدمة

الجراد حشرات من رتبة المستقيمة الجناح وهو أساس العائلة الجرادية. طعامه الأعشاب وأوراق الشجر، وهو لا يترك نباتاً يمرّ عليه إلاّ أكله، ومن ذلك اسمه بالعربية لأنه يجرد الأرض أي يعرّيها من نباتها.

وليس في الحيوان أكثر إفساداً للنبات منه، وقد اشتهرت كوارثه منذ الأزمنة القديمة، فهو يهاجر من بلادٍ إلى أخرى ويتلف الزروع. وكثيراً ما ضربت به البلاد الشامية، وقد اجتاحها مراراً كثيرة وكان توطنه في بادية سوريا وما يجاورها في بلاد العرب. يكثر مجيئه إلى البلاد في السنين القليلة المطر. بالنسبة لأنواع الجراد، هناك جنس منه يطير آلاف الكيلومترات وهو يفتك ويدمّر المزروعات تدميراً كاملاً. تنتشر الجرادة المعروفة باسم Criquet المسافرة في شمالي إفريقيا وباستطاعتها الوصول إلى بلاد الهند. وهناك الجرادة Criquet المغربية وهي غالباً ما تنتقل إلى بلاد الشرق الأوسط(١).

ولا يخفى ما ورد عنه في الكتاب المقدس، العهد القديم، من أن الجراد كان إحدى ضربات مصر «وغطّى كل الأرض حتى أظلمت... وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البَرَدُ. حتى لم يبقَ شيءٌ أخضر من الشَجر ولا في عشب الحقل وفي كل أرض مصر»(٢).

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الجراد راجع: أ ـ كتاب دائرة المعارف، بطرس البستاني، مجلد سادس، دار المعرفة، بيروت ١٨٨١، ص ٤١٩ ـ ٤٢٢.
ب ـ Dictionnaire encyclopédique Quillet, Paris, 1979, P. 1605.
ج ـ La grande encyclopédie, Paris, 1974, P. 5642.
1975, P. 8896-8897.
1976, P. 10831-10832.

(٢) سفر الخروج، الإصحاح العاشر، ١٥.

ب ـ الجراد في بلادنا قبل الحرب الأولى

لم يكن وصول الجراد إلى لبنان، في العام ١٩١٥، بالحادث الفريد من نوعه، فقد واجهت البلاد هذه الآفة، خلال القرن التاسع عشر، مراتٍ عديدة، خلّفت خلالها أضراراً جزئية، ونذكر على سبيل المثال، أنه خلال شهر نيسان سنة ١٨٣٨، وصل الجراد إلى منطقتي الزاوية والكورة[١].

وفي بداية العام ١٨٦٥، وصل الجراد إلى بلاد البترون أيضاً، وقد حطّ في بلدتي اجدبرا وعبرين[٢].

وبتاريخ ٢٢ كانون الثاني سنة ١٨٧٠، اجتاح الجراد ساحل مدينة بيروت وهدّد بوصوله منطقة كسروان[٣].

(١) ويتضح ذلك من رسالة الأمير أمين بشير الشهابي إلى الشيخ فارس البيطار، يشكره على مكافحة الجراد. كما وجّه الأمير أمين رسالة إلى الشيخ جرجس العازار من أميون يحثه فيها على التشدد في تنقية بزر الجراد من الأراضي «ولا تبدوا إهمال ولا ساعة واحدة... والذي يحصل منه إهمال بالتوجه وجهوه بالعصا لا بالحواله...» وهذه الرسالة تحمل تاريخ ٢٥/٤/١٨٣٨ أي بعد يوم على الرسالة الموجهة إلى الشيخ سمعان البيطار. نقلاً عن أوراق آل البيطار، قسم الشؤون الإدارية، أرشيف دير الكريم ـ جونيه.

(٢) يظهر ذلك من رسالة الخوري يوسف فريفر إلى البطريرك بولس مسعدفي ١٤ك٢ جاء فيها «من نحو الجراد صار له ثمانية أيام يمر طائر بكثرة زايده وغرز منه جانب كبير في جهات أجدبرا وعبرين هذا عدا الذي غرز قبلاً وبادئ بالتفقيس وفي هذه الجهات حاصل إهمال زايد بإتلافه... وفي جهاتنا صار العطل أكثر من جميع الجهات لأن في جهات الجبه والزاويه سطوة سعادة البيك معوضه وفي جهات بلاد جبيل وكسروان الحال ماش بالممكن». نقلاً عن ميشال أبي فاضل وجان نخول، حياة ومراسلات المطران يوسف فريفر، ١٨١٨ ـ ١٨٨٩، ٢٠٠٥، ص ٢١٢، نقلاً عن أرشيف بكركي.

(٣) بعد هذا الاجتياح، وصلت رسالة من قائمقام قضاء كسروان، الأمير سعد شهاب، إلى الشيخ سمعان البيطار، مدير ناحية غوسطا، يخبره فيها بأن «الجراد قد وصل بنوع وافر لجهة ساحل بيروت ومقضتى صرف الاهتمام من كافة مأموري القضا لإجبار الأهالي على طرده طائراً متى وصل لهذه الجهة وإتلاف ما يسقط منه على الأرض... وبما أنه قد وصل الآن لهذه الجهة.. والذي يتأخر من الأهالي عن إتمام العمل طوعاً يصير إجباره بواسطة الضبطية... لكيلا يحصل تأخير في إتمام هذا الأمر العايد لحفظ محصولات الأملاك القايمة عليها مدار المعيشة...». نقلاً عن أوراق آل البيطار، قسم الشؤون الإدارية، أرشيف دير الكريم - جونيه.

أيضاً مع نهاية القرن التاسع عشر، وبالتحديد خلال شهر نيسان ١٨٩٩، وصل الجراد إلى منطقة كسروان الجردية[١].

جـ ـ الجراد في جبل لبنان خلال الحرب

يتحدث إبراهيم نعوم كنعان عن الجراد الذي انتشر في سماء لبنان خلال شهر نيسان ١٩١٥ بقوله «ولشدة حفيف زحف الجراد في كافة الأنحاء أخذت الأفاعي تهرب من أوكارها والوحوش تولي الأدبار إلى أعالي الجبال الجرداء خوفاً من صوت الحفيف المتواصل بدون انقطاع، وقد غرز الجراد بيوضه في كافة الأراضي، لا سيما في ضواحي بيروت مما اضطر الحكومة إلى تسخير الأهلين للقضاء عليه وفرض ضريبة أجرة عامل على كل من يتخلف عن السخرة»[٢].

أما اميل يوسف حبشي، فيحدثنا عن الجراد الذي وصل إلى بلادنا في ١٣ نيسان، ومما كتبه «طلع الصباح وكأنه ليل. الغيوم سوداء متلبدة في الفضاء، والأفق مكفهر يخلق غيوماً. والشمس ترسل نورها فلا يستطيع اختراق الحجاب هذا هو الجراد... لعنة الله ما أكثر طوائفه وأضخم دولته، فكأن أوراق الشجر ورمال البحر انتقلت إلى عرض الجو... وعلى هذا القياس ظل ستة أيام، طوائف طائرة، وطوائف تحط رحالها على وجه الأرض فتغطي الأرض. حتى انقشعت الشمس ورأينا النور في اليوم السابع، واستلقت جنوده لتخلق لنا جيشاً جديداً، فملأت قمم الجبال ومنعطفات الأودية. وعبثاً كنا نعمل على إتلافه، وهل يستطيع الناس إعدام غضب الله

(١) بعد وصول هذه الآفة، وصلت رسالة من قائمقام كسروان، وقد ناب عنه تامر ملاط، إلى مدير ناحية جرد كسروان الشيخ يوسف فرنسيس الخازن، طالباً منه العمل على مطاردته «ومن لم يقم بما يفرض عليه غرّموه بجزاء نقدي لحد ريالين». ويتابع القائمقام تعليماته بما فيها فرض ضرائب على القرى لمكافحة هذه الآفة، يتم تحصيلها عند جمع الميري. نقلاً عن أوراق آل البيطار، المصدر عينه.

(٢) إبراهيم نعوم كنعان، لبنان في الحرب الكبرى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، بيروت ١٩٧٤، ص ١٨٠.

حتى جمعنا أخيراً نحن اللبنانيين من جثثه أكثر من مائة وتسعين ألف كيلو، فعلنا هذا وكأننا لم نفعل شيئاً»[1].

وهناك كاتب آخر تحدث عن الجراد، هو القس بطرس خويري، الذي تحدث عن ضربات عديدة أصابت بلادنا «الضربة الثانية دخول الجراد في أرضنا الذي لم يبقَ على زرع أو نبات حتى في الزرع والضرع فاشتدّ الضيق ونزلت الفاقة وتفشت المجاعة»[2].

نظراً لخطورة الوضع، قام جمال باشا السفاح بتعيين لجنة لترجمة القوانين والنظامات والتعليمات، ومنها «تعليمات بشأن إتلاف الجراد ووظائف اللجان المقتضية لذلك»[3].

لم يكن وصول الجراد إلى بلادنا بصورة مفاجئة فقد «أخذت الصحف تنذر بوصول الجراد إلى سهول يافا في ٢٢ آذار ١٩١٥، فقد أدى الشتاء القاسي وتوقف الأمطار عن الهطول منذ أواخر شباط، ثم استمرار الهواء الحار طيلة عشرين يوماً، إلى فتح الطريق أمام الجراد، فغزا بلادنا في التاسع من نيسان... وعمّ البلاد بشكل مخيف حينما انقلب الجراد الزاحف طياراً في ١٥ حزيران من نفس السنة، ولم يتمكن الأهالي من القضاء عليه قضاءً مبرماً، إلاّ بعد أن أتى على كل شيء من قمح وشعير وذره وحمص وعدس وأشجار مثمرة وبساتين خضراء»[4].

ولم يقتصر ذكر جحافل الجراد وأثرها المدمر على ما ورد في الصحف اللبنانية، بل كان مادة إخبارية في صحف القاهرة. وقد تناولت جريدة المقطّم، تحت عنوان «أخبار سورية ولبنان» وهي مستقاة من أهالي البلاد

(١) اميل يوسف حبشي، المرجع السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) القس بطرس خويري، الرحلة السورية في الحرب العمومية في ١٩١٦، المطبعة اليوسفية، مصر، ١٩٢١، ص ١٨.
(٣) يوسف الحكيم، المرجع السابق، ص ٢١٨.
(٤) علي معطي، تاريخ لبنان السياسي والاجتماعي ١٩٠٨ ـ ١٩١٨، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٩٩٢، ص ٢٢٨.

الذين وصلوا إلى مدينة الإسكندرية، وقد اختير بعضهم لمطاردة الجراد الذي غشيت أرجاله أرجاء لبنان «وقد التهم الجراد جانباً كبيراً من محصولات لبنان وخصوصاً الزيتون... واشتد الظلم بأهله وباتوا مهددين بخطر المجاعة، ولا سيما في شمالي لبنان... وارتفع سعر الزيت بسبب إلتهام الجراد لمحصوله إلى ١٣ غرشاً و١٤ الإقة»[1].

ونشرت الجريدة ذاتها في العام التالي، وتحت عنوان «استغاثة لبنان وسورية» عدة أسباب لتدهور الوضع في البلاد ومنها «أن الجراد سطا على جانب متسع من مزروعاتها فالتهمهُ وباتت البلاد على أبواب الشتاء الماضي بلا زرع ولا ضرع ولا قيد»[2].

بينما يقول الأمير شكيب أرسلان، بأن الجوع الذي أصيبت به سورية لم يكن سببه النوايا السيئة التي زُعم أن الأتراك يضمرونها للبنانيين، بل أسباباً أخرى منها «الجراد الذي لم يسبق له مثيل فامتصَّ خير البلاد من أول سنة، وأعثرها عثرة صعبت من بعدها إقالتها»[3].

ويروي مؤرخ آخر بعض الأخبار عن الجراد فيقول: «١٣ نيسان ١٩١٥ وفد علينا جراد كاد يحجب نور الشمس لكثرته فهلع الناس لقدومه وبدأوا يناوئونه دون جدوى لطف الله بعباده»[4].

ويتابع المؤرخ نفسه متحدثاً عن تطور ضرر الجراد بعد شهرين (١٣ حزيران) أن «الجراد الزحّاف... نقف وفرّخ وكادت أرواح العباد تزهق من الجوع والضيق»[5].

(١) المقطّم في يوم السبت ٨ مايو (أيار) ١٩١٥، عدد ٧٩٤٤، ص ٥.
(٢) المقطّم في يوم الجمعة ٩ يونيو (حزيران) ١٩١٦، عدد ٨٣٧٨، ص ٥.
(٣) نجيب البعيني، ذكريات الأمير شكيب أرسلان، دار نوفل، بيروت، ٢٠٠١، ص ٤٨.
(٤) الأب إبراهيم حرفوش، ماجريات، حققها وقدّم لها الأب أغناطيوس سعاده، ج٢، منشورات الرسل، ٢٠٠٣، ص ٣٣.
(٥) المرجع عينه والصفحة ذاتها.

ويتابع عاد الجراد إلى بلادنا في ٢١ تشرين الثاني وبقيت الراجل منه تتجول في ربوعنا إلى كانون الثاني سنة ١٩١٦ رغم البرد والزمهرير[1].

نقع على مخطوطة معاصرة لأحداث الحرب العالمية الأولى، مع التركيز على الجراد الذي وصل إلى بلاد كسروان يوم الثلاثاء ١٣ نيسان، ونظراً لكثافته، أظلمت ناحية الجبّة في نفس اليوم، أضرّ كثيراً بالبلاد، ونهار الثلاثاء في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ عاد إلى بلادنا محمّر الجوانح من جهة الشمال وبقي في لبنان إلى أواخر شباط سنة ١٩١٦، فأتلف غلال سنتين، وفي الوقت نفسه كان متواجداً في مدن حمص وحماه امتداداً إلى مدينة القدس. وهذا ما تبيّن بعد عودة المنفيين اللبنانيين من القدس. حيث كانت الشوارع والبيوت والسطوح ملأى منه، ومما يدل على شدة أتلافه للأشجار والأعشاب والمزروعات وباقي المغروسات من الكروم ونحوها، ما أخبره يوماً المطران عبد الله خوري النائب البطريركي (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) من حديث قال فيه «كنت أنا وجمهور جالسين في محل من بكاسين يشرف على كروم جزين، فحانت منا التفاتة إلى الكروم فوجدناها جرداء من أوراقها إلا واحداً رأيناه مخضّر الأوراق فعجبنا أولاً لبقاء هذا الكرم مخضراً ثم التهينا برهة قصيرة في الحديث ثم التفتنا إلى الكروم المذكورة فعجبنا ثانياً لمساواة ذاك المخضر للكروم المجردة بتجرده نظيرها في هذه البرهة الوجيزة بحيث ضاعت أنظارنا عن محله «فتأمل»[2]:

شاهد آخر ممن شهدوا مآسي الحرب هو لطف الله البكاسيني، يذكر أن جيوش الجراد استمرت سبعة أيام، فأتلف كل شيء وتكدّس في سهول البقاع وغطّى الأرض على علو ذراع، وقد بذل الأهالي كل ما بوسعهم لإبادته. كما اهتمت الحكومة للأمر ففرضت على كل فرد أن يجمع كل يوم خمس إقات

(١) الأب ابراهيم حرفوش، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢) الأب يوحنا السبعلي، مخطوطة سمط الحبيب، ج٥، ص ٢٥٣، محفوظة في أرشيف دير الكريم، جونيه.

من الجراد وبثت الجنود في القرى والدساكر لتنفيذ الأوامر فكانوا يجمعون الرجال والفتيان ويأخذونهم إلى البساتين والسهول بالقوة العسكرية ليجمعوا ما فرض على كل منهم[1].

بينما يذكر انطوان يميّن أن الحكومة فرضت على كل فرد من الشعب أن يقتل عشرين إقة من الجراد وإلاّ يدفع للبلدية ثمن عشرين إقة (عن كل إقة متليكين)[2].

يذكر الدكتور حاتم سليمان، نقلاً عن أوراق يوسف نادر الرّيس من حملايا، بأن الجراد «أكل كل شيء مع العنب والتين وورق التوت ولم يبقَ شيء أخضر حتى الزرع ومن ثما غرز وفقّس وزحف والزحّاف كفّا على الباقين ونجّر أعماد الصجر وبقي لغاية ١٠ أيار سنة ١٩١٦ وأكل الزرع تاني سنة في السواحل ومن ثما فحمله سبحانه وتعالى»[3].

د ـ الجراد في البترون

بالنسبة إلى بلاد البترون، فقد كتب الخوري اسطفان شديد، من بلدة بشعلة، تاريخ الحرب العالمية الأولى، بطريقة شعرية، تطرق فيها إلى الجراد على الشكل التالي:

ويأتي جراد يعم الأرض ... ويأكل كل نبات فيها
والجوع يسود بطول وعرض ... بحاله ما نسمع فيها
الخوري والشيخ ينسوا الفرض ... البشر تترك باريها

(١) لطف الله البكاسيني، نبذة من وقائع الحرب الكونية، مطبعة الاجتهاد، بيروت، ١٩٢٢، ص ٤٨٩.

(٢) انطوان يمين، تاريخ لبنان في الحرب، مطبعة أمين هندية، ج٢، مصر، ١٩٢٠، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) حاتم سليمان، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لقاطع بكفيا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٠) أطروحة دكتوراه في التاريخ، الكسليك، ١٩٨٢، ص ٢٣٩.

والحريم يبحن العِرض يبيعوا حالن بالرسمال[1]

أما الأب يوحنا السبعلي فقد أورد في إحدى مخطوطاته بأن امرأة من قرية نيحا الجبّة (حالياً البترون) ذهبت إلى حقل لها «تطرد الجراد منه وكان على يدها طفل لها فأنامته في محل من الحقل مستور واشتغلت في طرد الجراد برهة، ثم افتقدت ولدها فوجدته ميتاً تحت أكداث الجراد فتأمل: وهذا كافٍ»[2].

بعد بشعله ونيحا ننتقل الآن إلى بلدة جردية ثالثة هي تنورين، فقد ورد في روزنامة دير مار انطونيوس ـ حوب تحت عنوان «دير حوب في سنيّ المجاعة والحرب من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٩» معلومات عن الجراد والخراب الذي حلّ بالبلاد إثر وصوله إلى ربوعنا، ومن هذه نعرض الصورة التالية «فأتى الجراد زاحفاً بخيله ورجله على البلاد في الثالث عشر من نيسان من سنة ألف وتسعماية وخمسة عشر مسيحية وحجبت جيوشه عين الشمس وغطّى سماء سورية بوقت واحد وانتشر في البلاد شرقها وغربها ولم يرحل هذا الضيف الثقيل عن الجبل إلاّ بعد أن جرّده من كل عرقٍ أخضر فأتلف الكروم والمزروعات وعرّى الأشجار من أوراقها ولم يبقَ على الأحراش ونزع من يدّ الفلاح رأس ماله الزراعي فكان جوعٌ عظيم في البلاد ونزح كثيرٌ من سكان الجبل إلى الولايات كبيروت وطرابلس وبلاد بعلبك وحوران وجهات عكار وخربت أكثر القُرى ولم يكن فيها من ساكن غير البوم»[3].

هذه الروايات الثلاث عن وصول الجراد إلى بلاد البترون الجردية،

---

(١) الخوري اسطفان شديد، تاريخ الحرب من ١٩١٤ ـ ١٩١٨، المطبعة العثمانية، بيروت، ساحة البرج، ١٩١٩، ص ٦.

(٢) الأب يوحنا السبعلي، مخطوطة سمط الحبيب، ج٥ ص ٢٥٣ محفوظة في أرشيف دير الكريم ـ جونيه.

(٣) روزنامة دير حوب التابع للرهبنة اللبنانية المارونية، ص ٩٧.

يعطينا فكرة واضحة عن كثافته، وسننتقل الآن للحديث عن وصوله إلى المنطقة الوسطى عبر مذكرات شخصين ينتميان إلى قريتي بقسميا وكفيفان.

جاء في مفكرات جبرايل داود الشيخاني (١٨٧٣ ـ ١٩٦٠) شيخ صلح بلدة بقسميا، معلومات دقيقة عن الجراد وذلك على الشكل التالي:

١١ نيسان ١٩١٥: الطقس صحو، مرق رف جراد وبات في أرض حلتنا.

١٣ نيسان ١٩١٥: نور الشمس حدّ، عند الغياب وصل الجراد إلى الضيعة.

١٤ نيسان ١٩١٥: كان غناس، عند الصبح وصل الجراد إلى أملاك الضيعة ونزل، بقي طول النهار في أملاك القرية.

١٥ نيسان ١٩١٥: كان هوا غربي خفيف، كان الجراد متكاثر في أرض الضيعة، بقينا طول النهار نكحت الجرد من الضيعة، عند الغياب بقي في الشمّيس والقلة والعقبة والكساير والقسم وكسارة الدير لا غير.

١٦ نيسان ١٩١٥: قبل الظهر شوب وبعد الظهر طلع غربي، كان الجراد متكاثر جداً.

١٧ نيسان ١٩١٥: كان صحواً أول يوم الذي بزّر فيه الجرد في أرض الضيعة، ومرق جرد كثير من فوق الضيعة وغط قسم خفيف فوق الذي كان عندنا.

١٨ نيسان ١٩١٥: كان صحو عال، كان في جراد كثير جداً.

١٩ نيسان ١٩١٥: كان صحو جداً، كان بعد جراد في أملاك الضيعة.

٢٠ نيسان ١٩١٥: كان صحو، مرق جراد كثير غط في القله أكل لنا الباقيه.

٢٣ نيسان ١٩١٥: كان هوا غربي خفيف، كان طائر جراد في الجو عالي.

٠٧ أيار ١٩١٥: كان صحواً، وكان في جراد في القرية.

١٤ أيار ١٩١٥: كان غربي خفيف، في هذا النهار فقس الجراد في أرض الضيعة وخلافها.

١١ حزيران ١٩١٥: كان غربي خفيف، الجراد في كامل أملاك القرية، زاحف ليس بقي شيء أخضر، بدينا في كحت الجراد عن الأملاك.

١٢ حزيران ١٩١٥: كان غربي، الجراد متكاثر جداً.

١٣ حزيران ١٩١٥: كان غربي، الجراد متكاثر جداً.

١٤ حزيران ١٩١٥: غربي خفيف، كنا في كحت الجراد.

١٥ حزيران ١٩١٥: نور الشمس حدّ جداً، كنا في كحت الجراد من النهر (نهر الجوز).

١٦ حزيران ١٩١٥: غربي خفيف، كنا في تكحيش الجراد عن النهر.

١٧ حزيران ١٩١٥: غربي كشحنا الجراد عن النهر.

١٨ حزيران ١٩١٥: غربي كشحنا الجراد عن النهر.

١٩ حزيران ١٩١٥: غربي كشحنا الجراد عن النهر.

٢٠ حزيران ١٩١٥: غربي كحتنا الجراد عن البستان[1].

بعد هذا التاريخ لم يعد هناك أي ذكر للجراد في المفكرات التي بين أيدينا وهي تشمل سنة ١٩١٦ أيضاً.

(١) مفكرة الشيخ جبرايل داود الشيخاني ـ بقسميا، للعام ١٩١٥، وقد أطلعنا عليها مشكوراً حفيده الدكتور ميشال أبي فاضل.

كما أن كارثة الجراد في بلدة بقسميا البترونية، كان لها صداها في قصيدة شاعر محلي هو الشاعر الزجّال نقولا بو مرقص.

فقد أرسل نقولا رسالة إلى ولده سركيس في المهجر الأميركي، ضمنها قصيدة[1]، يتحدث فيها عن الجراد الذي زار بلادنا خلال الحرب، نقتطف منها هذه الأبيات:

طلبت مني يا ولدي الأفادي   تريد تعلم شو صار في بلادي

جانا جراد ولا تحصى عدده   تلاّ الأرض من بعر وسوادي

جانا جراد ولا تحصى عدده   من الساحل إلى الجرد مدده

غضب اللّه وعلينا لبده   حيث الناس ما عندها عباده

يا ولدي بأول نوار   جانا جرد الطيار

تجاوز عنا وعاد بزَّر   من ألفين عام ما فيش عادة

أكل كرومنا وكل العشايب   وخلّى التين والزيتون سايب

أكل التوت أيضاً والعنايب   وخلّى الناس كلها في كمادي

ومدوّن ثانٍ ليومياته من وسط البترون، يصف في مفكراته الجراد، فقد تطرق مخايل منعم (١٨٨٣ ـ ١٩٧٧) من كفيفان إلى الوضع العام في البلاد خلال الحرب العالمية الأولى، وهو ممن إمتهنوا السمكرة ما جعله على اتصال بأشخاص عديدين في منطقته والجوار، وهذا ما أكسبه معلومات إضافية جمعها خلال انتقاله من قرية إلى أخرى. وسنتطرق الآن إلى الجراد عبر المذكرات المتوافرة لدينا.

١٣/٤/١٩١٥: كان الجراد منتشر في لبنان عمومي لم يكن أحد يعلم من أين آتٍ لأنه كان يأتي من الأربع جهات وأول وصوله كان

(١) مجلة النادي الأهلي ـ بقسميا، العدد ١، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص١٢١ ـ ١٢٢.

من الشرق ومن الشمال وكان ضرب التنك ودق الجراص والعياط العمومي.

١٩١٥/٤/٣٠ : انتهى الشهر ومن ثلاثة عشر منه لتاريخه كان سير الجراد متواصل إلاّ أنه لم يضرّ مثل الأسبوع الأول من وصوله.

١٩١٥/٥/١٢ : لم يزل الجراد يمرّ ولكن لا يستقر إلاّ قليلاً ولا يضرّ إلاّ موضع الذي يتغذى فيه قليلاً.

١٩١٥/٥/٢٠ : فقس الجراد ولم يزل الجراد الطيار في سماء لبنان بدون أن يغط ولا يضرّ ولم تزل التواب والبيارق في روس الأشجار لتمنع صقوط الجراد عليه.

١٩١٥/٥/٢٣ : انقطع الجراد الطيار من سماء لبنان وأما الجراد الزحاف بغاية الكثرة ولم ينفعه الفلاحه لأنه عجّل في التفقيس والناس تشتغل بحريقه.

١٩١٥/٥/٣٠ : وصل الجراد الزحاف إلى أراضي كفيفان من جهة وادي المتاولي ومن جهة بسبينا وكان كثيراً جداً وأن الفلاحة في أيام البزر لم تنفعه شي بل عجلت تفقيسه وبلشت أهل الضيعا بفتح الخنادق والحريق.

١٩١٥/٥/٣١ : انقلع أغلب البصل لأن الجراد كان يأكل يقور البصل نظير الكوسه المحشه.

١٩١٥/٦/٠٣ : كان مرور الجراد الزحاف متواصل لحد الآن أما اليوم فكان بنفس القرية وكانت الأهالي جميعهم يشتغلون بكحته وكان الأوفق لقائه على مصلبية بسبينا ومهد الأرض بأسرها وأشر قضبان التوت وخلافه.

١٩١٥/٦/٠٤ : لم يمنعه عن الصعود على الشجر سوى اللّيسينه أي حليسة الشرانق.

١٩١٥/٦/٠٦ : كان تفقيس الجراد في الساحل والجراد، جرّد الأرض جميعها.

١٩١٥/٦/١٠ : كبر الجراد الزحاف وأوى إلى محلات ومحلات وجرّد العريش واللزّان والتين والتوت.

١٩١٥/٦/٢١ : لم تقدر الخسائر الناتجة عن الجراد لأن الناس كانت زارعة أغلب التوت.

١٩١٥/٦/٢٤ : بدا الجراد الزحاف بالطير بعد أن أكل قصم من ورق التين والعريش وبزيادة اللزان والكرم وفي بعض نواحي مثل الكورة لم يبقي إلاّ على الزنزلخت وبدا بالطيران.

١٩١٥/٧/٠٣ : طار الجراد الزحاف مثل أول وصوله وكان بعد قصم زاحف.

١٩١٥/٧/١٢ : انقطع الجراد الطيار وكان انقطاعه حالاً حين طيّر الزحاف كله في الجو واختفى بعد مرور ثلاثة أشهر تماماً.

١٩١٥/٧/١٦ : خربت في هذه السنة أكثر النحل لقلة وجود أعشاب في الأرض لأن الجراد قضى عليها جميعها.

١٩١٥/٨/١٢ : عاد الجراد الطيار فظهر في سماء لبنان.

١٩١٥/٩/١٢ : إن العريش الذي التهمه الجراد عاد فرخ وسوّى عنب ولكن لم يستوي لفوات الصيف ولقصر الشمس أما التين فمنه عاد وسوى ورق والفقوع الذي كان موجود منه نتر منه استوى قصم قدما كان الطاب.

١٩١٥/١٠/٢٥ : ظهر جراد طيار في سماء لبنان بعد انقطاع أربعة أشهر تقريباً وكان سقوطه قليلاً بدون ضرر إلاّ قليلاً بعض محلات فيها وكان لونه أحمر.

١٩١٥/١٠/٣٠ : انقطع مرور الجراد.

١٨/١١/١٩١٥: كان الجراد بكثرة طيار ولونه أحمر وانتشر في بلاد جبيل في غلبون وكان منه بكثرة.

٢٢/١١/١٩١٥: انتشر الجراد بلبنان مثل أول ظهوره وكان كثيراً جداً.

٢٦/١١/١٩١٥: كان الجراد كثير.

١٨/٠١/١٩١٦: لم يزل الجراد في أراضي لبنان ينتقل من محلٍ إلى آخر وأصبح لونه أحمر ولكن ضرره كان قليلاً.

٠٢/٠٢/١٩١٦: هذه السنة بسبب الجراد لم ينبت العشب إلاّ قليلاً جداً.

١٣/٠٤/١٩١٦: كانت المزروعات بغاية الجودة لكنها كانت قليلة بسبب الجراد في السنة الماضية، الذي لم يزل موجود منه بعض جردات ويمر منه في بعض محلات بكثرة بعد مرور عام كامل عليه[١].

بعد عرض واقع الجراد في المنطقة الوسطى، سننتقل الآن إلى ساحل البترون.

كان الجراد سبباً لوفاة مدير ناحية البترون، فقد جاء في مفكرات الخوري يوسف مسعود اليان من عبدللي، وكاهن رعية البترون، بأن الأستاذ أسعد يوسف ضو، مدير ناحية البترون، تعرض، أثناء مطاردته الجراد في ضهر المكمن، على تلة من تلال البترون، لكسر في جنبه، إثر وقوعه، مما سبب له نزيفاً حاداً وأصيب بالحمى، وما لبث أن فارق الحياة، خلال عدة أيام بتاريخ ١٦ أيّار سنة ١٩١٥، وذلك بعد مرور نحو شهرين على وصول هذه الآفة إلى لبنان[٢].

(١) مفكرات مخايل منعم ١٩١٥ ـ ١٩١٦. وقد أطلعنا عليها نسيبه منعم منعم ـ كفيفان، مشكوراً.

(٢) ميشال أبي فاضل، مخطوطة بيبليوغرافيا حملة الأقلام في بلاد البترون، مادة أسعد ضو، نقلاً عن مفكرة العام ١٩١٥ للخوري يوسف مسعود اليان.

ونختم كلامنا عن الجراد ببيتين من الشعر نظمهما مخايل منعم صاحب المفكرات التي اعتمدنا عليها في دراستنا وقد رأيناها معلقة على غلاف إحدى مفكراته العائدة لسنة ١٩١٤ وقد جاء نظمه على الشكل التالي:

مرّ الجراد على زرعي فقلت له   إلزم طريقك لا تورع بإفسادِ

فقام إليه خطيب فوق سنبلة   وقال إني على سفرٍ لا بد من زادِ

٣ ـ الغلاء

أ ـ مقدمة

ارتفعت بصورة جنونية، أسعار المواد الغذائية خلال الحرب لأسباب عديدة، منها تأثير الحرب المباشر، يُضاف إليه بوار المواسم بسبب الجراد، كما كان لسياسة الاحتكار التي اتبعها التجار في جميع المناطق اللبنانية، الدور المهم في تطور أسعار السلع، وكانت الضربة القاضية عندما عمدت الدولة العثمانية إلى إصدار العملة الورقة المساوية للعملة الذهبية، ما دفع الناس إلى الامتناع عن التعامل بها. وسبّب أزمة نقدية ساهمت في غلاء المواد الأساسية.

نتناول هنا أسعار بعض المواد الغذائية الأساسية وبشكل خاص القمح، والشعير، والطحين، والزيت، والبصل والبطاطا،مع جدول مفصل بأجور اليد العاملة للربط بين أجرة العامل والقوة الشرائية، وذلك استناداً إلى أحد سجلات[١] مدرسة مار يوحنا مارون ـ كفرحي ومفكرات السمكري مخايل منعم ـ كفيفان. وهذان المصدران يتناولان الوضع في منطقة البترون الوسطى.

(١) محفوظات مدرسة مار يوحنا مارون ـ كفرحي، سجل رقم ٨٤ صفحات متفرقة.

الجدول رقم (١)

الأسعار وفق أرشيف مدرسة مار يوحنا مارون ـ كفرحي

أ ـ أسعار القمح بالرطل والقرش ١٩١٥ ـ ١٩١٩

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٥/١٠/١١	٥	شراء	١٩١٧/٤/٨	٢٠	مبيع
١٩١٦/٤/١٨	١٠	شراء	١٩١٧/٥/١	٢٠	مبيع
١٩١٦/٤/٣٠	٨	شراء	١٩١٧/٥/٧	١٥,٣٠	شراء
١٩١٦/٥/١٥	١٣,١٥	شراء	١٩١٧/٥/٢٠	١٨,١٠	شراء
١٩١٦/٥/٢١	١٤,٢٠	شراء	١٩١٧/٧/٤	١٢	مبيع
١٩١٦/٦/١٠	١١	مبيع	١٩١٧/٨/٢٤	١٣	مبيع
١٩١٦/٦/٢٢	١٢	مبيع	١٩١٧/٩/١	١٣	مبيع
١٩١٦/٧/١١	١٠,١/٣	مبيع	١٩١٧/١٠/٣١	١٣	مبيع
١٩١٦/٧/٢٨	١٥	مبيع	١٩١٧/١١/٣	١٥	مبيع
١٩١٦/٨/٢٠	١٥	مبيع	١٩١٧/١١/٢٧	٨,١٠	شراء
١٩١٦/١٠/١	١٥	مبيع	١٩١٧/١١/٢٨	١٦	شراء
١٩١٦/١٢/٢	١٤	مبيع	١٩١٧/١١/٣٠	١٣,٢٠	شراء
١٩١٦/١٢/٨	١٣,٢٠ـ١٤	مبيع	١٩١٧/١٢/١٥	٢٢,١٠	شراء
١٩١٦/١٢/٢٦	١٥	مبيع	١٩١٨/٣/٢٤	٣٢,١٠	شراء
١٩١٦/١٢/٢٩	١٤	مبيع	١٩١٨/٣/٢٦	٢٩	شراء
ك٢ ١٩١٧	١٤ـ٢٥	مبيع	١٩١٨/٤/٣	٤٠	شراء
شباط ١٩١٧	١٥ - ١٨	مبيع	١٩١٨/٤/٣٠	٢٧,٢٠	شراء

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٧/٣/٣٠	١٥	شراء	١٩١٩/٥/٣١	١٠	شراء
١٩١٧/٤/١٣	١٤,٢٠	شراء	١٩١٩/٦/٢١	١٣,١٠	شراء

* **ملاحظة**: كان الدير يستورد القمح بصورة عامة من الأماكن التالية: البترون، طرابلس، كوسبا، حماه، أميون، زغرتا والديمان، وكان القرش العثماني يساوي ٤٠ بارة.

الجدول رقم (٢)

ب ـ أسعار الشعير بالرطل والقرش ١٩١٤ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٤/١١/٢٠	٢	شراء	١٩١٦/٣/٣١	٨,٢٠	شراء
١٩١٥/١/١٩	٢,٠٥	شراء	١٩١٦/٤/١٨	٨	شراء
١٩١٥/١/٢٢	٢,١٠	شراء	١٩١٦/٥/٢١	٩,٢٠	شراء
١٩١٥/٢/٨	٢,١٥	شراء	١٩١٦/٦/١٤	٨	شراء
١٩١٥/٣/٤	٢,٢٠	شراء	١٩١٦/٧/٤	٨ـ١٠	مبيع
١٩١٥/٣/١٨	٢,١٥	شراء	١٩١٦/٨/١	٦	شراء
١٩١٥/٣/٣١	٢,٢٠	شراء	١٩١٦/٨/٢٢	٦	مبيع
١٩١٥/٤/١٣	٢,١٠	شراء	١٩١٦/٩/١٨	٦	شراء
١٩١٥/٤/٢٦	٢,٣٠	شراء	١٩١٧/٣/٤	١٤,٢٠	شراء
١٩١٥/٥/٢٠	٢,١٥	شراء	١٩١٧/٣/١٠	١٣,٣٠ـ١٥	شراء
١٩١٥/٦/٧	٣	شراء	١٩١٨/٨/٢٤	٩	مبيع

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٥/٨/٧	٣	شراء	١٩١٧/٩/٦	١٠	مبيع
١٩١٥/١٠/١٥	٣	شراء	١٩١٧/١٠/٣١	١٢	مبيع
١٩١٥/١٠/٢١	٤	شراء	١٩١٧/١١/٢	١٢	مبيع
١٩١٦/٢/٢٦	٥	مبيع	١٩١٨/٥/١٦	١٨	شراء
١٩١٦/٣/٧	٩	شراء	١٩١٨/٥/٢١	١٩,٢٠ ـ ٢٠,٢٠	شراء
١٩١٦/٣/٧	٥	شراء	١٩١٨/٥/٢٩	٢٠	شراء
١٩١٦/٣/١٥	٦	شراء	١٩١٨/٨/٣	١٠	مبيع

* **ملاحظة**: بتاريخ ١٩١٦/٣/٧ سُجّل سعران للشعير، السعر الأول هو ٩ قروش للرطل وهو للشعير الأبيض، أما السعر الآخر فهو للشعير الأسود.

الجدول رقم (٣)

ج ـ أسعار الطحين على أنواعه بالرطل والقرش ١٩١٣ ـ ١٩١٩

التاريخ	النوع	السعر	نوع التبادل	التاريخ	النوع	السعر	نوع التبادل
١٩١٣/٨/٧	طحين	٥ـ٤,٢٠	شراء	١٩١٧/٥/١٠	طحين درة	١٤,٢٠	مبيع
١٩١٥/١/٢١	طحين فرنسي	٥,٢٠	شراء	١٩١٧/٥/٢١	طحين درة	١٨,١٥	مبيع
١٩١٥/٢/٨	طحين كماجي	٦	شراء	١٩١٧/٥/٢١	طحين قمح	٢٠	مبيع
١٩١٥/٣/٢١	طحين فرنسي	٦,٢٠	شراء	١٩١٧/١١/١١	طحين قمح	١٦,٣٠	شراء
١٩١٥/٤/٢٤	طحين فرنسي	٧	شراء	١٩١٧/١٢/٦	طحين قمح	١٧,١٠	شراء
١٩١٥/٥/١٨	طحين فرنسي	٧	شراء	١٩١٧/١٢/٦	طحين قمح	١٨,١٠	شراء
١٩١٥/١٠/١٠	طحين قمح ودرة	٤,٢٠	شراء	١٩١٨/١/٤	طحين قمح	١٨	شراء
١٩١٧//٣	طحين	١٣,٢٥ ـ ١٧,١٥	مبيع	١٩١٨/١/٤	طحين قمح	١٧	شراء
١٩١٧/٤/١٨	طحين	٢٠ـ١٥	مبيع	١٩١٨/١/٤	طحين درة	١٥	شراء
١٩١٧/٤/٢٨	طحين	٢٨	مبيع	١٩١٨/٣/٢٦	طحين درة	٢٧,١٠	شراء
١٩١٧/٥/٢	طحين	٥٤	مبيع	١٩١٨/٥/٢٩	طحين شعير	٢٢	شراء
١٩١٧/٥/٧	طحين ذرة	١٣	مبيع	١٩١٨/٦/٥	طحين شعير	٢٠	شراء
١٩١٧/٥/١٠	طحين قمح	١٧	مبيع	١٩١٩/٦/١٥	طحين	١٤	شراء

الجدول رقم (٤)

د ـ أسعار الزيت بالرطل والقرش ١٩١٤ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٤/١/٢	١٣,٢٠	مبيع	١٩١٧/٢/٢٥	٦٠	مبيع
١٩١٥/٢/٢	١٤,١٠	مبيع	١٩١٧/٢/٢٨	٢٥	مبيع
١٩١٥/٢/١٨	١٦	مبيع	١٩١٧/٣/٧	١٧	مبيع
١٩١٥/٤/١١	١٥	مبيع	١٩١٧/٣/٩	١٨,١٠	مبيع
١٩١٥/١٠/٢٧	٢٠	مبيع	١٩١٧/٣/١١	١٧,٢٠	مبيع
١٩١٥/١٠/٣١	٢٥	مبيع	١٩١٧/٣/٢٥	١٨	مبيع
١٩١٥/١١/٢٤	٢٣	مبيع	١٩١٧/٤/١٣	١٦,٢٠	مبيع
١٩١٦/١/٢٨	٢٢,٣٠	مبيع	١٩١٧/٤/١٨	٤٠	مبيع
١٩١٦/٣/٧	٢٦	مبيع	١٩١٧/٤/٢٢	١٦	مبيع
١٩١٦/٤/١٥	٢٥	مبيع	١٩١٧/٥/٣	٥٠	مبيع
١٩١٦/٨/٢٢	٢٥	مبيع	١٩١٧/٥/٢٧	١٦	مبيع
١٩١٦/٩/١٣	٣٠	مبيع	١٩١٧/٧/٤	٢٣,٢٠	مبيع
١٩١٦/١٠/٥	٣٠	مبيع	١٩١٨/٣/١١	٢٧	مبيع
١٩١٦/١٠/٢١	٢٠	مبيع	١٩١٨/٣/١٢	٢٥	مبيع
١٩١٦/١١/١	٣٠	مبيع	١٩١٨/٣/١٣	٢٨	مبيع
١٩١٦/١١/٢١	٤٠	مبيع	١٩١٨/٨/٣	٢٥	مبيع
١٩١٧/١/٥	٥٠	مبيع	١٩١٩/١/٢٤	٢٠	مبيع
١٩١٧/٢/١٩	١٧,٢٠	مبيع	١٩١٩/٣/٢٦	١٩	مبيع

الجدول رقم (٥)

هـ ـ أسعار البصل بالرطل والقرش ١٩١٤ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٥/١/٢٦	١	شراء	١٩١٧/٣/١٧	٦	شراء
١٩١٥/٣/١٤	١,٣٥	شراء	١٩١٧/٦/١٣	٦	شراء
١٩١٥/٤/٢	١,٣٠	شراء	١٩١٨/٧/٥	٥	شراء
١٩١٥/١٢/١٣	٤,٢٠	شراء	١٩١٧/٩/٦	٦	شراء
١٩١٥/١٢/٢١	٣	شراء	١٩١٧/١٠/٢٨	٤,٣٠	شراء
١٩١٥/١٢/٢٩	٣,٢٠	شراء	١٩١٨/١/٤	٤,٢٠	شراء
١٩١٦/٢/٦	٣,٢٠	شراء	١٩١٨/٢/٢٨	٥,١٠	شراء
١٩١٦/٢/٢٧	٤,٣٠	شراء	١٩١٨/٣/١٠	٨	شراء
١٩١٦/٣/٢٦	٨,٢٠	شراء	١٩١٨/٣/٢٦	١٠	شراء
١٩١٦/٤/٣٠	٩	شراء	١٩١٨/٤/٣٠	١٥	شراء
١٩١٦/٩/١١	١٢,٢٠	شراء	١٩١٨/٥/١٩	١٨	شراء
١٩١٦/١١/٣	١١,٠٥	شراء	١٩١٨/٩/١٨	٩	شراء
١٩١٧/٢/٨	١٢,٢٠	شراء	١٩١٩/٦/٢٦	٨	مبيع

الجدول رقم (٦)

و ـ أسعار البطاطا بالرطل والقرش ١٩١٤ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	نوع التبادل	التاريخ	السعر	نوع التبادل
١٩١٤/٥/١٨	٢	شراء	١٩١٧/١٠/٩	٥	شراء
١٩١٥/٦/٣	٢	مبيع	١٩١٧/١٠/٢٣	٣,٣٠	شراء
١٩١٥/٨/٨	١,٣٠	شراء	١٩١٧/١٠/٣١	٥	مبيع
١٩١٥/١٠/٧	٣	شراء	١٩١٧/١٢/١٢	٥	شراء
١٩١٦/١٠/١٨	٢,٢٠	شراء	١٩١٨/١/٤	٦	مبيع
١٩١٦/١٠/٢٤	٢,٢٠	شراء	١٩١٨/٨/٢	٩	شراء
١٩١٧/٧/١٤	٥'	شراء	١٩١٩/٨/٢٧	١٢	شراء
١٩١٧/٩/٢١	٤	شراء	١٩١٩/١/١٥	٧	شراء

الجدول رقم (٧)

ز ـ أجور العمال بالقروش والبارات ١٩١٤ ـ ١٩١٨

التاريخ	أجرة اليوم	نوع العمل	التاريخ	أجرة اليوم	نوع العمل
١٩١٤/٨/٣	٨	فاعل	١٩١٧/٧/٣	٤	رجل في الحصاد
١٩١٤/٨/٣	١١,٢٠	فاعل حصاد	١٩١٧/٧/١٠	٣	رجل في العمل
١٩١٥/٢/٣	٧,٢٠	عمل في الزراعة	١٩١٧/٨/٢٣	١	امرأة في القمح والدخان
١٩١٥/٣/٢٨	٥,٣٠	نقب أرض	١٩١٧/٩/٣	١	امرأة في القمح والدخان
١٩١٥/٤/٢٩	٤,٣٠	نكاش التوت	١٩١٧/١١/٢	١,٢٠	امرأة في الزيتون
١٩١٥/٥/٩	٤,٢٠	نكاش	١٩١٧/١٢/٤	٣	امرأة في الزيتون
١٩١٥/٧/٤	٥	نكاش التوت	١٩١٨/١/٢	٢,٢٠	عمل في الزراعة
١٩١٥/٧/٣٠	٤,٢٠	سقاية البساتين	١٩١٨/٥/٥	٠,٢٠	نقل فحم إلى طرابلس
١٩١٥/١٠/٣١	٦	شغل	١٩١٨/٦/٢	٢	إجرة نقل ورق من النهر
١٩١٥/١١/١	٤	فاعل	١٩١٨/٦/٣٠	٨ ـ ١٢	فاعل حصاد
١٩١٥/١١/١٨	٢	امرأة لجمع الزيتون	١٩١٨/٧/٦	٦	فاعل حصاد
١٩١٥/١٢/١١	٤	فاعل في الزراعة	١٩١٨/٨/٣١	٦	شغل
١٩١٦/٢/١٣	٤	فاعل في الزراعة	١٩١٨/٩/٢٢	٨	عمل في النهر
١٩١٦/٣/١٥	٣	نكاش	١٩١٨/١٠/١٠	٧	عمل
١٩١٦/٦/١٠	٥	فاعل حصاد	١٩١٨/١٠/٢٠	٣	امرأة في الزيتون
١٩١٦/٧/١٤	٥ـ٦,٣٠	فاعل حصاد	١٩١٨/١٠/٢٨	٨	عمل

التاريخ	أجرة اليوم	نوع العمل	التاريخ	أجرة اليوم	نوع العمل
١٩١٦/٩/١٣	٦	فاعل حصاد	١٩١٨/١٢/٨	٦	عمل في الزراعة
١٩١٦/١٠/٢٦	٤	سقاية البساتين	١٩١٩/١/١٩	١٠	عمل في الزراعة
١٩١٦/١١/١٠	٣ـ٥	عمل في البساتين	١٩١٩/٢/١٦	٨	عمل
١٩١٧/٢/١	٤ـ٥	عمل في الزراعة	١٩١٩/٣/٣٠	١٠	عمل
١٩١٧/٣/٤	٣	عمل في الزراعة	١٩١٩/٤/١٣	٨	عمل
١٩١٧/٤/٢٨	٢,٢٠ـ٤	عمل في الزراعة	١٩١٩/٦/٢١	١٢ ـ ١٥	حصاد
١٩١٧/٦/٢	٢	امرأة في الحصاد	١٩١٩/٦/٢٦	٥	امرأة في الحصاد
١٩١٧/٧/٣	٢	امرأة في الحصاد			

الجدول رقم (٨)
أسعار السلع الاستهلاكية وفق أرشيف مخايل منعم ـ كفيفان

أ ـ أسعار القمح بالرطل والقروش ١٩١٥ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
١٩١٥/٥/٣	٩	١٩١٧/٣/٢٣	٢٥	شباط ١٩١٨	٢٠
١٩١٦/١/١٨	١٢	آذار ١٩١٧	١٣	حزيران ١٩١٨	١٥
١٩١٦/٤/٣٠	٩,٢٠	أيار ١٩١٧	١٦	تموز ١٩١٨	١٥[1]
١٩١٦/٥/٢٩	١٣	١٩١٧/٦/٥	٩[2]	ت١ ١٩١٨	١٣
١٩١٦/١١/١	٦و + ١,٢٥[3] حجر	١٩١٧/٧/٢١	١٤	ت٢ ١٩١٨	
١٩١٦/١١/٩	٤٣و	تموز ١٩١٧	١٣		
١٩١٦/١١/٢٦	٨,٢٠[4]	١٩١٧/١٠/١٥	١٧		

* **ملاحظة**: إن الأسعارالواردة أعلاه في الجداول اللاحقة هي بالعملة الصاغ (حجر). وفي حال كانت العملة ورقية أشرنا إليها بحرف واو.

(١) هذا السعر المعمول به في مدينتي بيروت وطرابلس.
(٢) هذا السعر المعمول به في مدينة طرابلس وقضاء الكوره.
(٣) هذا السعر هو لقمح الحكومة (إعاشة) وهو أقل من سعر السوق.
(٤) هذا السعر هو لقمح الحكومة (إعاشة).

الجدول رقم (٩)

ب ـ أسعار الشعير بالرطل والقرش ١٩١٦ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
١٩١٥/٥/٣	٤,٢٠	١٩١٦/٤/٣٠	٦*	١٩١٧/٧/٢١	١١
١٩١٦/١/١٨	٧,٢٠	١٩١٦/٦/١٠	٩	١٩١٨/٥/١٠	٢٥
١٦/٢/٥	٧,٢٠	١٩١٦/٧/١٠	١٠	١٩١٨/٥/١٨	٢٦
شباط ١٩١٦	١٠,٢٠	١٩١٦/٧/١٦	١٢ و	حزيران ١٩١٨	١٠
١٩١٦/٣/١٢	١٢	١٩١٦/١٢/١٢	١٢	تموز ١٩١٨	١٣,٢٠
				ت٢ ١٩١٨	١٠

* **ملاحظة**: هذا السعر هو للشعير الأبيض بينما بلغ سعر الشعير الأسود في الفترة عينها ٤ غروش ونصف.

الجدول رقم (١٠)

٢ ـ أسعار السلع الاستهلاكية وفق أرشيف مخايل منعم ـ كفيفان.

أ ـ أسعار طحين القمح بالرطل والقروش ١٩١٥ ـ ١٩١٨: (و = عملة ورقية)

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
١٩١٥/٤/٣٠	٦	١٩١٦/٧/١٦	٢٠,١٠و	أيلول ١٩١٧	١٥
١٩١٥/٧/٢	٢٢,٢٠	تموز ١٩١٦	٢٥ و	ت٢ ١٩١٧	١١٥و[١]
١٩١٥/١٢/٢٣	٨	١٩١٦/٨/١٠	٢٥ و٢٠	ت٢ ١٩١٧	١٨
شباط ١٩١٦	١٥	١٩١٦/١٠/١٦	٣٠و	ك٢ ١٩١٨	١٦
١٩١٦/٣/٤	١٠,٢٠٠	١٩١٦/١٢/١٢	١٦,٢٠	١٩١٨/٢/٢٢	١٠٠و[٢]
١٩١٦/٣/١٢	١٥	كانون الأول ١٩١٦	٢٠٠و[٣]	١٩١٨/٣/٥	٢٧ـ٣٤
١٩١٦/٤/٦	نحاس[٤]	ك٢ ١٩١٧	٥٠و	١٩١٨/٣/١٣	٣٠
١٩١٦/٥/٩	١٥[٥]	١٧/٤/٣٠	١٦	١٨/٣/٢٣	٤٠[٦]
١٩١٦/٥/١١	١٩و	١٩١٧/٦/٥	١٣	١٩١٨/٤/١٥	٣٦ـ٤٦
أيار ١٩١٦	حرير[٧]	حزيران ١٩١٧	١٠	١٩١٨/١٥/١٨	٣٦
١٩١٦/٦/٢٧	١٣	١٩١٧/٨/٦	١٤	أيار ١٩١٨	٤٢
١٩١٦/٧/١٠	١٦	١٩١٧/٨/٢٠	١٣,٢٠	أيلول ١٩١٨	٢٧
				١٩١٨/١١/٣	١٢

(١) هذا السعر في مدينة بيروت.
(٢) ليرة عثمانية ورق أو ريال مجيدي.
(٣) بلغ سعر إقة الطحين ربع ليرة ودين عليها ثلاثة أرباع فيكون ثمن الرطل مائتي غرش.
(٤) حسب المفكرة، كل رطل طحين يساوي رطل نحاس.
(٥) لم تسمح الحكومة للمشتري سوى برطل واحد.
(٦) تشير المفكرة إلى أن السعر كان ٦٠ غرشاً في المتن والشوف وبيروت وجونيه.
(٧) حسب المفكرة، رطل الطحين أغلى من رطل الحرير.

الجدول رقم (١١)

د ـ أسعار الزيت بالرطل والقروش ١٩١٥ ـ ١٩١٨ : (و = عملة ورقية)

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
١٩١٥/٤/٢٠	٢٤	١٩١٦/١٢/١٢	٢٤	ك٢ ١٩١٨	٢٤
١٩١٥/٦/١٠	٢٤	كانون الأول ١٩١٦	٢٤	آذار ١٩١٨	٣٥
١٩١٥/١٢/٢٣	٢٢	آذار ١٩١٧	١٥	١٩١٨/٥/١٠	٤٨
١٩١٦/١/١٨	٣٥	١٧/٥/٢	١٥	حزيران ١٩١٨	٦٠
آذار ١٩١٦	٥٠[1]	١٩١٧/٦/٥	٢٠	تموز ١٩١٨	٦٠
١٩١٦/٤/١٩	٢٣	حزيران ١٩١٧	٣٦ـ٣٠	١٩١٨/٩/٢٤	٣٦
ت١ ١٩١٦	٥٠و	ت١ ١٩١٧	٣٠		
١١ ت٢ ١٩١٦	٥٠و[2]	ك١ ١٩١٧	٣٢		

الجدول رقم (١٢)

هـ ـ أسعار البصل بالرطل والقروش ١٩١٦ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
آذار ١٩١٦	١٠	١٩١٧/٨/١٦	٨	١٩١٨/٤/٦	٢٠
تموز ١٩١٦	٦	١٩١٧/٩/٢٣	٤,٢٠	١٩١٨/٦/١١	٦,٢٠
ك١ ١٩١٦	٧	ت١ ١٩١٧	٥	حزيران ١٩١٨	٩
١٩١٧/١/١٠	١٦	١٩١٧/١٢/٣٠	٦	١٩١٨/١٠/١٧	٦,٢٠
١٩١٧/٥/١٩	٧	١٩١٨/١/٢٢	٥	١٩١٨/١١/٣	٥,١٠
حزيران ١٩١٧	٥	١٩١٨/٢/٢٠	٦		
١٩١٧/٧/١	٧,٢٠	١٩١٨/٣/٢٣	١٢		

(١) في هذه الفترة، وحسب المفكرة، بيع رطل الزيت ديناً بموجب سند.

(٢) في هذه الفترة، وحسب المفكرة، ٥٠ غرش ورقي = ٢٠ غرش صاغ.

الجدول رقم (١٣)

و ـ أسعار البطاطا بالرطل والقروش ١٩١٧ ـ ١٩١٨

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
١٩١٧/١/٢٣	١٢,٢٠	١٩١٧/٩/١٢	٤	١٩١٨/١/٧	٥,٢٠
١٩١٧/٥/٢	٤	١٩١٧/٩/٢٨	٤,٢٠	١٩١٨/٢/٥	٥
١٩١٧/٥/١٩	٤,٢٠	١٩١٧/١٠/٦	٤,٢٠	نيسان ١٩١٨	٧
١٩١٧/٥/٢٦	٥	١٩١٧/١٠/١٦	٥	١٩١٨/٥/٥	٨
١٩١٧/٦/٢٢	٥	١٩١٧/١١/٣	٥,٢٠	١٩١٨/٥/١٧	٨
				١٩١٨/١٠/٢٥	٥

الجدول رقم (١٤)

ز ـ أجور العمال ١٩١٥ ـ ١٩١٨

التاريخ	نوع العمل	أجور العمال بالقروش	ملاحظات
١٩١٥/١/١٥	عمل في الأرض	٤ـ٥	ـ
١٩١٥/٥/١٧	عمل في الأرض	بشلك واحد	البعض بالمونه
١٩١٦/١/١٨	عمل في الأرض	٣	يعطى العامل مالاً ولا يعطى مونه
أيار ١٩١٧	حصاد	ـ	بالمونه
آب ١٩١٨	حصاد	مجيدي	ـ

* **ملاحظة**: يملك دير مار يوحنا مارون مساحات شاسعة من الأراضي، من هنا كثرة استخدامه للعمال، بينما نرى في مفكرات مخايل منعم، الاستعمال القليل لكلمة عامل. وقد أضفنا مقابلة لأسعار بعض العملات المتداولة عند السيد منعم.

قبل الحرب الأولى: (١٩١٢): حسب تقويم البشير.

النوع	بارة	غروش
بشلك =	٢٥	٣
مجيدي =	٠٥	٢٣

الجدول رقم (١٥)

ح ـ أسعار العملة الورقية (الليرة العثمانية ـ بنك نوت) بين ١٩١٦ و١٩١٨

التاريخ	السعر	التاريخ	السعر	التاريخ	السعر
شباط ١٩١٦	١٠٠	١٩١٧/٤/٣٠	٦٠ـ٢٥[١]	آذار ١٩١٨	٢٥
أيار ١٩١٦	٩٠	أيار ١٧	٣٢	نيسان ١٩١٨	٢٥
حزيران ١٩١٦	٨٠	١٩١٧/٦/١٤	٢٤	أيار ١٩١٨	١٨
أيلول ١٩١٦	٥٠	١٩١٧/٧/٢١	١٨	حزيران ١٩١٨	٢٢
١٦ ت١ ١٩١٦	٤٠	١٩١٧/٨/٢٠	١٦	تموز ١٩١٨	٢٢,٢٠
٢٤ ت١ ١٩١٦	٣٦	أيلول ١٩١٧	١٨,٢٠	آب ١٩١٨	٢٣
١٩١٦/١٢/١٢	٤٠	ت١ ١٩١٧	١٦	أيلول ١٩١٨[٢]	١٢
ك٢ ١٩١٧	٣٦	ت٢ ١٩١٧	١٥[٣]	ت٢ ١٩١٨[٤]	١٣
١٩١٧/٣/٢٣	٢٠	ك٢ ١٩١٨	٢١	—	—

(١) تشير المفكرة إلى أن سعر العملة الورقية وصل إلى الستين غرشاً لمدة يوم واحد فقط ثم تدنت إلى الخمسة وعشرين غرشاً.

(٢) تشير المفكرة إلى وصول قوات الحلفاء إلى بلادنا مما أدى إلى تدهور العملة الورقية.

(٣) تشير المفكرة إلى أن هذا السعر هو في مدينة بيروت يوم جاءها صاحب المفكرة.

(٤) تشير المفكرة إلى تداول عملة مصرية حجر، بعد تمنّع الدائنون عن قبض العملة الورقية. لمزيد من المعلومات حول أسعار العملة الورقية بصورة يومية يمكن مراجعة إميل حبشي، المصدر السابق، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٧.

الجدول رقم (١٦)

ط ـ أسعار المواد الغذائية الأساسية خلال الحرب أسعارها الأدنى والأعلى «استناداً إلى أرشيف دير مار يوحنا مارون ـ كفرحي ومفكرات مخايل منعم كفيفان»

التاريخ	قمح		شعير		طحين	
	الدير	منعم	الدير	منعم	الدير	منعم
نهاية ١٩١٤	٥		٢			
بداية ١٩١٥					٥,٢٠	
نيسان ١٩١٥						٦
أيار ١٩١٥		٩		٤,٢٠		
آذار ١٩١٧		٢٥				
أيار ١٩١٧					٥٤	
نيسان ١٩١٨	٤٠					٤٦
أيار ١٩١٨			٢٠	٢٦		

الجدول رقم (١٦) ـ تابع

التاريخ	زيت		بصل		بطاطا	
	الدير	منعم	الدير	منعم	الدير	منعم
بداية ١٩١٤	١٣,٢٠					
بداية ١٩١٥			١			
آب ١٩١٥					١,٣٠	
ك٢ ١٩١٧				١٦		١٢,٢٠
شباط ١٩١٧	٦٠					
أيار ١٩١٧						٤
حزيران ١٩١٧		٢٠				
أيلول ١٩١٧				٤،٢٠		
أيار ١٩١٨			١٨			
تموز ١٩١٨		٦٠				
آب ١٩١٨					١٢	

الجدول رقم (١٧)

ي ـ مقارنة الأسعار بين المصدرين المعتمدين في فترة زمنية واحدة

النوع	التاريخ	الدير	منعم
قمح	١٩١٦/٤/٣٠	٨	٩,٢٠
	تموز ١٩١٧	١٢	١٣
شعير	شباط ١٩١٦	٥	٧,٢٠
	أيار ١٩١٨	١٨	٢٥
طحين	نيسان ١٩١٥	٧	٦
	نيسان ١٩١٧	٢٠ـ١٥	١٦
	ك٢ ١٩١٨	١٨ ـ ١٧	١٦
زيت	نيسان ١٩١٥	١٥	٢٤
	آذار ١٩١٦	٢٦	٢٠
	نيسان ١٩١٦	٢٥	٢٣
	آذار ١٩١٨	٢٧	٣٥
بصل	آذار ١٩١٦	٨,٢٠	١٠
	حزيران ١٩١٧	٦	٥
	شباط ١٩١٨	٥,١٠	٦
بطاطا	أيلول ١٩١٧	٤	٤
	ك٢ ١٩١٨	٦	٥,٢٠

٤ ـ المجاعة

لما كانت ظروف الحرب قد قضت على التبادل التجاري وبسبب انقطاع أموال المغتربين وبوار المواسم الزراعية واجتياح الجراد لبلادنا، اضطر الناس إلى طلب المواد الأساسية لعيشهم، وهي تتمثل بالخبز أساساً على أنواعه. لذلك زادت الضائقة على الناس وبدأت المجاعة بين المواطنين، فما هي أسباب هذه المجاعة؟

رأت جريدة المقطّم المصرية[1] سبعة أسباب للمجاعة هي:

أولاً: إن هذه الحرب الوخيمة العواقب جرّدت سورية وفلسطين من جميع الأيدي العاملة فيها بحشدها الرجال من ابن ١٨ سنة إلى ٥٠ أو ٥٥ أو أكثر وسَوقهم من بلادهم ومنازلهم... فخلت البلاد من أهم عنصر يشتغل الأراضي ويدر دولاب الصناعة والزراعة والتجارة ويعول العيال ويقوت العجائز والأطفال.

ثانياً: إن هذه الحرب التي لا يكاد يسد حاجاتها مال ولا غلال ولا بضاعة ولا متاع ولا مواشٍ ولا إنعام اجتاحت معظم ما كان في تلك البلاد من الحاصلات الزراعية وغيرها وبات ما فيها غير كافٍ لحاجات أهلها.

ثالثاً: إن الجراد سطا على جانب متّسع من مزروعاتها فالتهمته وباتت البلاد على أبواب الشتاء الماضي بلا زرع ولا ضرع ولا وقيد.

رابعاً: إن الحرب جرت عليها فوق تلك المصائب مصائب أخرى بالحصار البحري الذي قطع عنها كل وارد من الخارج والحصر البري الذي منع خروج كل إنسان أو حيوان أو متاع منها إلى الخارج، فأمست مفصولة عن العالم الخارجي.

(١) جريدة المقطّم، عدد ٨٢٧٨، ص ٥، تاريخ ١٩١٦/٦/٩.

خامساً: إن الأسباب المتقدمة أفضت إلى نفاد الكماليات من البلاد وتناقص الحاجيات تناقصاً عظيماً، وبالتالي غلاء أسعارها غلاء لم يسبق له نظير فتعذّر الحصول عليها على صاحب المال الكثير وحرمها المتوسط الحال والفقير.

سادساً: وزاد الطين بلّة بوقوف حركة الأشغال والأعمال وتعطل الصنائع وكساد المتاجر وانقطاع أسباب الرزق عن الزارع والصانع والتاجر على حدٍّ سوى.

سابعاً: إن الأموال الطائلة التي كانت ترد على أهل لبنان وسورية من أقاربهم والمهاجرين فتعول جماهيرهم الغفيرة انقطعت كلها عنهم بسبب منع وصولها إليهم.

أ ـ مظاهر المجاعة في لبنان

هاجر الناس، بسبب المجاعة إلى المدن، كما ترك المدن بعض العائلات باتجاه مناطق أخرى، لكن الجوع طارد الجميع، ففي مدينة دمشق، التي ازدحم فيها الناس من جراء المهاجرة، تفشى المرض على أنواعه وازدادت أعداد الفقراء «بين أفراد المهاجرين... من بيروت وسواها»[1].

إن تدخل الدولة العثمانية زاد الأمور تعقيداً، فقدعمدت الحكومة إلى مصادرة أكياس الخيش الفارغة من المحلات والمنازل «ومن لم يكن عنده من هذه الأكياس من كيسين إلى عشرين كيساً بحسب اقتداره المالي، أجبرته على دفع ثمن كل كيس ٦ غروش»[2].

لقد صادرت الحكومة حيوانات النقل من خيول وبغال وجمال مما عطل الحركة التجارية، ومع اشتداد المجاعة، اضطر العديد إلى بيع أساس منازلهم

(١) جريدة المقطّم، عدد ٧٨٢٢، تاريخ ١٩١٤/١١/١٤.
(٢) المصدر عينه، عدد ٧٨٢٣، تاريخ ١٩١٤/١١/١٥.

بأسعار بخسة، وقد دفع اليأس والقنوط باثنين «من الشبان في بيروت إلى الانتحار طعناً بالمدى فأُصيبا بجراح بالغة»[1].

ونبقى في مدينة بيروت التي تظاهر أهلها من جراء المجاعة المتفشية بينهم، مما دفع البلدية إلى «توزيع الدقيق مجاناً على فقراء العائلات الإسلامية في المدينة»[2].

حاولت الدولة العثمانية بشتى الوسائل، الحصول على الأموال، من هنا، قيام مجلس الإدارة في جبل لبنان، يفرض ضرائب جديدة على اللبنانيين، فقد وضع ضريبة «على محلات الإيجار، فجعل على كل مئة غرش من الإيجارات غرشين ونصف غرش في السنة»[3].

حاول الناس بشتى الوسائل، خرق الحصار البري المفروض على الجبل، وكان نصيب المقبوض عليهم السجن، كما حصل مع نعمان فارس عبود، الذي حكم عليه بالسجن «خمسة وأربعين يوماً لتهريبه حبوباً إلى زحلة»[4].

في النصف الأول من سنة ١٩١٦، كان في سجن عاليه ٢٤٠ مسجوناً، مما زاد في تأزم الوضع الإنساني «ولذلك بات لبنان مرسحاً للسرقة والسلب بعدما كانت تضرب به الأمثال في الأمن العام»[5].

ومع اشتداد المجاعة وفقدان القمح والطحين، عمد الناس، للتخلص من آلام الجوع. إلى أكل «دقيق الشعير والكرسنة، أي غذاء الدواب والجمال»[6].

(١) جريدة المقطّم، تاريخ ١٩١٥/١/١٥.
(٢) المصدر عينه، عدد ٧٩٤٤، تاريخ ١٩١٥/٥/٨، ٥.
(٣) المصدر عينه، عدد ٨١٩٤، تاريخ ١٩١٦/٣/١، ص ٤.
(٤) المصدر عينه، والصفحة ذاتها.
(٥) المصدر عينه، عدد ٨٢٢١، تاريخ ١٩١٦/٤/١، ص ٥.
(٦) المصدر عينه، عدد ٨٢٧٨، تاريخ ١٩١٦/٦/٩، ص ٥.

يتحدث الأب يوسف الحصروني عن «الضيقات التي حلّت بلبنان مدة الحرب الكونية من سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨». وقد عرض لمشاهداته عن المجاعة التي اشتدت أوائل سنة ١٩١٧ «وفيها قد شاهدنا بأم العين بعض الفقراء يتهافتون على أكل حبات الشعير والكرسنة الكاينة في روس البهايم ومتى مات حمار أو بغل أو جمل يتسابقون على تقطيع لحومه وأكلها مشوية، ولو كانت نتنة سداً لرمقهم وانتقاماً من الجوع الكافر. وقد عرض بعض الوجهاء على جمال باشا رئيس الجيوش التركية الأحوال المتاتية من شدة المجاعة، فأجابهم هل أكل اللبنانيون لحوم البشر بعد؟ أجابه، كلا. قال له إذاً لم تبلغ المجاعة حدها بعد... ومتى همّ رجل أن يعطي حسنة لفقير في إحدى المدن لا سيّما في البترون وجبيل، فلا يكاد يفتح مصره، حتّى يزدحم حوله ميئات من الفقراء الناحلي الأجسام...»[1].

ويتابع الأب الحصروني، بأن امرأة من إحدى مزارع قنات، تركت منزلها خلال شهر شباط سنة ١٩١٨ باتجاه عكار هرباً من المجاعة حتّى وصلت إلى قرية دير جنين حيث لجأت إلى رواق باتت ليلتها فيه «وعند انتصاف الليل وافتها الوحوش فمزقت جسمها تمزيقاً... ولما كان النهار نظروا الامرأة رأساً بلا جسم وعظماً بلا لحم... ولما عملتُ رياضة سنة ١٩٢٣، في تلك الجهات أُخبرت بذلك فسطرته في تاريخي عبرة وذكرى»[2].

ولا يمكننا أن نستبعد أن يكون ما جرى في بلدة قنات قد جرى مثله في بلاد البترون.

ترأس الأب يوسف الحصروني دير سيّدة النجاة بصرما ـ الكورة بين

(١) الأب يوسف الحصروني، تاريخ أديار معاملة الجبّة، المطبعة البولسية، ١٩٩٨، ص ٧٠٧ - ٧٠٩.
(٢) المرجع عينه، ص ٧١١.

سنتي ١٩١٣ و١٩٢٢، وهذا الدير كغيره قام بتوزيع المساعدات على بوابة الدير «خبزاً وطبخاً من آخر سنة ١٩١٥ إلى نهاية الحرب في أول تشرين الأول سنة ١٩١٨... حتّى كان يوجد على بوابة ديره يومياً شيعة يتراوح عددها بين الستين والمئة فقيراً عدا عن المارين من قرى مختلفة... ومعظم هؤلاء من بلادي جبيل والبترون»[١].

جاء في كتاب «العصر الدموي» للأستاذ ناصيف أبي زيد، معلومات عن نفي المطران بطرس شبلي رئيس أساقفة بيروت للكنيسة المارونية، فإن والي بيروت عزمي بك الذي اشتهر بالجور والفظاظة وعدم الرحمة وقد قال عن نفسه مراراً «أود أن لا يكون فيّ عرق من الرحمة» بعث يطلب الأسقف المذكور، وأشار عليه أن يعتزل في أحد الأديرة في جبل لبنان فأطاع الأمر «وذهب في اليوم المعيّن قاصداً دير مار يوحنا مارون في كفرحي قضاء البترون، وكان كلما مرَّ بقرية قرعت لاستقباله الأجراس وتقاطر لملاقاته الخلق الكثير مبالغة في تعظيمه وإكرامه»[٢]. لكن الحبر شبلي عاد ونفي إلى أضنه داخل الدولة العثمانية ليموت هناك لاحقاً.

ب ـ المجاعة في بلاد البترون

وكان من الطبيعي أن تتصدى المؤسسات الإنسانية للمجاعة. فكان للكرسي البطريركي الماروني دور بارز في هذا التصدّي في كل لبنان، ولا سيّما في بلاد البترون، التي ينتمي إليها البطريرك الياس الحويك، وهو من وسطها الذي تعرّض تعرّضاً قاسياً لهذه الكارثة.

---

(١) الأب يوسف الحصروني، المرجع السابق، ص ٧١٦.

(٢) ميشال شبلي، المطران بطرس شبلي ١٨٧١ ـ ١٩١٧، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٩، ص ٢١٦. لكننا لم نعثر في مفكرات المطران، عما يؤيد هذا القول.

١ ـ دور البطريركية المارونية في التصدّي للمجاعة

كان لابن بلاد البترون البطريرك الماروني إلياس الحويك (١٨٩٩ ـ ١٩٣١) الدور الأساسي والكبير في تخفيف الأزمة الخانقة التي ضربت الجبل اللبناني. فهو عند تنقله بين مقرّه الشتوي في بكركي والصيفي في الديمان، كان يعرّج على مدرسة مار يوحنا مارون في كفرحي، للبقاء فيها عدة أسابيع، وأحياناً عدة أشهر، متفقداً أحوال المدرسة والرعية. فقد اجتمع المطارنة الموارنة «في ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٥ في مدرسة مار يوحنا مارون لدى البطريرك»[١]. وذلك للبحث في طلب الفرمان من الدولة العثمانية الذي أصرّ على طلبه جمال باشا السفّاح قائد الجيش الهمايوني الرابع وناظر البحرية.

يحدثنا الأب إبراهيم حرفوش عن ماجريات سنة ١٩١٦، وخاصة في شهر كانون الثاني حيث وصل «ثمن رطل الطحين إلى ١٨ قرشاً، وقلّ وجود الحنطة... وكان قلب البطريرك يتفطر حزناً، فحاول رهن قسم من أرزاق الكرسي فلم يتيسر له ذلك، ومن يقاوم السيل الجارف؟ فأمر الأديار بالمساعدة واستدانة المال ففعلوا. وفتحت بكركي أبوابها لإطعام الجياع. وفي آذار أوسعت المقابر فاها... ولما ضاقت كان الناس يدفنون موتاهم بالقرب من البيوت لعجزهم عن نقلهم إلى المقابر»[٢].

لقد التزم دير مار يوحنا مارون بأوامر البطريرك، وابتدأ باستقبال الفقراء منذ ١٦ آذار سنة ١٩١٦.

وقد بلغ عدد الذين استقبلهم حتّى نهاية الحرب، كما جاء في سجل محفوظ[٣]، إثني عشر ألفاً وخمسة وستون من ضيوف وفقراء.

---

(١) الأب إبراهيم حرفوش، دلائل العناية الصمدانية، المرجع السابق، ص ٥٣٢.

(٢) المرجع عينه، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٣) محفوظات مدرسة مار يوحنا مارون كفرحي، سجل رقم (٨٩)، وهو بعنوان أسماء الفقراء والضيوف الذين أطعمهم الدير (١٩١٦ ـ ١٩١٨).

وتابع البطريرك اهتمامه برعاياه ففي ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩١٧ أمر الأبوان إبراهيم حرفوش وشكر الله مبارك بالتجول «في بلاد الجبّة لإغاثة المحتاجين. . . وقد أوعز لإخوتنا الرهبان اللبنانيين أن يتجولوا لمثل هذا الغرض في بلاد جبيل والبترون والشوف والمتن»[1]. واستناداً إلى أرشيف الصرح البطريركي في بكركي تبيّن لنا أن الأبوين بطرس ساره ولويس الطبشي البترونيان قاما بتفقّد الفقراء في بلاد البترون وقدّما لهم المساعدة المالية الضرورية.

وفي سياق التصدّي لموجة الجوع ودور البطريرك الحويك في ذلك، وقعنا على معلومات قيّمة في روزنامة دير مار أنطونيوس حوب، تعرض للدور الذي قام به الدير بتوجيه من البطريرك والرئيس العام للرهبنة اللبنانية المارونية أغناطيوس داغر التنوري لسدّ رمق الجياع ما أمكن.

٢ ـ دير حوب في سني المجاعة والحرب من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٩

لقد وقعنا في روزنامة دير حوب على وثيقة ننشرها في ما يلي:

«ما أن نشبت الحرب الأوروبية الطاحنة سنة ألف وتسعماية وأربعة عشر مسيحية حتّى شملت ويلاتها المعمورة بأسرها، وبات الناس حيارى يئنون من شر مضارها وينتظرون بذاهب الصبر حتّى تضع أوزارها، وويلها من الضربات المؤلمة كالجراد ومحل المواسم والأوبئة المتنوعة، وغير ذلك من الآفات مما دل على أن مثل هذه الضربات سماح من الله تعالى تأديباً للإنسان الذي أفسد طريقه وترك ربه ودينه، وقد أصابت الضربة لبنان المسكين حيث كان قد دبّ فيه الفتور الديني، فنزلت به النوازل وأمضى مدة الحرب في حالة تفتت الأكباد وينشطر لها قلب الجماد.

(١) الأب إبراهيم حرفوش، المرجع السابق، ص ٥٦١.

ولو أتينا على ذكر جميع الحوادث المؤلمة لضاق بنا المقام لذلك اجتزأنا بهذه اللمحة هنا تاركين التوسع في هذا الباب إلى من يتكلف وضع تاريخ هذه الأيام المشؤومة وقد تضرّع الشعب إلى الله سائلاً فيه المراحم فلم يكن يسمع لهم لأن قلوب الكثيرين قد تصلّبت. لما كان من الفتور بالدين وجهل تعاليمه وترك مبادئه الشريفة وبدلاً من أن يعتبر الناس بتلك الضربات الإلهية ويرجعوا إلى الله بالتوبة الصادقة، كانوا يتمادون في شرورهم ومعاميهم، فازداد الغني طمعاً وظلماً والفقير كفراً دائماً، فنسي الأول ربه، وكفر الثاني بنعمه وجميله، وتعددت حوادث القتل والسلب في أكثر الجهات وبالأخص في الجهة الشمالية حيث كثُر قطّاع الطرق، وتألّفت عصابات من الأشرار. ولمّا ازداد الناس شراً زادهم الله سخطاً وويلاً، وصبّ عليهم جامات غضبه طافحة وكان الضيق يشتدّ سنة بعد سنة وارتفعت أسعار الحاجيات إلى حدّ فاحش، فبلغ رطل الحنطة في سنة ألف وتسعماية وثمانية عشر مسيحية مئتين وخمسين غرشاً صاغاً عملة دارجة. وقد شقت سهام المجاعة بالأخص قلب لبنان ومزقت أحشاءه نعني بذلك مقاطعة المتن والقاطع وكسروان وبلاد جبيل والبترون، أمّا طرفا الجبل الشمالي والجنوبي فكان ضيقهما محتملاً.

ولم يكن للفقير والمحتاج من ملجأ إلاّ أولي الفضل والإحسان فكان خير ملجأ وملاذ للبائسين غبطة السيّد البطريرك مار الياس بطرس الحويك الكليّ الطوبي فبذل من الأموال والأقوات بوجه الفقراء والمحتاجين ما أوجب له الشكر والثناء من الجميع على اختلاف المذاهب والمشارب، وقد عمّ فضله وإحسانه البلاد وشمل سائر الطوائف ولم يدّخر وسعاً وراء الغاية الشريفة التي قصدها في عمل الإحسان الروحي والزمني، وكان يودّ لو أمكنه إنقاذ البائسين من مخالب الجوع، لكن الحاجة الشديدة الشاملة تركت فراغاً عظيماً عجزت عن سدّه طاقة الإنسان وما كان غير الله وحده قادراً على ردّ الضربة.

وعلى مثال غبطته، أيّده الله، قد سار قدس الرئيس العام الأب إغناطيوس داغر التنوري الكليّ الشرف والاحترام المشهور بفضله وزهده وعطفه على ذوي الفاقة فاستدان المبالغ الوافرة، ولم يأسف على بيع الأملاك الكثيرة ليتصدّق بأثمانها على المساكين ويساعد المحتاجين عملاً بروح الرب، وقد وجّه رسائل عديدة إلى رؤساء الأديار وجماهير الرهبنة يحرّضهم على عمل الإحسان ما استطاعوا ويوصيهم بالأخص امتثالاً لإشارة ذي الغبطة المفدّى بأن يغيّروا غيرة للرب، ويقيموا بالواجب المقدّس.

فعملاً بتلك الوصية الشريفة واقتداءً بأصحاب الفضل والإحسان وإجابة لرغائب غبطته أيّده الله وأوامر قدس رئيسنا العام قام رئيس هذا الدير الأب مخايل الأهمجاني بمساعدات وصدقات كثيرة بتقديمه الأقوات وبذله الأموال لكثيرين من فقراء وذوي بيوت مستورة من الجوار وغيره. وكان الرئيس بذل كل ما بوسعه في هذا السبيل ولم يكن يهمل هو وكهنة ديره القيام بالواجب الروحي نحو النفوس المتعلّقة ورعايتها به أو الكائنة في القُرى المجاورة وكان بالرغم عن كثرة مصاريف ديره وعدد جمهوره الوافر والضيوف الواردين إليه كل يوم لم يتأخر عن توزيع الخبز يومياً على الفقراء الذين لم يقل عددهم عن المائة والخمسين فقيراً.

لائحة بما أتاه حضرة رئيس دير مار أنطونيوس حوب الأب ميخائيل الأهمجاني من المساعدات والصدقات في سنين الحرب والمجاعة والضيق من سنة ١٩١٥ ألف وتسعماية وخمسة عشر مسيحية إلى سنة ١٩١٩ ألف وتسعماية وتسعة عشر مسيحية.

السنة الأولى وهي سنة الجراد سنة ١٩١٥			
غروش صاغ عملة دارجة	صنف الحبوب والأقوات		
	الصنف الموزع	رطل	سعر
١٠٠٠٠	حنطة	٥٠٠	٢٠
٠٤٥٠٠	ذرة	٣٠٠	١٥
٠٣٠٠٠	بطاطا	٥٠٠	٠٦
٠٤٧٠٠ نقود توزعت مدة السنة			
٢٢٢٠٠			

جملة الموزع في السنة الأولى إثنين وعشرين ألفاً ومئتي غرش صاغ عملة دارجة، وكان صندوق الدير، فارغاً في هذه السنة، وقد محلت مواسم الدير وتركه الجراد يتقلّب في حالة الضيق، فالتزم الرئيس أن يستدين المبلغ المرقوم كما أشرنا.

السنة الثانية سنة ١٩١٦			
غروش صاغ عملة دارجة	صنف الحبوب والأقوات		
	الصنف الموزع	رطل	سعر
٣٦٠٠٠	حنطة	٨٠٠	٤٥
٢١٠٠٠	ذرة وشعير	٦٠٠	٣٥
٠٩٠٠٠	بطاطا	٦٠٠	١٥
٠٥٠٠٠ نقود توزعت مدة السنة			
٧١٠٠٠			

مجموع الموزّع في السنة الثانية واحد وسبعين ألف غرش لا غير.

السنة الثالثة سنة ١٩١٧			
غروش صاغ عملة دارجة	صنف الحبوب والأقوات		
	الصنف الموزع	رطل	سعر
٧٥٠٠٠	حنطة	٦٠٠	١٢٥
٠٣٠٠٠٠	ذرة ودخنّ[1]	٤٠٠	٧٥
٠١٨٦٠٠	بطاطا	٤٦٥	٤٠
٠١٥٤٠٠ نقود توزعت مدة السنة			
١٣٩٠٠٠			

مجموع الموزّع في السنة الثالثة ماية وتسعة وثلاثون ألفاً لا غير.

السنة الرابعة سنة ١٩١٨			
غروش صاغ عملة دارجة	صنف الحبوب والأقوات		
	الصنف الموزع	رطل	سعر
١٠٠٥٠٠	حنطة	٦٧٠	١٥٠
٠٥١٥٠٠	شعير	٥١٥	١٠٠
٠٢٣٥٠٠	ذرة	٢٣٥	١٠٠
٠٣٣٠٠٠	بطاطا	٤٤٠	٠٧٥

٠٠٩٥٠٠ نقود توزعت مدة السنة

(١) الدخنّ هو نبات من الفصيلة النجيلية يصنع من حبوبه الخبز، يؤكل كالأرز ويستعمل لتغذية الحيوانات الداجنة. حبه يبقى طويلاً دون أن يفسد ولذلك يدخره الناس خوفاً من سنّي القحط.

٠٢٢٠٠٠ مجموع الموزع في السنة الأولى سنة ١٩١٥.

٠٧١٠٠٠ مجموع الموزع في السنة الثانية سنة ١٩١٦.

١٣٩٠٠٠ مجموع الموزع في السنة الثالثة سنة ١٩١٧.

٢١٨٠٠٠ مجموع الموزع في السنة الرابعة سنة ١٩١٨.

٤٥٠٠٠ المجموع: أربعماية وخمسون ألفاً عملة دارجة بذلها الدير في وجه الفقراء والمحتاجين من الجواروغيرهم في مدة الأربع سنين الحرب. هذا ما عدا الإعانات للجيش العثماني ومصروف الضيوف. وكان جمهور الدير من رهبان وأجراء وأيتام يبلغ السبعين نفساً وكان معدل مصروف الدير في كل أسبوع قنطاراً ونصف القنطار من الخبز فقط، في أول كانون الثاني سنة ألف وتسعماية عشر مسيحية.

المقرين بما ذكر،

تنورين: بطرس أنطون أبي طربيه. مدير قصبة تنورين: بطرس الخوري حرب. شيخ قصبة تنورين: مفلح داغر، أيوب الخوري قرقماز، مخلوف طنوس حرب، بطرس الخوري حنا طربيه، الخوري بولس مراد، الخوري يوسف داغر، الخوري بولس يونس، الخوري اسطفان داغر، الخوري نعمة الله كرم، ضاهر أنطون بك الخوري، ضومط الخوري، جرجس بك الخوري، ضوميط الخوري مراد.

شاتين: الخوري ضومط داغر، مخايل يوسف يعقوب، منصور حنا سنجب، طنوس أسعد البكاسيني (شيخ القرية)، عموم أهالي قرية وطا حوب.

الكفور: الخوري يوحنا العنداري، شيخ قرية كفور العربة وأهاليها.

إهمج: إسكندر خوري (مدير إهمج)، أمين الخوري (شيخ القرية)، الدكتور

نجيب خوري، سعيد طنوس الخوري، الخوري جرجي عيسى، سليمان يوسف الخوري، سليم فارس الخوري.

لحفد: فيليب ضو (شيخ القرية)، موسى باخوس غانم، توفيق راغب الخازن وعائلة غانم.

مشمش: جبرايل انطون (شيخ القرية)، الخوري بطرس نون.

جاج: عبد الأحد معوض وشيخها.

كفريا: مصطفى علي شلق.

قائمقام قضاء البترون.

الخوري بولس طعمه، كاتب أسرار البطريركية المارونية.

غبطة البطريرك الياس الحويك الماروني.

الخوري يوسف شباط كاتب أسرار سيادة المطران عريضة.

٣ ـ شهادات بدور الدير أثناء الحرب الأولى

أ ـ من أهالي قرية كفور العربي

«... وكان يبلغ عدد الذين يأكلون عند باب الدير يومياً نحو من ماية وخمسين نفراً كباراً وصغاراً. وكان حضرة الأب مخايل المذكور رئيس الدير يقدّم لهم القوت بيده السخية بمعية رهبان ديره الأفاضل بوجه باش فرحان متذكراً قول الحكيم إن الضيافة على البقول بوجه بشوش أفضل من عمل التيوس بوجه عبوس. وذلك عدا الذين كانوا يأكلون على مايدة الرهبان داخل الدير الذين لا يليق قبولهم خارجاً، وكان ذلك العمل في كل مدة سنين الضيق. والعجب من ذلك أن الأب المذكور كان الجميع يتعجبون من فرحه وبشاشة وجهه الكريم وما كان يعتريه الزعل أبداً من تلك المصاريف الباهظة، ولا تأخر يوم واحد عن تقديم الواجب لمعاش رهبان ديره وكانوا يرونهم

جميعاً فرحانين بعمل الخير بالهدوء والسلامة. مع كل ذلك قد اشترى أملاك وحارات للدير وإفاء دين سابق، وكان يعير البعض من العوام ومن أديرة الرهبان من حاصلات ديره لسدّ عوزهم واحتياجهم، ثم أعمال غير هذه فتذكر وتشكر... وكانت مواسم الدير من حنطة وخلافها تفاض كينبوع ماء زاخر بشفاعة سيّدتنا مريم العذراء أم المراحم وعون المحتاجين والقديس مار أنطونيوس صاحب المقام عليهم أشرف السلام. وعليه قد جئنا بهذه الأسطر شاكرين جميل الشكر ومقرين بفضل عمل الخير والرحمة إلى الرهبانية المارونية البلدية، وخصوصاً لأفرادها الغيورين الأفاضل. ولذلك أوضعنا إمضاواتنا.

تحريراً في ١٥ كانون ثاني سنة ١٩١٩

كاتبه خليل سابا جبرايل مختار (الختم) حنا ديب أبو شديد، شيخ قرية الكفور إبراهيم حنا أبي شديد، حنا موسى عبد الله، حنا جريس كنعان، عزيز جبرايل نقولا، سابا جبرايل نقولا، يوسف يعقوب، جبرايل بشاره، روفايل بشارة. مخايل يوسف أنطون، نسيم مخايل ديب، مخايل ديب، فهيم موسى الخوري، مخايل حنا أيوب، مخايل العنداري. مخايل العنداري، نقولا مخايل عبد الله. (الختومات).

ب ـ شهادات أخرى من مصطفى شلق كفريا

«أنا مصطفى علي شلق كفريا قضاء الكورة، مذهبي محمدي نفر عسكري مفصول في مديرية تنورين مدة ثلاث سنوات الحرب كنت أزور دير مار أنطونيوس حوب، وكنت أنظر عياناً الفقراء يأتون في بوابة الدير أفواجاً ما ينيف عددهم عن الماية وخمسون نفراً، منهم المريض والشريد واليتيم والأرملة، وكنت أرى رئيس الدير حضرة الأب مخايل الإهمجاني ورهبانه يوزعون على هؤلاء الفقراء الخبز والطعام المطبوخ بأيديهم بعد أن يتلو عليهم

قواعد الدين وهذا بكل بشاشة وترحاب، وكنت أحضر أنا وأرفاقي الأنفار العسكري والإنباشي خطار يوسف عبد الله من قضاء الشوف وأمين محمود نجم من قضاء الشوف ومحمود الغضبان (؟) وأمين حسين ناصيف كلهم من قضاء الشوف، ومحمود صفا ومنصور القاضي من قضاء الكورة والجاويش خليل القدسي كلنا نزور الدير المذكور قصد الحصول على القوت الضروري حيث لم ينوجد بكل مديرية تنورين شيء من الحبوب إلاّ في دير حوب وكلنا لسان شكر على حضرة رئيس الدير ورهبانه، ومراراً عديدة كنا نرى الرهبان يوزّعون على الفقراء الأدوية الضرورية نظير المساهل والكينا والشرابات، وكنا نسمع في القُرى والضِياع الشكران على حضرة رئيس دير حوب ورهبانه لأنهم فاتحين أبواب الدير للفقراء وهم وحدهم طعموا الفقراء بل بدل، ولا طمع، إلاّ في حبّهم للفقير. كنا نرى بعض عيال مستورة تأتي إلى الدير وتخرج منه حاملة الحبوب لقوتها الضروري. هذا ما رأيته عياناً معي ومع رفاقي أشهد به بعد القسم بالله مجازي المحسنين.

حرّر في ١٠ آب سنة ١٩١٨.

ج ـ لائحة بأسماء الفقراء المرسلين لدير حوب من القائمقام

يعقوب يوسف وأولاده من صغار نسمة	٤
حنة أرملة ملكان وأولادها من راشا	٥
ابرهيم طنوس من محمرش	١
يوسف جرجس بو عبدالله وزوجته من راشا	٥
مريم يوسف بو سليمان وأولادها من تنورين	٦
منّه زوجة طانيوس وابنها من راشا	٢
يعقوب جرجس ضومط من تنورين	١
روكس جرجس من راشا	١
مجدلية بطرس بوطانيوس من لحفد	١
سمعان جبّور من اجدبرا	١

المجموع سبعة وعشرون نسمة اقتاتت من الدير مدة سني الحرب.

٤ ـ شهادات أخرى

خلال شهر آذار سنة ١٩١٦، بدأت الأديار باستقبال الفقراء، فقد أرسل بتاريخ ١٢ آذار خمسون فقيراً إلى دير مار قبريانوس ويوستينا في كفيفان وإلى ديري ميفوق والقطّارة مائة وخمسون شخصاً[١].

وفي نهاية شهر آذار وبالتحديد في ٢٧ منه، شاهد مخايل منعم، وهو في محله التجاري، سبعين فقيراً، أرسلتهم الدولة من البترون إلى دير ميفوق وهم «بحالة يقشعرُّ لها البدن حفايا عرايا، كبار وصغار، سايقيهم سوق القطيع. ومساء الماضي أرسل مثلهم لدير كفيفان، وأرسل لجميع الديورة والمدارس، كل محل على قدره»[٢].

وعن المجاعة في بلاد البترون، عثرنا على مفكرة للخوري بطرس أبي دغيم فريفر ١٩٠٢ ـ ١٩٦٩، من قرية جبلا البترونية وفيها بعض المعلومات نقتطف منها ما يلي «وقد قضّينا عزاب لا يوصف، حتى أننا نمشي حافين من جبلا إلى طرابلس وكل منا يشتهي أن يملّي بطنه من قشر الليمون وكان الناس تموت على الطرقات من الجوع. وما كان أحد يقدر أن يحصل على رغيف خبز»[٣].

---

(١) مفكرات مخايل منعم ـ كفيفان، تاريخ ١٢/٣/١٩١٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مذكرات الخوري بطرس دغيم فريفر، محفوظة لدى ولده جان وقد أطلعنا عليها مشكوراً.

٥ ـ الآثار التدميرية للحرب في لبنان

ليس هناك من إحصاء دقيق، لعدد موتى الحرب الأولى في لبنان، وقد تناقل بعض المؤرخين والمؤلفين أرقاماً متفاوتة للعدد، وسنعرض هنا المعلومات المتوفرة لدينا، متدرجين من العدد الأصغر إلى الأكبر.

يقول فيليب حتي «بلغت خسارة لبنان في الأرواح مئة ألف نسمة من أصل ٢,٤٥٠,٠٠٠»[١].

أما الخوري منصور عوّاد، فيورد في إحدى دفاتره، عن المجاعة في بلادنا، بأن الحرب حصدت «أكثر من مئة وعشرة آلاف إنسان كما تفيد الأخبار الواردة في مصادر عديدة في هذه الأيام غير الجرائد بل الخصوصية... ١٥ك٢ سنة ١٩١٧»[٢]. وهذا العدد الوارد هو عن سنتين فقط إذ إنه ورد في بداية سنة ١٩١٧ ولم يتطرق إلى سنة ١٩١٨.

وفي نهاية الحرب، أوردت جريدة لسان الحال[٣] المعلومات التالية عن عدد الموتى وفقاً لما يلي «عن بيروت. روى مكاتب جريدة المقطّم الحربي أنه مات من سكان بيروت جوعاً ٢٥ ألفاً ومات أربعون في المائة من سكان جبل لبنان والذي نعرفه أن عدد موتى الجوع، بل موتى احتكار القوت بلغ في بيروت وحدها لا أقل من أربعين ألفاً نصفهم لبنانيون والنصف الآخر بيروتيون وأما موتى الجبل فلا يقلّ عددهم عن المائة وخمسين ألفاً بأقل تعديل. وكان أكثر أسباب هذا الموت الذريع من احتكار فريق من الأغنياء للقمح، بل كان السبب كله، فلولا هذا الطمع الذميم لما أصيبت بلادنا بهذه النكبات فقبح المال إذا كان يورث جامعه تبعة القتل وسخط الأجيال».

---

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٥٩٢.
(٢) الخوري منصور عوّاد، أرشيف دير الكريم، جونيه، عن أحد دفاتره.
(٣) لسان الحال، ١٥ ـ ٣٠ ت١ ١٩١٨، عدد ٧٦٦٣، ص ٢.

يرتفع العدد مع القس بطرس الخويري إلى ١٧٠ ألفاً، وقد جاء في كتابه الرحلة السورية ما يلي «إن دماء مليون أرمني قد برّأ قاتل طلعت باشا. وأن المائة وسبعين ألفاً الذين ماتوا بالمجاعة المدبرة في لبنان سيبرؤن قاتل من أماتهم»[١].

لقد قدرت مجلة «آسيا الفرنسية»[٢] عدد موتى الجوع «في جبل لبنان بمئة وثمانين ألفاً».

وفي تقدير للدكتور جوزف زيادة عن تلك الفترة يقول «يمكن للمرء أن يصيب كبد الحقيقة في تقديره لعدد ضحايا المجاعة في لبنان بأكثر من مئتي ألف إنسان»[٣].

أما الأمير شكيب أرسلان فقد أعلن عن عدد الموتى من المسيحيين والدروز كلاً على حدة. فانبرى كل من أراد إظهار المودة للحلفاء، بسرد قصص المصائب «التي صبها الأتراك على نصارى لبنان نظراً لتعلقهم بفرنسا وكيف أنهم جوّعوهم وأزهقوا من أرواحهم نحواً من ٢٠٠ ألف نسمة كلها ذهبت في حب فرنسا»[٤].

بالنسبة للدروز، فقد صرّح الأمير شكيب بأن عددهم كان «قبل الحرب ٦٢ ألف نسمة فصاروا ٤٨ ألفاً، أي مات منهم ١٤ ألفاً، وأظن موتى سائر الطوائف هي على هذه النسبة»[٥].

ورداً على سؤال حول عدد الموتى في سوريا أثناء الحرب، جاوب

---

(١) بطرس الخويري، المرجع السابق، ص ٩١.
(٢) ملحق العدد ١٩٩، ص ٦. نقلاً عن مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ ـ ١٩٢٦، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٦.
(٣) مسعود ضاهر، المرجع السابق، ص ٢٦.
(٤) نجيب البعيني، ذكريات الأمير شكيب أرسلان، دار نوفل، بيروت، ٢٠٠١، ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٥) المرجع عينه، ص ٨٣.

الأمير الأرسلاني «أخمّن الذين ماتوا في سوريا من المجاعة ومن الأمراض الناشئة عن قلة الغذاء وفقد وسائل النظافة، بستمائة ألف على الأقل أكثرهم من المسلمين، لأن المسلمين هم الفرقة الكبرى في البلاد»[(١)].

نصل إلى المؤرخة ليندا شاتكوفسكي شيلشر التي أفادت دراستها بأن «جبل لبنان فقد من جراء المجاعة حوالي ٢٠٠ ألف من أبنائه من أصل خمسمئة ألف من ضحايا الجوع في كل أنحاء سورية الطبيعية»[(٢)]. ووصلت المؤرخة المذكورة إلى هذه النتيجة بعد مراجعة الأرشيف الألماني والنمسوي، فالمصادر العثمانية غير متوافرة كما أن المراجع الفرنسية والإنكليزية نادرة في هذا الخصوص.

يرتفع العدد إلى ٢٤٠ ألفاً مع محمد كرد علي الذي يتحدث عن هذه الفترة قائلاً «وقاست الشام أنواع الحرمان والأمراض فهلك منها، ولا سيّما في لبنان، من الجوع فقط نحو ١٢٠ ألفاً، ومثل هذا العدد هلك بالحميّات، ولا يقل الهالكون من أبناء الشام عن ثلاثمائة ألف إنسان مدة أربع سنين»[(٣)].

ونختتم مع لوتسكي المؤرخ الروسي، الذي ورد في كتابه، أن لبنان فقد في سنة ١٩١٧ لاأقل من ١٠٠ ألف شخص «وهنا وهناك انتشرت أوبئة التيفوس مع أمراض أخرى. وفي ربيع ١٩١٥ و١٩١٦، توفي عشرات الآلاف من الناس في سوريا ولبنان، وفي ١٩١٧ هلك عُشر سكان سوريا في الجوع والأمراض، وتوفي في لبنان وحده لا أقل من ١٠٠ ألف شخص»[(٤)].

---

(١) نجيب البعيني، المرجع السابق، ص ٨٣.
(٢) يوسف معوض، خطاب الشهداء توحيدي... خطاب المجاعة تقسيمي؟!، جريدة النهار، ٦/٥/٢٠٠٤، راجع أيضاً مقالته «حرب الجوع وأيام سفر برلك»، المنارة، العددان ٢ ـ ٣، ٢٠٠٥، ص ٣٤٣ ـ ٣٥٥.
(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ج٣، ١٩٧٠، ص ١٣٣.
(٤) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٣٩.

بعد هذه الأرقام المعروضة، علينا معرفة عدد سكان الجبل اللبناني، وذلك استناداً إلى إحصاء عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤، حيث ورد عند الدكتور عبد الله الملاح العدد التالي «المجموع العام ٤٠٧٧٥٠»[(١)].

وقد بلغ عدد موارنة بلاد البترون موضع الدراسة «٢٣٢٢٧»[(٢)].

بينما أورد يوسف معوض في مقالته، نقلاً عن «المجلة الفينيقية تموز ١٩١٩» بالفرنسية بأن عدد سكان الجبل تراوح بين (٤١٤٠٠٠ و٤٩٦٠٠٠) نسمة[(٣)].

وقد أورد آخر متصرف على جبل لبنان، أوهانس باشا (١٩١٣ ـ ١٩١٥)، في مذكراته، بأن عدد سكان لبنان، كان في حدود ٣٥٠٠٠٠ مواطن، وذلك قبل الحرب والمجاعة[(٤)]. بمعدل ١٠٠ شخص في الكلم² الواحد، وهي نسبة مرتفعة جداً للكثافة السكانية في بلاد جبلية.

مع وصول الجيش الفرنسي إلى لبنان، بدأ الاهتمام بالفقراء لتأمين الطحين لهم بعد المباشرة بتعدادهم، وقد أشارت جريدة لسان الحال «أن فقراء لبنان لا يقلون عن المائة ألف عداً»[(٥)]. وأضافت بأن التوزيع سيكون بمعرفة رجال الدين ويتولاه بعض ضباط الجيش الإفرنسي.

---

(١) عبد الله الملاح، متصرفية جبل لبنان بين ١٩٠٢ ـ ١٩١٥، أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، الفنار، ١٩٩٠، ص ١٤٨.
(٢) المصدر عينه، ص ١٤٤.
(٣) يوسف معوض، المرجع السابق.
(٤) Ohannès Pacha Kouyoumdjian, Le Liban, 1913-1915, bibliothèque Nubar de l'UGAB, Paris, 2003, P. 25.
(٥) لسان الحال، ١٥ ـ ٣٠ت١ ١٩١٨، عدد ٧٦٦٣، ص ٢.

٦ ـ شهادات لأشخاص من خارج بلاد البترون

جاء في ماجريات الأب إبراهيم حرفوش، بعض المعلومات المتعلقة بأوضاع بلاد البترون، في هذه الفترة ومنها:

- خلال شهر كانون الثاني سنة ١٩١٥، استلمت جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة «مدرسة الفرار في البترون مدة إلى أن مرّ العسكر فحلّ فيها، فتركناها»[١].
- وفي ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٦ توجّه النائب العام للجمعية المذكورة الأب نعمة الله مبارك إلى البترون للتوسط لدى المتصرف الجديد علي منيف للعدول «عن أخذ ديرنا (مدرسة راهبات العائلة المقدّسة الحالي) قصد تعيينه مدرسة للحكومة، وعرض على دولته أن تستأجر للحكومة محلاً آخر على حسابنا الخاص لهذا الغرض، مورداً أسباباً متنوعة، فلم يقتنع بل طلب مشترى الدير للحكومة ودفع الثمن ٥٠٠ ليرا، مع أن كلفته إلى الآن بلغت ٣٠٠٠ ليرا ونيف»[٢].
- وفي شهر كانون الأول تدخل البطريرك الماروني الحويك مع المتصرف، الذي استقبل المطران بولس عوّاد، وقد نجح في مهمته وعاد الدير إلى الجمعية.
- لقد طلبت قومندانية مدينة بيروت في شباط سنة ١٩١٥ من أهالي المدينة المذكورة ومن الجبل التطوّع الاختياري لصدّ غارات العدو عن السواحل عند اللزوم وذلك بإذاعتها عدة تعليمات منها:

١ ـ يجب على المتطوعين تشكيل قوة مسلحة داخل القضاء الذي ينتسبون إليه بدون تفريق في الجنس والمذهب ويكونون تحت نظارة قائمقام ومديري ذلك القضاء.

---

(١) الأب إبراهيم حرفوش، ماجريات، ج٢، ص ٣٣.
(٢) المرجع عينه، ص ٣٩.

٢ ـ لا يستخدم فرد من المتطوعين في غير المحلات الداخلة ضمن قضائه.

٣ ـ استخدام المتطوعين يكون ترتيبه في السواحل على الوجه الآتي: متطوعو البترون، يستخدمون من البترون لحد جسر المدفون[١].

- وفي ٢٦ أيار سنة ١٩١٥ «أقبلت الدارعة الفرنسية جان دارك وتوقفت أمام ساحل شكا (القريبة من البترون) وألقت قنابلها على مستودع الكاز الخاص بالوجيه البيروتي الكبير ميشيل بك سرسق»[٢].
- خلال شهر شباط سنة ١٩١٥، تألفت في لبنان جمعية للهلال الأحمر، وكان هدفها مساعدة جرحى الحرب وقد ترأسها محمد رضا بك قومندان عاليه، وكان رئيس اللجنة الفخري متصرف الجبل. وخلال فترة شهرين تمّ جمع ما يقارب ١٧٠ ألف غرش، دفع قضاء البترون منها «٢٨٠٥٧ غرشاً»[٣].
- وفي شهر آذار سنة ١٩١٧، تمّ استحداث مراكز، لتوزيع الخبز على فقراء الجبل، ومن هذه المراكز، البترون «فأقبل الفقراء نساءً وشيوخاً وأطفالاً من أعالي الجبال إلى هذه القُرى للحصول على الخبز تحسن به إليهم الحكومة العادلة، وليتها أحسنت أكثر من مرتين ولم توصد باب التوزيع بعد أسبوعين»[٤].

ونستقي أخيراً هذه المعلومة من كتاب إميل حبشي، حيث يذكر مصادر الإعانة، التي أنقذت ما تبقى من شعب لبنان ومنها: «سوق الشفقة في باريس بواسطة المونسينيور عمانويل فارس»[٥]. وهو من بلدة صورات البترونية.

---

(١) إبراهيم كنعان، المرجع السابق، ص ١٥٩.
(٢) يوسف الحكيم، المرجع السابق، ص ١٨١.
(٣) اميل حبشي، المرجع السابق، ص ٥٦.
(٤) المرجع عينه، ص ١١١.
(٥) المرجع عينه، ص ٢٧٩.

يذكر القس بطرس الخويري، مآسي المجاعة في لبنان، فقد وصل ليل ٣ نيسان سنة ١٩١٦، إلى بلدة تنورين، حيث نزل ضيفاً على امرأة هزيلة الجسم تحتضن ولداً صغيراً «فسألتها هل عندك يا أختاه شيء يؤكل؟ قالت بصوت تقطعه غصص الموت: «نحن ما تعودنا سوى إكرام الضيوف ولكن. . . من أين لك يا أبانا الطعام وقد صار الخبز أعز من بيض الأنوق لم أعد أمتلك إلاّ دجاجة واحدة تبيض كل يوم بيضة يقتات بها هذا الطفل. إن زوجي توجّه إلى طرابلس ليبتاع لنا طعاماً ولم يرجع. فتأثرت جداً وقلت خذي هذا الذهب واشتري لابنك دجاجة واذبحي هذه لنقتات بها كلنا ولا نموت. ذبحت الدجاجة وحضر زوجها يحمل رطلاً من دقيق الشعير والترمس اشتراه بمائة وعشرين قرشاً ذهباً. فنهضت المرأة وصنعت لكل منا قرصاً صغيراً وتقاسمنا الدجاجة»[١].

ونصل إلى مذكرات بشارة البواري، الذي يذكر بتاريخ ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ قيام الطراد الفرنسي بقصف طريق المسيلحة الذي قصف سابقاً بقنابل الدوارع وتمّ إصلاحه لاحقاً «فقذفنا على تلك الطريق ١٤ قنبلة من عيار ١٠٠. ثم عدنا إلى أرواد»[٢].

في إحدى رسائل الخوري بولس عقل (المطران)، المؤرخة في أول آب سنة ١٩١٦، هناك مقطع «لحضرة الأب ميخائيل الفغالي [كفر عبيدا] شقيق الخوري باخوس رفيقنا في الكرسي المحتاج جداً وقد مات والده وأخوه الأكبر طنوس كلاهما في هذه السنة على أني لم أخبر شقيقه بوفاتهما منعاً لمزيد كدره لكني أفهمته بالحاجة»[٣].

وفي رسالة من الخوري بولس عقل إلى بشاره البواري بتاريخ ٣ تشرين

(١) القس بطرس الخويري، المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) بشارة البواري، المرجع السابق، ص ٩١.
(٣) المرجع عينه، ص ١٨١.

الأول ١٩١٦، والصادرة من دير ميفوق، هناك ذكرٌ للأوضاع المأساوية «كانت الجماهير تزداد كلما تقدّمت في السير، خاصة في بلاد البترون وجبيل وهناك بيوت كثيرة سألت عن أهلها قالوا لي ماتوا كلهم وتسكّرت محلاتهم»[١].

بناءً لتعليمات من والي ولاية بيروت، عزمي بك أفندي، قام كل من رفيق بك التميمي مدير المكتب التجاري في بيروت، ومحمد بهجت بك المدير الثاني في المكتب السلطاني، بإصدار كتاب عن هذه الولاية سنة ١٩١٧، وقد تمّ التطرّق إلى وصف الحالة في بلدة البترون، بعد أن عرّج عليها المؤلفان، في طريقهما إلى طرابلس، ومما جاء في وصفهما:

«أما نزلنا الذي يمثّل بيتاً كبيراً من بيوت بيروت، فكان يعدنا براحة ثمينة. ورغماً عن هذا فقد أزمعنا على أن نلبث هنيهة في البهو المطل على بيوت البترون البيضاء التي عامت في بحر من نور القمر، وعزمنا على التمتع بهذه المناظر الشعرية، ولكن لم تمهلنا ربة النزل العجوز، بل جائتنا وأخذت تشكوا لنا ما ألم بها بصوت مرشح للانطفاء فأضرمت في أفئدتنا ناراً حامية. كانت تلك البائسة تكفكف دمعها وتقول:

ـ أناشدكم الله، نبئوني، متى تنتهي هذه الحرب الطاحنة؟ أيجدر بأصابعي هذه التي كانت تلعب بمآت، بل بألوف من الدنانير، أن تبحث في فضالات البيوت على قارعة الطريق، أم أكون مثل العود اليابس كهؤلاء الذين عرفتهم الرزايا ثم أسقط ممددة في الشارع وأودع الحياة؟ كانت هذه البائسة تجهد للإفصاح عن دائها، وقبضتها مدفوعة إلى الأمام تشير بإصبعها إشارة اليأس إلى ما وراء الآفاق، كأنها تريد أميركا، وتقول:

ـ أولادي هناك. . . لو كانوا لدى. . .

(١) بشارة البواري، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

أما نحن فكنا نستعيض عن جمال ليل البترون، بتهطال الدموع، ثم اضطررنا للانسحاب إلى غرفتنا وقلوبنا كادت تنفطر. ذهب أكثر من نصف الليل، ولم نزل نسمع في الخارج صوتاً يقول بهلجة جبلية:

ـ جيعان، جيعان...

وكان هذا النداء من صغار الفقراء يمزق أحشاء ذلك الليل المقمر، ويملؤ بذلك الصدى الفجيع، أنحاء الآفاق»[1].

خاتمة

إذا ما قورنت الآثار التدميرية للحرب العالمية الأولى، يتبيّن لنا أن جبل لبنان كان من أكثر المناطق التي تعرّضت للأذى، حتى إن الباحث يكاد يظن أن حرب إلغاء وجّهت ضد هذا الجبل.

وقد أخذت هذه الحرب ظواهر تدميرية شتّى فابتدأت عادية في العام ١٩١٤ لتلحق ضربة بالبنى الأساسية خلال ١٩١٥ من خلال الجراد الذي تفاعلت آثاره التدميرية في الأشهر والسنوات التي تلت.

وزاد من حجم الكارثة ارتفاع الأسعار وقلّة المدخول وعزل جبل لبنان عن العالم، فانعدمت مداخيل المغتربين وصودرت المساعدات وقطعت لاحقاً، وانهار أهل الجبل مادياً وأخلاقياً فكانت المجاعة، وكان صراع من أجل البقاء لم يبقَ عند الكثيرين ذرة من الأخلاق فإذا الناس قطعان بشرية لا همّ لها سوى الإبقاء على رمق الحياة.

لقد كانت هذه الحرب مرحلة تدمير للبنان على الصعيد الديموغرافي فهجّرت أهله، وفتكت بالفقراء، ولم تبقِ ولم تزر.

(١) رفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت، القسم الشمالي، دار لحد خاطر، ١٩٧٩، ص ١٤٦.

وقانا الله أطماع الدول ورسّخ في نفوسنا التعايش والمحبة ليحيا الإنسان بكرامته وشرفه فيصون عائلته وبيئته ووطنه. ولتكن هذه الحرب وغيرها من الحروب عظة لنا للعمل على استئصال أسباب الحرب من أجل مجتمع يعيش بكرامة ورفاهية.

ملحق رقم (١)

وفيات الحرب في بلاد البترون

نقلاً عن زيارة رعائية قام بها المطران بطرس الفغالي إلى بلاد البترون سنة ١٩٢١ بعد انتهاء الحرب، محفوظات مدرسة مار يوحنا مارون، سجل رقم ٩٣، صفحات متفرقة.

الجدول رقم (١٨)

جدول إحصائي مفصّل لسنة ١٩٢١

المحلة	المقيمون	المهاجرون	موتى الحرب	عدد السكان الإجمالي	نسبة المهاجرين	نسبة الموتى	نسبة النزف
إجدبرا	١١٠	٧٠	١٦٨	٣٤٨	٪٢٠	٪٤٨	٪٦٨
إده	١١٢	١٤٩	١٦٩	٤٣٠	٪٣٤	٪٣٩	٪٧٤
آسيا	٢٨٦	١٢٠	٣٤٠	٧٤٦	٪١٦	٪٤٥	٪٦١
البترون	٣٥٥٠	١٠٠٠	١٢٠٠	٥٧٥٠	٪١٧	٪٢٠	٪٣٨
بجدرفل	٢٢٠	٢٤٠	١٨٥	٦٤٥	٪٣٧	٪٢٨	٪٦٥
بسبينا	٢٠	٢	١٢	٣٤	٪٥	٪٣٥	٪٤١
بستان العصي	٢٧	٥	١٦	٤٨	٪١٠	٪٣٣	٪٤٣
بشعلي	٤٦٣	٢٦٢	١٨٤	٩٠٩	٪٢٨	٪٢٠	٪٤٩
بقسميا	٢١٤	٢٢٣	٣٠٧	٧٤٤	٪٣٠	٪٤١	٪٧١
بيت شلالا	١٥٠	١٥٠	٦٢	٣٦٢	٪٤١	٪١٧	٪٥٨
بيت كساب	٦٢	٣٧	٤٠	١٣٩	٪٢٦	٪٢٨	٪٥٥
تحوم	١٤٠	١٢٠	١٢٥	٣٨٥	٪٣١	٪٣٢	٪٦٣

المحلة	المقيمون	المهاجرون	موتى الحرب	عدد السكان الإجمالي	نسبة المهاجرين	نسبة الموتى	نسبة النزف
تولا	١٤٣	٣٢٦	٢٩٨	٧٦٧	٪٤٢	٪٣٨	٪٨١
جبلا	٥٥	١٠	٥٢	١١٧	٪٨	٪٤٤	٪٥٢
جران	٢١٢	١٢٥	١٨٦	٥٢٣	٪٢٤	٪٣٥	٪٥٩
جربتا	٥٢	٣٥	٦٦	١٥٣	٪٢٣	٪٤٣	٪٦٦
حدتون	١٤٩	٨٤	١٨٦	٤١٩	٪٢٠	٪٤٤	٪٦٤
حردين	٣٠٠	٦٥٠	٢٢٥	١١٧٥	٪٥٥	٪١٩	٪٧٤
حلتا	٢١٠	١٤٠	٩٠	٤٤٠	٪٣٢	٪٢٠	٪٥٢
دريا	٧٩	٦٢	١٧٠	٣١١	٪٢٠	٪٥٤	٪٧٤
الدوق	٨٠	٥٠	٦٠	١٩٠	٪٢٦	٪٣١	٪٥٧
دوما[1]	٥٥	٨١	٢٠	١٥٦	٪٥٢	٪١٣	٪٦٥
ديربلا	١٥١	٤٧	٥٧	٢٥٥	٪١٨	٪٢٢	٪٤٠
راشا	٥٢	٦٩	١٣٠	٢٥١	٪٢٧	٪٥٢	٪٧٩
راشانا	٤٤	٢	٤٤	٩٠	٪٢	٪٤٩	٪٥١
رام	٦٢	٤٤	٧١	١٧٧	٪٢٥	٪٤٠	٪٦٥
زان	١٧١	٦٥	٢٠٣	٤٣٩	٪١٥	٪٤٦	٪٦١
سلعاتا	٧٨	٣٥	٥٨	١٧١	٪٢٠	٪٣٤	٪٥٤
سمار جبيل	١٢٧	١٢٠	١٢٨	٣٧٥	٪٣٢	٪٣٤	٪٦٦
شبطين	١٧٥	٢١٠	٦٥٠	١٠٣٥	٪٢٠	٪٦٣	٪٨٣

(١) إن الأعداد التابعة لبلدة دوما هي للموازنة فقط. لمزيد من المعلومات عن الديمغرافية في منطقة البترون. راجع مقالتنا «الديمغرافيا في منطقة البترون من المتصرفية إلى لبنان الكبير ١٨٦٧ ـ ١٩٦٥». منشورة في كتاب دولة لبنان الكبير (١٩٢٠ ـ ١٩٩٦)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٠٣ ـ ٢٤٥.

المحلة	المقيمون	المهاجرون	موتى الحرب	عدد السكان الإجمالي	نسبة المهاجرين	نسبة الموتى	نسبة النزف
صغار	٤٨	٧٤	٧٠	١٩٢	٣٨٪	٣٦٪	٧٥٪
صورات	١٨٠	١٣٠	١٢٥	٤٣٥	٣٠٪	٢٨٪	٥٨٪
ضهر أبو ياغي	١٩	٢٢	٢٧	٦٨	٣٢٪	٤٠٪	٧٢٪
عبداللي	٢٠٧	٦٠٠	٤٥٢	١٢٥٩	٤٨٪	٣٥٪	٨٣٪
عبرين	٣٢٠	٣٥٠	٦٣٠	١٣٠٠	٢٧٪	٤٨٪	٧٥٪
عرطز والفتاحات وهربونا	١٥٠	١٨	٥٠	٢١٨	٨٪	٢٣٪	٣١
العلالي	٥٤	١٨	٧٦	١٤٨	١٢٪	٥١٪	٦٣٪
غوما	١١١	٦١	١٢٧	٢٩٩	٢٠٪	٤٢٪	٦٢٪
كفرحتنا	٨٠	٤٠	١٤٠	٢٦٠	١٥٪	٥٤٪	٦٩٪
كفرحي	١٥٠	١٣٠	١٦٧	٤٤٧	٢٩٪	٣٧٪	٦٦٪
كفرعبيدا	٣١٧	١٢٥	١٦٨	٦١٠	٢٠٪	٢٨٪	٤٨٪
كفور العربة	٤٨٥	١١٢	٣٣٥	٩٣٢	١٢٪	٣٦٪	٤٨٪
كفيفان	٢٢٦	٨٣	١٣٦	٤٤٥	١٩٪	٣٠٪	٤٩٪
كور	٢٥٥	٤٦	١٩٩	٥٠٠	٩٪	٤٠٪	٤٩٪
مار ماما	٥٧	٥	٤٤	١٠٦	٥٪	٤١٪	٤٦٪
محمرش	١٤٧	٥٤	٩٣	٢٩٤	١٨٪	٣٢٪	٥٠٪
مراج الحاج	٤٤	٤٤	٤٣	١٣١	٣٣٪	٣٣٪	٦٦٪
مراح الزيات	٢٩	١٥	٦٥	١٠٩	١٤٪	٥٩٪	٧٣٪
مراح شديد	٦٩	٤٦	٤٢	١٥٧	٢٩٪	٢٧٪	٥٦٪
مسرح	٣٦	٥٩	١٠٠	١٩٥	٣٠٪	٥١٪	٨١٪

المحلة	المقيمون	المهاجرون	موتى الحرب	عدد السكان الإجمالي	نسبة المهاجرين	نسبة الموتى	نسبة النزف
نيحا	١٦٧	١١٤	٥٢	٣٣٣	٣٤٪	١٦٪	٥٠٪
المجموع العام	١٠٧٠٠	٦٦٧٩	٨٦٤٣	٢٦٠٢٢	٢٥,٦٦٪	٣٣,٢١٪	٥٨,٨٨٪

ملاحظات على إحصاء ١٩٢١ :

١ ـ أكبر بلدة من ناحية عدد السكان هي البترون وقد بلغ عددهم ٥٧٥٠ يليها عبرين ١٣٠٠ ثمّ عبداللي ١٢٥٩ ، مع الإشارة إلى أن بلدة تنورين لم يشملها الاحصاء ، كذلك قُرى كفر شليمان ورشكدّه وياريتا .

٢ ـ أكبر نسبة للمهاجرين نشاهدها في حردين وقد بلغت ٥٥٪ ثمّ موارنة دوما ٥٢٪ ويلي ذلك عبداللي ٤٨٪ وتولا ٤٢٪ .

٣ ـ أكبر نسبة لموتى الحرب العالمية الأولى ظهرت في شبطين وقد بلغت ٦٣٪ يليها مراح الزيات ٥٩٪ ودريا وكفرحتنا بنسبة ٥٤٪ .

٤ ـ أكبر نسبة للنزف السكاني برزت في عبداللي وقد بلغت ٨٣,٥٪ ، يليها شبطين ٨٣٪ ، ثمّ مسرح ٨١,٥٣٪ وتولا ٨١,٣٥٪ .

٥ ـ أقل نسبة للنزف السكاني توافرات في مزارع عرطز وهربونا والفتاحات حيث بلغت ٣١٪ يليها مدينة البترون ٣٨٪ ودير بلاّ ٤٠٪ .

ملحق رقم (٢)

نماذج عن الوفيات خلال الحرب

في بعض قرى بلاد البترون الوسطى (حدتون، شبطين، كفرحي وكور)

نقلاً عن سجلات الكنائس في القرى المذكورة.

الجدول رقم (١٩)

عدد المتوفين شهرياً في بلدة حدتون

السنة / الشهر	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨	المجموع
ك٢	٢	١	١	١	٥
شباط	—	٣	٧	١	١١
آذار	—	١٠	١٨	٤	٣٢
نيسان	—	١٩	١٤	٥	٣٨
أيار	—	١٥	١٠	٩	٣٤
حزيران	—	٩	٤	—	١٣
تموز	١	٥	—	—	٦
آب	—	١٣	١	—	١٤
أيلول	—	١٤	—	—	١٤
ت١	—	٥	١	٤	١٠
ت٢	—	٥	—	—	٥

السنة / الشهر	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨	المجموع
ك١	١	٣	—	—	٤
المجموع	٤	١٠٢	٥٦	٢٤	١٨٦

المجموع العام: ١٨٦ . بينهم ٣٨ توفوا خارج البلدة موزعين على الشكل التالي: ١٦ امرأة و٢٢ رجلاً.

الجدول رقم (٢٠)

عدد المتوفين شهرياً في بلدة شبطين

السنة / الشهر	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨	المجموع
ك٢	—	٢	٢٠	٣	٢٥
شباط	—	٥	٢٣	٧	٣٥
آذار	—	١٢	٢١	٩	٤٢
نيسان	—	١٧	١٦	—	٣٣
أيار	١	١٦	—	—	١٧
حزيران	٣	٢٣	—	—	٢٦
تموز	—	١٤	—	—	١٤
آب	٣	١٠	—	—	١٣
أيلول	—	١٣	—	—	١٣
ت١	٣	٢٢	—	—	٢٥
ت٢	—	٢٢	٥	—	٢٧
ك١٢	٤	٢٠	٨	—	٣٢
المجموع	١٤	١٧٦	٩٣	١٩	٣٠٢

المجموع العام: ٣٠٢. مع الإشارة إلى أن الأوراق المتعلّقة بالفترة ما بين نيسان ١٩١٧ وت١ من السنة عينها مفقودة. كذلك الأوراق المتعلّقة بشهر نيسان ١٩١٨ وما يليه غير متوفرة. والبلدة فقدت ٦٥٠ شخصاً من سكانها. بالنسبة للمعلومات الواردة أعلاه فقد توفي ٢٩ شخصاً خارج البلدة، وذلك على الشكل التالي: ١٧ رجلاً و١٢ امرأة.

الجدول رقم (٢١)

عدد المتوفين شهرياً في بلدة كفرحي

السنة / الشهر	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨	المجموع
ك٢	—	—	٣	٨	١١
شباط	—	—	٤	١١	١٥
آذار	—	—	٨	١٥	٢٣
نيسان	١	—	٩	١٣	٢٣
أيار	—	١	—	٢	٣
حزيران	—	٣	—	—	٣
تموز	—	٢	—	—	٢
آب	—	٣	—	—	٣
أيلول	١	٢	—	٢	٥
ت١	—	٦	—	—	٦
ت٢	—	—	—	٢	٢
ك١	—	١	٤	١	٦
المجموع	٢	١٨	٢٨	٥٤	١٠٢

المجموع العام: ١٠٢. مع الإشارة إلى أن بعض الأوراق فقدت من الدفتر خلال بعض الأشهر من ١٩١٧ و١٩١٨. وأن البلدة فقدت ١٦٧ شخصاً من سكانها.

الجدول رقم (٢٢)
عدد المتوفين شهرياً في بلدة كور

السنة / الشهر	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨	المجموع
ك٢	—	١	٥	١٣	١٩
شباط	—	—	١٠	١١	٢١
آذار	—	٣	١٧	٢٠	٤٠
نيسان	١	٢	٢١	٢٣	٤٧
أيار	—	١	٩	٨	١٨
حزيران	—	٢	٧	—	٩
تموز	—	٥	٣	—	٨
آب	—	٣	٤	—	٧
أيلول	—	١	—	—	١
ت١	—	٤	—	—	١
ت٢	١	٤	٤	—	٩
ك١	١	٣	٦	٢	١٢
المجموع	**٣**	**٢٩**	**٨٦**	**٧٧**	**١٩٥**

المجموع العام: ١٩٥. بينهم ١٤ خارج البلدة موزعين على الشكل التالي: ١١ رجلاً و٣ نساء.

ملحق رقم (٣)

الجدول رقم (٢٣)
العدد الأقصى للوفيات في أيام الحرب في بعض قرى البترون

البلدة / العدد	حدتون	شبطين	كور
٣	١٩١٦/٥/٥	١٩١٦/٤/٢١	١٩١٧/٣/١٣
	١٩١٧/٣/٣١	١٩١٦/٨/٢٩	١٩١٨/٤/٢٤
		١٩١٦/٩/٢٧	١٩١٨/٥/٧
		١٩١٦/١٠/١٢	
		١٩١٧/١/١٠	
		١٩١٧/٢/١٧	
		١٩١٧/٣/٥	
		١٩١٧/٣/٢٢	
		١٩١٧/٣/٢٥	
٤	١٩١٦/٤/٢١	١٩١٦/٤/٣٠	١٩١٨/١/٢٥
		١٩١٦/١١/٣	١٩١٨/٤/٢١

مشروع توصيات مؤتمر

«لبنان في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨»

انطلاقاً من وعي اللجنة المنظمة لمؤتمر: لبنان في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، بخطورة هذه المرحلة في التاريخ المعاصر للشعب اللبناني على الصعد كافة، وانطلاقاً من المسؤولية الوطنية للجامعة اللبنانية حيث يجب أن تستجيب هذه المؤسسة في برامجها ونشاطاتها للمصالح العليا للذاكرة التاريخية للبنانيين، بما يؤمن استقلال الدولة اللبنانية وسيادتها وحرية قرارها، وتحصين وحدة المجتمع، وأخذ العبر من الآلام والشهداء الذين قدموا حياتهم دفاعاً عن الوطن خاصة في المرحلة موضوع المؤتمر،

وبعد التداول والمناقشة يستفيد المشاركون في المؤتمر من المناسبة للتذكير بالمطالب العامة المحقة والتي تتعلق بنهضة وإصلاح الجامعة اللبنانية وبعض المؤسسات المتصلة بعملية البحث العلمي.

أولاً: على صعيد المؤسسات

١ ـ الجامعة اللبنانية

أ ـ إطلاق ورشة نقاش على مستوى الهيئة التعليمية والمجالس الأكاديمية الشرعية، وبخاصة مجلس الجامعة، وصولاً إلى إنجاز قانون عصري يؤمن اللامركزية التي نص عليها الدستور اللبناني ووثيقة الطائف، والتأكيد على إنشاء مجمعات جامعية لكل فروع الجامعة، بما فيها الفروع الثانية.

ب ـ تحقيق الأمن الوظيفي للهيئة التعليمية من خلال إدخال الأساتذة

المتعاقدين المتفرغين إلى الملاك، والتعاقد بالتفرغ مع الأساتذة الأكفياء والذين تحتاج الجامعة إلى خدماتهم. ورفض مشاريع التعاقد الوظيفي وإلغاء الملاك لأن ذلك يتناقض مع توصيات الأونسكو حول التعليم العالي.

ج - تعزيز موازنة الجامعة اللبنانية وبخاصة في المجالات التالية:

- زيادة المنح للطلاب المتفوقين الذين يجب إرسالهم للتخصص في الخارج، ولحظ منح للطلاّب المتفوقين في مرحلة الديبلوم.
- تعزيز المكتبات بالمراجع والمخطوطات والوثائق، وتجهيزها بكل الأدوات العلمية (ميكروفيلم، كومبيوتر، مختبرات).
- إصدار مجلة في اختصاص التاريخ.
- استحداث مركز أو أكثر للأبحاث التاريخية والتوثيق في الكلية، يكون من اهتماماته الأساسية العمل على تصوير وجمع الوثائق من داخل لبنان ومن خارج، والمبادرة إلى وضعها بتناول الطلاّب.
- قيام الجامعة بإرسال بعثات علمية لتصوير الوثائق والمخطوطات من تركيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والفاتيكان والولايات المتحدة واليونان وروسيا وإيران وإسبانيا وألمانيا والنمسا وسوريا ومصر وغيرها.

٢ ـ على صعيد المحفوظات الوطنية

أ - مطالبة المسؤولين بدعم مؤسسة المحفوظات الوطنية من خلال جملة إجراءات، أبرزها:

- اعتبار إنجاز بناء خاص للمحفوظات، يتمتع بكل المواصفات الفنية، من أولويات إعادة الإنماء والإعمار، والعمل على إنجاز أبنية أخرى في مختلف المناطق اللبنانية للأرشيفات المحلية. وتخصيص موازنة كافية تتناسب وطموحات تطوير هذه المؤسسة.

ب - استعادة كل الوثائق التي نهبت من مؤسسات الدولة اللبنانية (المتحف الوطني، وزارة الدفاع، المؤسسات العامة المختلفة) من قِبل جهات خارجية وإعادتها إلى الدولة اللبنانية.

ج - الإفراج عن وثائق وسجلات المتصرفية ووضعها بمتناول الأساتذة والطلاب والباحثين.

د - إصدار تعميم إداري من قِبل الوزارات المعنية يفرض على البلديات والقائمقاميات والمحاكم ودوائر الأحوال الشخصية وغيرها من الدوائر الرسمية الحفاظ على أرشيفاتها الخاصة والعناية بها وتبويبها وتنظيمها وتصويرها ووضعها بمتناول الباحثين.

هـ - التمني على المؤسسات الدينية المختلفة تنظيم أرشيفاتها في مختلف الحقب ووضعها بمتناول الباحثين.

و - الحفاظ على دفاتر الأسعار والبيع في الدكاكين والشركات والمؤسسات الخاصة والتجارية والعمل على جمعها ووضعها في مؤسسة المحفوظات الوطنية أو في متاحف المناطق.

ز - العمل على إيجاد فرق عمل بحثية تقوم بإنجاز عدة أطالس للمناطق اللبنانية خلال الحرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وبخاصة:

- أطلس ديمغرافي يبرز الوفيات والولادات.
- أطلس زراعي.
- أطلس أسعار.

٣ ـ على صعيد الحرب العالمية الأولى

أ - أهمية إعادة طبع الكثير من المراجع والمصادر والمذكرات التي تعود إلى هذه الفترة والتمني على إدارة الجامعة زيادة موازنة منشوراتها للمساهمة في هذه المهمة.

- الاهتمام بتسجيل منظم لذكريات المعمرين الذين لا زالوا يتذكرون

تلك الحقبة المظلمة في تاريخنا، ووضعها في مراكز الأبحاث الجامعية.

ب - الاهتمام بالصور الفوتوغرافية وبالرسوم وبالخرائط التي تعود إلى تلك الحقبة وتنظيم معرض أو أكثر لها.

ج - تبيان ظلم واستغلال بعض الفئات لظروف الحرب والتأكيد على أهمية الوحدة الوطنية والتضامن الاجتماعي بين كل مكوّنات الشعب لمواجهة الكوارث الطبيعية والبشرية بروح الأخوة والتعاون.

د - إبراز قضية الشهداء الذين ماتوا على المشانق خلال الحرب دفاعاً عن حرية واستقلال الشعب اللبناني وحرية واستقلال الشعوب العربية. وإنصاف آلاف الشهداء المجهولين الذين قضوا جوعاً وإقامة نصب تذكاري لهم، والعمل لإصدار طابع بريدي.

هـ - إعادة طبع مقالات وأبحاث الكُتّاب والصحفيين من هؤلاء الشهداء وهم الأكثرية - وذلك من أجل تخطي مفاعيل الإنقسامات المذهبية والطائفية المتفاقمة والمتناقضة مع القِيم الكبرى التي استشهد هؤلاء دفاعاً عنها.

و - إبراز خطورة الأهداف الإجرامية التي كانت وراء تجويع وموت ثلث الشعب اللبناني في مرحلة ١٩١٤ - ١٩١٨.

ز - الحرص على تنظيم متاحف فردية وجماعية تبرز بالوثائق والصور والأبحاث الذين تحركوا قبل وخلال وبعد الحرب العالمية الأولى لقيام الدولة اللبنانية واستقلالها وسيادتها.

ح - شكر قسم التاريخ (الفرع الثاني - رئيساً وأساتذة) والجمعية التاريخية اللبنانية واللجنة المنظمة على نجاح هذا المؤتمر وكذلك شكر جميع المحاضرين ورؤساء الجلسات.

ط - التمني على القسم المبادرة في طبع أعمال هذا المؤتمر.

الطباعة دار بلال
1/852868